صفوة التفاسير

تفسير للقرآن العظيم، جامع بين المأثور والمنقول

مستمد من أوثق الكتب التفسيرية

(الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط) وغيرها

بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة منقحة ومصححة

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

المجلد الثالث

دار الحديث

القاهرة

صفوة التفاسير

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن العظيم، جامع بين المأثور والمنقول

مستمد من أوثق الكتب التفسيرية

(الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط) وغيرها

بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة منقحة ومصححة

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

الجزء الثالث

دار الصابوني

بَيـن يَدَي السُّورَة

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي: «الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين».

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش، الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله، فحقَّ عليهم عذاب الله وانتقامه.

* ثم ساقت قصة أهل القرية «أنطاكية» الذين كذبوا الرسل؛ لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

* وذكرت موقف الداعية المؤمن «حبيب النَّجار» الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون العجيب، بدءًا من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار، فإذا هو ظلامٌ دامسٌ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلكٍ لا تتخطاه، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا.

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور، التي يقوم الناس فيها من القبور، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب حتى يستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي، وهو موضوع «البعث والجزاء» وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه.

التَّسْمِيَة: سميت السورة «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

فضلهَا: قال ﷺ: «إن لكل شيء قلبًا وقلبُ القرآن يس، وددت أنها في قلب كل إنسانٍ من أمتي»(١).

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ . . إلى . . وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢).

---

(١) أخرجه البزَّار.

اللغة: ﴿أَغْلَالًا﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تُشَدُّ به اليد مع العنق ﴿مُقْمَحُونَ﴾ رافعو الرءوس مع غض البصر، قال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر يقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب [1]، قال بشر يصف سفينة:

ونحن على جوانبها قعودٌ ... نغضُّ الطرف كالإبل القِماح [2]

﴿سَدًّا﴾ السَّد: الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ عززه: قوَّاه وشدَّ من أزره ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا، والتطير: التشاؤم، وأصله من الطير إذا طار إلى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خَامِدُونَ﴾ ميتون لا حراك بهم كما تخمد النار.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑫ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ⑬ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ⑭ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ⑮ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ⑯ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ⑰ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑱ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ⑲ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ⑳ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ㉑ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ㉒ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ㉓ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ㉔ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ㉕ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ㉖ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ㉗ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ㉘ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ㉙ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ㉚ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ㉛ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ㉜﴾.

التفسير: ﴿يس﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكنَّ نظمه البديع المعجز آيةٌ على كونه من عند الله [3]، وقال ابن عباس: معنى «يس» يا إنسان في لغة طيِّء

(١) انظر القاموس المحيط مادة قمح. (٢) تفسير الطبري (١٥/ ٨).
(٣) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة من هذا التفسير.

وقيل: هو اسم من أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقيل: معناه: يا سيد البشر، قاله أبو بكر الوراق[١] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، والحكيم معناه المحكم، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه تناقض أو بطلان. قال القرطبي: أُحكم في نظمه ومعانيه فلا يدحقه خلل[٢] وقال أبو السعود: أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظْمه المعجز، المنطوي على بدائع الحكم[٣].. والخلاصة فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم- المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة- على أنّ محمدًا رسوله، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم، أي: إنك يا محمد لمن المرسلين من رب العالمين لهداية الخلق، قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست يا محمد مرسلاً، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم أن محمدًا ﷺ من المرسلين[٤] ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد، قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة[٥]، والتنكير للتفخيم والتعظيم[٦] ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير تنزيلٌ من ربّ العزة جل وعلا، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العربَ، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب؛ لتطاول زمن الفترة عليهم. والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان.. ثم بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد.. ثم بيَّن تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ تمثيلٌ وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جُعل في يده غلٌّ وجمعت يده إلى عنقه، فبقي رافعًا رأسه لا يخفضه، قال في الجلالين: وهذا تمثيل والمراد أنهم لا يُذعنون للإيمان، ولا يخفضون رءوسهم له[٧] قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كمن جُعل في عُنقه غلٌّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه[٨]، فارتفع رأسه فصار مُقمحًا،

---

(١) القرطبي (١٥/ ٤).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٥).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٧).
(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٥) وقد نقله القرطبي عن القشيري.
(٥) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٧).
(٦) الانتصاف على الكشاف (٤/ ٢).
(٧) تفسير الجلالين (٣/ ٣١٨).
(٨) الذَّقن: مفرد الأذقان، قال الطبري: والذقن: مجمع اللحيين.

والمُقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين؛ لأن الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق (١). وقال أبو السعود: مثَّل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي فالأغلال منتهيةٌ إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رءوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ، أو ينظرون إلى جهته (٢) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال أبو السعود: وهذا تتمةٌ للتمثيل وتكميلٌ له، أي: وجعلنا من أمامهم سدًّا عظيمًا، ومن ورائهم سدًّا كذلك ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئًا أصلاً لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات (٣). قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإيمان عليهم بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده (٤): ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه، لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع والزواجر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون؛ لأنَّ الإنذار لا يخلق القلوب الميتة، إنما يوقظ القلب الحيَّ المستعد لتلقي الإيمان، وهذا تسلية له ﷺ وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وخاف الله دون أن يراه. قال أبو حيان: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي المتصف بالرحمة، والرحمةُ تدعو إلى الرجاء، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جل وعلا، خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه، ومعنى ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي بالخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر (٥) ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديرًا بالبشارة، أي فبشره يا محمد بمغفرةٍ عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم. قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميلُ وذلك إنما يكون في الجنة.. (٦) ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي نبعثهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قال الطبري: أي ونكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد (٧)، وفي الحديث عن جابر قال: «أراد بنو سَلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد - والبقاع خالية - فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «يا بني سلمة دياركم تُكتب آثارُكم، دياركم تُكتب آثاركم» فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا» (٨) ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي وكل

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٥).
(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٨).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٩).
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣١٩).
(٥) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٢٥).
(٦) مختصر ابن كثير (٣/ ١٥٦).
(٧) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٩).
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه.

شيء من الأشياء أو أمرٍ من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خيرٍ أو شر، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ[١] وقال أبو حيان: «ونكتب ما قدَّموا» أي ونحصي، فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء[٢]. . ثم ذكر تعالى للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحةٍ من السماء فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية «أنطاكية» التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم. قال القرطبي: وهذه القرية هي «أنطاكية» في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم «صادق» و«مصدوق» و«شمعون» أمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلَّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله، وقيل: هم رسل عيسى[٣] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قوَّيناهما وشددنا أزرهما برسولٍ ثالث ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي ليس لكم فضلٌ علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ أي لم ينزل الله شيئًا من الوحي والرسالة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشدَّ الانتقام. قال ابن جزي: أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد[٤] ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغًا واضحًا جليًّا لا غموض فيه، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاوة قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ ﴿الْمُبِينُ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت[٥] ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي قال لهم أهل القرية: إنّا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان. قال المفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه[٦]، ثم توعَّدوا

---

(١) الأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال، وهو اختيار ابن كثير.

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٢٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ١٤) وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله. كذا في التسهيل.

(٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٦١).

(٥) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٢٧).

(٦) حاشية شيخ زادة على البيضاوي (٣/ ١٢٥).

الرسل بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لنرجمنَّكم بالحجارة حتى تموتوا، ولنقتلنكم شرَّ قتلة ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؟ شرطٌ جوابه محذوف لدلالة السياق عليه، أي إئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قوم عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام، وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتقريع ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو، يسرع في مشيه وهو «حبيب النجار» قال ابن كثير: إن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وهو «حبيب النجار» كان يعمل الحرير وهو الحباك، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه [1] وقال القرطبي: كان حبيب مجذومًا ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه، فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال: هل من آية؟ قالوا: نعم، نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك! فقال: إن هذا لعجيبٌ، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟! قالوا: نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، فلمَّا همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعًا وقال ما قصه القرآن [2]: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله، وإنما قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ تأليفًا لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة، ثم كرر القول تأكيدًا وبيانًا للسبب فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين، الذين لا يسألونكم أُجرة على الإيمان، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تلطفٌ في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار، لنفسه، وفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم، والمعنى: أيُّ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاًّ بعمله؟ ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئًا؟ ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئًا من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟ ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي.. وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه،

---

[1] مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٩) والقول بأن اسم الرجل «حبيب النجار» مروي عن ابن عباس.
[2] تفسير القرطبي (١٥/ ١٨) وهذه رواية وهب ذكرها القرطبي.

وأشهر إيمانه فقال: ﴿إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي. قال المفسرون: لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه، وثبوا عليه وثبة رجلٍ واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم[١]. قال الطبري: وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات، وقيل: رموه بالحجارة حتى مات[٢] ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي فلما مات قال الله له: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة. قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقال الله له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يُرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحُزنها ونَصبَها[٣] ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره وتمنى أن يعلم قومه بحاله ليعلموا حسن مآله أي يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم. قال ابن عباس: نصح قومه في حياته ونصحهم بعد مماته[٤]. قال أبو السعود: وإنما تمنَّى عِلْمَ قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جريًا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء[٥]. ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بهم جبريل فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أُخمدت أنفاسهم حتَّى صاروا كالنار الخامدة. قال المفسرون: وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم، وقد روي أنه لما قُتل «حبيب النجار» غضب الله تعالى له، فعجَّل لهم النقمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة، ثم قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يا أسفًا على هؤلاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزءوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان. قال في حاشية البيضاوي: إنهم أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم أو يُتحسر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر على حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم، قال يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدَّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة[٦]، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين ولمّا مثَّل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبَّخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن

---

(١) انظر مختصر ابن كثير (٣/ ١٥٩). (٢) تفسير القرطبي (٢٢/ ١٠٤).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٠).
(٤) هذا قول ابن عباس، وقال صاحب الكشاف: وفي حديثٍ مرفوع: «نصح قومه حيًا وميتًا» أقول: والمشهور أنه من كلام ابن عباس.
(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥٢). (٦) حاشية زادة على البيضاوي (٣/ ١٢٨).

سبقهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم[1]؟ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي وأن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبيينًا إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب[2].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بأكثر من مؤكد لأن المخاطب منكر مثل «إنك لمن المرسلين، إنا إليكم لمرسلون» فقد أُكد كل منهما بـ «إنَّ» و«اللام» ويسمى هذا الضرب إنكاريًّا.

٢- الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا..﴾ الآية، شبَّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعًا لا يستطيع خفضًا له ولا التفاتًا، وبمن سُدَّت الطُّرقُ في وجهه فلم يهتد لمقصوده، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣- الطباق بين ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ .. وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

٤- طباق السلب ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾.

٥- الجناس الناقص ﴿نَحْنُ نُحْيِي﴾ لتغير بعض الحروف.

٦- الإطناب بتكرار الفعل ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ... اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾.

٧- الاستفهام للتوبيخ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾؟!

٨- الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له: ادخل الجنة.

٩- جناس الاشتقاق بين «تطيرنا .. وطائركم» وبين «أرسلنا .. والمرسلون».

١٠- مراعاة الفواصل، وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير مشهور.

تنبيه: من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة الإيجاز في القصص والأنبياء، والإشارة إلى روحها وسرّها؛ لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله، ولا اسم الرسل الكرام؛ لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقِسْ على هذا سائر قصص القرآن.

❑ ❑ ❑

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦١).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٣٥).

قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا . . إلى . . سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٥٨).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة أهل القرية، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية في إخراج الزروع والثمار، وتعاقب الليل والنهار، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث، وردَّ عليها بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة.

اللغَة: «آية» علامة لأنها دالة على وجود الله، قال أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أمْ كيف يَجْحده الجاحِدُ؟
ولِلَّـهِ في كل تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبدًا شاهد
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحد

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف والأنواع ﴿نَسْلَخُ﴾ السَّلخ: الكشط والنزع، قال تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ ويقال: سلخ الجزار جلد الشاة أي نزع الجلد عن اللحم «العرجون» من الانعراج وهو الانعطاف، والعرجون: عود عذق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب. قال الجوهري: هو أصل العذق الذي يعوجُّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسًا[1] ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صَرِيخَ﴾ مغيث ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون في الخروج، يقال: عسل الذئبُ ونسل أي أسرع في المشي[2].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

(١) انظر القرطبي (١٥/ ٣١) والقاموس المحيط والصحاح.
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٤٠).

قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

التفسير: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ أي ومن الآيات الباهرة، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته، هذه الآية العظيمة، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع، أحييناها بالمطر. قال المفسرون: موتُ الأرض جدبها، وإحياؤها بالغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي وأخرجنا بهذا الماء أنواعَ الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا. قال القرطبي: نبَّههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته بالأرض الميتة أحياها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحبِّ يأكلون وبه يتغذون[١]. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة، فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذُكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم. قال ابن كثير: لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم وكدِّهم، ولا بحولهم وقوتهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ؟ أي أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم؟ واختار ابن جرير أنَّ «ما» بمعنى «الذي» أي ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسوه ونصبوه[٢] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء الغريبة[٣] كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي وعلامةٌ أخرى لهم على كمال

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٥). (٢) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٢).

(٣) سبحان الله ما أعظم قدرة الله! لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ زمن قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات، فقد ثبت أن الذرة - وهي أصغر أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي «سالب وموجب» يتزاوجان ويتحدان، وأن بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة، فسبحان العلي القدير القائل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

قدرتنا: الليلُ نزيل عنه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام، والنور عارض، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويُكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ أي وآيةٌ أخرى لهم: الشمس تسير بقدرة الله في فَلَك لا تتجاوزه ولا تتخطَّاه لزمنٍ تستقر فيه، ولوقت تنتهي إليه، وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم. قال ابن كثير: وفي قوله تعالى: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي ﷺ قال: «يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش..» الحديث. والثاني: أن المراد بمستقرها: هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها وتسكن حركتها، وتُكور وينتهي هذا العالم إلى غايته، وقرئ «لا مستقر لها» أي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهارًا، لا تفتر ولا تقف [١] ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجري [٢] والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفرُّ ويتقوس. قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر: فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم. قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديدًا في أول الشهر الآخر [٣]. ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٢).

(٢) يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره الظلال: «والشمس تدور حول نفسها وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه، ولكن عرف أخيرًا أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول: إنها ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ هذا المستقر الذي تنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.. وحين تصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء، ندرك طرفًا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم، وصدق الله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٣).

تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره؛ لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد. قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيُذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهارًا لا ليل فيها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً[١] ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ أي وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء. قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فَلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت[٢] والغرضُ من الآية: بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر - كما قال قتادة: «لكل حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه» - حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية على سطح هذا الكوكب الأرضي[٣] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين. قال في التسهيل: وإنما خصَّ ذريتهم بالذكر؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة[٤] ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفنَ العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه؛ لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان. وقال ابن عباس: هي الإبل وسائر المركوبات، فهي في البرّ مثل السفن في البحر[٥] ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم.. بيَّن تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة، فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الريح، وكلُّها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦). (٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣).

(٣) يقول سيد قطب رحمه الله: «المسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة وقد قدَّر الله خالق هذا الكون أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع، وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفينة في الخضم الفسيح، فهي - على ضخامتها - لا تزيد على أن تكون نقطًا سابحة في ذلك الفضاء المرهوب»!!

(٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٦٤).

(٥) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥) وهناك قول آخر عن ابن عباس أن المراد بقوله: ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾: السفن أي خلق لهم سفنًا أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ﴾.

مهبِّ الهواء، وإِلاّ تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار يدركون هول البحر المخيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فسبحان الله القدير الرحيم!! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكَّرهم تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق، وإِعراضهم عن الهدى والإِيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات، والمعنى: وإِذا قيل للمشركين: احذروا سخط الله وغضبه واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا، وجواب الشرط محذوف تقديره: أعرضوا واستكبروا، ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوف والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ..﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك [١] ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول - كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها - إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء. قال أبو السعود: وإِضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية [٢] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي وإِذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة: أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكمًا بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله. قال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإِذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله لا نفعل، أيفقره الله ونطعمه نحن [٣]؟ وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً؛ لينظر كيف عَطْفُ الغني، وكيف صَبْرُ الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغني بالإِنفاق عليه لا حاجةً إلى ماله، ولكن للابتلاء والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٦). (٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥٥).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧) قال القرطبي: وإِنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين.

يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا وعذابًا؟ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير: وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ إسرافيل في الصور والناسُ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذْ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخةً يطوّلها ويمدُّها، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قِبل السماء[١] فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضًا بأمر من الأمور ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم؛ لأن الأمر أسرع من ذلك، وفي الحديث: «لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبًا بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكلته إلى فيه فلا يطعمها»[٢] ثم تكون هناك النفخة الثانية وهي «نفخة الصَّعق» التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيّ القيوم، ثم تكون النفخة الثالثة وهي «نفخة البعث والنشور» التي يخرج الناسُ بها من القبور، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي. قال الطبري: ﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرجون سراعًا، والنَّسلان: الإسراع في المشي[٣] ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟ أي يقولون: يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد[٤]، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحةً واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون. قال الصَّاوي: وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة والشعور المتمزقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء!! ثم ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون في موقف الحساب[٥]

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٥) وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وأن المراد: بها نفخة الفزع، وقال القرطبي: هي نفخة الصَّعق التي يموت بها جميع الأحياء.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) الطبري (٢٣/ ١١).
(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٦).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٢٨).

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - لا تُظلم نفس شيئًا، سواءٌ كانت هذه النفس برَّة أو فاجرة، ولا يُحمَّل الإِنسان وزر غيره وإِنما يُجازى كلٌّ بعمله. قال أبو السعود: هذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة، حين يرون العذاب المُعدَّ لهم تحقيقًا للحق، وتقريعًا لهم[١] . . . ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم - يوم الجزاء - مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير في أهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار. قال أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال. وقال ابن عباس: شُغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا[٢] ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السرر المزيَّنة بالثياب والستور ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ أي لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي لهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم، وفي الحديث «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رءوسهم فإِذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة! فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»[٣] .

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ ـ التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله.

٢ ـ الطباق بين الموت والإِحياء ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا﴾ وبين «الليل» و«النهار».

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ شبَّه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، واستعار اسم السلخ للإِزالة والإِخراج واشتق منه (نسلخ) بمعنى نُخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية، وهذا من بليغ الاستعارة، وبين الليل والنهار طباق.

٤ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء: الرقة، والانحناء، والصفرة، ولما لم يذكر وجه الشبه سمي مجملاً.

٥ ـ تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فإِنه أبلغ من أن يقول: «لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر» وآكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد

---

(١) أبو السعود (٤/ ٢٥٧) . (٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤٢) .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر. كذا في المختصر لابن كثير (٣/ ١٦٧)، ورواه ابن ماجه في سننه .

بها فإنَّ قولك: «أنت لا تكذب» بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك: «لا تكذب» فإنه أشدُّ لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن[١].

٦- تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بدل «يسبح»، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر، والذي سوَّغ ذلك وَصْفُهم بالسباحة؛ لأنها من صفات العقلاء[٢].

٧- الاستعارة اللطيفة ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم؛ لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله: من بعثنا من مماتنا.

٨- الإيجاز بالحذف ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا ما وعدكم به الرحمن.

٩- الطباق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

١٠- السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾، ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ومثل ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ و﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو من المحسنات البديعية[٣].

□ □ □
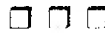
قال الله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ .. إلى.. ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من آية (٥٩) إلى آية (٨٣) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، وختم السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء.

اللغَة: «امتازوا» تميزوا وانفصلوا، والتمييزُ: التفريق بين أمرين ﴿جِبِلًّا﴾ (بكسر الجيم) خلقًا جمع جِبلَّة ومنه ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ مشتق من: جبل اللهُ الخلق أي خلقهم «طمسنا» الطمسُ: إذهابُ الشيء وأثره جملةً كأنه لم يوجد ﴿اصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا سعيرها «مسخناهم» المسخ: التحويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ التعمير: إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ التنكيس: قلب الشيء رأسًا على عقب، يقال: نكستُ الشيء نكسًا إذا قلبته على رأسه ومنه ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ ﴿رَمِيمٌ﴾ الرميم: البالي المفتَّت يقال: رمَّ العظم أي بلي فهو رميم.

---

(١) انظر حاشية الشيخ زادة على البيضاوي (٣/ ١٣٢).

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٢٦).

(٣) ذكرنا بعض الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز عن وصفه اللسان، فسبحان منزل القرآن!!

سبب النزول: روي أن «أبي بن خلف» -من صناديد كفار قريش- جاء بعظم بالٍ إلى النبي ﷺ ففتَّه بيده ثم قال: أتزعم يا محمد أن الله يُحيي هذا بعدما رمَّ؟! فقال له النبي ﷺ: «نعم يحييه، ثم يبعثك ويدخلك النار» فأنزل الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (١).

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٠ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾.

التفسير: بعد أن بيَّن تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي تميزوا وانفصِلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين، انفردوا عنهم وكونوا جانبًا. قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة (٢) ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وهو توبيخٌ للكفرة المجرمين أي ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي ألاّ تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي؟ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليلٌ للنهي أي لأنه عدوٌّ لكم ظاهر العداوة، فكيف يطيع الإنسان عدوه؟ ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ أي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا هو الدين الصحيح، والطريق الحقُّ المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ تأكيد للتعليل أي ولقد أضلَّ الشيطان خلقًا منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ. قال الطبري: أي صدَّ الشيطان منكم خلقًا كثيرًا عن طاعتي حتى عبدوه (٣)

(١) انظر تفسير القرطبي (١٥/ ٥٨) والبحر المحيط (٧/ ٣٤٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٤٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦).

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار . . ثم بشّرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها . قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع[1] ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانة وتحقير مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد فقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختمًا يمنعها عن الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم وأيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة . روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول: أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه: ثم تلا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾[2] وفي الحديث «يقول العبد: يا ربِّ ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول العبد: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، ثم يختم على فيه ويقال لجوارحه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يُخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكنَّ كنت أناضل»[3] ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي لو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبدًا إلى طريق الحق[4] ، وهو تهديد لقريش ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخًا يقعدهم في مكانهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي ومن نُطِل عمره نقلبه في أطوارٍ منتكسًا في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئًا . قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيِّر الشباب هَرَمًا، والقوة ضعفًا، والزيادة نقصًا ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك: الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم[5] ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٢٩) . (٢) الطبري (٢٣/ ١٧) .
(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم . (٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٤٩) .
(٥) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٦٦) .

﴿ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي وما علمنا محمدًا الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعرًا. قال القرطبي: هذا ردٌّ على الكفار في قولهم إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر فالرسول ﷺ ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أعذبه أكذبه» فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر!! وقد أكثر الناسُ في ذم الشعر ومدحه، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رحمه الله: «الشعر كلامٌ، والكلام منه حسنٌ، ومنه قبيح» ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة، وهم المؤمنون؛ لأنهم المنتفعون به ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين [1] لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به. قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حيًّا إشعارًا بأنهم لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم - أمواتٌ في الحقيقة [2]. . ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب أي: أولم ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا - من غير واسطة، وبلا شريك ولا معين - مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟! ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ قال ابن كثير: المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده [3]!! ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار ولهم فيها مشارب أيضًا يشربون من ألبانها ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم. . ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام وذلك نهاية الغيّ والضلال فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦١).
(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ١٣٦).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٠).

بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذبِّ عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع: قال قتادة: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيرًا ولا تدفع عنهم شرًا، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام[1]. وقال القرطبي: المعنى: إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم[2] ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر، وهذه تسليةٌ للنبي عليه السلام، وهنا تمَّ الكلام ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد.. ثم أقام الدليل القاطع، والبرهان الساطع على البعث والنشور فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للتوبيخ والتقريع أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنّا خلقناه من شيءٍ مهينٍ حقير هو النطفة «المنيّ» الخارج من مخرج النجاسة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يخلقه مرة أُخرى عند البعث؟ قال المفسرون: نزلت في «أُبي بن خلف» جاء بعظم رميم، وفَتَّه في وجه النبي الكريم وقال ساخرًا: أتزعم يا محمد أنَّ الله يُحيينا بعد أن نصبح رفاتًا مثل هذا؟ فقال ﷺ له: «نعم يبعثك ويدخلك النار»[3] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعدًا على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفةٍ ميتة وركبنا فيه الحياة، نسي خلقه العجيب وبَدْأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي وقال هذا الكافر: من يحيي العظام وهي بالية أشدَّ البلى، متفتتةٌ متلاشية؟ قال الصاوي: أي أورد كلامًا عجيبًا في الغرابة هو كالمثل، حيث قاسَ قدرتنا على قدرة الخلق[4] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل يا محمد تخريسًا وتبكيتًا لهذا الكافر وأمثاله: يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق ويُبدع، فلا يصعب عليه

---

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه، انظر تفسير الطبري (٢٣/ ٢٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٥٦) بشيء من الاختصار.

(٣) قال في البحر: وقيل: إنها نزلت في «العاص بن وائل» والأصح أنها في «أبي بن خلف» وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير.

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٣١).

بعث الأجساد بعد الفناء ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارًا تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقًا جديدًا[١]. وقال أبو حيان: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء، والأعراب تُوري النار من المرخ والعُفار، وفي أمثالهم «في كل شيء نار، واستمجد المرخ والعُفار»[٢] ولقد أحسن القائل:

جمعُ النقيضين من أسرار قدرته ... هذا السَّحابُ به ماءٌ به نارُ

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ أي أو ليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها؟ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو القادر على ذلك، فهو الخلّاق المبدع في الخلق والتكوين، العليم بكل شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء؛ لأن أمره بين الكاف والنون، فمتى أراد تعالى شيئًا وُجد بدون تعب ولا جهد، ولا كلفة ولا عناء ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تنزَّه وتمجد عن صفات النقص الإلهُ العظيم الجليل، الذي بيده المُلك الواسع، والقدرة التامة على كل الأشياء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.. ختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال القدرة، وعظمةِ الملك والسلطان، الذي تفرد به خالق الأكوان.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.. ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ فالأول سلب، والآخر إيجاب.

٢ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقريع ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟

٣ - الطباق بين «مضيًّا.. ويرجعون» «يسرون.. ويعلنون» وهو من المحسنات البديعية.

٤ - التشبيه البليغ ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ بعد قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الآية، وفائدته تفخيم النعمة، وتعظيم المنة.

٦ - المقابلة ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ الآية، قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهو من ألطف التعبير.

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢١).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤٨).

٧- الاستعارة التمثيلية ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ الأنعام تُخْلق ولا تُعْمل، ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرًا بيديه ويصنعه بنفسه، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية(١).

٨- صيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .. ﴿ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٩- الاستعارة التمثيلية ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر مطاع من غير توقف ولا امتناع، فإذا أراد شيئًا وجد من غير إبطاءٍ ولا تأخير، وهو من لطائف الاستعارة(٢).

فَائِدَة: الملكوت صيغة مبالغة من المُلك، ومعناه الملك الواسع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة.

تنبيه: قال العلامة ابن كثير: «ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة «اللهم لولا أنت ما اهتدينا» وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» وقوله: «هل أنت إلا أصبعٌ دميت: وفي سبيل الله ما لقيت» إلخ إنما وقع اتفاقًا من غير قصد إلى قول الشعر، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفوًا وكل هذا لدينا في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾(٣) اهـ. فتدبره فإنه نفيس.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يس»
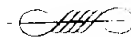
(١) انظر حاشية شيخ زادة على البيضاوي (٣/ ١٤٠).
(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي (١/ ١٩٢).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٦).

بين يدي السورة

* سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الوحي البعث والجزاء» شأنها كشأن سائر السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين السحاب يسوقونه حيث شاء الله.. ثم تحدثت عن الجنِّ وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ردًّا على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابةً بين الله سبحانه وبين الجن، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له واستبعادهم الحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظامًا ورفاتًا.

* وتأكيدًا لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة «المؤمن والكافر» والحوار الذي دار بينهما في الدنيا، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كلٍّ منهما بخلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار.

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء، بدءًا بنوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل ثم قصة موسى وهارون، ثم إلياس ولوط، وذكرت بالتفصيل قصة «الإيمان والابتلاء» في حادثة الذبيح إسماعيل، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاءه الفداء تعليمًا للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر أحكم الحاكمين.

* وختمت السورة الكريمة ببيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة، وأنَّ العاقبة للمتقين.

التسمية: سميت السورة «سورة الصافات» تذكيرًا للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾.. إلى.. ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٦١).

اللغة: «الزاجرات» الزجر: الدفع عن الشيء بقوةٍ أو صياح، والزجرة: الصيحةُ، من قولك: زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مَّارِدٖ﴾ عات متمرد ﴿ثَاقِبٞ﴾ محرق شديد النفاذ ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم لا ينقطع ﴿لَّازِبٖ﴾ ملتزق بعضه ببعض ﴿مَّعِينٖ﴾ شراب نابع من العيون ﴿غَوۡلٞ﴾ الغول: كل ما يغتال العقل ويفسده: قال أبو عبيدة: الغول: ما يغتال العقل ويذهبه

وأنشد قول ابن إياس:

وما زالتِ الخمر تغتالنا وتذهب بالأول فالأول[١]

﴿كَأْسٍ﴾ قال أهل اللغة: العرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح، قال الشاعر:

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأُخرى تداويتُ منها بها[٢]

﴿يُنزَفُونَ﴾ يسكرون يقال: نُزف الرجل فهو نزيف ومنزوف إذا سكر قال الشاعر:

لعمري لئن أنزفتمو أو صحوتمو لبئس النَّدامى كنتم آل أبجرا[٣]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ (٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١) ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ (٦١)﴾.

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٥٠).
(٢) تفسير الفخر الرازي (٢٦/ ١٣٧).
(٣) البحر (٧/ ٣٥٠).

التَّفسِير: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته إظهارًا لعظم شأنها، وكبر فوائدها، وتنبيهًا للعباد على جلالة قدرها، والمعنى: أُقْسِم بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله. قال ابن مسعود: هم الملائكة تُصَفّ في السماء في العبادة والذكر صفوفًا، وفي الحديث «ألا تُصَفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف يا رسول الله؟ قال: يُتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف»[(١)] أقسم تعالى بالملائكة تنبيهًا على جلالة قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار، ، الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلال هيبته الرقاب، بما فيهم حَمَلة العرش والملائكة الأطهار ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب، يسوقونه إلى حيث شاء الله، من الزجر بمعنى السَّوق والحث ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ وصفٌ ثالثٌ للملائكة الأبرار، إشادةً بذكر محاسنهم ومناقبهم العلوية؛ أي وأقسمُ بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن إلهكم الذي تعبدونه - أيها الناس - إله واحدٌ لا شريك له. قال مقاتل: إن الكفار بمكة قالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفًا[(٢)]، ثم بيَّن تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما وما بينهما من المخلوقات والموجودات، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع من أوضح الدلائل على وجود الله ووحدانيته ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف. قال الطبري: واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه[(٣)] ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ أي زينا السماء القريبة منكم بالكواكب المنيرة المضيئة، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد، خارج عن طاعة الله. قال قتادة: خلقت النجومُ لثلاث: رجومًا للشياطين، ونورًا يُهتدى بها، وزينةً للسماء الدنيا[(٤)]. وقال أبو حيان: خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين[(٥)] ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي لا يقدرون أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي، وقيل: المعنى: لئلا يتسمَّعوا إلى الملأ الأعلى ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ أي ويُرجمون بالشهب من كل جهةٍ يقصدون السماء منها ﴿دُحُورٗا﴾ أي طردًا لهم عن السماع لأخبار

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٤).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٢).
(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤).
(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٤).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٥٢).

السماء. قال الطبري: أي مطرودين، من الدحر وهو الدَّفع والإبعاد [١] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي إلاَّ من اختلس شيئًا مسارقةً ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي فلحقه شهاب مضيءٌ، نافذ بضوئه وشعاعه فأحرقه. قال المفسرون: قد يَخطف الشيطان المارد خطفةً سريعة مما يدور في الملأ الأعلى، فيتبعه شهابٌ يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقًا. قال القرطبي: وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثوابت؛ لأن الثابتة تجري ولا تُرى حركاتها، وهذه الشهب تُرى حركاتها [٢] ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي فسلْ يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾؟ أي: أيهم أقوى بنيةً وأشد خلْقًا هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي من طينٍ رخوٍ لزج لا قوة فيه. قال الطبري: وإنما وصفه باللزوب لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء، وكذلك خُلق ابنُ آدم من ترابٍ وماء، ونار وهواء، والترابُ إذا خُلط بماءٍ صار طينًا لازبًا [٣]، والغرضُ من الآية إقامةُ البرهان على إعادة الإنسان، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق - قادرٌ على إعادة الأجسام بعد الفناء ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي بل عجبتَ يا محمد من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة، وهم يسخرون منك ومما تقول لهم في ذلك. قال أبو السعود: المعنى عجبتَ من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث [٤] ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي وإذا وُعظوا بالقرآن وخُوّفوا به، لا يتعظون ولا يتدبرون ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا رأوا آية باهرة، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك كانشقاق القمر، وتكليم الشجر والحجر، يبالغون في السخرية أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضح بيِّن. قال في البحر: والإشارة بـ «هذا» إلى ما ظهر على يديه عليه السلام من الخارق المعجز [٥] ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء أي أئذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتَّت أجزاؤها إلى تراب وعظام سوف نبعث؟ ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي أو آباؤنا الأولون كذلك سيُبعثون؟ قال الزمخشري: أي أيبعث أيضًا آباؤنا؟ وهذا زيادة في استبعاد الأمر، يعنون أنهم أقدم، فبعثُهم أبعدُ وأبطل [٦] ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي قل لهم: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا هم قيامٌ في أرض المحشر ينظر بعضهم إلى بعض. قال القرطبي: الزجرةُ: الصيحةُ وهي النفخةُ الثانية، وسميت زجرة لأن

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٧).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٨).
(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٨).
(٤) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٦).
(٥) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٥٥).
(٦) تفسير الكشاف (٤/ ٣٠).

مقصودها الزجر، كزجر الإبل، والخيل عند السَّوق[١]. ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوال القيامة فقال: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا يوم الجزاء والحساب!! فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به. قال البيضاوي: الفصلُ: القضاءُ والتفريق بين المحسن والمسيء[٢] ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق[٣]. وقال ابن عباس: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه: المراد به: أشباههم من العصاة[٤] ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام، وذلك زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي فَعَرِّفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها، وفي لفظ «اهدوهم» تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم سيسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هنا جميعًا؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟ قال المفسرون: هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر: «نحن جميعٌ منتصر»[٥] وأصل ﴿تَنَاصَرُونَ﴾ تتناصرون حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي بل هم اليوم أذلاء منقادون، عاجزون عن الانتصار، سواء منهم العابدون والمعبودون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون. قال أبو السعود: وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال[٦] ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحقِّ، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى[٧] قال الطبري: أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق، فتخدعوننا بأقوى الوجوه، قال: واليمين في كلام العرب: القوة والقدرة كقول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ تلقَّاها عرابةُ باليمين[٨]

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٧٢). (٢) تفسير البيضاوي (٢/ ١٣٨).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٧٣) وعزاه إلى عمر بن الخطاب.
(٤) نقلهما عنه صاحب البحر المحيط (٧/ ٣٥٦).
(٥) تفسير القرطبي (١٥/ ٧٤). (٦) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٨).
(٧) هذا القول حكاه ابن كثير عن السدي وهو الأظهر.
(٨) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٢).

وقيل: المراد: تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالبًا[١] ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول لهم الرؤساء: لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم. قال ابن كثير: أي ليس الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرةً للإيمان، قابلةً للكفر والعصيان[٢] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها على متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ أي فوجب علينا جميعًا وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي فإنا لذائقو هذا العذاب لا محالة ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلى الغيّ لأننا كنا على غيٍّ وضلال. قال تعالى مخبرًا عن حالهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية، ولكنْ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين، ثم بيَّن تعالى السبب فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا قيل لهم: قولوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يتكبَّرون ويتعظَّمون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾؟ أي ويقولون عندما يُدعون إلى التوحيد: أنترك عبادة الأوثان لقول شاعرٍ مجنون؟ يعنون بذلك رسولَ الله ﷺ، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحقُّ الأبلج، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله. قال أبو حيان: جمع المشركون بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم: «شاعر مجنون» فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونًا لا يصل إلى شيء من ذلك، فكلامهم تخليط وهذيان[٣] ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمعذبون أشد العذاب ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا تُعاقبون إلا جزاء مثل عملكم. قال الصاوي: لأن الشر يكون جزاؤه بقدره، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة[٤].. ولمّا ذكر شيئًا من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئًا من أحوال المؤمنين ونعيمهم، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيبًا وترهيبًا فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المُخلَصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، يُجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.. ثم أخبر عن جزائهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحًا ومساءً كما قال

---

(١) هذا المعنى ذكره في الظلال، وهو معنى لطيف لكن ليس له ما يعضده من جهة اللغة.

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٧).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٥٧).

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٣٧).

تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وقال أبو السعود: معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة[١]، ثم فسر الرزق بقوله: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي فواكهُ متنوعة من جميع ما يشتهون، وهم في الجنة معزَّزون مكرَّمون، وخصَّ الفواكه بالذكر، لأن كل ما يُؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في رياضٍ وبساتين يتنعمون فيها ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي على أسرَّة مكلَّلة بالدر والياقوت، تدور بهم كيف شاءوا. قال مجاهد: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحابيًا[٢] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي يطوف عليهم خدم الجنة بكأسٍ من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة. قال الصاوي: وصف به خمر الجنة لأنه يجري كالماء النابع[٣]. وقال ابن عباس: كل كأسٍ في القرآن فهي الخمر، والمعين هي الجارية[٤] ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي هذه الخمر بيضاء ذات لذة للشاربين يلتذ بها من شربها. قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا. قال ابن كثير: نزَّه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، والمراد بالغول هنا صُداع الرأس، قاله ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن[٥] وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشُّرَّاب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا خُمار يصدع الرءوس، ولا سكر ولا عربدة يُذهب لذة الاستمتاع كما هي الحال في خمرة الدنيا ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي وعندهم الحور العين العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم حياءً وعفةً، قال ابن عباس: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن[٦] ﴿عِينٌ﴾ أي وهنَّ مع العفة واسعات جميلات العيون قال الطبري: أي نُجل العيون جمع عيناء وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون[٧] ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، قاله ابن عباس واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[٨] وقال الحسن: ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ المصون الذي لم تمسّه الأيدي.. والغرضُ أنهنَّ مع هذا الجمال الباهر - مصونات كالدُّر في أصدافه، مع رقةٍ ولطفٍ ونعومة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ لا تبتذله الأيدي ولا العيون، والعربُ تشبِّه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها قال أبو حيان: ذكر تعالى في هذه الآيات أولاً الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانيًا الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحل وهو جنات النعيم، ثم

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٨).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٧٧).
(٣) حاشية الصاوي (٣/ ٣٣٧).
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٤).
(٥) مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٩).
(٦) مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٩).
(٧) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٦).
(٨) تفسير القرطبي (١٥/ ٨١).

لذة التآنس والاجتماع ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ وهو أتم للسرور وآنس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكئوس ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية - أبلغ الملاذ - وهي التآنس بالنساء[1] ثم أخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث فقال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا، يتذاكرون نعيمهم وحال الدنيا وثمرة الإيمان ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا صديقٌ وجليس ينكر البعث ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي يقول لي: أتصدِّق بالبعث والجزاء؟ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ أي هل إذا متنا وأصبحنا ذراتٍ من التراب وعظامًا نخرة، أئنا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا؟! يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي قال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطَّلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين؟ قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي فخاطبه المؤمن شامتًا وقال له: واللهِ لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي ولولا فضلُ الله عليَّ بتثبيتي على الإيمان، لكنتُ معك في النار محضرًا ومعذبًا في الجحيم، ثم يخاطبه مستهزئًا ساخرًا كما كان ذلك الكافر يستهزئ به في الدنيا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتةً واحدة، وأنه لا بعث ولا جزاءَ ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر، والتحدث بنعمة الله عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة لهو الفوز العظيم ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ أي لمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون ويجتهد المجتهدون. قال المفسرون: أشارت الآيات الكريمة إلى قصة شريكين كان لهما ثمانية آلاف درهم، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر في التجارة والنظر إلى أمور الدنيا، وكان الآخر مقبلاً على تكثير ماله، فانفصل من شريكه لتقصيره وكان كلما اشترى دارًا أو جارية أو بستانًا أو نحو ذلك، عرضه على المؤمن وفخر عليه بكثرة ماله، وكان المؤمن إذا سمع ذلك يتصدَّق بنحوِ من ذلك ليشتري له به قصرًا في الجنة، فإذا لقيه صديقه قال: ما صنعت بمالك؟ قال: تصدقت به لله! فكان يسخر منه ويقول: أئنك لمن المصدِّقين؟! فكان أمرهما ما قصَّ الله علينا في كتابه العزيز[2].

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ لأن السخرية في مقابلة التعجب.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٥٩).

(٢) انظر الطبري (٢٣/ ٣٨) ومختصر ابن كثير (٣/ ١٨١) ففيهما تفصيلٌ للقصة.

٢ - التأكيد بإن واللام ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين للوحدانية .

٣- الأسلوب التهكمي ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وردت الهداية بطريق التهكم ؛ لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم .

٤ - الإيجاز بالحذف ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي قولوا : لا إله إلا الله ، وحذف لدلالة السياق عليه .

٥ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والأصل : إنهم لذائقو ، وإنما التفت لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم .

٦- الكناية ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كنَّى بذلك عن الحور العين ؛ لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

٧- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملاً .

٨ - مراعاة الفواصل ، وهو من المحسنات البديعية مثل «شهاب ثاقب ، عذاب واصب ، طين لازب» إلى آخره .

□ □ □
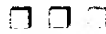
قال الله تعالى : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ . . إلى . . وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ من آية (٦٢) إلى آية (١١٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما أعده للأبرار في دار النعيم ، ذكر ما أعده للأشرار في دار الجحيم ؛ ليظهر التمييز بين الفريقين ، ثم ذكر قصة «نوح» وقصة «إبراهيم» وما فيهما من العظات والعبر للمعتبرين .

اللغة : ﴿نُزُلًا﴾ النُّزُل : الضيافة والتكرمة ، وأصله ما يُعد للأضياف من الطعام والشراب وغيرهما ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها ، سُمي طلعًا لطلوعه «شوبًا» خلطًا ومزاجًا ، من شاب الطعام يشوبه إذا خلطه بشيء آخر ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُسرعون . قال الفراء : الإهراع : الإسراع مع رعدة ، وقال المبرّد : المُهرع : المستحثُّ يقال : جاء فلان يُهرع إلى النار ، إذا استحثَّه البرد إليها ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ شيعة الرجل : أعوانه وأنصاره ، ومن سار على طريقته ومنهاجه ﴿إِفْكًا﴾ كذبًا وباطلاً ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض وعليل «راغ» راغ إليه : أقبل عليه ومال نحوه خفيةً ، وأصله من الميل ، قال الشاعر :

ويُريك من طَرف اللسان حلاوةً ويروغ منك كما يروغ الثعلب

﴿يَزِفُّونَ﴾ يُسرعون في مشيهم «تلّه» صرعه وكبَّه على وجهه .

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ

---

(١) القرطبي (١٥/ ٨٨) .

(٢) نفس المرجع السابق (١٥/ ٩٤) .

﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ .

التفسير: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي أنعيم الجنة خيرٌ ضيافةً وعطاءً أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ أيهما خيرٌ وأفضل؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، وشجرة الزقوم طعام أهل النار، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ أي إنا جعلنا شجرة الزقوم فتنةً وابتلاءً لأهل الضلالة. قال المفسرون: لما سمع الكفارُ ذِكْرَ شجرة الزقوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تُحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزُّبد والتمر! ثم يأتيهم به ويقول: تزقَّموا، هذا الذي يخوفنا به محمد!![1] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي ثمرها وحمْلها كأنه رءوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة. قال ابن كثير: وإنما شبهها برءوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[2] ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة، وفي الحديث «لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟»[3] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ثم إن لهم بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجًا من ماء حار قد انتهت حرارته، يشاب به الطعام - أي يخلط - ليجمع لهم بين

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ٤١) . (٢) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٢) .
(٣) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح .

مرارة الزقوم، وحرارة الحميم؛ تغليظًا لعذابهم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم. قال مقاتل: الحميم خارج الجحيم، فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم. وقال أبو السعود: الزقوم والحميم نُزل يُقدَّم إليهم قبل دخولها[1] ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي فهم يُسرعون في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان. قال مجاهد: شبَّهه بالهرولة كمن يُسرع إسراعًا نحو الشيء. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي أرسلنا فيهم رسلاً كثيرين يخوفونهم من عذاب الله ولكنهم تمادوا في الغيّ والضلال ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين، ألم نهلكهم فنُصيِّرهم عبرةً للعباد؟ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكنْ عبادَ الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب.. ثم شرع في بيان قصة نوح فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد استغاث بنا نوحٌ لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له، وصيغة الجمع ﴿الْمُجِيبُونَ﴾ للعظمة والكبرياء. قال الصاوي: ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص: قصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة الذبيح إسماعيل، وقصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس، وكلُّ ذلك تسلية له ﷺ وتحذيرًا لمن كفر من أمته[2] ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناه ومن آمن معه - أهلُه وأتباعُه - من الغرق. قال المفسرون: وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه. قال ابن عباس: أهل الأرض كلُّهم من ذرية نوح[3] قال في التسهيل: وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة، تناسل الناسُ من أولاده الثلاثة «سام، وحام، ويافث»[4] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسنًا في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي سلام عاطر من الله تعالى والخلائق على نوح - باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي مَن أحسن من العباد، نبقي له الذكر الجميل إلى آخر الدهر ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان مخلصًا في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين. قال في حاشية البيضاوي: علَّل هذه التكرمة السَّنية بكونه من أُولي الإحسان، ثم علَّل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا؛ إظهارًا لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وجعل الدنيا مملوءةً من ذريته تبقية لذكره الجميل في ألسنة العالمين[5] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن آخرهم، فلم تبق منهم عينٌ تطرف ولا ذكرٌ ولا أثر.. ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال:

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧١).
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٤٠).
(٣) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٦٤).
(٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٢).
(٥) حاشية شيخ زادة على البيضاوي (٣/ ١٥٧).

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وإن من أنصار نوح وأعوانه وممن كان على منهاجه وسننه: إبراهيم الخليل، قال البيضاوي: وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيان هما «هود» و«صالح» صلوات الله عليهم أجمعين (١) ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي حين جاء ربه بقلبٍ نقي طاهر مُخلص من الشك والشرك ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه آزر وقومه موبخًا لهم: ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام؟! وهو إنكار لهم وتوبيخ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؟ أي أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور؟ وإنما قدَّم المفعول لأجله ﴿أَئِفْكًا﴾ على المفعول به لأجل التقبيح عليهم بأنهم على إفكٍ: وباطل في شركهم والأصل: أتريدون آلهة من دون الله إفكًا؟ قال القرطبي: والإفكُ أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب (٢) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استفهام توبيخ وتحذير أيْ أيَّ شيءٍ تظنون بربِّ العالمين؟ هل تظنون أن يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره؟ قال الطبري: المعنى أيَّ شيءٍ تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره (٣)؟ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ لما وبخهم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد، فنظر في السماء - على عادتهم حيث كانوا نجامين - وأوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غدًا فقال: إني سقيم أي سأمرض إن خرجتُ معكم، وهذا ليس بكذبٍ وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي كما ورد «إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب» أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان (٤) ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي فتركوه إعراضًا عنه وخرجوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية. قال ابن كثير: أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعةٍ واختفاء (٥) ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ أي ألا تأكلون من هذا الطعام؟ قال ابن كثير: وذلك أنهم قد وضعوا بين أيديها طعامًا قربانًا لتُبارك لهم فيه (٦) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي قال أبو حيان: وعرضُ الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء لأنها منحطةٌ عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها (٧) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي فأقبل على الأصنام مستخفيًا يحطمها بيمينه بفأسٍ كان معه. قال البيضاوي: وتقييدُه باليمين للدلالة على قوته، وقوةُ الآلة تستدعي قوة الفعل (٨) وقال القرطبي: خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشد (٩) ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي أقبلوا نحوه

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ١٤١).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٩٢).
(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٤٥).
(٤) انظر أقوال المفسرين في القرطبي (١٥/ ٩٣).
(٥) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٥).
(٦) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٥).
(٧) البحر المحيط (٧/ ٣٦٦).
(٨) البيضاوي (٢/ ١٤٢).
(٩) القرطبي (١٥/ ٩٤).

مسرعين كأن بعضهم يدفع بعضًا فلما أدركوه قالوا: ويحكَ نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فأجابهم موبخًا: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ؟ أي أتعبدون أصنامًا نحتموها بأيديكم، وصنعتموها بأنفسكم؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي واللهُ جل وعلا خلقكم وخلق عملكم، وكلُّ الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، أليس لكم عقل أيها الناسُ؟ قال ابن جزي: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿مَا﴾ مصدرية والمعنى: اللهُ خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدةٌ في خلق أفعال العباد وذهب بعضهم إلى أن ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، والمعنى: خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليقُ بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام[١]. ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ابنوا له مكانًا وأضرِموه نارًا ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة. قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصارًا لأصنامهم وآلهتهم ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه، فنجيناه من النار وجعلناها بردًا وسلامًا عليه، وجعلناهم الأذلين المقهورين؛ لأنه لم ينفذ فيه مكرهم، ولا كيدهم ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لما نجاه الله من النار، وخلّصه من كيد الفجار، هجر قومه واعتزلهم، والمعنى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي. قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى أرض الشام[٢] ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ارزقني ولدًا من الصالحين يؤنسني في غُربتي. قال ابن كثير: يريد أولادًا مطيعين يكونون عوضًا عن قومه وعشيرته الذين فارقهم[٣] ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلام يكون حليمًا في كبره. قال أبو السعود: جمع الله فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغُ أوان الحُلم، وأنه يكون حليمًا؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، وأيُّ حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]!! وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو «إسماعيل»؛ لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل[٥] ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السنَّ الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه. قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي إني أُمرت في المنام أنْ أذبحك. قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحيٌ. وتلا الآية: وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا؛ لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم[٦] ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي فانظر في الأمر، ما رأيك فيه! قال ابن كثير:

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٣). (٢) القرطبي (١٥/ ٩٧).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٦). (٤) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٣).
(٥) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا «النبوة والأنبياء» والأدلة على ذلك ص (١٧٣) وانظر ابن كثير (٣/ ١٨٦) ففيه بحث لطيف ونفيس.
(٦) القرطبي (١٥/ ١٠٢).

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلَده وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه[١] . فإن قيل: لمَ شاوره في أمرٍ هو حتمٌ من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكنْ ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطِّن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي، فستجدني صابرًا إن شاء الله! وهو جواب مَن أُوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي فلما استسلما - الأب والابن - لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه. قال ابن عباس: «تله للجبين» أكبَّه على وجهه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ هذه جواب «لمَّا» والواو مقحمة أي ناديناه يا إبراهيم قد نفَّذْت ما أُمرت به، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، روي أنه أمرَّ السكين بقوته على حلقه مرارًا فلم يقطع. قال الصاوي: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبةٌ من قلبه بمحبة ولده، فأُمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وقدَّم محبته على محبة ولده، قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن: يا أبتِ اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيءٌ من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحدَّ شفرتك وأسرعْ بها على حلقي ليكون الموت أهونَ عليَّ، وإذا أتيتَ أمي فأقْرئها مني السلام، وإن رأيتَ أن تردَّ قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العونُ أنت يا بني على أمر الله[٢] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لتفريج الكربة أي كما فرجنا شدتك كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي وفديناه بكبشٍ عظيم من الجنة فداءً عنه. قال ابن عباس: كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفًا[٣] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليه ثناءً حسنًا إلى يوم الدين ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي سلام منا على إبراهيم عاطرٌ كريم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كرَّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء ثم علَّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وبشرناه بغلامٍ آخر بعد تلك الحادثة هو إسحاق الذي سيكون نبيًّا. قال ابن عباس: بُشِّرَ بنبوته حين وُلد، وحين نُبِّئ[٤] ، وتكاد تكون الآية صريحةً في أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي ومن ذريتهما محسنٌ ومسيء. قال الطبري: المحسنُ هو المؤمن، والظالم لنفسه

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٦) .
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٤٣) .
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٧) .
(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٩) .

هو الكافر [١] وقال أبو حيان: وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ وفيها دليل على أن البرَّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة [٢].

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الأسلوب التهكمي ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ التعبير بـ «خيرٌ» تهكم بهم.

٢ - الجناس الناقص «المُنْذِرين. . والمُنْذَرين» لأن المراد بالأول: الرسل، وبالثاني: الأمم.

٣ - التشبيه ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي في الهول والشناعة، ويسمى تشبيهًا مرسلاً مجملاً.

٤ - الاستعارة التبعية ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ شبَّه إقباله على ربه مخلصًا بقلبه بمن قدم على الملك بتحفةٍ ثمينة جميلة ففاز بالرضى والقبول، ففيه استعارة تبعية.

٥ - الطباق بين «محسن. . . وظالم».

٦ - الكناية اللطيفة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ كنَّى به عن الثناء الحسن الجميل.

٨ - مراعاة الفواصل مثل ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالاً.

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ . . إلى . . ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من آية (١١٤) إلى نهاية السورة (١٨٢).

المنَاسَبَة: لما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين.

اللُّغَةُ: ﴿أَبَقَ﴾ هرب ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء «ساهم» قارع أي ضرب القُرعة. قال المبرّد: وأصله من السهام التي تُجال ﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين، وأصله من الزلق، يُقال: دَحضت حجته وأدحضها الله أي غُلب وهُزم قال الشاعر:

قتلنا المُدْحضين بكلِّ فجٍّ ... فقد قرَّت بقتلهم العُيون [٣]

﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلام عليه «العراء» الأرض الفيحاء لا شجر فيها، ولا مَعْلم، قال الفراء: العراءُ: المكانُ الخالي ﴿يَقْطِينٍ﴾ القرعُ المعروف والمسمَّى بالدباء، قال الجوهري: اليقطين: ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه [٤] «ساحتهم» الساحةُ: الفناء.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٧).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٧٢).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ١٢٣).
(٤) انظر الصحاح للجوهري والقاموس المحيط.

ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ (١٥٠) أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢) ﴾ .

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ اللام موطئة للقسم أي وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية ومنها نعمة النبوة والرسالة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناهما وقومهما - بني إسرائيل - من الغم والمكروه العظيم وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء، واستحياء النساء ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الضمير يعود إلى موسى وهارون وبني إسرائيل أي ونصرناهم على أعدائهم - الأقباط - فكانوا الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي أعطيناهما الكتاب البليغ في بيانه، الكامل في حدوده وأحكامه، وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي وهديناهما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. قال الطبري: وهو الإسلام دينُ الله الذي ابتعث به أنبياءه(١) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي تركنا عليهما الثناء الجميل والذكر الحسن ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كذلك نفعل بمن أحسن وأخلص العبودية لله ﴿وَإِنَّ

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨).

إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنَّ إلياس - أحد أنبياء بني إسرائيل - لمن الرسل الكرام الذين أرسلتُهم لهداية الخلق. قال أبو السعود: هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى [١] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي حين قال لقومه من بني إسرائيل: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي أتعبدون هذا الصنم - المسمَّى بعلاً - وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي تتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي هو ربكم وربُّ آبائكم السابقين. قال القرطبي: و«بعل» اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك، والمعنى: أتدعون ربًّا اختلقتموه وهو هذا الصنم، وتتركون أحسن من يقال له: خالق وهو «الله»ربكم وربُّ آبائكم الأولين [٢]؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي فكذبوا نبيَّهم فإنهم لمحضرون في العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكنْ عباد الله المؤمنين فإنهم نجوا من العذاب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أي تركنا على إلياس الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي سلام منا عليه وعلى آل ياسين. قال المفسرون: المراد بـ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ هو إلياس ومن آمن معه، جُمِعوا معه تغليبًا كما قالوا للمهلَّب وقومه: المهلَّبون [٣]، واختار الطبري أنه اسم لإلياس فيقال: إلياس، وإل ياسين مثل ميكال وميكائيل، وأن له اسمين فيسمى «إلياس» و «إل ياسين» [٤] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم تفسيره، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعًا من المتصفين بهذه الصفات؛ فلذلك استحقوا التحية والسلام والذكر الحسن بين الأنام، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنَّ لوطًا لأحدُ رسلنا لهداية قومه ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي اذكر حين خلصناه من العذاب هو ومن آمن معه من أهله وأولاده ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي إلا امرأته الكافرة فإنها لم تؤمن فكانت من الباقين في العذاب ومن الهالكين ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي ثم أهلكنا المكذبين من قومه أشدَّ إهلاك وأفظعه، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل؛ ولهذا عبَّر بـ ﴿دَمَّرْنَا﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم في أسفاركم وتشاهدون آثار هلاكهم صباحًا ومساءً، وليلاً ونهارًا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مثل ما أصابهم؟ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإن يونس لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي اذكر حين هرب إلى السفينة المملوءة بالرجال ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر. قال المفسرون: إن يونس ضاق صدرًا بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضبًا لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ١١٦).
(٣) انظر تفسير الجلالين (٣/ ٣٤٦).
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ٦١).

شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأتها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: هاهنا عبدٌ أبق من سيده، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القُرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضبًا لهم، وخروجه بغير إذنٍ من ربه ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيرًا في حياته ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبرًا له فلم ينج أبدًا، ولكنه سبَّح اللهَ واستغفره وناداه وهو في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت: إني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعامًا! فلذلك بقي سالمًا لم يتغير منه شيء[١] ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ﴾ أي وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة. قال ابن جزي: وإنما خصَّ القرع بالذكر؛ لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، والذبابُ لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب[٢]، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، فلما استكمل قوته وعافيته ردَّه الله إلى قومه ولهذا قال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذي هرب منهم وهم مائة ألفٍ بل يزيدون. قال المفسرون: كانوا مائة وعشرين ألفًا، وقيل: وسبعين ألفًا، وهم أهل نينوى بجهة الموصل، و«أو» بمعنى «بل» أي بل يزيدون ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وُعدوا به فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم. قال في التسهيل: رُوي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم[٣].. ولما انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾؟ أي اسأل يا محمد واستخبر كفار مكة - على سبيل التوبيخ والتقريع لهم - كيف زعموا أن الملائكة بنات الله، فجعلوا للّهِ الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهنَّ لأنفسهم، فكيف يرضونها لله -عز وجل- ويختصون بالبنين؟ ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ توبيخٌ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل أي بل أخَلَقْنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم، وجعلناهم إناثًا وهم شاهدون لذلك حتى يقولوا مثل هذا البهتان؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم ينسبون إلى الله الذرية والولد ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي وهم

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٧).
(٢) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٦).
(٣) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٦).

كاذبون قطعًا في قولهم: الملائكة بناتُ . الله. قال أبو السعود: والآية استئناف مسوقٌ لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم دليلٌ قطعًا[1] ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾؟ توبيخٌ وتقريع أي هل اختار جل وعلا البناتِ وفضلهن على البنين؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ تسفيهٌ لهم وتجهيل أيْ أيُّ شيء حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار لنفسه أخسَّ الجنسين على زعمكم؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام؟ قال أبو السعود: أي أفلا تتذكرون بطلان هذا ببديهة العقل، فإنه مركوزٌ في عقل كل ذكي وغبي[2] ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ توبيخ آخر أي أم لكم برهان بيّن وحجة واضحة على أن الله اتخذ الملائكة بناتٍ له؟ ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم فيما تزعمون.. والغرضُ تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون - في أقوالهم الباطلة - على دليل شرعي، ولا منطق عقلي..

وينتقل إلى أسطورةٍ أخرى لفَّقها المشركون، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجنِّ، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجِنَّة وُلِدَت الملائكة فيقول: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجنِّ قرابة ونسبًا، حيث قالوا: إنه نكح من الجنِّ فولدت له الملائكة، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، ثم زعموا أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب. قال الصاوي: وهذا زيادة في تبكيتهم وتكذيبهم كأنه قيل: هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله- أعلمُ بحالكم وما يئول إليه أمركم[3] ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزّه وتقدّس الله عما يصفه به هؤلاء الظالمون ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المخلصين فإنهم ينزهون الله تعالى عما يصفه به هؤلاء ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي فإنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه من الأصنام والشياطين لستم بقادرين على أن تُضلوا أحدًا من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة، وقدّر أنه يدخل النار ويصلاها، ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله فقال ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، فمنا الموكّل بالأرزاق، ومنا الموكَّل بالآجال، ومنّا من يتنزل بالوحي، ولكلٍّ منزلته من العبادة، والتقريب، والتشريف ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون اللهَ سبحانه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه، نسبّح الله في كل وقتٍ وحين. قال في التسهيل: وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردٌّ على من قال: إنهم بناتُ الله، وشركاء الله؛ لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له جل وعلا[4] ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الضمير لكفار قريش ﴿وَإِن﴾ هي

---

(١)، (٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٨).

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٤٨). (٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٧).

المخففة من «إنَّ» الثقيلة أي وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا - قبل أن ينزل عليهم القرآن - يقولون: لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإِنجيل لكنا أعظم إِيمانًا منهم، وأكثر عبادةً وإِخلاصًا للهِ منهم، فلما جاءهم القرآن كفروا به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله، وهو وعيد وتهديد ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم، والإِشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لَهُمُ الغالبون في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول الجنان. قال المفسرون: نصرُ الله للمؤمنين محقق، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المعارك، فإِن القاعدة هي بالظفر والنصرة، وإِنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصيرٍ منهم أو ابتلاء ومحنة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي أعرض عنهم يا محمد إلى مدة يسيرة، إلى أن تُؤمر بقتالهم ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله؟ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ استهزءوا وقالوا: متى هذا يكون؟ فنزلت الآية ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي لا يستبعدوا ذلك فإِن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيش هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرره تأكيدًا للتهديد وتسلية للرسول ﷺ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وسلامٌ منا على الرسل الكرام، والحمد لله في البدء والختام لله ربّ الخلائق أجمعين. نزَّه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه فإِنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه، وهو تعليم للعباد.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «تدعون.. وتذرون» وبين «البنات.. والبنين».

٢ - تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت.

٣ - التأكيد بعدة مؤكدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فقد أُكدت كل من الجملتين بإِن واللام.

٤ - الاستعارة التصريحية ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإِباق العبد من سيّده.

٥ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الأصل: «وتجعلون»، والالتفاتُ للإِشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً للخطاب، فهم بعيدون من رحمة ربّ الأرباب.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ مثّل العذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ بفنائهم بغتة، ونصحهم بعض النصاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم، حتى اجتاحهم الجيش. قال الزمخشري: وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل[1].

فائدة: روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾»[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»
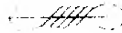
(١) الكشاف (٤/ ٥٢).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً، وروي موقوفًا عن علي رضي الله عنه.
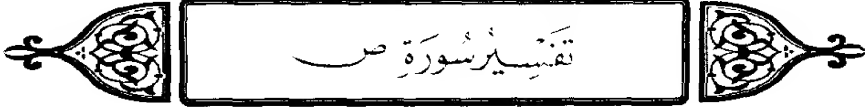
بَيْن يَدَي السُّورَة

سورة «ص» مكية، وهدفها نفس هدف السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

*ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزَّل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة - على أن القرآن حقٌّ، وأن محمدًا نبيٌّ مرسل .

*ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى توحيد الله ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ .

*وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال بسبب إفسادهم وإجرامهم .

*ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام؛ تسليةً للنبي عليه الصلاة والسلام عما يلقاه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب، وتخفيفًا لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلًّا منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها بذكر فتنة أيوب، وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وذى الكفل، هكذا في عرضٍ سريع لبيان سنة الله في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه .

*وأشارت السورة الكريمة إلى دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثًا، وأنه لا بدَّ من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء .

*وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام .

التسمية: تسمَى السورة الكريمة «سورة ص» وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية .

□ □ □
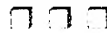
قال الله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . . إلى . . بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٦) .

اللغة: ﴿عِزَّةٍ﴾ تكبر وامتناع عن قبول الحق، وأصلها الغلبة والقهرُ، ومنه قولهم «من عَزَّ بزَّ» يعني مَنْ غلب سلب «شقاق» مخالفة ومباينة ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الملجأ والغوث والخلاص ﴿عُجَابٌ﴾ بالغ الغاية في العجب قال الخليل: العجيب: العجب، والعُجَاب: الذي قد تجاوز حدَّ العجب[1] ﴿ٱخْتِلَٰقٌ﴾ كذب وافتراء ﴿فَوَاقٍ﴾ الفَوَاق: الاستراحة والإِفاقة، قال الجوهري: الفَواق والفُواق: ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدرَّ ثم

---

(١) القرطبي (١٥/ ١٥٠) .

تُحلب، وقوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ما لها من نظرة وراحة وإفاقة [١] ﴿قِطَّنَا﴾ القِطُّ: الحظُّ والنصيب ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ تسور الحائط: علا أعلاه وتسلقه والسور: الحائط ﴿تُشْطِطْ﴾ قال علماء اللغة: الشَّطط: مجاوزة الحد وتَخطِّي الحق، يقال: شطَّ في الحكم أي جار فيه ولم يعدل، والأصل فيه: البعدُ، من «شطَّت الدار» بمعنى بعدت.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾.

التَّفسِير: ﴿صٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف الهجائية، وبيّنا أن فيها الإشارة إلى إعجاز القرآن [٢] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسمٌ أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع وذي الشأن والمكانة، وجواب القسم محذوف تقديره: إن هذا القرآن لمعجز وإن محمدًا لصادق. قال ابن عباس: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف [٣] ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي بل الكافرون في حميةٍ وتكبرٍ عن الإيمان، وفي خلافٍ وعداوة للرسول عليه السلام. قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخلَلٍ وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي خلاف للهِ ولرسوله؛ ولذلك كفروا به [٤] ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا قبل أهل

---

(١) انظر الصحاح للجوهري.
(٢) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٩٦).
(٤) تفسير البيضاوي (٢/ ١٤٦).

مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية؛ لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم. قال أبو السعود: والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين[1] ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلبًا للنجاة وليس الحينُ حينَ فرارٍ ومهرب ونجاة. قال ابن جُزَيّ: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك؛ إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص أي مفر ونجاة، من ناص ينوص إذا فرَّ، «ولات» بمعنى ليس وأصلها «لا» النافية زيدت عليها علامة التأنيث[2] ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ أي وقال كفار مكة: إن محمدًا ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مكان الضمير «وقالوا» غضبًا عليهم، وذمًّا لهم وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربَّ المعبود واحد لا إله إلا هو؟! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي إنَّ هذا الذي يقوله محمد - أن الإله واحد - شيء بليغٌ في العجب. قال ابن كثير: أنكر المشركون ذلك - قبَّحهم الله - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[3] قال المفسرون: إن قريشًا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب: كُفَّ ابنَ أخيك عنا؛ فإنه يعيب ديننا، ويذم آلهتنا، ويسفِّه أحلامنا، فدعاه أبو طالب وكلَّمه في ذلك، فقال ﷺ: «يا عم، إنما أريد منهم كلمةً واحدة، يملكون بها العجم وتدين لهم بها العرب»، فقال أبو جهل والمشركون: نعم نعطيكها وعشر كلمات معها!! فقال قولوا: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! فنزلت الآيات[4] ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمدًا فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا أمرٌ مدبَّر، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه[5] ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أنَّ الله واحد؟ قال ابن عباس: يعنون

---

(١) أبو السعود (٤/ ٢٨١). (٢) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٧).

(٤) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ٧٩) والبحر المحيط (٧/ ٣٨٢).

(٥) هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر، وهناك أقوال أخرى تنظر في تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٣).

بالملة الآخرة دينَ النصرانية . وقال مجاهد وقتادة : يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء، ثم أنكروا اختصاصه -عليه السلام- بالوحي من بينهم فقالوا : ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي هل تنزَّلَ القرآن على محمد دوننا، مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً، وأعلى رياسةً؟! قال الزمخشري : أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم [١] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ إضرابٌ عن مقدر تقديره : إنكارهم للذكر ليس عن علم؛ بل هم في شك منه؛ فلذلك كفروا ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ إضراب انتقالي وغرضه التهديد والمعنى سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ ؟ هذا ردٌّ على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة والمعنى : هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا؟ قال البيضاوي : يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يُغْلَبُ ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء [٢] ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبِّروا شئون الكون؟ وهو تهكم بهم واستهزاء . قال الزمخشري : تهكم بهم غاية التهكم فقال : إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيقٌ بالنبوة من غيره، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش؛ حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم، ويُنَزِّلوا الوحي على من يختارون، وهو غاية التهكم بهم [٣] ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ التنكير للتقليل والتحقير و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جندٌ من الكفار، المتحزبين على رسل الله، هم عما قليلٍ يُهزمون ويُولون الأدبار، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون . . ثم أخبر تعالى عما نالَ أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي كَذَّبَ قبل كفار قريش أممٌ كثيرون منهم قوم نوح، وقوم هود وهم قبيلة «عاد» وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد أو ذو الجموع الكثيرة، قال بعض المفسرين : سمي بذي الأوتاد لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتادٍ في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت، وقيل : لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد [٤] ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي وكذبت ثمود وهم قوم صالح

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ٥٦) . (٢) تفسير البيضاوي (٢/ ١٤٦) .

(٣) تفسير الكشاف (٤/ ٥٧) .

(٤) نقل عن الضحاك أن المراد بالأوتاد : المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية، وقال الزمخشري : إن ذلك استعارةٌ في ثبات الملك كقول الأسود : في ظل مُلْك ثابت الأوتاد .

وقوم لوط، وأصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي، وحُذفت الياء مراعاةً لرءوس الآيات ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار. قال ابن عباس: أي ما لها من رجوع[1]. قال المفسرون: أي أن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين؛ لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر. قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد[2] ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية: عجّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد. قال المفسرون: وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرك عليهم: قال الصاوي: وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار[3] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي وتذكرْ عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر ذا القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يقوم نصف الليل ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والأوَّابُ: الرجَّاع إلى الله. قال أبو حيان: لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصًا للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتُهم أحسن عاقبة فكذلك أنت تصبر ويئول أمرك إلى أحسن مآل[4] ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزة لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كلٌّ من الجبال والطير رجَّاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس. قال ابن كثير: كانت الطير تسبّح بتسبيحه، وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبّح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجّع معه وتسبّح تبعًا له. قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مطيع[5] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي أعطيناه النبوّة والفهم

---

(١) الطبري ٢٣/ ٨٤ .
(٢) الكشاف ٤/ ٥٩ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٥٣ .
(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٩٠ .
(٥) مختصر ابن كثير (٣/ ١٩٩).

والإصابة في الأمور ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي الكلام البيِّن الذي يفهمه من يُخاطَب به[١] قال مجاهد: يعني إصابة القضاء وفهمه. وقال القرطبي: البيان الفاصل بين الحق والباطل[٢] قال المفسرون: كان مُلك داود قويًّا عزيزًا وكان يسوسه بالحكمة والحزم معًا، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ هذا الاستفهام للتعجيب وتشويق السامع إلى ما يُلْقَى إليه كما تقول لجليسك: هل تعلم ما وقع اليوم؟ تريد تشويقه لسماع كلامك، والمعنى: هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم. قال المفسرون: وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا من غير الباب، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدَّى بعضنا على بعض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل، ولا تَجُرْ ولا تظلم في الحكم ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هذه بداية قصة الخصمين[٣] أي قال أحدهما: إن صاحبي

---

(١) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٢.

(٣) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفاسيرهم اعتمادًا على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده؛ لأنه من القصص الإسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في «عصمة الأنبياء» من هذه الأباطيل المدسوسة: ما روي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها «أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأةٍ تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمى «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك وحمَّله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مرارًا ليتخلص منه حتى قتل فتزوجها. . » إلى آخره ما هنالك من الكذب والبهتان. قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصدًا، اكتفاءً بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقال البيضاوي: وما قيل: إنه أرسل «أوريا» مرارًا إلى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتل فتزوجها داود -فزورٌ وافتراء؛ ولذلك قال علي رضي الله عنه: «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصاص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. والصحيح في موضوع هذه القصة: ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذه القصة: أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحًا لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحدٌ حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يطمئنانه أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته -كما قصها القرآن الكريم في آياته البينات-. والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل، ومن ثمَّ اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ . . .﴾ إلى آخر الآيات

هذا يملك تسعًا وتسعين نعجة -وهي أنثى الضأن- وأملك أنا نعجة واحدة. قال المفسرون: وقد يكنى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعًا وتسعين امرأة وعندي امرأة واحدة ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي مَلِّكْنيها واجعلها تحت كفالتي ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني في الخصومة، وشدَّد عليَّ في القول وأغلظ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي قال له داود: لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي وإن الكثيرين من الشركاء ليتعدى بعضُهم على بعض ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبغون وهم قليل ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي علم وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي طلب المغفرة من الله وخرَّ ساجدًا لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه قال. أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنًّا منه أنهم يغتالونه؛ إذ كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجدًا لله عز وجل، ونحن نعلم قطعًا أن الأنبياء معصومون من الخطايا؛ إذ لو جوزنا عليهم شيئًا من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراده الله، وما حكى القُصَّاص مما فيه غضٌّ من منصب النبوة طرحناه[1] ثم قال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السَّيِّئ بالرجلين قال ابن كثير: أي غفرنا له ما كان منه مما يقال فيه: «حسناتُ الأبرار سيئات المقربين» ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ وإن له لقربة وكرامة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وحسن مرجع في الآخرة ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تتَّبع هوى النفس في الحكومات وغيرها فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إيمانهم بيوم الحساب؛ لأنهم لو آمنوا به لأعدوا

فعاتبه الله على ذلك ونبَّهه إلى ضرورة تثبت القاضي من حكمه وسماعه للخصم الآخر... أمَّا ما قاله البعض اعتمادًا على بعض الروايات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرنا منه -فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء «فليتدبر هذا مَن له عقل سليم ودين قوي».

[1] تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٩٣ بشيء من الاختصار، وهذا هو الحقُّ الأبلج الذي ندين الله -عز وجل- به والذي يجب أن يعتقده المسلم في الأنبياء والمرسلين، وانظر كتابنا «النبوة والأنبياء» ففيه بيان أوسع لهذه القصة، وانظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي فقد ردَّ تلك الفرية من عشرة وجوه فأجاد وأفاد. التفسير الكبير ٢٦/ ١٨٩.

الزاد ليوم المعاد، قال أبو حيان: وجعلُه تعالى داود خليفةً في الأرض يدلُّ على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئًا مما لا يليق بمنصب النبوة.

البَلاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز.

٢ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل «وقالوا» لتسجيل جريمة الكفر عليهم.

٣ - صيغة المبالغة في كل من (كذَّاب، العزيز، الوهاب، أواب).

٤ - التنوين للتقليل والتحقير وزيادة ﴿مَا﴾ لتأكيد القلة ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾.

٥ - تأكيد الجملة الخبرية بإن واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

٦ - الاستعارة البليغة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ شبه المُلْك بخيمةٍ عظيمة شُدَّت أطنابها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح، ففيه استعارة مكنيَّة وذكرُ الأوتاد تخييل.

٧ - الطباق ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ لأن المراد: المساء والصباح.

٨ - أسلوب التشويق ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق.

٩ - أسلوب الإطناب ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ.

١٠ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . . فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ . . جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله.

لطيفَة: روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان الله، قال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . .﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ . . إلى . . إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٤).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور، ثم بيَّن الحكمة من نزول القرآن، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تتميمًا وتكميلاً للهدف السامي من ذكر قصص القرآن.

اللغَة: ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقول واحدها لبٌّ، ولبُّ الشيء: صفوته وخلاصته؛ ولذلك سُمي العقل لُبًّا ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الخيول الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة، جمع صافن قال

الفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها، قال الشاعر:

تركنا الخيل عاكفةً عليه مُقلدة أعنَّتها صُفونا[١]

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ السِّراع السَّوابق في العدو. قال المبرد: الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل[٢] ﴿تَوَارَتْ﴾ اختفت ﴿رُخَآءً﴾ لينة أو منقادة حيث أراد ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ سلاسل الحديد والأغلال واحدها: صفد، وفي الحديث «صُفدت الشياطين» أي ربطت بالسلاسل، قال الشاعر:

فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا وأُبنا بالمُلوك مصفَّدينا

﴿ضِغْثًا﴾ الضغث: حزمة من الحشيش أو غيره مختلطة الرطب باليابس، وأصله: الشيء المختلط، ومنه «أضغاث أحلام» للرؤيا المختلطة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

التفسير: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثًا وسُدى ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي خلق ما ذكر لا لحكمة هو ظنُّ الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فويلٌ للكفار من عذاب النار، ثم وبخهم تعالى على هذا الظنِّ السيئ فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ أي هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين؟ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؟ أي أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار؟ والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ١٩٣.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٠٤.

تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضًا وعدٌ ووعيد. قال ابن كثير: بيَّن تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين، وإذا كان الأمر كذلك فلابدَّ من دارِ جزاءٍ يُثاب فيها المطيع، ويعاقب فيها الفاجر وقد دلت العقول السليمة على أنه لابدَّ من جزاء ومعاد، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد مالُه وولدُه ونعيمهُ ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعيَّن أن هناك دارًا أُخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة[١] . ثم بيَّن تعالى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكر فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحِكم الجليلة ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة. قال الحسن البصري: واللهِ ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: واللهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفًا، وقد أسقطه واللهِ كلَّه، ما يُرى للقرآن عليه أثرٌ في خُلُق ولا عمل[٢] . اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام أي: رزقنا عبدنا داود الولد الصالح المسمَّى سليمان وأعطيناه النبوة. قال المفسرون: المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبدُ سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي اذكر حين عُرض على سليمان عشية يوم من الأيام -أي بعد العصر- الخيل الواقفة على طرف الحافر، السريعة الجري. قال الرازي: وُصفت تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، والثاني: الجياد وهي الشديدة الجري والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعًا في جريها[٣] ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي آثرت حبَّ الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله. قال المفسرون: عُرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأُجريت بين يديه عشيًّا فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكرٍ له خاص حتى غابت الشمس ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي قال سليمان: ردُّوا هذه الخيل عليَّ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقربًا إلى الله؛ لتكون طعامًا للفقراء؛ لأنها شغلته عن ذكر الله. قال الحسن: لما

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٢ .
(٢) تفسير الكشاف ٤/ ٧٠ .
(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٠٤ .

رُدَّت عليه قال: لا والله لا تشغليني عن طاعة ربي! ثم أمر بها فعقرت وكذلك قال السدي[١]، وأما قول من قال: إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف؛ لأنه لا يتصور من نبيٍّ أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا، والنصُّ صريح ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان ابتلي به، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة، ولعلَّ هذه الفتنة ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، كلٌّ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل: إن شاء الله- فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[٢] قال ابن كثير: «وقد أورد بعضُ المفسرين آثارًا كثيرة عن جماعةٍ من السلف، وأكثرها أو كلُّها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة»[٣] واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده، حيث إن سليمان ابتلي بمرضٍ شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي، قال: والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم، وجسم بلا روح، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى حالة الصحة[٤] ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكًا واسعًا لا يكون لأحدٍ غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أي فذللنا الريح لطاعته إجابةً لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين -وهم المردة- موثوقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي

---

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها وتكرمة. وهذا القول اختاره ابن جرير، والأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها؛ لأنها شغلته عن الطاعة، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي أسرع من الخيل.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ولكنه لم يذكر فيه أنه تفسير للآية فيحتمل أن يكون تفسيرًا ويحتمل غيره.

(٣) أشار ابن كثير إلى ما ذكره بعض المغرمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة حول فتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم هذه الإشارة الخاطفة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ومن أغربها وأنكرها: ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة -زوجته- خاتمه، وكانت أحب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فظنته سليمان فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين. . . إلخ وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

(٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد، وكتابنا «النبوة والأنبياء».

وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعطِ من شئت وامنعْ من شئت، لا حساب عليك في ذلك؛ لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإنّ له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة والإضافة للتشريف أي اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي حين نادى ربه متضرعًا إليه قائلاً: إنى مسني الشيطان بتعبٍ ومشقة، وألمٍ شديد في بدني. قال المفسرون: وإنما نسبَ ذلك إلى الشيطان تأدبًا مع الله تعالى، وإنْ كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثماني عشرة سنة، وقد تقدمت قصته[١] ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي وقلنا له: اضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماءٍ صافية ﴿هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي وقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده وشرب منها فذهب كل مرضٍ كان داخل جسده، قال أبو حيان: ﴿هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ﴾ أي ما يُغتسل به ﴿وَشَرَابٌ﴾ أي ما يشرب منه، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأخرى فشفي[٢] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم. قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته وبماله وقوّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا[٣] وقال أبو حيان: الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شُتِّتَ منهم[٤] ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي رحمةً منّا به لصبره وإخلاصه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي وعبرة لذوي العقول المستنيرة. قال ابن كثير: أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج[٥] ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي وقلنا له: خذْ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرَّ بيمينك ولا تحنث. قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه؛ وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر، فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبانٍ خفيفة فيها مئة عود ويضربها بها ضربة واحدةً ويبرَّ في يمينه، ورحمةً من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه؛ ولهذا قال

---

(١) انظر قصته في سورة الأنبياء من هذا التفسير.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٠١.

(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢١٥.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٠١.

(٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٥.

تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابرًا على الضراء ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين. قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة[1] ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي خصصناهم بخصلةٍ خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم الدار الباقية. قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها[2] ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي وهم عندنا المختارون المُجْتَبَوْن على سائر الناس؛ لأنهم أخيار أبرار ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضًا وكلٌّ من خيرة الله فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يُذكرون به أبدًا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإن لكل متقٍ لله مطيع لرسله لَحُسْنَ مرجعٍ ومنقلب، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فتحت لهم أبوابها انتظارًا لقدومهم. قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين، فتحوا لهم أبوابها وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال، وأجمل هيئة[3] ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي وهم متكئون على الأسرَّة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا. قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام[4] قال الصاوي: والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي؛ لأنه لا جوع في الجنة[5] ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن، أتراب أي في سنٍّ واحدة ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي هذا جزاؤكم الذي وُعِدتم به في الدنيا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبدًا. قال في الظلال: يبدأ هذا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء، وفي السِّمات والهيئات: منظر المتقين لهم «حسن مآب» ومنظر الطاغين لهم «شر مآب» فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب، ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب، وهنَّ مع شبابهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن، وكلهن شواب أتراب، وهو متاع دائم، ورزق من عند الله ما له من نفاد[6].

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٠٩ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٠٦ .
(٣) التفسير الكبير ٢٦/٢٢١ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/٢٠٧ .
(٥) حاشية الصاوي ٣/٣٦١ .
(٦) في ظلال القرآن .

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ . . إلى . . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ من آية (٥٥) إلى آية (٨٨) نهاية السورة.

المناسبة: لمَّا ذكر تعالى مآل السعداء المتقين، ثنَّى بذكر حال الأشقياء المجرمين، ثم ذكر بعض الأدلة على صدق رسالة محمد ﷺ وختم السورة الكريمة بذكر قصة آدم وإبليس وامتناعه عن السجود لآدم؛ تحذيرًا للبشر من عدوهم الأكبر ومن وساوسه وإغوائه.

اللغة: «غساق» الغسَّاق: ما يخرج من لحوم الكفرة من الصديد والقيح والنتن ﴿زَاغَتْ﴾ مالت ﴿سِخْرِيًّا﴾ (بكسر السين)؛ هو الهزء والسخرية ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ الاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها ومنه اقتحام المخاطر ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقه على أكمل الوجوه ﴿ٱلْعَالِينَ﴾ المتكبرين، وعلا في الأرض: تكبر وتجبر ﴿رَجِيمٌ﴾ مرجوم بالكواكب والشهب.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

التفسير: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿هَٰذَا﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: الأمرُ هذا، وهي بمنزلة أما بعد، ثم قال ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي وإنَّ للكافرين الذين كذبوا الرسل، لشرَّ منقلب يصيرون إليه في الآخرة، ثم فسَّر هذا المصير بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي جهنم يذوقونها ويصلون سعيرها، وبئست جهنم فراشًا ومهادًا لهم. قال ابن جزي: لما تمَّ ذكر أهل الجنة ختمه بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ ثم ابتدأ بذكر وصف أهل النار، وعنى بالطاغين: الكفار[1] ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه، وهو الحميم أي الماء الحار المحرق، والغسَّاق: هو ما يسيل من صديد أهل النار. قال الطبري: في الآية تقديم

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٧ .

وتأخير أي هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميمُ: الذي أُغلي حتى انتهى حره، والغسَّاق: ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم[1] ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي وعذابٌ آخر من مثل هذا العذاب المذكور كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف. ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحبًا بهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم. قال الرازي: والاقتحامُ: ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يدعون له: مرحبًا: أي أتيتَ رحبًا في البلاد لا ضيِّقًا، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء[2] ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم: بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحبًا قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ﴾ أي لا تلقون هنا رحبًا ولا خيرًا - وهذه تحية أهل النار- كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾ فعند ذلك يقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ﴾ وهذا على حد قول القائل «تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيع» فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحايا والسلام، ثم يعلِّل الأتباع ذلك بقولهم: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ هذا أيضًا من كلام الأتباع دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ﴾ والضعفُ: زيادة المثل[3] قال البيضاوي: وقال الأتباع أيضًا: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا، وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين[4] ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين. قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد يقول أبو جهل: أين بلال، أين صهيب، أين عمار؟ أولئك في الفردوس! واعجبًا لأبي جهل! مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه وكفر هو[5]. قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالاً وعمارًا وصهيبًا وفلانًا وفلانًا؟ وهذا ضربُ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم[6]، ثم قالوا: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١١٣.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٢٢.
(٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٨.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥١.
(٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٢٤.
(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٧.

سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ؟ أي يؤنبون أنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءًا وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟ قال البيضاوي: إنكار على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسخار من المؤمنين، كأنهم قالوا: ليسوا هاهنا في النار؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم[١]؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصُمِهم- لهو الحقُّ الذي لابدَّ أن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن تخاصمهم في جهنم، وعن أقوالهم وهم فيها. قال الرازي: وإنما سمَّى الله تعالى تلك الكلمات تخاصمًا؛ لأن قول الرؤساء: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ وقول الأتباع: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ من باب الخصومة[٢] ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية، والمعاد، والجزاء أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي: وليس لكم ربٌّ ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد. قال الرازي: لما ذكر أنه «قهار» وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار» فكونه ربًّا مشعر بالتربية والإحسان وكونه عزيزًا مشعرٌ بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفارًا مشعر بالترغيب وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار[٣] ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه ولا تعلمون قدره ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليَّ؟ قال ابن جزي: والقصدُ الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك، والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن[٤] ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إليَّ إلا لأني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير: المنذر المخوّف من عذاب الله.. ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ أي اذكر حين أعْلَمَ ربُّك الملائكةَ أنه سيخلق إنسانًا من طين وهو آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥١ .
(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٢٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٢٤ .
(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٩ .

فإذا أتممتُ خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكرامًا له وإعظامًا . قال القرطبي : وهذا سجود تحية لا سجود عبادة[١] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعًا له وتعظيمًا لأمر الله بالسجود له ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين. قال ابن كثير : امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسًا، كان من الجن[٢]، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خيرٌ من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؟ أي قال له ربه : ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أب وأم؟ قال القرطبي : أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؟ أي استكبرت الآن عن السجود أم كنت قديمًا من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي قال اللعينُ : أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أي لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خيرٌ من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أخِّرْني وأمهلني إلى اليوم الذي تُبعث فيه الخلائق من القبور . قال أبو السعود : أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية؛ إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه[٣] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي إنك من الممهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهلتك ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي قال اللعين : أُقسم بعزتك لأُضلنَّ بني آدم أجمعين إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قال تعالى : أُقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقَّ لأملأن جهنم منك ومن أتباعك . قال السُّدي : هو قسم أقسم الله به[٤]، وجملة ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضية لتأكيد القسم ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد : لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى أنتحل النبوة وأتقوَّل

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٢٧ .

(٢) هذا هو الرأي الصحيح أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، وقد تقدم قول الحسن البصري : «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين» وهذا هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وتدل عليه النصوص الكريمة كقوله تعالى : ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ وانظر الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء» ١/ ١٢٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٨ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٩ .

القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي ولتعلمنَّ خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيدٌ وتهديد. قال الحسن البصري: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وهذه من ألطف أنواع البديع.

٢ - الكناية ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ كنّى عن العقر والذبح بالمسح وهي كناية بليغة.

٣ - الطباق بين ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ لأنها بمعنى أعط من شئت، وامنع من شئت.

٤ - مراعاة الأدب ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أسند الضرر إلى الشيطان أدبًا، والخير والشر بيد الله تعالى.

٥ - الاستعارة التصريحية ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ استعار الأيدي للقوة في العبادة والأبصار للبصيرة في الدين.

٦ - المقابلة الرائعة ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ ثم قابل ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ وياله من تصوير رائع!

٧ - التأكيد بمؤكدين ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فقد أكده أولاً بلفظ «كل» ثم بلفظ «أجمعون».

٨ - مراعاة الفواصل وهي من خصائص القرآن ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب، يسري في النفس سريان الروح في الجسد، وأقسم بالله إنني أشعر بهزة في نفسي كلما قرأتُ القرآن؛ لما له من وقع عذب على السمع، وأحيانًا أجدني أتمايل طربًا بدون شعور أكثر مما يتمايل المغرمون بالأنغام، وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن، وصدق رسول الله حين قال: «إن من البيان لسحرًا».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة «ص» ولله الحمد والمنة»
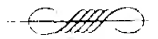
تفسير سورة الزمر

بَيْن يدَي السُّورَة

* سورة الزمر مكية، وقد تحدثت عن «عقيدة التوحيد» بالإسهاب، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة السليمة، وأصل كل عمل صالح.

* ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ﷺ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله، وتنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردَّت على ذلك بالدليل القاطع.

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين في إبداعه لخلق السموات والأرض، وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء، حيث يذوقون ألوان العذاب، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم.

* وذكرت السورة مثلًا يوضِّح الفارق الكبير بين من يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهةً متعددة لا تسمع ولا تستجيب، وهو مثلٌ للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون، والعبد الذي يملكه سيد واحد، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشُّوا وبشُّوا.

* ثم جاءت الآيات طريَّةً نديَّة تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه قبل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذٍ يتوبون ويندمون في وقتٍ لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور، وما يعقبهما من أهوال الآخرة وشدائدها، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر، حيث يساق المتقون الأبرار إلى الجنة زمرًا، ويساق المجرمون الأشرار إلى جهنم زمرًا في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء والأبرار، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام.

__التسمية__: سميت «سورة الزمر» لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . . إلى . . وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠).

اللُّغَةَ: ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قربى، ومنه ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قرّبت لهم ﴿يُكَوِّرُ﴾ التكوير: اللَّفُّ والليُّ يقال: كوَّر العمامة أي لفَّها ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه وملَّكه ﴿قَٰنِتٌ﴾ مطيع خاضع عابد ﴿أَندَادًا﴾ أوثانًا وأصنامًا ﴿ظُلَلٌ﴾ جمع ظُلّة وهي ما يُظِل الإنسان من سقف ونحوه ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحدِّ، والمراد بالطاغوت كل ما عُبد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر، «أنابوا» رجعوا ﴿غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة، والغرفة: المنزلة والمكانة السامية، ومنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾.

التَّفسير: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله جل وعلا

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتقدير وتدبير، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمنًا الحق الذي لا مرية فيه، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصا له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم؛ لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطَّلع على السرائر والضمائر، ومعنى «الخالص»: الصافي من شوائب الشرك والرياء، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربى ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم: من خلقكم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ ومن ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذبًا على ربه، مبالغًا في كفره، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولدًا على سبيل التبني؛ إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف، ولكنه لم يشأ ذلك لقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، وقوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها واخترعها، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي تنزه جل وعلا وتقدس عن الشريك والولد؛ لأنه هو الإله الواحد الأحد، المنزَّه عن النظير والمثيل، القاهر لعباده بعظمته وجلاله. قال في التسهيل: نزَّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له؛ ولدٌ لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد؛ لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكًا له[2]؟ ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته وعظمته، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي يغشي الليل على النهار، ويغشي النهار على الليل، وكأنه يلفُّ عليه لَفَّ اللابس على الملابس قال القرطبي: وتكويرُ الليل على النهار تغشيتُه إياه حتى يُذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة، وهو معنى قوله

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٦٦. (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٩١.

تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [1]، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذلَّلهما لمصالح العباد ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي كلٌّ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة حين تكور الشمس وتنكدر النجوم، ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي هو جل وعلا كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان. قال الصاوي: صُدِّرت الجملة بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري، الستَّار لذنوب خلقي فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحدًا [2]. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي خلقكم أيها الناس من نفسٍ واحدة هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل. قال الطبري: المعنى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: يعني: آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء خلقها من ضلعٍ من أضلاعه [3] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، ثمانية أزواج من كل نوعٍ ذكرًا وأنثى. قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، كلٌّ واحدٍ زوج [4]، وسميت أزواجًا؛ لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر. قال المفسرون: والإنزالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم أطوارًا، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر، ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ هي البطن، والرحم، والمشيمة [5] وهو -الكيس الذي يغلّفُ الجنين- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله ربُّ العالمين، ربكم وربُّ آبائكم الأولين ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له الملك والتصرف التام، في الإيجاد والإعدام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله ولا ربَّ لكم سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بعد أن ذكَّرهم بآياته ونعمه، حذَّرهم من الكفر والجحود لفضله وإحسانه، فقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي إن تكفروا أيها الناس بعدما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغنٍ عنكم وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي لا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر. قال الرازي: أشار تعالى إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه، وإن كان واقعًا بمشيئته وقضائه [6] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٥.
(٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٤.
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٥.
(٥) يقول سيد قطب في الظلال: «في ظلمات ثلاث: هي ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه الجنين، وظلمة البطن الذي يستقر فيه الرحم، ويدُ الله تخلق هذه الخلية الصغيرة، وعينُ الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو، والقدرة على التطور، والقدرة على الارتقاء، كما قدر لها بارئها» الظلال ٩/ ٣٠٣
(٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٦.

لَكُمْ﴾ أي وإن تشكروا ربكم يَرْضَ هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم. قال أبو السعود: عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم؛ ودفع مضرَّتهم، رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين، ولهذا فرَّق بين اللفظين فقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وقال هنا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليله بكونهم عباده[1] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى، بل كلٌّ يؤاخذ بذنبه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تُكِنُّه السرائر وتخفيه الضمائر، وفيه تهديدٌ وبشارة للمطيع ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرضٍ وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلاً إليه مخبتًا مطيعًا، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته، ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه وتمرَّد وطغى، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرٌ للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرك، عمرًا قليلاً وزمنًا يسيرًا، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، أي أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجدًا وقائمًا كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا؟، قال القرطبي: بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره[2] ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي حال كونه خائفًا من عذاب الآخرة، راجيًا رحمة ربه وهي الجنة، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله، ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أي هل يتساوى العالم والجاهل؟ فكما لا يستوي هذان كذلك لا يستوي المطيع والعاصي[3] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة. قال الإمام الفخر: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية، وفي الكلام حذف تقديره... أمَّنْ هو قانتٌ... كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف، لدلالة الكلام عليه؛ لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، ثم مثَّل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم[4] ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين:

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٢.
(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٨.
(٣) انظر حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ١٩٤.
(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٥٠.

يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله وهي البعدُ عن محارم الله قال المفسرون: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة، والغرضُ منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة(١) ومعنى التقوى: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وكأن العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية(٢) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنةٌ عظيمة في الآخرة، وهي الجنة دار الأبرار ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرضٍ لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن. قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يُغرف غرفًا(٣) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي قل يا محمد: أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. قال المفسرون: وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أنَّ غيره بذلك أحق، فهو كالترغيب للغير ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأُمرت أيضًا بأن أكون أولَ المسلمين من هذه الأمة. قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم وجهه لله وآمن به ودعا إليه(٤) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم. قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي؛ لأنه ﷺ إذا كان خائفًا مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم(٥). ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصًا له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار؛ لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحدًا سواه ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد، أي اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام فسوف ترون عاقبة كفركم كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: حقيقةُ الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يَصْلَوْن سعيرها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران. قال ابن عباس: إنَّ لكل رجلٍ منزلاً وأهلاً وخدمًا في الجنة، فإن أطاع الله أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله(٦) ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم، ذلك هو الخسرانُ الواضح الذي ليس بعده خسرانٌ! قال أبو حيان: بالغ في بيان الخسران بأداة التنبيه «ألا» وبالإشارة إليه «ذلك»، وتأكيده بأداة الحصر «هو»، وتعريفه بأل ووصفه بأنه بيّن، ﴿الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل(٧)، ثم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٩٢ .
(٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٨ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٥ .
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٢ .
(٥) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٩ .
(٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٥٦ .
(٧) البحر المحيط ٧/ ٤٢٠ .

لما ذكر خسرانهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظلل أطباقٌ من نار جهنم، وتسميتها ظُللاً تهكمٌ بهم؛ لأنها محرقة، والظلةُ تقي من الحر، ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم، ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. قال الزمخشري: وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة [1]- والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتقوها بطاعة ربهم، ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك والعصيان، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب، والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد. قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت، والمراد به الشيطان وُصِف به للمبالغة [2] ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي فبشّر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه. قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به [3] -وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصَّروه وعملوا بما فيه، وأحسنُ الكلام كلام الله وخير الهدي هديُ محمد ﷺ وإنما وضع الظاهر ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ بدل الضمير «فبشّرهم» تشريفًا لهم وتكريمًا بالإضافة إليه سبحانه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى، وجوابه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته؟ لا، ثم قال تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك؟، قال القرطبي: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية، وقال ابن عباس: يريد «أبا لهب» وولده ومن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيدًا لطول الكلام والمعنى: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه [4]؟ ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي لكنْ المؤمنون الأبرار، المتقون للهِ في الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٩٣ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٥ .
(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٤ .
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٤ وهذا القول الثاني رجحه صاحب التسهيل .

وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجدٍ وياقوت [١] ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي وعدهم الله بذلك وعدًا مؤكدًا لا يمكن أن يتخلف؛ لأنه وعد العزيز القدير .

تَنْبِيهٌ: قال الزمخشري: أفاد قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نُقَّادًا في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها دليلًا، وأبينها أمارة، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل «ولا تكن مثل عير قِيدَ فانقادا» [٢].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ . . إلى . . عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣١).

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالاتهم في عبادة غير الله، أردفه بذكر دلائل الوحدانية، ثم ذكر القرآنَ العظيم أشرف الكتب السماوية المنزَّلة، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذَّب به المكذبون، ثم ضرب للمشرك والموحّد مثلاً في غاية الوضوح .

اللُّغَة: «سلكه» أدخله ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء النابع من الأرض ﴿يَهِيجُ﴾ ييبس، قال الأصمعي: هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتُها وولَّى [٣]، وقال الجوهري: هاج النَّبْت هياجًا إذا يبس، وأرضٌ هائجة إذا يبس بقلُها أو اصفرَّ [٤] ﴿حُطَـٰمًا﴾ فُتاتًا وهشيمًا، من تحطَّم العود إذا تفتَّت من اليبس ﴿شَرَحَ﴾ فتح ووسَّع «قاسية» قسا القلبُ: إذا صلب وكذلك عتا وعسا، وقلبٌ قاسٍ أي صلب لا يرقُّ ولا يلين ﴿مَّثَانِىَ﴾ مكررًا فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿ٱلْخِزْىَ﴾ الذل والهوان ﴿مُتَشَـٰكِسُونَ﴾ متنازعون ومختلفون، ورجلٌ شكس: شرس الخُلق والطباع .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

(١) هذا قول ابن عباس .
(٢) تفسير الكشاف ٤/ ٩٣ .
(٣) القرطبي ١٥/ ٢٤٦ .
(٤) انظر الصحاح والقاموس المحيط .

رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

التَّفْسِير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي ألم تر أيها الإنسان العاقل أنَّ الله بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدخله مسالك وعيونًا في الأرض وأجراه فيها. قال المفسرون: وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئًا فشيئًا. قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروق في الأرض تغيِّره[1] ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواعَ الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك. قال البيضاوي: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي أصنافه من بر وشعير وغيرهما، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما[2] ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس فتراه بعد خضرته مصفرًا ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي ثم يصبح فتاتًا وهشيمًا متكسرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة، ودلالةً على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة، والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلابدَّ من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسرًا كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت. قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخًا هرمًا، كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير[3] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي وسَّع صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه سياق الكلام، تقديره: كمن هو أعمى القلب، معرضٌ عن الإسلام؟ قال الطبري: وتُرِك الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده، وتقديره: كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[4]؟ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، والمراد بـ«ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر - ولما بيَّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي اللهُ نزَّل القرآن العظيم أحسن الكلام. قال أبو حيان: والابتداء باسم «اللهُ» وإسناد «نزَّل» لضميره، فيه تفخيمٌ للمُنزل، ورفعٌ من قدره كما تقول: الملكُ أكرم فلانًا، فإنه أفخم من أكرم الملك فلانًا، وحكمةُ

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٧.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٤.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣٤.

ذلك البداءةُ بالأشرف[1] ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي قرآنًا متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، بدون تعارضٍ ولا تناقض ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي تُثنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، وتُردَّد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل. قال الطبري: تُثنَّى أي: تكرر فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج[2] ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنين خشيةٌ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبةً من الرحمن وإجلالاً لكلامه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله. قال المفسرون: إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم. وقال العارفون: إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثرٌ من عالم الجمال عاشوا[3] قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد تقشعر جلودهم من الخشية والخوف، وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه[4] ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفتُه هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسيًا مظلمًا، فليس له مرشدٌ ولا هاد بعد الله ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره: كمن هو آمنٌ من العذاب؟ قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئًا يتقونها به إلا وجوههم ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وتقول خزنة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كذَّب من قبلهم من الأمم السابقة فأتاهم العذاب من جهةٍ لا تخطر ببالهم ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فأذاقهم الله الذُّلَّ والصغار والهوان في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولعذاب الآخرة الذي أُعدَّ لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذبوا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينا ووضحنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال النافعة، والأخبار الواضحة ما يحتاجون إليه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي حال كونه قرآنًا عربيًا لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه، ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله ولمن يوحِّده فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٢.
(٢) الطبري ٢٣/ ١٣٥.
(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٧٢.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٧.

مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجلٌ من المماليك اشترك فيه ملاكٌ سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في حوائجهم، هذا يأمره بأمرٍ وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحيِّر موزّع القلب، لا يدري لمن يرضى؟ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ هذا من تتمة المثل أي ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا إحسانًا ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى. قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص[1]. وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد[2]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان المثل بيِّنًا واضحًا في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلَّد أحد في هذه الدار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ .. إلى .. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ من آية (٣٢) إلى نهاية آية (٥٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتدادهم بشفاعة الأوثان والأصنام.

اللغة: ﴿مَثْوًى﴾ مأوى ومقام، مشتقٌ من ثَوى بالمكان إذا أقام به ﴿يُخْزِيهِ﴾ يُهينه ويُذله ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرتْ وانقبضتْ ﴿فَاطِرَ﴾ خالق ومبدع ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ يظنون ويؤملون، يقال: جاءه الأمر من حيث لا يحتسب أي من حيث لا يظن «حاق» نزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خَوَّلْنَاهُ﴾ منحناه وأعطيناه تفضلاً وكرمًا «معجزين» فائتين من العذاب «يقدر» يضيق ويُقتِّر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٩. (٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٧٧.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ .

التفسير: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي وكذَّب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل؟ أي لا أحد أظلم ممن حالُه ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أي أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقريري، أي: بلى لهم مأوى ومكان ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء، والذين صدَّقوا به وهم المؤمنون أتباعُ الرسل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور، والقصور، والملاذِّ، والنعيم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الذي ينالونه هو ثواب كل محسن أحسن في هذه الحياة. قال بعض المفسرين: «الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدَّق به» هو أبو بكر رضي الله عنه [1]، والاختيارُ أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ويدل عليه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع، وهذا اختيار ابن عطية ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي هؤلاء الذين صدَّقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة فلا

---

(١) روي هذا عن مجاهد وقتادة، والراجح أن الآية على العموم في الرسل والمؤمنين.

يعاقبهم بها، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ويثيبهم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً منه وكرمًا. قال المفسرون: العدلُ أن تُحسب الحسنات وتُحسب السيئات، ثم يكون الجزاء، والفضلُ هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتُهم وتعلو وترجّح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ الهمزة للتقرير، أي أليس الله كافيًا عبدَه ورسوله محمدًا ﷺ من شر من يريده بسوء؟، قال أبو السعود: هذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفنَّ عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنّك منها خبل أو جنون[1]. وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبِّ آلهتنا وتعييبنا لنسلِّطنها عليه فتصيبه بخبَل وتعتريه بسوء، فأنزل الله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي هو كافٍ عبده، وإضافته إليه تشريفٌ عظيمٌ لنبيه[2] ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحدٌ كائنًا من كان ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي ومن أراد اللّهُ سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾؟ أي هو تعالى منيع الجناب لا يُضام من لجأ إلى بابه، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه؛ لأنه غالب لا يُغلب، ذو انتقام من أعدائه، وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعدٌ للمؤمنين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان، أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمَّن خلق السموات والأرضَ ليقولُنَّ: اللهُ خالقهما، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية. قال الرازي: إنَّ العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرةُ العقل شاهدةٌ بصحة هذا العلم، فإنَّ من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لابدَّ من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم؛ ولهذا أقر المشركون بوجود الله[3]. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وتبكيتًا: أخبروني - بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله- عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾؟ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضُّرَّ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾؟ أي لو أراد الله بي نفعًا من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فسيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة[4] ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢٩.
(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٨٢.
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥٩.

﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي الله كافيني فلا ألتفت إلى غيره، وعليه وحده يعتمد المعتمدون، والغرض الاحتجاج على المشركين في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحدانية ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟ والغرض التهديد والتخويف. قال أبو السعود: وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعارٌ بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر(١). ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لجميع الخلق، بالحقِّ الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ أي فمن اهتدى فنفعُه يعود عليه، ومن ضلَّ فضررُ ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ليستَ بموكَّل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان. قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ، والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال(٢). ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي الوفاة الصغرى. قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار، ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم؛ لأن النائم كالميت، في كونه لا يُبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وفي الآية عطف، والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها(٣). وقال ابن كثير: أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة -الملائكة- الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام(٤). ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموتَ فلا يردها إلى البدن، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي. قال ابن عباس: إنَّ أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها(٥). قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه(٦)؛ ولهذا قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في هذه

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠ .
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٤ .
(٣) التسهيل ٣/ ١٩٦ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٢ .
(٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٠ .
(٦) القرطبي ١٥/ ٢٦٣ .

الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أمْ للإضراب أي لم يتفكروا بل اتّخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئًا أصلاً شفعاء لهم عند الله. قال ابن كثير: هذا ذمٌّ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله -وهي الأصنام والأوثان- التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات[١] ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام توبيخي أي قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة، جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم: الشفاعةُ للهِ وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في المُلك والملكوت. قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك المُلكِ كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه[٢] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًّا بعمله.

ثم ذكر تعالى نوعًا آخر من أفعالهم القبيحة فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي وإذا أُفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إله إلا اللهُ ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسرون قال الإمام الفخر: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإنك إذا ذكرتَ الله وحده وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ظهرت آثار النفرة في وجوهم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات وذكر الأصنام الجمادات رأس الجهالات والحماقات فنفرتُهم عن ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحُمق الشديد[٣] ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل: يا ألله يا خالق ومبدع السموات والأرض ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي يا عالم السرِّ والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مشاهد بالأبصار ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين. قال في البحر: لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه، وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام[٤]. وقال الصاوي: أي التجئْ إلى ربك بالدعاء والتضرع فإنه القادر على كل شيء[٥] ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي ولو أنَّ لهؤلاء المشركين

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٢. (٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٤. (٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٨٦.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٢. (٥) حاشية الصاوي ٣/ ٣٧٥.

الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فديةً لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهر له من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم. قال أبو السعود: وهذه غايةٌ من الوعيد لا غاية وراءها، ونظيرها في الوعد ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [(١)]، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانب جزاءُ ما كانوا يستهزئون به. قال ابن كثير: أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا [(٢)]. ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيءٌ من الشدة والبلاء، تضرَّع إلى الله وأناب إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلاً عليه وكرمًا، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد: إنما أُعْطيته على علمٍ مني بوجوه المكاسب والمتاجر، ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل هي اختبارٌ وامتحانٌ له، لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار وابتلاء فلذلك يبطرون، ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحُطام، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين -كفار قريش- ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك. قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدرٍ صناديدهم [(٣)] ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هربًا ولا يفوتوننا طلبًا، ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسِّع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعًا لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في الذي ذكر لعبرًا وحججًا لقوم يصدِّقون بآيات الله. قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجًا، وأن تقتيره قد يكون إعظامًا [(٤)].

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١١.
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٤.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٦.
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٧.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ . . إلى . . وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٧٥) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وختم السورة بذكر عظمة الله وجلاله يوم الحشر الأكبر، حيث يكون العدل الإلهي والقسطاسُ المستقيم، ويساق السعداء إلى الجنة زمرًا، والأشقياء إلى النار زمرًا ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا . . .﴾ الآية.

اللُّغَةُ: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مَثْوَى﴾ مكان إقامة يقال: ثوى بالمكان أقام فيه ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن ومفاتيح ﴿زُمَرًا﴾ جماعات جماعات جمع زُمرة وهي الجماعة ﴿خَزَنَتُهَا﴾ حُرّاسها الموكلون عليها ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ تبوأ المكانَ: حلَّ ونزل فيه ﴿حَافِّينَ﴾ محيطين به من أطرافه وجهاته.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾.

التَّفسِير: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أخبرْ يا محمد عبادي المؤمنين الذين أفرطوا

في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت[1] ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم، فيه سعادتكم وفلاحكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه. قال مجاهد: يا حسرتا على ما ضيعتُ من أمر الله[2] ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه. قال قتادة: لم يكفه أن ضيَّع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ «أو» للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا، والمعنى: لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين. قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل[3] ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب: لو أن لي رجعة إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأُحْسِنُ سيرتي وعملي ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ هو جواب قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ والمعنى: بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين. قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[4]، ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوهُهم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ استفهام تقريري أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن؟ بلى إنَّ لهم منزلاً

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٧.
(٢) القرطبي ١٥/ ٢٧١.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٧.
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٧.

ومأوى في دار الجحيم.

ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم هلعٌ ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره. ولا ربَّ سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي هو القائم بتدبير كل شيء ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره قال ابن عباس: «مقاليد» مفاتيح، وقال السُّدي: خزائنُ السمواتِ والأرض بيده [1] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي والذين كذَّبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة- أولئك هم الخاسرون أشدَّ الخسران ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ ؟ أي قل يا محمد: أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون؟، قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسولَ الله إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه آلهه فنزلت الآية [2] ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي واللهِ لقد أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ ويفسدنَّ عملك الصالح، ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي ولتكوننَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فالرسول قد عصمه الله، وحاشى له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد. قال أبو السعود: والكلام واردٌ على طريقة الفرض لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه [3]. ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحدًا سواه ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي وكن من الشاكرين لإنعام ربك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظّموه حقَّ تعظيمه. قال أبو حيان: أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، وما قَدَّروه في أنفسهم حقَّ تقديره؛ إذ أشركوا معه غيره، وساوَوا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة [4].

ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الجملة حالية والمعنى: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال، فالأرضُ مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي والسموات مضمومات ومجموعات بقدرته تعالى. قال الزمخشري:

(١) القرطبي ١٥/ ٢٧٤.
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٤.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٩.

والغرضُ من هذا الكلام تصويرُ عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهابٍ بالقبضة واليمين إلى جهة وفي الحديث «يقبضُ اللهُ تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ أين ملوكُ الأرض؟» ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفاتِ العجز والنقص، ثم ذكر تعالى أهوال الآخرة فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هو قرنٌ ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام- بأمر الله، والمراد بالنفخة هنا «نفخة الصَّعق» التي تكون بعد نفخة الفزع قال ابن كثير: وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي فخرَّ ميتًا كل من في السموات والأرض ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلاَّ من شاء الله بقاءه كحملة العرش، والحور العين والولدان ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أي نُفخ فيه نفخةٌ أخرى وهي نفخةُ الإحياء ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يؤمرون ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى الباري -جل وعلا- لفصل القضاء بين العباد ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم، وبالشهداء، وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . وقال السُّدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي وقضي بين العباد جميعًا بالقسط والعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وهم في الآخرة لا يظلمون شيئًا من أعمالهم، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب. قال ابن جبير: لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جوزي كل إنسان بما عمل من خيرٍ أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزامًا للحجة، ثم فصَّل تعالى مآل كلٍّ من الأشقياء والسعداء فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعاتٍ جماعات كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ ؟ أي وقال لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا: ألم يأتكم رسلٌ من البشر يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء؟ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ؟ أي ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي قالوا: بلى قد جاءونا

الكشاف ٤/ ١١٠ .

أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري. وقال ابن كثير: وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تحريف .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٩ .

(٤) هذا قول ابن زيد، وهو الأظهر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالسائق يسوقها إلى الحساب، والشاهد يشهد عليها وهو الملك الموكل بالإنسان .

وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقاوة. قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب. قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١]، ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي قيل لهم: ادخلوا جهنَّم لِتَصْلَوْا سعيرها ماكثين فيها أبدًا، بلا زوال ولا انتقال ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعاتٍ جماعات راكبين على النجائب. قال القرطبي: سوقُ أهل النار طردُهم إليها بالخزي والهوان، كما يُفعَل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوقُ أهل الجنان: سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، كما يُفعل بالوافدين على الملوك، فشتَّان ما بين السوقين[٢] ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابُها كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ قال الصاوي: والحكمةُ في زيادة الواو هنا «وفُتحت» دون التي قبلها: أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظارًا لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها[٣] ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طُهِّرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود. قال البيضاوي: وجواب «إذا» محذوف للدلالة على أنَّ لهم من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف والبيان[٤]. قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سُعِدوا، وطابوا، وسُرّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم[٥] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة، قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي وملَّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحون الله ويمجدونه تلذذًا لا تعبدًا، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي وقُضي بين العباد بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه. قال المفسرون: القائل هم المؤمنون والكافرون، المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه على عدله. قال ابن كثير: نطق الكونُ

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٥.
(٣) حاشية الصاوي ٣/ ٣٨١.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٧.
(٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٢.

أجمعُه، ناطِقُه وبهيمُه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يُسْنِدِ القولَ إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد[١].

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين «تكفروا- وتشكروا» وبين «يرجو- ويحذر» وبين «فوقهم- وتحتهم» وبين «ضر- ورحمة» وبين «الغيب- والشهادة» وبين «يبسط- ويقدر» وبين «اهتدى- وضل» إلخ.

٢- جناس الاشتقاق ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وكذلك في قوله: ﴿أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

٣- الأسلوب التهكمي ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إطلاق الظلة عليها تهكم؛ لأنها محرقة، والظلة تقي من الحر.

٤- المقابلة الرائعة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ الآية فقد قابل بين الله والأصنام، وبين السرور والاشمئزاز، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ والمقابلةُ أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وهو من المحسنات البديعية.

٥- الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾؟ أي كمن هو كافر جاحد لربه؟

٦- الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ ومثله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ للمبالغة في الوعيد.

٧- المجاز المرسل ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؟ أطلق المسبب وأراد السبب؛ لأن الضلال سبب لدخول النار.

٨- الاستعارة ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مفاتيح خيراتهما، ومعادن بركاتهما، فشبَّه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد، بمعنى المفاتيح، ومعنى الآية: خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

٩- الاستعارة التمثيلية ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مثَّل لعظمته وكمال قدرته، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئًا عظيمًا بكفه، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية، قال في تلخيص البيان: وفي الآية استعارة، ومعنى ذلك أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه غيره، والسموات مجموعات في ملكه ومضمومات بقدرته. وقال الزمخشري: والآية لتصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة؛ لأن الغرض الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى بابًا في

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٣.

علم البيان أدق ولا أرقَّ ولا ألطف من هذا الباب .

١٠- الكناية ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ جنبُ الله كنايةٌ عن حقِّ الله وطاعته، وهذا من لطيف الكنايات .

١١- الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والأصل: لا تقنطوا من رحمتي . قال علماء البيان: وفي الآية الكريمة ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . .﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان: منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة التشريف، ومنها: الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات، ومنها: الإتيان بالجملة المعرَّفة الطرفين المؤكدة بإن وضمير الفصل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

١٢- توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو نهاية في الروعة والجمال، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ألا تأخذك روعة هذا البيان برونقه، وجماله، وأدائه، فينطلق لسانك بذكر الرحمن؟!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر»
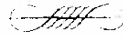
بَيْن يَدَي السُّورَة

* سورة غافر مكية، وهي تُعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين «الحق والباطل» و«الهدى والضلال»؛ ولهذا جاء جوُّ السورة مشحونًا بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان.

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش، في دعائهم الخاشع المنيب.

وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها، فإذا العباد واقفون للحساب، بارزون أمام الملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب، واليوم العصيب، يلقى الإنسان جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى -عليه السلام- لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد -بكبريائه وجبروته- أن يقضي على موسى وأتباعه؛ خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة، لم تُعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يُخفي إيمانه، يَصدع بكلمة الحق في تلطفٍ وحذر، ثم في صراحةٍ ووضوح، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

* ثم تعرض السورة إلى بعض الآيات الكونية، الشاهدة بعظمة الله، الناطقة بوحدانيته وجلاله، الذي يشركون به ويكفرون بآياته، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالمؤمن على نور من الله وبصيرة، والكافر يتخبط في الظلام.

* وتختم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين، والطغاة المتجبرين، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون.

التسمية: سميت «سورة غافر»؛ لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل -الذي هو من

صفات الله الحسنى - في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ وتسمى سورة «المؤمن» لذكر قصة مؤمن آل فرعون .

اللُّغَة : ﴿غَافِرِ﴾ الغفْر : السترُ والمحو والتكفير ﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ الإنعام والتفضل «يدحضوا» يبطلوا ويزيلوا ، يقال : الباطلُ داحضٌ ؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر ﴿حَقَّتۡ﴾ وجبت ولزمت «مقت» المقت : شدة البغض ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الوحيُ والنبوة سمي رُوحًا ؛ لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ الاجتماع في الحشر ﴿بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ اسم للقيامة سميت آزفة لقربها ، يقال : أزف الشيء : إذا اقترب ﴿وَاقٍ﴾ دافع يدفع عنهم العذاب .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ .

التَّفْسِير : ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإرشاد على أن هذا القرآن

المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، العليم في خلقه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأناب ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي الفضل والإنعام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله، ولا ربَّ في الوجود سواه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم، وإنما قدَّم المغفرة والتوبة على العقاب، للإشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت عذابه، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن -بعد وضوح آياته وظهور إعجازه - إلا الجاحدون لآيات الله، المعاندون لرسله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي فلا تغترّ أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا، بالمساكن والمزارع، والممالك والتجارات، فإنهم أشقى الناس، وما هم عليه من النعيم متاعٌ قليل، وظلٌّ زائل، فإني وإن أمهلتهم لا أهملُهم، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر. قال في التسهيل: والآية تسليةٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ شديد للكفار[٢] ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي كذَّب قبل كفار مكة أقوام كثيرون، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي وهمت كل أمةٍ من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به. قال ابن كثير: أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[٣] ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي فأهلكتهم إهلاكًا مريعًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام تعجيب أي فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديدًا فظيعًا؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم أهل النار. قال الطبري: أي كما حقَّ على الأمم التي كذبت رسلها وحلَّ بها عقابي، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك؛ لأنهم أصحاب النار[٤]... ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار، والمؤمنين الأبرار، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء العباد المقربون - حملةُ العرش- ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يُحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (حاميم) وتسمى الحواميم السبع أو آل حاميم.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٣٥).
(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٣).

صفات النقص، ويثنون عليه بصفات الكمال ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي ويصدقون بوجوده تعالى، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته. قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ فالجواب: أن ذلك إظهار لفضيلة الإِيمان وشرفه والترغيب فيه [1]. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي وهم مع عبادتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي يا ربنا وسِعَتْ رحمتك وعلمك كل شيء. قال المفسرون: وفى وصف الله تعالى بالرحمة والعلم - وهو ثناء قبل الدعاء - تعليم العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدأون دعاءهم بأدب ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه [2]. ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصى، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياؤك ورسلك، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي واحفظهم من عذاب جهنم، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي أدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضًا ليتم سرورهم بهم. قال ابن كثير: أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاورة [3] ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يغلب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا من تمام دعاء الملائكة، أي احفظهم يا رب من فعل المنكرات والفواحش التي تُوبِقُ أصحابها ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله. .ولما تحدث عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئًا من أحوال الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تناديهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع: لَبُغْضُ الله الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي حين كنتم تُدْعون إلى الإيمان فتكفرون كبرًا وعتوًّا. قال قتادة: بغض الله لأهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله [4]. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال: ربنا أمتنا مرتين، وأحييتنا مرتين ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي فهل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتة الأولى حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا، والحياة الثانية حياة البعث يوم

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١١٨).
(٢) انظر البحر المحيط (٧/ ٤٥١).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٣٦).
(٤) نفس المرجع (٣/ ٢٣٧).

القيامة، فهاتان موتتان وحياتان[١]، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله، بعد أن عاينوا العذاب، وقد كانوا يكفرون وينكرون؛ ولهذا جاء الجواب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزى وأمثالهما من الأصنام، آمنتم وصدقتم بألوهيتها ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء لله وحده لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلى نجاتكم؛ لأن الله هو المتعالى على خلقه، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي الله -جل وعلا- هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي وينزل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا للمبالغة أي اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون ذلك، وغاظهم إخلاصكم وقاتلوكم عليه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله. قال ابن كثير: أخبر تعالى عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، وقد ذكر أن العرش من ياقوتة حمراء ولا يعلم سعته إلا الله[٢]. وقال أبو السعود: وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته- مما يقضى بكون علو شأنه وعظم سلطانه، في غاية لا غاية وراءها[٣]. ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ينزل الوحى على من شاء من خلقه ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده، وإنما سُمِّي الوحى روحًا؛ لأنه يسرى في القلوب كسريان الروح في الجسد. قال القرطبى: سماه روحًا؛ لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح[٤]. ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي ليخوف الرسول الموحى إليه يوم القيامة الكبرى، حيث يلتقى العباد جميعًا ليحاسبوا على

---

(١) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة، قالوا: وهذه مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ الآية.

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٣٨).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٥).

(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٩٩).

أعمالهم، ويلتقى الخلق بالخالق في ساعة الحساب. قال قتادة: يلتقى فيه أهل السماء بأهل الأرض، و الخالق والخلق[١]. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان، لا شيء يُكِنّهم ولا يظلهم ولا يسترهم من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأنهم في أرض مستوية هى أرض المحشر ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم. قال الصاوى: والحكمة في تخصيص ذلك اليوم - مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام - أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلًا لا يراهم الله، وفى هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم[٢]. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ ؟ أي ينادى الله سبحانه والناس بارزون في أرض المحشر: لمن الملك اليوم؟ ويسكت الخلائق هيبة لله تعالى وفزعًا، فيجيب تعالى نفسه قائلًا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي لله المتفرد بالملك، الذي قهر بالغلبة كل ما سواه. قال الحسن: هو تعالى السائل وهو المجيب؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه[٣] ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾ أي في ذلك اليوم - يوم القضاء والفصل بين العباد - تجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ أي لا يُظْلم أحد شيئًا، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريع حسابه، لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعًا في وقت واحد. قال القرطبى: كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وفى الخبر: «لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»[٤] ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي خَوِّفْهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة. قال ابن كثير «الآزفة» اسم من أسماء القيامة؛ سميت بذلك لقربها كقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾[٥] ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر - وهى الحلوق - مكان البلعوم ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ أي ممتلئين غمًّا وحسرة شأن المكروب. قال في التسهيل: معنى الآية: أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر ويحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازًا عبر به عن شدة الخوف، والحنجرة هى الحلق[٦] ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ليس للظالمين صديق ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي يعلم جل وعلا العين الخائنة بِمُسَارقتها النظر إلى محرم. قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسًا مع الناس، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي ويعلم السر المستور تخفيه الصدور ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ﴾ أي يقضى ويحكم بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٣٨). (٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٥).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٠).
(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠١). ومعنى «يقيل» من القيلولة، وهي الاستراحة وقت الظهيرة.
(٥) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٣٩). (٦) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٤).

﴿بِشَيْءٍ﴾ أي لا حكم لهم أصلاً فكيف يكونون شركاء لله؟ قال أبو السعود: وهذا تهكم بهم؛ لأن الجماد لا يقال في حقه: يقضي أو لا يقضي[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ أي أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فينظروا ما حل بالمكذبين من العذاب والنكال؟ فإن العاقل من اعتبر بغيره ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أشد قوة من هؤلاء الكفار من قومك ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وأقوى آثارًا في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم الله إهلاكًا فظيعًا بسبب إجرامهم وتكذيبهم رُسُلَ الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله: ولا يقيهم من عقابه . . . ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الواضحات ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمرهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ أي إنه تعالى قوى لا يقهر، ذو قوة عظيمة وبأس شديد ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه، وعذابه أليم وجيع، أعاذنا الله من عقابه وأجارنا من عذابه.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . . . إلى . . . أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ من الآية (٢٣) إلى الآية (٤٦).

المناسبة: لما ذكر تعالى ما حل بالكفار من العذاب والدمار، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون، تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب، وبيانًا لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه، وهي مواقف بطولية مشرفة في وجه الطغيان.

اللغة: «استحيوا» استبقوا بناتهم على قيد الحياة ﴿ضَلَالٍ﴾ ضياع وبطلان ﴿عُذْتُ﴾ اعتصمت وتحصنت والتجأت ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين مستعلين ﴿بَأْسِ اللَّهِ﴾ عذابه وانتقامه ﴿دَأْبِ﴾ عادة وشأن ﴿التَّنَادِ﴾ يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر، أو لمناداة الناس بعضهم بعضًا، قال أمية بن أبي الصلت:

وبثَّ الخلق فيها إذ دحاها ... فهم سكانها حتى التناد[2]

﴿عَاصِمٍ﴾ مانع ودافع ﴿صَرْحًا﴾ قصرًا وبناء عظيمًا عاليًا ﴿تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا ولا محالة «حاق» نزل وأحاط.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٧).
(٢) القرطبي (١٥/ ٣١٠).

كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، وبالبرهان البين الظاهر، وهو معجزة اليد والعصا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار، ووزيره هامان، وقارون صاحب الكنوز والأموال. قال في البحر: وخص قارون وهامان بالذكر؛ لمكانتهما في الكفر، ولأنهما أشهر أتباع فرعون[1]. ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي فقالوا عن موسى: إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذاب فيما ادعاه أنه من عند الله، وصيغة «كذاب» للمبالغة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقه، والتى أيده الله بها

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٥٩) .

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي اقتلوا الذكور لئلا يتناسلوا، واستبقوا الإناث للخدمة. قال الصاوى: وهذا القتل غير الأول؛ لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسك عن قتل الأولاد، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيكيدوه، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم [١]. ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسران وهلاك، لأن الله لا يُنجح سعيهم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون الجبار: اتركونى حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضُه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه. قال أبو حيان: والظاهر أن فرعون -لعنه الله- كان قد استيقن أنه نبى، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتالاً سفاكًا للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه ولكنه يخاف إن هَمَّ بقتله أن يُعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفزع [٢]. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي إنى أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لى إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أي أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرج، وهذا كما قال المثل: «صار فرعون واعظًا» [٣] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي إنى استجرت بالله واعتصمت به ليحفظنى ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدق بالآخرة. قال في التسهيل: وإنما قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح [٤]. ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال المفسرون: كان هذا الرجل ابن عم فرعون، وكان قبطيًا يخفى إيمانه عن فرعون فلما سمع قول الجبار متوعدًا بالقتل نصحهم بقوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ استفهام إنكارى للتبكيت عليهم، أي أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال: ربى الله. من غير تفكر ولا تأمل في أمره؟ ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي إن كان

---

(١)حاشية الصاوي (٤/ ٦). (٢)البحر المحيط (٧/ ٤٥٩).

(٣)قال في الظلال: (هل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضالُّ عن موسى تلك المقالة؟ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث؛ لإثارة الشبهات في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة تعرض بين الحين والحين).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٥).

كاذبًا في دعوى الرسالة فضررُ كذبِه لا يتعداه. قال القرطبي: ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تلطفًا في الاستكفاف، واستنزالاً عن الأذى[١]. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقًا في دعواه أصابكم بعضُ ما وعدكم به من العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرف في الضلال، مبالغ في الكذب على الله. قال الإمام الفخر: وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى؛ لأن الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعريض بفرعون في أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره[٢]. وقال في البحر: هذا نوع من أنواع علم البيان يسميه علماؤنا «استدراج المخاطب» وذلك أنه لما رأى فرعونَ قد عزم على قتل موسى، وقومَه على تكذيبه، أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال: «رجلاً» ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: رجلاً مؤمنًا بالله أو هو نبي الله؛ إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل: هو صادق وكذلك قال: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل: كل ما يعدكم، ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وفيه تعريض بفرعون؛ إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله؛ إذ ادعى الألوهية والربوبية[٣]. ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كرر النصح مع التلطف والمعنى: أنتم غالبون عالون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله؟ قال الرازي: وإنما قال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَا﴾؛ لأنه كان يظهر لهم أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه[٤]... وهنا تأخذ فرعونَ العزةُ بالإثم، ويستبد به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم برأي سوى ما ذكرته من قتل موسى حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي وما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عذب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب. قال

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٧).
(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٥٩).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٦١).
(٤) التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٥٩).

الزمخشري: أي إن تدميرهم كان عدلاً وقسطًا؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وفيه مبالغة حيث جعل المنفى إرادة الظلم، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم، كان عن الظلم أبعد [١]. ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا، والمعنى: إنى أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر، حيث ينادى المجرمون بالويل والثبور ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم. قال المفسرون: إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوهم، فيرجعون إلى مكانهم فتتلقفهم جهنم ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ووالله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ أي فلم تزالوا شاكِّين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله. قال المفسرون: المراد: آباؤكم وأصولكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان: لن يأتى أحد يدعى الرسالة بعد يوسف. قال أبو حيان: وليس هذا تصديقًا لرسالة يوسف، كيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفى الرسول ونفى بعثته [٢]. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يضل الله كل مسرف في العصيان، شاك في الدين، بعد وضوح الحجج والبراهين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ﴾ هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن والمعنى: الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي عَظُمَ بغضًا عند الله وعند المؤمنين جدالُهم بغير برهان. قال في البحر: عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب؛ لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم؛ لئلا يفجأهم بالخطاب، وفى قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، كأنه خارج عن حد أمثاله من الكبائر [٣]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أى كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر عن الإيمان، متجبر على العباد، حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما، وهو سلطان الأعضاء، فمتى فسد فسدت ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي قال فرعون لوزيره هامان: ابن لى قصرًا عاليًا، وبناء شامخًا منيفًا. قال القرطبى: لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح [٤]. ﴿لَّعَلِّيٓ

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٢٨).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٦٤).
(٣) نفس المرجع السابق (٧/ ٤٦٥).
(٤) القرطبي (١٥/ ٣١٤).

أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي لعلى أصل وأنتهي إلى طرق السموات وما يؤدي إليها وكررها للتفخيم والبيان[١] . ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي فأنظر إلى إله موسى نظر عيان ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي وإني لأعتقد موسى كاذبًا في ادعائه أن له إلهًا غيري . قال أبو حيان : وبلوغ أسباب السموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهًا على سامعيه ، ولما قال : ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كان ذلك إقرارًا بالإله ؛ فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي ومثل ذلك التزيين زين لفرعون عمله السَّيِّئ حتى رآه حسنًا ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومُنع بضلاله عن طريق الهدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي وما تدبير فرعون ومكره إلا في خسار وهلاك ، خسر ملكه في الدنيا بالغرق ، وفى الآخرة بالخلود في النار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كرر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون ، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة ، وشَوَّقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذرهم من عذاب الله ، ومعنى الآية : امتثلوا يا قوم أمرى واسلكوا طريقى أرشدكم إلى طريق الفوز والنجاة -طريق الجنة- ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي ليست الدنيا إلا متاعًا زائلاً ، لا ثبات له ولا دوام ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي وإن الدار الآخرة هى دار الاستقرار والخلود ، التي لا زوال لها ولا انتقال منها ، فإما خلود في النعيم ، أو خلود في الجحيم . قال القرطبى : ومراده بالدار الآخرة : الجنة والنار : لأنهما لا يفنيان[٣] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي من عمل في هذه الدنيا سيئة فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة ؛ رحمة منه تعالى بالعباد ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن فعل في الدنيا العمل الصالح ، سواء كان ذكرًا أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي فأولئك المحسنون يدخلون جنات النعيم ، ويعطون جزاءهم بغير تقدير ، بل أضعافًا مضاعفة فضلاً من الله وكرمًا ، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسنات دون السيئات . قال ابن كثير : ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يتقدر بجزاء ، بل يثيبه الله ثوابًا كثيرًا عظيمًا ، لا انقضاء له ولا نفاد[٤] . ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ؟ أي ما لى أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان ، وتدعوننى إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول : أنا أتعجب من حالكم هذه ، أدعوكم إلى النجاة والخير ، وتدعوننى إلى النار والشر؟ ثم وضح ذلك بقوله : ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي تدعوننى للكفر بالله ، وأن

---

(١) قال صاحب الكشاف : إذا أُبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها . اهـ الكشاف (٤/ ٦٦) .

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٦٥) .

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣١٧) .

(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٤٥) .

أعبد ما ليس لي علم بربوبيته، وما ليس بإله كفرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يُغلب، الغفار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ أي حقًّا إنَّ ما تدعونني لعبادته ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا يصلح أن يعبد؛ لأنه لا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلدون في النار ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، وهو تهديد ووعيد ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أتوكل على الله، وأسلم أمري إليه. قال القرطبي: وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ أي فنجاه الله من شدائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسره بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ أي النار يحرقون بها صباحًا ومساء. قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ . . . إلى . . . ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. من آية (٤٧) إلى نهاية آية (٦٦).

المُنَاسَبَةُ: لما ذكر تعالى ما حل بآل فرعون من العذاب والدمار ذكر بعده النزاع والخصام الذي بين أهل النار، واستغاثة المجرمين، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيرها فلا يجابون، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته؛ لإقامة الحجة على المشركين.

اللُّغَةُ: ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ يختصمون «خزنة» جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿دَاخِرِينَ﴾ أذلاء صاغرين ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ تصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿قَرَارٗا﴾ مستقرًّا ﴿أُسۡلِمَ﴾ أذل وأخضع.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي

---

(١) القرطبي (١٥/ ٣١٨).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

التفسير: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا كالخدم ننقاد لأوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءًا من هذا العذاب الذي نحن فيه؟، قال الرازي: علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل الرؤساء، وإيلام قلوبهم؛ لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات[1] . ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي قال الرؤساء جوابًا لهم: إنا جميعًا في نار جهنم، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً مبرمًا لا مرد له، بدخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئًا، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لما يئس أهل النار بعضهم من بعض التجأوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف. قال البيضاوي: وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ بدلاً من «لخزنتها» للتهويل والتفظيع[2] : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ادعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ؟ أي أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٤) .
(٢) تفسير البيضاوي (٣/ ١٥٤) .

فكفرتم بهم وكذبتموهم؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي قال الكفار: بلى جاءونا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي قالت لهم الملائكة: فادعوا الله أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك. قال الرازي: وليس قولهم ﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملائكة المقربين إذا لم يسمع دعاؤهم، فكيف يسمع دعاء الكفار[١]؟ ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدى؛ لأن دعاء الكافرين ما هو إلا في خسار وتبار ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي وفى الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، من ملك ونبى ومؤمن. قال الرازى: الآية وعد من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفى الآخرة[٢]. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارُهم. قال ابن جرير: لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم؛ لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل[٣]. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير. قال ابن عباس: ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء العاقبة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ أي والله لقد أعطينا «موسى بن عمران» ما يهتدى به في الدين، من المعجزات والصحف والشرائع[٤] ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادى وهو «التوراة». ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي هاديًا وتذكرة لأصحاب العقول السليمة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء، حق لا يمكن أن يتخلف؛ لأن الله لا يخلف الميعاد. قال الإمام الفخر: لما بيَّن تعالى أنه ينصر رسله، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد أن الله ناصرك كما نصرهم، ومنجز وعده لك كما أنجزه في حقهم[٥]. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأولى والأفضل. قال الصاوى: والمقصود من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك، وإلا فرسول الله ﷺ معصوم من الذنوب جميعًا، صغائر وكبائر قبل النبوة وبعدها على التحقيق[٦]. وقال ابن كثير: وهذا تهييج للأمة على الاستغفار[٧] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي ودُمْ على تسبيح ربك في المساء والصباح. قال الرازى: والمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وألا يفتر اللسان عنه، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار، الذين ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ والمراد بالتسبيح: تنزيه الله عن كل ما لا يليق به[٨]، ثم نبه تعالى إلى السبب

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٧٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٥).
(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٢).
(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ١٢).
(٥) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٧).
(٦) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ١١).
(٧) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٤٨).
(٨) التفسير الكبير (٢٧/ ٧٨).

الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي: بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر وتعاظم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي فالتجئ وتحصن بالله من كيدهم، فإن الله يدفع عنك شرهم. لأنه هو السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم. . ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته؛ فقال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ اللام لام الابتداء أي لخلقُ الله للسموات والأرض وإنشاؤهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون؟، قال في التسهيل: والغرض الاستدلال على البعث؛ لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها، قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها[(١)] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك؛ لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ أي ولا البر والفاجر ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلاً. قال ابن كثير: والمراد أنه كما لا يستوى الأعمى الذي لا يبصر شيئًا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس؟[(٢)] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي إن القيامة آتية لا محالة، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها؛ ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي: والمراد بأكثر الناسِ الكفارُ الذين ينكرون البعث والقيامة[(٣)]. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ أي ادعوني أجبكم فيما طلبتم، وأعطكم ما سألتم. قال ابن كثير: ندب تعالى عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة فضلاً منه وكرمًا[(٤)]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي إن الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين. . ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يلزم منه إفراده بالعبادة والشكر، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي الله -جل وعلا- بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلمًا لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئًا لتتصرفوا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي أنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٨).   (٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٤٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ٨٠).

(٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالدعاء: العبادة. قال القرطبي: والمعنى: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم. . إلخ. وما أثبتناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر، وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي.

أي ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه، ويجحدون فضله وإنعامه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ذلكم المتفرد بالخلق والإنعام هو الله ربكم، خالق كل الأشياء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان؟ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كذلك يُصْرف عن الهدى والحق الذين جحدوا بآيات الله وأنكروها. قال الصاوي: وهذه تسلية للنبي ﷺ والمعنى: لا تحزن يا محمد على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك (١)، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي جعلها مستقرًا لكم في حياتكم وبعد مماتكم. قال ابن عباس: جعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت (٢). ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي وجعل السماء سقفًا محفوظًا، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي صوركم أحسن تصوير، وخلقكم في أحسن الأشكال متناسبى الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع. قال الزمخشري: لم يخلق تعالى حيوانًا أحسن صورة من الإنسان (٣)، وهذه مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي ورزقكم من أنواع اللذائذ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فتعالى وتمجد وتقدس رب جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلا له ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، الباقى الذي لا يموت، لا إله سواه ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة والطاعة ظاهرًا وباطنًا قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الثناء والشكر لله مالك جميع المخلوقات، لا للأوثان التي لا تملك شيئًا.

ولما بين صفات الجلال والعظمة، نهى عن عبادة غير الله فقال: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: إن ربى العظيم الجليل نهانى أن أعبد هذه الآلهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام. قال الصاوى: أمر تعالى نبيه أن يخاطب قومه بذلك زجرًا لهم؛ حيث استمروا على عبادة غير الله، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية (٤). ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي حين جاءتنى الآيات الواضحات من عنده، الدالة على وحدانيته قال الرازى: والبينات هى أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة، شركاء له في المعبودية مستنكر في بديهة العقل (٥). ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده، وأن أخلص له دينى، وأطهر نفسى من عبادة غيره.

---

(١) حاشية الصاوي (٤/ ١٣).
(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ٨٤).
(٣) الكشاف (٤/ ١٣٧).
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ١٣).
(٥) التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٨٥).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم . . . إلى . . . وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من آية (٦٧) إلى آية (٨٥) نهاية السورة.

المُنَاسَبَةُ: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال.

اللُّغَةُ: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ القيود جمع غل، وهو القيد يجمع اليد إلى العنق ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ توقد بهم النار، يقال: سجر التنور: أوقده، ﴿تَمْرَحُونَ﴾: تبطرون وتأشرون ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ومكان إقامة، من ثوى بالمكان: إذا أقام فيه ﴿خَلَتْ﴾ مضت.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

التَّفْسِير: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا بيان للأطوار التي مر بها خلق الإنسان أي هو -جل وعلا- بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المني، ثم من علقة وهي الدم الغليظ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل، وهو سن الأربعين ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ أي ثم لتصبحوا في سن الهرم والشيخوخة. قال الإمام الفخر: رتب تعالى عمر الإنسان على

ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشيخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة(١). ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنكم من يتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السقط وقال مجاهد: من قبل سن الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدد لكل شخص وهو الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ولكى تعقلوا دلائل قدرته تعالى وتؤمنوا بأنه الواحد الأحد ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو القادر جل وعلا على الإحياء والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فإذا أراد أمرًا من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء، وإنما يوجد فورًا دون تأخير. قال أبو السعود: وهذا تمثيل لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمر ومأمور(٢). ثم عاد إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل فقال، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للتعجيب، أي ألا ترى أيها السامع وتعجب من حال هؤلاء المكابرين، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم بينهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي الذين كذبوا بالقرآن، وبسائر الكتب والشرائع السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي حين يدخلون النار، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحار المسخن بنار جهنم، ثم يوقدون ويحرقون فيها. قال ابن كثير: ومعنى الآية أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾(٣)، ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ثم قيل لهم تبكيتًا: أين هم الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي فيقولون: غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي بل لم نكن نعبد شيئًا. قال المفسرون: جحدوا عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله كل كافر ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تظهرونه في الدنيا من السرور بالمعصية، وكثرة المال، وإنفاقه في المحرمات ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم. قال الصاوي: وهذا وإن كان ذمًّا في الكفار، إلا أنه يجرُّ بذيله على كل من توسع في معاصي الله، فله من هذا الوعيد نصيب(٤). ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٨٥).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٥١).
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ١٤).

السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها أبدًا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئست جهنم مقرًّا وسكنًا للمستكبرين عن آيات الله، المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد، وإنما قال. ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ولم يقل: فبئس مدخل المتكبرين، وهو مقتضى النظم؛ لأن الدخول لا يدوم، وإنما يدوم المثوى ولذا خصه بالذم ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن وعد الله بتعذيبهم كائن لا محالة. قال الصاوى: هذا تسلية من الله لنبيه ﷺ ووعد حسن بالنصر له على أعدائه[(١)]. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي إنْ أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب، وجواب الشرط محذوف تقديره: فذلك هو المطلوب، أو لتقر به عينك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي أو نتوفينك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم، فإلينا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسلية له عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي والله لقد بعثنا يا محمد رسلاً كثيرين قبلك، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة فجادلهم قومهم وكذبوهم فتأسَّ بهم في الصبر على ما ينالك قال القرطبي: عَزَّاه تعالى بما لقيت الرسل من قبله[(٢)]. ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما صح ولا استقام لرسول من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله، وهذا رد على قريش حيث قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهبًا وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي فإذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت، ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ أي الله -جل وعلا- الذي لا تصلح الألوهية إلا له هو الذي سخر لكم هذه الأنعام «الإبل والبقر والغنم» وخلقها لكم ولمصلحتكم ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات، وتأكلوا من لحومها وألبانها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر، واللبن والزبد والسمن ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي بحمل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تحملون، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ويريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ توبيخ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة، والمعنى: أي آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلائها وكثرتها؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام إنكاري

(١) حاشية الصاوي (٤/ ١٥). (٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣٤).

أي : أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين وآثار الأمم السالفة قبلهم ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كانوا أكثر عددًا من أهل مكة، وأقوى منهم قوة، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمباني الضخمة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئًا، ولا دفع عنهم العذاب ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات، والآيات الواضحات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوى، الخالى عن نور الهداية والوحى، فَرَحَ بطرٍ وأشر، واغتروا بذلك العلم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي فلما رأوا شدة العذاب وعاينوا أهواله وشدائده قالوا : آمنا بالله الواحد الأحد ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ أي فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب ؛ لأنه إيمان عن قسر وإلجاء ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ أي سن الله سنة ماضية في العباد أنه لا ينفع الإيمان إذا رأوا العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون بربهم، الجاحدون لتوحيد خالقهم .

البَلاَغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلى :

١ - الطباق بين ﴿ٱلذَّنۢبِ . . . و ٱلتَّوۡبِ﴾ وبين ﴿أَمَتَّنَا . . . وَأَحۡيَيۡتَنَا﴾ وبين ﴿صَادِقٗا . . . و كَٰذِبٗا﴾ وبين ﴿غُدُوّٗا . . . وَعَشِيّٗاۖ﴾ وبين ﴿يُحۡيِۦ . . . وَيُمِيتُۖ﴾ وبين ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ . . . و ٱلۡبَصِيرُ﴾ .

٢ - المقابلة ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ فقد قابل بين التوحيد والإشراك، والكفر والإيمان وكذلك توجد المقابلة بين قوله تعالى : ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ وهذه من المحسنات البديعية .

٣ - المجاز المرسل ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ أطلق الرزق وأراد المطر، لأن الماء سبب في جميع الأرزاق، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب .

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ استعار الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن .

٥ - المجاز العقلى ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ من إسناد الشيء إلى زمانه ؛ لأن النهار زمن للإبصار .

٦ - الكناية ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ الروح هنا كناية عن الوحى ؛ لأنه كالروح للجسد .

٧ - صيغ المبالغة مثل «كذاب، جبار، سميع، بصير، عليم . . .» إلخ .

٨ - الجناس الناقص ﴿تَفۡرَحُونَ . . تَمۡرَحُونَ﴾ وكذلك ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ .

٩ - التأكيد بإن واللام ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ .

١٠ - صيغة الحصر ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ .

١١ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ .

١٢ - طباق السلب ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ .

١٣ - توافق رءوس الآيات مع السجع البديع ، والكلام الذي يأخذ بالألباب ، انظر روعة البيان ، وتمعن قول القرآن وهو يتحدث عن مؤمن آل فرعون بذلك البيان الإلهي المعجز : ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ . .﴾ إلخ الآيات الكريمة التي هي أجلى من عقود الجمان .

«تم بعون الله تعالى تفسير سورة غافر»

تفسير سورة فصلت

بين يدى السورة
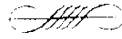
* هذه السورة الكريمة مكية، وهى تتناول جوانب العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» وهى الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن، المنزَّل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبى الكريم.

* وتحدثت السورة عن أمر «الوحى والرسالة» فقررت حقيقة الرسول، وأنه بشر خصه الله تعالى بالوحى، وأكرمه بالنبوة، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعيًا إلى الله، مرشدًا إلى دينه المستقيم.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة، خلق السموات والأرض، بذلك الشكل الدقيق المحكم، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله، للنظر والتفكر والتدبر، ولكنَّ ظلمات الكفر هى التي تحول بينهم وبين الإيمان، فالكون كله ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل وعلا.

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها، قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وذكرت ما حلَّ بهم وبثمود من الدمار الشامل، والهلاك المبين، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا رسل الله.

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتى الحديث عن المؤمنين المتقين، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار، في هذا الكون الفسيح، الزاخر بالحكم والعجائب، وموقف الملحدين بآيات الله، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة.

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان، ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

التسمية: سميت «سورة فصلت» لأن الله تعالى فصل فيها الآيات، ووضّح فيها الدلائل

على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخَلْقِه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه!!.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ . . . إلى . . . وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ . من آية (١) إلى نهاية آية (١٨).

اللُّغَةَ: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بينت ووضحت ﴿أَكِنَّةٍ﴾ جمع كنان وهو الغطاء ﴿وَقْرٌ﴾ صمم وثقل يمنع سماع الكلام ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع من مننتُ الحبل إذا قطعته قال الشاعر:

إني لعمرك ما بابي بذي غلقٍ ... على الصَّديق ولا خيري بممنون[1]

﴿صَرْصَرًا﴾ الصَّرْصر: الريح الباردة العاصفة مع الصوت الشديد ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مشئومات من النحس بمعنى الشؤم وهو ضدُّ السَّعد قال الشاعر:

سواءٌ عليه أيَّ حينٍ أتيته ... أساعة نحس تُتَّقى أم بأسعد[2]

﴿أَخْزَىٰ﴾ أشد إهانةً وإذلالاً من الخزي بمعنى الإهانة ﴿ٱلْهُونِ﴾ الإهانة والذل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٤١).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٨١).

التَّفْسِير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[(١)] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن المجيد منزل من الرحمن الرحيم، أنزله جل وعلا رحمة بعباده، وإنما خص هذين الاسمين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم، ولا شك أن القرآن نعمة باقية إلى يوم القيامة ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنت معانيه، ووُضِّحت أحكامه، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال، في غاية البيان والكمال ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا، واضحًا جليًّا نزل بلسان العرب ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه فإنه في أعلى طبقات البلاغة، ولا يتذوق أسراره إلا من كان عالمًا بلغة العرب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي مبشرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذرًا للكافرين بعذاب الجحيم ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع كونه نزل بلغتهم، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل قال أبوحيان: المعنى: أعرض أكثر أولئك القوم مع كونهم من أهل العلم، ولكن لم ينظروا النظر التام بل أعرضوا، فهم لإعراضهم لا يسمعون ما احتوى عليه من الحجج والبراهين[(٢)] وقال القرطبي: السورةُ نزلت تقريعًا وتوبيخًا لقريش في إعجاز القرآن، فهم لا يسمعون سماعًا ينتفعون به[(٣)]، ثم أخبر تعالى عن عتوهم وضلالهم فقال ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي وقالوا للرسول ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان: قلوبنا في أغطية متكاثفة، لا يصل إليها شيء مما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي وفى آذاننا صمم وثقلٌ يمنعنا من فهم ما تقول قال الصاوى: شبهوا أسماعهم بآذانٍ فيها صممٌ، من حيث إنها تمجُّ الحق ولا تميل إلى استماعه[(٤)] ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أى وبيننا وبينك يا محمد حاجز يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول، فنحن معذورون في عدم اتباعك، لوجود المانع من جهتنا وجهتك ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإنا مستمرون على ديننا ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين: لستُ إلا بشرًا مثلكم خصّنى الله بالرسالة والوحى، وأنا داعٍ لكم إلى توحيد خالقكم وموجدكم، الذي قامت الأدلة العقلية والشرعية على وحدانيته ووجوده، فلا داعى إلى تكذيبى ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي توجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان، والإخلاص في الأعمال، واسألوه المغفرة لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي دمارٌ وهلاك للمشركين الذين لا يفعلون الخير، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله قال القرطبى: قرَّعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفى الآية دلالة على أن الكافر يعذب بمنع الزكاة مع عذابه على كفره[(٥)] وقال ابن

(١) انظر أول سورة البقرة.
(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٨٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣٨).
(٤) حاشية الصاوي (٤/ ١٧).
(٥) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٤٠).

عباس: المراد زكاة الأنفس والمعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، ولا يقولون: لا إله إلا الله[١] ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي كفروا بالبعث والنشور، وكذبوا بالحساب والجزاء قال الصاوي: وإنما خص منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة، لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلاً على قوته وثباته في الدين[٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لما ذكر حال الكفار ووعيدهم، أردفه بذكر حال المؤمنين وما لهم من الوعد الكريم والمعنى: الذين صدقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لهم في الآخرة أجرٌ غير مقطوع عند ربهم، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أي كيف تكفرون بالله وهو الإله العلى الشأن، القادر على كل شيء، خالق الأرض في يومين؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو ربُّ العالمين كلهم، فكيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟ قال الصاوي: الاستفهام ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ للإنكار والتشنيع عليهم والمعنى: أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوى والسفلى، فكيف تجعلون له شريكًا[٣]؟ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه، والزروع، والضروع ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي قدَّر أرزاق أهلها ومعاشهم قال مجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان[٤]، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[٥] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي قالت السموات والأرض: أتينا أمرك طائعين قال الزمخشري: وهذا على التمثيل أي أنه تعالى أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب، ومثله قول القائل: قال الحائطُ للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني[٦]، وروى عن ابن عباس قال: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو

---

(١) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به: طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح، والصحيح ما ذكره المفسرون أن المراد: زكاة المال وهو اختيار ابن جرير.

(٢) حاشية الصاوي (٤/ ١٧).

(٣) حاشية الصاوي (٤/ ١٨).

(٤) الكشاف (٤/ ١٤٧).

(٥) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٥٧).

(٦) الكشاف (٤/ ١٤٨).

كارهتين «قالتا أتينا أمرك طائعتين»[١] واختاره ابن جرير ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي صنعهن وأبدع خلقهن سبع سموات في وقت مقدر بيومين فتم خلق السموات الأرض في ستة أيام ولو شاء لخلقهنَّ بلمح البصر ولكنْ أراد أن يعلم عباده الحلم والأناة ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى في كل سماء ما أراده، وما أمر به فيها قال ابن كثير: أي رتب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي وزينا السماءَ الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز في ملكه، العليم بمصالح خلقه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان، فقل لهم: إنى أخوفكم عذابًا هائلاً وهلاكًا مثل هلاك عاد وثمود[٢]، وعبر بالماضى إشارة إلى تحققه وحصوله ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي حين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لوشاء ربنا إرسال رسول لجعله ملكًا لا بشرًا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي فإنا كافرون برسالتكم، لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، وفى قولهم: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ ضرب من التهكم والسخرية بهم ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا تفصيل لما حل بعاد وثمود من العذاب أي فأما عاد فبغوا وعتوا وعصوا، وتكبروا على عباد الله: «هود» ومن آمن منهم معه، بغير استحقاق للتعظم والاستعلاء ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أي وقالوا اغترارًا بقوتهم لما خُوفوا بالعذاب: لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود: كانوا ذوى أجسام طوال، وخلق عظيم، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده[٣] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جملة اعتراضية للتعجب من مقالتهم الشنيعة والمعنى أغفِلُوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات، هو أعظم منهم قوة وقدرة؟ ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجحدون قال الرازى: إنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودَعُ الوديعة[٤] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحًا باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، تهلك بشدة صوتها وبردها ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي في أيام مشئومات غير مباركات ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لكى نذيقهم العذاب المخزى المذل في الدنيا قال الرازى: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ أي عذاب

---

(١) القرطبي (١٥/ ٣٤٣).
(٢) قال في الكشاف: أي: عذابًا شديد الوقع كأنه صاعقة.
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢١).
(٤) التفسير الكبير (٢٧/ ١١٢).

الهوان والذل، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم[١] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشدُّ إهانةً وخزيًا من عذاب الدنيا، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي وأما ثمود فبينا لهم طريق الهدى، ودللناهم على سبيل السعادة، فاختاروا الضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبي الله «صالح» قال ابن كثير: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهوانًا، وعذابًا ونكالاً، بتكذيبهم صالح وعقرهم الناقة[٢] ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي ونجينا صالحًا ومن آمن به من ذلك العذاب.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . . . إلى . . . وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾. من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٨).

المُنَاسَبَةُ: لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامة في الآخرة من العذاب والدمار، ليحصل منه تمام الاعتبار، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله.

اللُّغَةُ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستخفون، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يطلبوا رضاء الله ﴿ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ جمع مُعْتَب وهو المقبول عتابه قال النابغة:

فإن أكُ مظلومًا فعبدٌ ظلمتَه ... وإن تكُ ذا عُتبى فمثلُكَ يُعْتِبُ[٣]

«قيضنا» هيأنا ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وكرامة ﴿يَسْـَٔمُونَ﴾ يملُّون.

سبب النزول: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ . .﴾[٤] الآية.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ

(١) نفس المرجع السابق (٢٧/ ١١٣). (٢) المختصر (٣/ ٢٥٩).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥٤).
(٤) الحديث أخرجه مسلم كذا في القرطبي (١٥/ ٣٥١).

وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ .

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر يوم يجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قال ابن كثير: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وآثام، وفي الحديث «فيختم على فيه - أي فمه - ثم يُقال لجوارحه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل»[2] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخًا وتعجبًا من هذا الأمر الغريب: لم أقررتم علينا وشهدتم بما فعلنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته، الذي يُنْطق الجماد والإنسان والحيوان، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هو أوجدكم من العدم وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، فمن قَدِرَ على هذا قدر على إنطاقنا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده تردون بالبعث قال أبو السعود: المعنى ليس نطقنا بعجب من قدرة الله، الذي أنطق كل حي، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً،

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٦٠) .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، والله على كل شيء قدير .

وعلى إعادتكم ورَجْعكم إلى جزائه ثانيًا، لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم [١] ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش، لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم . قال البيضاوي: أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيتم منها، وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي ألا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب [٢] ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكن ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا من القبائح المخفية، ولذلك اجترأتم على المعاصي والآثام ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي وذلكم الظن القبيح برب العالمين - أنه لا يعلم كثيرًا من الخفايا - هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي فخسرتم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم، وهذا تمام الخسران والشقاء ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي فإن يصبروا على العذاب فالنار مقامهم ومنزلهم، لا محيد ولا محيص لهم عنها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي وإن يطلبوا إرضاء الله، فما هم من المَرْضِيِّ عليهم، قال القرطبي: والعتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب، تقول: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني [٣] ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أي هيأنا للمشركين ويسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين، ومن غواة الإنس ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم القبيحة، الحاضرة والمستقبلة قال ابن كثير: حسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين [٤] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب، وهو القضاء المحتم بشقائهم ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم، ممن فعلوا كفعلهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لا ستحقاقهم العذابَ أي لأنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فلذلك استحقوا العذاب الأبدى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر عاد وثمود وغيرهم، أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا القرآن، والمعنى: قال الكافرون بعضهم لبعض: لا تستمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن، وتشاغلوا عنه ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته حتى لا يسمعه أحد لكى تغلبوه على دينه قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد فَصِيحوا في وجهه حتى لا يدرى ما يقول [٥] ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذابًا شديدًا لا يخف ولا ينقطع ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجازينهم بشر أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم، أسوأ وأقبح الجزاء ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد -الذي هو أسوأ الجزاء- هو نار جهنم

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٢) .
(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ١٥٦) .
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥٤) .
(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٦١) .
(٥) القرطبي (١٥/ ٣٥٦) .

جزاء المجرمين، أعداء الله ورسوله ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي لهم في جهنم دار الإقامة، لا يخرجون منها أبدًا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الرحمن قال الرازي: وسمى لغوهم بالقرآن جحودًا؛ لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزًا إلا أنهم جحدوه حسدًا[1] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم: ربنا أرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس، وإنما جاء بلفظ الماضي «وقال» لتحقُّقِه ومعناه المستقبل قال أبو حيان: والظاهر أن المراد بـ﴿ٱللَّذَيْنِ﴾ يراد بهما الجنس أي كل مُغْوٍ من هذين النوعين[2] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي نطاهما بأقدامنا انتقامًا وتشفيًا ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار، وهي أشد عذاب جهنم؛ لأنها درك المنافقين، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي آمنوا بالله إيمانًا صادقًا وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، وثبتوا على ذلك حتى الممات، عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمة «استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب»[3] والغرض: أنهم استقاموا على شريعة الله في سلوكهم، وأخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقًّا، مسلمين صدقًا، وقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال: الاستقامة عين الكرامة، وعن الحسن أنه كان يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا مما تُقْدِمون عليه من أحوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهل ومال فنحن نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده: إن الملائكة تتنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له: لا تَخَفِ اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت تُوعَد، وإنك سترى اليوم أمورًا لم تر مثلها فلا تهولنك فإنما يراد بها غيرك[4] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتَقَرُّ به عيونكم من أنواع اللذائذ والشهوات، ولكم فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المتقين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٢٠).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٩٥).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥٨).
(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣/ ٢٦١).

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد[١]. وقال الزمخشري: والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمنا معتقدًا لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعيًا إليه، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين[٢] ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هى أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك[٣] ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتى هى أحسن، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيده وشره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة، وحكمته البالغة فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقبُ الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخرين لمصالح البشر ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحد سواه ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي فإن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي لا يملون عبادته.

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ... إلى ... أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾. من آية (٣٩) إلى نهاية آية (٥٤).

المُنَاسَبَةُ: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين الأبرار، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور، ثم أعقبه بذكر الملحدين في آياته، المكذبين برسله وأنبيائه، وختم السورة

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٦٤). (٢) الكشاف (٤/ ١٥٦).
(٣) القرطبي (١٥/ ٣٦١).

الكريمة ببيان حال الأشقياء المجرمين، المنكرين للقرآن العظيم .

اللُّغَة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة، والإلحاد: الميل والعدول يقال: ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل ﴿أَعْجَمِيًّا﴾ بلغة العجم ﴿وَقْرٌ﴾ صمم مانع من سماعه ﴿أَكْمَامِهَا﴾ جمع كمّ وهو وعاء الثمرة بضم الكاف وكسرها ﴿مَّحِيصٍ﴾ فرار ومهرب من حاص يحيص حيصًا إذا هرب «نأى» تباعد وأعرض ﴿الْآفَاقِ﴾ أقطار السموات والأرض ﴿مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب عظيم .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ .

التَّفْسِير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، أنك ترى الأرض يابسة جرداء لا نبات فيها، تشبه الرجل الخاضع الذليل ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة وانتفخت وعلت بالنبات، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي إن الإله الذي أحيا الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه جل وعلا شيء، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجدبة، فإنه قادر على إحياء الموتى.. ثم توعد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: أن الذين يطعنون

في آياتنا، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة: الإلحاد الكفر والعناد وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه (١) ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أفمن يُطرح في جهنم مع الخوف والفزع أفضل أم من يكون في الجنة آمنًا من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الرازي: والغرض التنبيه على أن الملحدين في آيات الله يُلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتان ما بينهما (٢) ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة، وهو تهديد لا إباحة ملفَّع بظل الوعيد، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيجازيكم عليها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله، وخبر «إن» محذوف لتهويل الأمر كأنه قيل: سيجازون بكفرهم جزاء لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته (٣) ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كل جاحد، ويقمع كل معاند ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين (٤) ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو تنزيل من إله حكيم في تشريعه وأحواله وأفعاله، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه.. ثم سلَّى تعالى نبيه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك، إلا ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي: يُعَزّى نبيه ويُسَليه من أذى وتكذيب قومه (٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن ربك يا محمد لهو الغفور لذنوب المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففوِّضْ أمرك إليه فإنه ينتقم لك من أعدائك، ثم ذكر تعالى تَعَنُّتَ الكافرين ومكابرتهم للحق بعد سطوعه وظهوره فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي لقال المشركون: هلاَّ بينت آياته بلسان نفهمه وهلاَّ نزل بلغتنا ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ استفهام إنكارى أي أقرآن أعجمى ونبى عربى؟ قال الرازى: ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟ فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض، ثم قال: والحق عندى أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد متعلق بعضه ببعض، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ فرد تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٦٦). (٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣١).

(٣) هذا رأي أكثر المفسرين واختار أبو حيان في البحر المحيط أن الخبر مذكور وهو: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ..﴾ ولكنه حذف منه العائد، والأول أظهر.

(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٦٥). (٥) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٦٧).

لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب!! ولصح لهم أن يقولوا ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه!! أما وقد نزل بلغة العرب، وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك؟ فظهر أن الآية على أحسن وجوه النظم[١] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة، وشفاء لهم من الجهل والشك والريب ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي والذين لا يصدقون بهذا القرآن، في آذانهم صمم عن سماعه، ولذلك تواصوا باللغو فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين، هو شقاء وتعاسة على الكافرين كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ قال في حاشية البيضاوي: إن القرآن لوضوح آياته، وسطوع براهينه، هادٍ إلى الحق، ومزيل للريب والشك، وشفاء من داء الجهل والكفر والارتياب، ومن ارتاب فيه ولم يؤمن به، فارتيابه إنما نشأ عن توغله في اتباع الشهوات، وتقاعده عن تفقد ما يسعده وينجيه[٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك الكافرون بالقرآن، كمن يُنادى من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به، وهذا على سبيل التمثيل قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء[٣] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدق لها ومكذب، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن. قال القرطبي: وهذا تسلية للنبي ﷺ أي لا يحزنك اختلافُ قومك في كتابك، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم، فآمن به قوم وكذب به قوم[٤] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولولا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لعذبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن هؤلاء الكفار لفى شك من القرآن، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم، موقع لهم في أشد الريبة والاضطراب ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من عمل شيئًا من الصالحات في هذه الدنيا فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وليس الله منسوبًا إلى الظلم حتى يعذب بغير إساءة، فهو تعالى لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه، ولا يعاقبه إلا بجرمه قال المفسرون: ليست صيغة «ظلام» هنا للمبالغة، وإنما هى صيغة نسبة مثل عطّار، ونجّار، وتمّار، ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣٣) وهذا الذي ذكره الإمام الفخر هو الأظهر، فإنهم لم يقترحوا أن ينزل بلغة العجم وإنما هو على سبيل الفرض بدليل ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ﴾ وهذا الذي رجحناه هو ما ذهب إليه العلامة القرطبي حيث قال في تفسير الآية: المعنى: لو جعلنا هذا القرآن بلغة غير العرب لقالوا: لولا بينت آياته بلغتنا فإنا عرب لا نفهم الأعجمية، فبيَّن تعالى أنه أنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظمًا ونثرًا، وإذا عجزوا عن معارضته فذلك أدل دليل على أنه من عند الله.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي (٣/ ٢٦٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣٤).

(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٠).

الظلم ولكنه يظلم أحيانًا، وهذا المعنى فاسد لأنه يستحيل عليه الظلم جل وعلا ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره قال الإمام الفخر: أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ و معناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، فكأن سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فبين تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله[1] ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي وما تخرج ثمرة من الثمرات من غلافها ووعائها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي ولا تحمل أنثى جنينًا في بطنها، ولا تلده إلا ملتبسًا بعلمه تعالى، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[2] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي ويوم القيامة ينادى الله المشركين أين شركائى الذين زعمتم أنهم آلهة؟ وفيه تقريع وتهكم بهم ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي قال المشركون: أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكًا قال المفسرون: لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي وأيقنوا أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي لا يمل الإنسان من سؤاله ودعائه بالخير لنفسه، كالمال والصحة والعز والسلطان ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس، قانط من روح الله ورحمته ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي ولئن أعطيناه غنى وصحة من بعد شدة وبلاء ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي ليقولن هذا بسعيي واجتهادى قال أبو حيان: سمى النعمة رحمة إذ هى من آثار رحمة الله[3] ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستكون ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فليحسننَّ إليَّ ربى كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا قال ابن كثير: يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العملَ وعدم اليقين[4] ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي فوالله لنعلمن هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم، ولنبصرنهم بإجرامهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي ولنعذبهم أشد العذاب، وهو الخلود في نار جهنم ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه، واستكبر عن الانقياد لأوامره، وشمخ بأنفه تكبرًا وترفعًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣٦).

(٢) قال في الظلال: (ويذهب القلب يتتبَّع الثمرات في أكمامها، والأجنة في أرحامها، ويطوف في جنبات الأرض يرقب الأكمام التي لا تحصى، ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال، وترتسم في الضمير صورة رائعة لعلم الله، بقدر ما يطيق القلب البشري أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود) ظلال القرآن (٢٤/ ١٤٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٠٤).

(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٦٧).

كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهال، وهكذا طبيعة الإنسان الجحود والنكران، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء قال الرازي: استعير العرض لكثرة الدعاء، كما استعير الغلظ لشدة العذاب [١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟ ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم، قال أبو السعود: وضع الموصول «من أضل» موضع الضمير «منكم» شرحًا لحالهم، وتعليلاً لمزيد ضلالهم [٢] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي سنظهر لهؤلاء المشركين دلالاتنا وحججنا على أن القرآن حق منزل من عند الله ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم قال القرطبي: المراد ما في أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه [٣] ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ؟ أي أولم يكفهم برهانًا على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ «ألا» استفتاح لتنبيه السامع إلى ما يقال أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شك من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي ألا فانتبهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلاً، فهو يجازيهم على كفرهم.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ـ الطباق بين ﴿بَشِيرًا .. و نَذِيرًا﴾ وبين ﴿طَوْعًا .. و كَرْهًا﴾ وبين ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وبين ﴿ٱلْحَسَنَةُ .. و ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وبين ﴿مَغْفِرَةٍ .. وعِقَابٍ﴾ وبين ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ .. وَعَرَبِىٌّ﴾ وبين ﴿تَحْمِلُ .. وتَضَعُ﴾ وبين ﴿ٱلْخَيْرِ .. والشَّرُّ﴾.

٢ـ طباق السلب ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ .. وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وكذلك ﴿ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ـ الالتفات ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بعد قوله ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة. وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق، وهو تناسب حسن.

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣٨).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٧).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٥).

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مثل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر السلطان لأحد رعيته أو عبيده بأمر من الأمور وامتثال الأمر سريعًا.

٥ - الاستعارة التصريحية ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صُمَّتْ أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه.

٦ - الاستعارة أيضًا ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ شبه حالهم في عدم قبول المواعظ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من يُنَادى من مكان بعيد، فلا يسمع ولا يفهم ما ينادى به، والجامع عدم الفهم في كل.

٧ - الأمر التهديدى ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد.

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٩ - إن اللسان عاجز عن تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآنى، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتصور التناسق الفنى في التعبير والأداء، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور، إنه جو بعث وإخراج وإحياء، ويا له من تصوير رائع يأخذ بالألباب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فُصّلت»
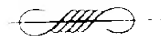
بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة: «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» والمحور الذي تدور عليه السورة هو «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة.

* تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فاللهُ ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان.

* ثم تَعْرِضُ لحالة بعض المشركين، ونسبتهم لله الذرية والولد، حتى إنَّ السموات ليكدْن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم، وإيمان أهل السماء وإذعانهم.

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحدٌ أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلاَّ أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث به نوحًا وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ .

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن، المنكرين للبعث والجزاء، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرءوس وتطير لهوله الأفئدة، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون، ويستعجلون قيام الساعة.

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ .

* وتختم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة، ليتناسق الكلام في البدء والختام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ . .﴾ الآية.

التسمية: سميت «سورة الشورى» تنويهًا بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليمًا للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل «منهج الشورى» لما له من أثر عظيم جليل في

حياة الفرد والمجتمع كما قال تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ .

اللغة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن، والفطور: الشقوق ومنه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿فَاطِرُ﴾ خالق ومبدع ومخترع ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ ينشئكم ويكثّركم ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح جمع إقليد على غير قياس ﴿شَرَعَ﴾ بيّن وسنّ وأوضح ﴿كَبُرَ﴾ عظم وشقّ ﴿يُنِيبُ﴾ يرجع ويتوب من ذنبه ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقع في الريبة والقلق ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة وزائلة يقال: دحضت حجته أي بطلت، ودَحضت رجله أي زلقت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ .

التفسير: ﴿حم ﴿١﴾ عسق﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1]، وإثارة انتباه الإنسان بحروف أولية، وبدءٍ غير مألوف ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة .

المنزلة، اللهُ العزيزفي ملكه، الحكيم في صنعه ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما في الكون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي تكاد السمواتُ يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين قال في التسهيل: والآية عمومٌ يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (١) ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي: هيَّب وعظَّم جل وعلا في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء (٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي اللهُ تعالى رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيءٌ، وهو محاسبُهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربيًّا معجزًا، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قال الإمام الفخر: وأمُّ القُرى أصلُ القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالا لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعربُ تسمي أصل كل شيءٍ أُمه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان (٣) ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي وتخوّف الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيدٍ واحد ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فريقٌ منهم في جنات النعيم وهم المؤمنون، وفريق منهم في دركات الجحيم وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام قال الضحاك: أهل دينٍ واحد، أهل ضلالةٍ أو أهل هُدى (٤) ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي ولكنَّه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلاَّ ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير، ولهذا قال: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله، قال أبو حيان: والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جل وعلا، ولكنْ من سبقت له

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧ (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٥ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ١٤٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٦ .

السعادة أدخله في رحمته يعني دين الإسلام [١] ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استفهامٌ على سبيل الإنكار أي بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ أي فاللهُ وحده هو الوليُّ الحقُّ، الناصرُ للمؤمنين، لا وليَّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء فهو الحقيق بأن يُتخذ وليًا دون من سواه ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وليِّي ومالك أمري قال القرطبي: وفيه إضمارٌ أي قل لهم يا محمد: ذلكم الذي يحُيي الموتى، ويحكم بين المختلفين هو ربّي [٢] ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي وإليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليَّ من مشكلاتٍ ومعضلات، لا إلى أحدٍ سواه قال الرازي: والعبارة تفيد الحصر أي لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليًا [٣].. ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فقال ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافًا، ذكورًا وإناثًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يكثّركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثَمة تناسلٌ ولا توالدٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ أي ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفردُ الصمد. والغرضُ: تنزيهُ الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي أي ليس مثله شيءٌ، قال ابن قتيبة: العربُ تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يُقال له هذا أي أنا لا يُقال لي هذا، ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا شيءٌ [٤] وقال القرطبي: والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله- جلَّ اسمُه- في عظمته وكبريائه، ومُلُوكته وحُسنى أسمائه، لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذْ صفاتُ القديم- عزَّ وجلَّ- بخلاف صفات المخلوق، وإذْ صفاتُهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزَّه عن ذلك، وقد قال بعض المحققين: التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غير مشبهةٍ للذوات، ولا معطَّلة من الصفات، وزاد الواسطيُّ فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهذا مذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة [٥] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٧ .
(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٤٩ . (٤) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٥٥ .
(٥) تفسير القرطبي ١٦/ ٨ .

أي وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وسائر الحاجات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسِّعُ الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليل لما سبق أي لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء، فهو واسع العلم، يعلم إذا كان الغنى خيرًا للعبد أو الفقر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي سنَّ وبيَّن لكم أيها المؤمنون من الشريعة السمحة والدين الحنيف، ما وصَّى به الرسل، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي وما أمرنا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام قال الصاوي: خصَّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأولو العزم، وأصحاب الشرائع المعظمة، فلكل واحد من هؤلاء الرسل شرع جديد، وأمَّا من عداهم، فإنما كان يُبعث بتبليغ شرع من قبله، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء، واحدًا بعد واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملةِ أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيَّن أن شرعنا- معشرَ الأمة المحمدية- قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام[1] ولهذا قال تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي وصيناهم بأن أقيموا الدين الحق- دين الإسلام- الذي هو توحيدُ الله وطاعتهُ، والإيمان بكتبه ورسله، وبالبعث والجزاء قال القرطبي: المراد اجعلوا الدين قائمًا مستمرًّا محفوظًا من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغيرها، فهذا كله مشروع دينًا واحدًا وملة متحدة[2]. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظُم وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي اللهُ يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكرامًا ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلاّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلمًا وتعديًا، وحسدًا وعنادًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجَّل لهم العقوبة في الدنيا سريعًا باستئصالهم قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعًا[3] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن بقيَّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم

حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢ .

تفسير القرطبي ١٦/ ١١ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٢ .

ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي: لا يعلمون كتابهم كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان، فهم في شك مقلق ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي فلأجل ذلك التفرق الذي حدث لأهل الكتاب، أمرناك يا محمد أن تدعو الناس إلى دين الحنيفية السمحة، الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، فادع يا محمد إليه والزم النهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك دعوة التوحيد ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي صدَّقت بكل كتابٍ أنزله الله تعالى قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم قال ابن جزي: يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله خالقنا جميعًا ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شرٍّ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير: هذا تبرؤٌ منهم أي نحن برآء منكم كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحقَّ قد ظهر وبَانَ، كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيمة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر قال الصاوي: والغرضُ أن الحقَّ قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبقَ إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلًّا بعمله ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه لصدِّ الناس عن الإيمان ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما استجاب الناسُ له ودخلوا في دينه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أى نزَّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبسا بالصدق القاطع، والحقِّ الساطع، في أحكامه وتشريعاته وأخباره ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أى ونزَّل الميزان أى العدل والإنصاف قاله ابن عباس. قال المفسرون: وسمى العدلُ ميزانا؛ لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أى وما ينبئك أيها المخاطب لعلَّ وقت الساعة قريب؟ فإن

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٣ .
(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٥٨ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٣ .
(٥) حاشية الصاوي ٤/ ٣٣ .
(٦) البحر المحيط ٧/ ٥١٣ .

الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعدَّ لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أى يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يُصدِّقون بها فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى والمؤمنون المصدِّقون بها خائفون وجلون من قيامها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أى الذين يُجادلون فى أمر القيامة فى ضلالٍ بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ .. إلى .. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣١)

المناسبة: لما ذكر تعالى الساعة وما يلقاه عند قيامها المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار من الحساب والجزاء، ذكر هنا أنه لطيف بالعباد لا يعاجل العقوبة للعصاة مع استحقاقهم للعذاب، ثم ذكر مآل المتقين، ومآل المجرمين في الآخرة، دار العدل والجزاء.

اللغة: ﴿لَطِيفٌ﴾ برٌّ رفيقٌ رحيم ﴿حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرثُ في الأصل: إلقاء البذور في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ثم استعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ القضاء السابق ﴿يَقْتَرِفْ﴾ يكتسب ﴿رَوْضَاتِ﴾ جمع روضة وهو الموضع الكثير الأزهار والأشجار والثمار كالمنتزه وغيره ﴿يَقْتَرِفْ﴾ يكتسب ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ المطر سمي غيثًا لأنه يُغيث الخلق ﴿قَنَطُوا۟﴾ يئسوا ﴿بَثَّ﴾ فرّق ونشر ﴿مُعْجِزِينَ﴾ فائتين من عذاب الله بالهرب.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ

---

(١) نفس المرجع السابق ٧/ ٥١٣ .

﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

التَّفْسِير: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعًا بمعاصيهم[١] ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضًا ليمتحن الغنيَّ بالفقير، والفقير بالغني كقوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾[٢]؟ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي الغالبُ الذي لا يُغالب ولا يُدافع.

ثم لما بيَّن كونه لطيفًا بالعباد، كثير الإحسان إليهم أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزدْ له في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل ممَّا قُدر له ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي وليس له في الآخرة حظٌ من الثواب والنعيم قال الزمخشري: سمَّى ما يعمله العامل مما يَبتغي به الفائدة حرثًا على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضوعفت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئًا منها لا كل ما يريده ويبتغيه[٣] وقال في التسهيل: حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل[٤]، ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟ قال شيخ زاده: وإسناد الشرع إلى الأوثان وهى جمادات إسناد مجازى من إسناد الفعل إلى السبب وسماه دينا للمشاكلة والتهكم[٥] ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي لولا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجع مؤلم ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة خائفين خوفًا شديدًا من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ أي والجزاء عليها نازل بهم يوم القيامة لا محالة، سواءً خافوا أو لم يخافوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ أي والمؤمنون الصالحون في

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥١٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٨ . (٣) تفسير الكشاف ٤/ ١٧١ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧١ . (٥) حاشية البيضاوي ٣/ ٢٧٥ .

رياض الجنة يتمتعون، في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم قال ابن كثير: فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان؟ فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ[١]؟ ولهذا قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء قال القرطبي: أي الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جل وعلا إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يُقَدِّر قَدْرَه[٢]؟ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ أي ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، لتعجلوا السرور ويزدادوا شوقًا إلى لقائه ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئًا من الأجر والمال، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي، قال ابن كثير: أى لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً وإنما أطلب أن تذرونى حتى أبلغ رسالات ربي فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة[٣] قال ابن عباس: يقول: إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وتؤذوني في نفسي لقرابتي منكم ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ أي ومن يكتسب ويفعل طاعةً من الطاعات نضاعف له ثوابها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يَضِيع عنده عملُ العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثِّر القليل من الحسنات ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ ؟ أي بل أيقول كفار قريش: إن محمدًا اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ قال أبوحيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة أي مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبلُ بالصدق والأمانة[٤] ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾ أي لو افتريتَ على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذبًا ولهذا أيَّدك وسدّدك قال ابن كثير: وهذه كقوله جل وعلا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وقال أبو السعود: والآيةُ استشهادٌ على بطلان ما قالوا، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعًا، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه[٥] ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يزيل الله الباطل بالكلية ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم وقال ابن كثير: بكلماته أي بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب، يعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر وقال القرطبي: والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب لعلمه الله وطبع على قلبك[٦] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٥ .
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٥ .
(٤) البحر المحيط ٧/ ٥١٦ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٤ .
(٦) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥ .

عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هذا امتنانٌ من الرحمن على العباد أي هو جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي وأنابوا بصدقٍ وإخلاص نية ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي: أي ويستجيبُ الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أي كالوا لهم [(١)] ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم، البرُّ الرحيم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغَوْا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا، وقال قتادة: خير العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغيك [(٢)] ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى يُنزّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» [(٣)] ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ تعديد لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزّل المطر، الذي يغيثهم من الجدب، من بعد ما يئسوا من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي ويبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي وهو الولي الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلقُ السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي وما نشر وفرّق في السموات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير: وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم [(٤)] وقال مجاهد: هم الناسُ والملائكة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أيِّ وقتٍ شاء ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي وما أصابكم أيها الناس مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلال: وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها [(٥)] ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٦٩ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٧ .
(٣) كذا ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعًا .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٨ .
(٥) تفسير الجلالين ٤/ ٣٨ .

الحديث «لا يصيب ابنَ آدم خدشُ عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرقٍ إلا بذنبٍ وما يعفو عنه أكثر»[١] ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذابِ الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ أي وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

فائدة: المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات، وأما الأنبياء فإنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام.

تَنْبِيهٌ: قال بعض العلماء: لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة، والعوالم العلوية مخلوقات- غير الملائكة- تشبه مخلوقات الأرض، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياة في المريخ، واستدلوا بهذه الآية ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ﴾ الآية، أقول: يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع، مخلوقات حيَّة غير الإنسان، أما الإنسان فإننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح هذا الكوكب الأرضي لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ .. إلى .. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾. من آية (٣٢) إلى آية (٥٣) نهاية السورة.

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض، وما بثَّ فيهما من مخلوقات لا تُحصى، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإله القادر الحكيم، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر، محمَّلة بالأقوات والأرزاق، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن.

اللغَة: ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية؛ لأنها تجري في الماء ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ جمع علم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به … كأنَّه علمٌ في رأسهِ نارُ

﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ساكنة لا تسير، من ركدَ الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿مَّحِيصٖ﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾ يهلكهنَّ يقال: أوبقه أي أهلكه ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نَّكِيرٖ﴾ منكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب ﴿عَقِيمًاۚ﴾ لا تلد.

---

(١) كذا في البحر المحيط ٧/ ٥١٨ وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلاً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

التفسير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسييرها لعبرًا وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكرٍ في الرخاء قال الصاوي: أي كثير الصبر على البلايا، عظيم الشكر على العطايا[١] وقال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سببًا لسيرها فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها[٢] ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب

---

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٣٩ .   (٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠ .

فينجيهم الله من الهلاك ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله قال القرطبي: أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة [١] ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي فما أعطيتم أيها الناس من شيء من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية، فإنما هو نعيم زائل، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ أي وما عند الله من الثواب والنعيم، خيرٌ من الدنيا وما فيها، لأنَّ نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي للذين صدَّقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي وهؤلاء المؤمنون هم الذي يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ قال ابن عباس: يعني الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أي إذا غضبوا على أحدٍ ممَّن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخلٍ بالمروءة، ولا واجبًا كما إذا انتهكت حرماتُ الله، فالواجب حينئذٍ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استُغضب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر: «وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل» [٢] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة قال البيضاوي: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا [٣] ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمرًا من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق [٤] قال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كُلًّا في موضعه محمود [٥] ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة قال الإمام الفخر: لما قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل دون زيادة، وإنما سمَّى ذلك سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به [٦] ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو

(١) القرطبي ١٦/ ٣٣ .
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٠ .
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٥ .
(٤) القرطبي ١٦/ ٣٩ .
(٥) أبو السعود ٥/ ٣٦ .
(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٠ .

القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث «وما زاد الله تعالى عبدا بعفوٍ إلا عزا» ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي ويتكبرون في الأرض تجبرًا وفسادًا، بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي: كرَّر الصبر اهتمامًا به وترغيبًا فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة[1] ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له ناصر ولا هاد يهديه إلى الحق ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل فلا يجابون[2] ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ أي يسارقون النظر خوفًا منها وفزعًا كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس: ينظرون بطرفٍ دابلٍ ذليل وقال قتادة والسدي: يُسارقون النظر من شدة الخوف[3] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة قال ابن كثير: من يضلله الله فليس له خلاص[5] ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ أي استجيبوا أيها الناسُ إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قبل أن

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٤١ .
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٥ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٦ .
(٤) التفسير الكبير ٢٧/ ١٧٨ .
(٥) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٢ .

يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحدٌ على رده، لأنه ليس له دافع ولا مانع ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي وليس لكم منكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب وقال أبو السعود: أي ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدوَّن في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم [1] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي فما أرسلناك يا محمدًا رقيبًا على أعمالهم ولا محاسبًا لهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلتَ قال أبو حيان: والآية تسلية للرسول [2] وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهمِّه بهم [2]، ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ المرادُ بالإنسان الجنس بدليل قوله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ والمعنى إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبَّر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي وإن أصاب الناسَ جدبٌ ونقمة، وبلاءٌ وشدة بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية قال الصاوي: والحكمةُ في تصدير النعمة بـ «إذا» والبلاء بـ «إنْ» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه[3] وقال الإمام الفخر: نِعَمُ اللهِ في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمَّاها ذوقًا، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المُنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة[4] ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هو تعالى المالك للكون كلِّه، علويه وسفليّه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما شاء، والمقصودُ من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أي يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي ويخص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيمًا فلا يولد له، وبعض النساء عقيمًا فلا تلد قال البيضاوي: والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعضٍ إمّا صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعًا، ويُعقم آخرين[5]، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء، ولهذا قال ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة قال

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٧ .
(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٥ .
(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٤١ .
(٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٨٤ .
(٥) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٦ .

ابن كثير: جعل تعالى الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير[١].. ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي وما صح لأحدٍ من البشر أيًّا كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في المنام أو بالإلهام، لأن رؤيا الأنبياء حقٌّ كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي أو يرسل ملكًا فيبلغ الوحي إلى الرسول بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء قال في التسهيل: بيَّن تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه:

أحدها: الوحي بطريق الإلهام أو المنام، والآخر أن يُسمعه كلامه من وراء حجاب، والثالث: الوحي بواسطة الملك، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء[٢] وقال الصاوي: وقد يقع الإلهام لغير الأنبياء كالأولياء، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين، بخلاف الأنبياء فإلهامهم محفوظ منه[٣] ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي إنه تعالى متعالٍ عن صفات المخلوقين، حكيم في أفعاله وصنعه، تجري أفعاله على موجب الحكمة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمَّاه روحًا؛ لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض[٤] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ولكن جعلنا هذا القرآن نورًا وضياءً نهدي به عبادنا المتقين ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم هو الإسلام ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دينُ الله الذي له كل ما في الكون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لتنذر أهل مكة؛ لأن الإنذار لأهل القرية لا لها. وفي الآية احتباك حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، وتقديره: لتنذر أم القرى العذاب،

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٣ .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٤ .
(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٤٢ .
(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٥٥ .

وتنذر الناس يوم الجمع .

٢- توالي المؤكدات مع صيغة المبالغة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهي ألا ، وإن ، وضمير الفصل .

٣- الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةِ . . ٱلسَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ . . وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿ذُكْرَانًا . . وَإِنَٰثًا﴾ .

٤- طباق السلب ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ .

٥- الاستعارة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ . . .﴾ الآية ، شبه العمل للآخرة بالزارع يزرع الزرع ليجني منه الثمرة والحب ، بطريق الاستعارة التمثيلية وهي من لطائف الاستعارة .

٦- المقابلة ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ .

٧- عطف العام على الخاص ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ فالغيث خاص ، والرحمة عام .

٨- التشبيه المرسل المجمل ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم .

٩- التقسيم ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ .

١٠- جناس الاشتقاق ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ .

١١- صيغة المبالغة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي عظيم الصبر ، كبير الشكر .

١٢- المشاكلة ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة .

١٣- توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»
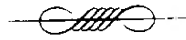
تفسير سورة الزخرف

بين يدي السورة

* سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان، «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

* عرضت السورة لإِثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبيّ الأمي بأفصح لسانٍ، وأنصع بيان؛ ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

* ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، منبثةً في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

* ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البناتِ سفهًا وجهلاً، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، وردِّ النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

* وتحدثت السورة بإِيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

* ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام، فقد اقترحوا أن تتنزَّل الرسالة على رجلٍ من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزانًا لكرامة الإِنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين.

* وذكرت السورة قصة «موسى وفرعون» لتأكيد تلك الحقيقة السابقة، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجته الغرق والدمار.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها، وبيان حال الأشقياء المجرمين، وهم يتقلَّبون في غمرات الجحيم.

التسمية: سميت «سورة الزخرف» لما فيها من التمثيل الرائع- لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع- بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة،

ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ... إلى.. فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٥)

اللغَةَ: ﴿صَفۡحًا﴾ إعراضًا يقال: ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنه وتركته ﴿بَطۡشٗا﴾ قوة وانتقامًا، وبطش به أخذه بشدة وعنف ﴿مَهۡدٗا﴾ فراشًا وبساطًا «أنشرنا» أحيينا، والنشور، الإحياء بعد الموت «تستووا» تستقروا وتركبوا ﴿مُقۡرِنِينَ﴾ مطيقين ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غمًّا وغيظًا ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ يكذبون ﴿أُمَّةٖ﴾ دين وطريقة ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾ المترف: المتنعم المنغمس في الشهوات.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝١٨ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ۝١٩ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٢٠ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ۝٢١ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

التَّفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن [١] ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قسمٌ أقسم الله به أي أُقْسِمُ بالقرآن البيّن الواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبيِّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ هذا هو

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة.

المقسم عليه أي أنزلناه بلغة العرب، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة، بأسلوب محكم، وبيان معجز ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا أحكامه، وتتدبروا معانيه، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر، قال البيضاوي: أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، وهو من البدائع البلاغية لتناسب القسم والمُقْسم عليه، تنبيهًا على أنه لا شيء أعلا منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه[(١)] ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي وإنه في اللوح المحفوظ عندنا ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمة بالغة ومكانة فائقة. قال ابن كثير: بيَّن شرف القرآن في الملأ الأعلى، لِيُشَرِّفَه ويُعظمه أهلُ الأرض، أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة، وشرف وفضل[(٢)] ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الاستفهام إنكاري أي أن ترك تذكيركم إعراضًا عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن؟ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، بل نذكّركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة[(٣)] قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جدًّا وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به من قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته[(٤)] ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ تسلية للنبي عليه السلام أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين؟ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزءوا به. قال الصاوي: وهذا تسلية له ﷺ والمعنى: تَسَلَّ يا محمد ولا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك[(٥)] ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي فأهلكنا قومًا كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وسبق في القرآن أحاديث إهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين قال الإمام الفخر: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك فقد ضربنا لهم مثَلَهم[(٦)] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي ولئن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السمواتِ والأرض بهذا الشكل البديع ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي ليقولنَّ: خلقهنَّ الله وحده، العزيزُ في ملكه، العليمُ بخلقه قال القرطبي: أقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهًا[(٧)].. ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾

(١) حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ٢٨٨ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٤ .
(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٩٥ .
(٤) المختصر ٣/ ٢٨٥ .
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٤ .
(٦) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٩٥ .
(٧) تفسير القرطبي ١٦/ ٦٤ .

أي وجعل لكم فيها طُرُقًا تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مودع هذا النظام العجيب ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي نزَّل بقدرته الماء من السماء بمقدار ووزنٍ معلوم، بحسب الحاجة والكفاية قال البيضاوي: أي بمقدار ينفع ولا يضر[١] ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي فأحيينا به أرضًا ميتة مقفرةً من النبات ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك قال ابن عباس: «الأزواج» الأصناف والأنواع كلها كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى[٢] ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي وسخَّر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر، ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير: أي ذلَّلها وسخَّرها ويسَّرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها[٣] ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركوب، سفينةً كانت أو جملاً ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت قال في حاشية البيضاوي: وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم، مستدعية لطاعته وشكره، فإن من تفكر في أنَّ ما يركبه الإنسان من الفُلْك والأنعام، أكثر قوةً وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أيّ جانب شاء، وتفكر أيضًا في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[٤].. ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي جعل المشركون لله ولدًا حيث قالوا: الملائكةُ بنات الله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي إن القائل لهذا لمبالغٌ في الكفر، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي: أي ظاهر الكفران؛ لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه[٥] ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ إنكارٌ وتعجبٌ من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات وخصكم واختار لكم البنين؟ قال ابن كثير: وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار[٦]، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي وإذا

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٧.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٧٧.

(٣) مختصر ابن كثير للصابوني ٣/ ٢٨٥.

(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٢٩١.

(٥) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٧.

(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٦.

بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلىء غيظًا وغمًّا من سوء ما بُشّر به قال الإمام الفخر: والمقصودُ من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدِّ كيف يجوز للعاقل إثباتهُ لله تعالى؟ وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي أيجعلون للهِ من يُربَّى في الزينة ويُنَشَّأ ويكبر عليها وهنَّ الإناث؟ ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي ومن هو في الجدال غيرُ مظهرٍ لحجته لضعف رأيه؟ أوَمَنْ يكونُ هكذا يُنْسب إلى جناب الله العظيم؟ قال في التسهيل: والمقصد الرد على الذين قالوا: الملائكةُ بنات الله، كأنه قال: أجعلتم للهِ من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفةُ النقص، ثم أتبعها بصفة نقصٍ أخرى فقال ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّن حجتها لنقص عقلها، وقلّما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص[٢]؟ وقال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

وما الحليُّ إلا زينةٌ من نقيصةٍ ... يتمِّم من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قصَّرا

وأما نقصُ معناها فإنها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببنت «ما هي بنعم الولد، نصرُها بكاءٌ، وبرُّها سرقة»[٣] ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ كفرٌ آخر تضمنه قولهم الشنيع أي واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله- إناثٌ وحكموا عليهم بذلك ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أي أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيد شديد مع التهديد. قال المفسرون: حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذَّبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال، ثم زادوا ضلالاً وبهتانًا فزعموا أنَّ ذلك برضى الله ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: لو شاء الله ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولَّما كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي: وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فكل شيءٍ بإرادة الله، والمشيئةُ غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٠١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٦ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٧ .

أنَّ الله أراد منهم ذلك ، وقد كذبهم الله بقوله ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك القول حجة ولا برهان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون ويتقوَّلون على الله كذبًا وزورًا ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ردٌّ آخر عليهم أي أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتابًا من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته؟ قال الإمام الفخر : والمعنى : هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزَّل قبل القرآن حتى يعوِّلوا عليه ويتمسكوا به ؟ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ بل للإضراب وهو الانتقال من كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجةٍ عقلية أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهَلة قال أبو السعود : والأُمةُ : الدينُ والطريقةُ سميت أمةً لأنها تؤم وتقصد [٣] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي ونحن ماشون على طريقتهم مهتدون بآثارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان كذلك فعل من قبلهم من المكذبين ، فما بعثنا قبلك رسولاً في أمةٍ من الأمم ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة ، وأعمتهم الشهواتُ والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق : إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين ، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم ، قال البيضاوي : والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم ، وأسلافُهم لم يكن لهم سندٌ منظور يُعتَدُّ به ، وإنما خصَّص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى [٤] ، وذكر هنا ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ وهناك ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ تفننًا ؛ لأن معناهما واحد ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ ؟ أي قال كل نبيٍّ لقومه حين أنذرهم عذاب الله : أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قالوا : إنا كافرون بكل ما أُرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب فانظر كيف صار حالهم ومآلهم !!

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . . إلى . . مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٤٥) .

المُنَاسَبَةُ: لما حكى عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرؤه من قومه ومن عبادة الأوثان، للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٧٣ .
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٠٦ .
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٢ .
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٨ .

اللُّغَة: ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر بمعنى بريء أي متبرئ يقال: تبرأتُ من الأمر أي تخليت عنه بالكلية ﴿عَقِبِهِۦ﴾ ذريته ونسله قال ابن شهاب: العقب: الولدُ وولد الولد ﴿سِخْرِيًّا﴾ أي مسخرًا في العمل مستخدمًا فيه «معارج» مصاعد ومراقي جمع مِعْراج وهو ما يصعد عليه الإنسان كالدرج ونحوه ﴿يَظْهَرُونَ﴾ يرتقون ويصعدون «زُخرُف» زينة من ذهب وفضة وغيرهما ﴿يَعْشُ﴾ يُعرض، وأصله من عَشِيَ البصرُ إذا ضعف قال الخليل: العشو هو النظر ببصر ضعيف.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

التَّفْسِير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إنني بريءٌ من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكنْ ربي الذي خلقني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق، ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي وجعل إبراهيم هذه الكلمة- كلمة التوحيد- باقيةً في ذريته فلا يزال فيهم من يوحِّد الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين[1] ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي بل متعتُ أهل مكة وآباءهم- وهم من عقب إبراهيم- بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله قال الإمام الفخر: وجه نظم الآية أنهم لما عوَّلوا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٨ .

على تقليد الآباء، ولم يتفكروا في الحجة، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق[١] ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ أي ولمَّا جاءهم القرآن لينبههم من غفلتهم، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا عتوًّا وضلالاً فقالوا عن القرآن إنه سحر ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي ونحن كافرون به، لا نصدّق أنه كلام الله قال أبو السعود: سمَّوا القرآن سحرًا وكفروا به واستحقروا الرسول عليه السلام، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به[٢] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال المشركون: هلاَّ أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف!! قال المفسرون: يعنون «الوليد بن المغيرة» في مكة أو «عُروة بن مسعود الثقفي» في الطائف.. استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، ظنًّا منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله تعالى عظيمًا، وهم يعتبرون مقياس العظمة: الجاه والمال، وهذا رأي الجاهلين في كل زمانٍ ومكان، أما مقياسُ العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند العقلاء، فإنما هو عظمة النفس، وسُموُّ الروح، ومَنْ أعظمُ نفسًا وأسمى روحًا من محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام!! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي أهم يمنحون النبوة ويخصُّون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغني، أو فلانٍ الكبير من الناس؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة- وهو تافه حقير- لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة- وهو عظيم وخطير- لأهوائهم ومشتهياتهم!! قال في التسهيل: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألاّ نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية[٣] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليكون كلٌ منهم مسخرًا للآخر، ويخدم بعضهم بعضًا لينتظم أمر الحياة قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحدًا، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه[٤] وقال أبو حيان: وقوله تعالى ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعضٍ، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ تزهيدٌ في الإكباب على طلب

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٠٨ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٣ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٨ .
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٤٨ .

الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله[١]، وقال قتادة: تَلْقى ضعيفَ القوة، قليل الحيلة، عييَّ اللسان وهو موسَّع عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه في الرزق، وقال الشافعي:

ومن الدليل على القضاء وكونِه بؤس اللبيب وطيبُ عيشِ الأحمق[٢]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي وإنعامه تعالى عليك بالنبوة خيرٌ مما يجمع الناسُ من حطام الدنيا الفاني، ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي ولولا أن يرغب الناسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمةً واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي وجعلنا لهم مصاعدَ وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ أي ولبيوتهم أبوابًا من فضة وسررًا من فضة، زيادةً في الرفاهية والنعيم ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي على تلك الأسرَّة الفضيَّة يتكئون ويجلسون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي وجعلنا لهم زينةً من ستور ونمارق ونقوش وقال ابن عباس: «زخرفا» ذهبًا أي جعلنا لهم سقفًا وأبوابًا وسررًا من فضة وذهب[٣] ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلاّ شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة الحقيرة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي والجنةُ وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين لا يشاركهم فيها أحد قال المفسرون: والآياتُ سيقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لو لا الفتنة لخصَّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة، ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم وفي الحديث «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء»[٤] قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاَّ وسَّع على المسلمين لِيُطْبِقَ الناس على الإسلام؟ قلتُ: التوسعةُ عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبَّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلَّب الفقر على الغنى[٥] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ومن يعرض ويتعام ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي نهيء ونيسّر له شيطانًا لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء كقوله تعالى ﴿أَلَمْ

---

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٣ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٣ .
(٣) القرطبي ١٦/ ٨٧ .
(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسنٌ صحيح .
(٥) تفسير الكشاف ٤/ ١٩٧ .

تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهداية من أمرهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد رُبطا بسلسلةٍ واحدة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب قال الطبري: وهذا من باب التغليب كما يقال: القمران، والعُمَران، والأبوان، فغلَّب ههنا المشرق على المغرب[١] ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي فبئس الصاحب أنت، لأنك كنت سببًا في شقائي بتزيينك الباطل لي قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئًا بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه قال في التسهيل: المراد أنه لاينفعهم اشتراكُهم في العذاب، ولايجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه[٢] لأن المصيبة إذا عمَّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب، لا يخفِّف عنهم البلاء ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي فأنت يا محمد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصُّم والعُمي، ومن كان في ضلالٍ واضح؟ ليس لك ذلك فلا يَضِقْ صدرك إن كفروا، قال المفسرون: والآية تسلية للنبي ﷺ فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلاَّ تعاميًا عن الحق وطغيانًا وضلالاً ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم، فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي أو نرينَّك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك فإنا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتوننا قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر وقال ابن كثير: المعنى لابدَّ أن ننتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحكَّمه في نواصيهم[٣] ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي فتمسكْ يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه لك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي وإن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أُنزل بلغتهم وعلى رجلٍ منهم، وسوف تسألون عن شكر هذه النعمة قال في التسهيل: والذكرُ هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها وصارت فيهم الخلافة والملك[٤]، وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ

---

(١) تفسير الطبري .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٠ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩ .

كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ هذا على سبيل الفرض، وفي الكلام محذوف أي إن كنت يا محمد شاكًا في أمر التوحيد فسلْ من سبقك من الرسل ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله؟ والآية كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادى[1] وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم؟ وهذا كما يساءل الشعراء الديار والأطلال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا، وهذا كله من باب المجاز[2].

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ . . إلى . . هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٤).

المُنَاسَبَةُ: لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه، واختاروا أن يتنزَّل القرآن على رجلٍ كثير المال عظيم الجاه، ذكر تعالى قصة «موسى مع فرعون» ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفضَ قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالاً وجاهًا من موسى، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان.

اللُغَةُ: ﴿يَنكُثُونَ﴾ نكث العهد: نقضه ﴿مَهِينٌ﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا وغاظونا ﴿سَلَفًا﴾ قُدْوة ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد بمعنى يضجّون ويصيحون، وبضمها بمعنى الإعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري: صدَّ يصُدُّ صديدًا أي ضجَّ، وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج[3]، وقال الفراء: هما سواء ﴿تَمْتَرُنَّ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الأمر شكَّ فيه، والمريةُ: الشكُّ.

سَبَبُ النّزول: عن مجاهد قال: إن قريشًا قالت: إن محمدًا يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[4].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٥ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٩ .
(٣) انظر الصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط .
(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٢ .

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريةً واستهزاءً به قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآياتِ سحرٌ، وأنهم قادرون عليها[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان، والجراد، والقُمَّل إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها[2] ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب: يا أيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لنؤمنن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك قال المفسرون: ليس قولهم ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان عِلم زمانهم، ولم يكن مذمومًا، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيمًا يوقرونه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؟ أي قال مفتخرًا متبجحًا: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٩٧ .
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٥١ .

ملكًا لي؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحتي قصوري؟ قال القرطبي: ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تينس وكلها من النيل وقال قتادة: كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصره ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ؟ أي أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته؟ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟ يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضّح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ ؟ أي فهلاَّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوَّته!! قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيسًا عليهم سوّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه خدمةً له وشهادة بصدقه قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقًا فهلاَّ ملَّكه ربُّه وسوَّره وجعل الملائكة أنصاره !! ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي فلما أغضبونا وغاظونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نبق منهم أحدًا قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز بشيء أهلكه الله به ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي جعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك قال مجاهد: سلفًا لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرةً لمن يأتي بعدهم ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي ولمَّا ذُكر عيسى بن مريم في القرآن وضُرب المثلُ بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتُهم بالصياح قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن الزبعرى: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: قد

---

(١) نفس المرجع السابق ١٦/٩٨ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢ .
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٦ .
(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٠ .
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢ .
(٦) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٢ .

خصمتك وربِّ الكعبة؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيرًا؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة!! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظارًا للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم[1] فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ ولم يقل «ومنْ تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين[2] ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي أآلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ فإن كان عيسى في النار فلتكنْ آلهتنا معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ أي ما قالوا هذا القول لك إلاَّ على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحقِّ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي بل هم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل: أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحقٍّ أو بباطل، فإن ابن الزبعرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خَصِمون[3] ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلهًا ولا ابن إله كما زعم النصارى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خُلق من أم بلا أب قال الرازي: أي صيرناه عبرةً عجيبة كالمثل السائر حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم[4] ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ أي لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يسكنون في الأرض يكونون خلفًا عنكم قال مجاهد: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم[5] ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى علامة على قرب الساعة قال ابن عباس وقتادة: إن خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ أي فلاتشكُّوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالة وفي الحديث «يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكما مقسطا..»[6] الحديث ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي وقل لهم يا محمد: اتبعوا هُداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيّم وطريق مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي لا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات

---

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٥٢ وانظر تفسير أبي السعود ٥/ ٤٧ .
(٢) القرطبي ١٦/ ١٠٣ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٢ .
(٤) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٢٢ .
(٥) القرطبي ١٦/ ١٠٥ .
(٦) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري .

الواضحات، قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين قال ابن جزي: وإنما قال ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا[١] وقال الطبري: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية[٢] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي إن الله جل وعلا هو الربُّ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده[٣] ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم.

□□□

قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ .. إلى .. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٦٥) إلى آية (٨٩) نهاية السورة

المُنَاسَبَةُ: لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق، أتبعه بذكر ضلال أهل الكتاب حيثُ تفرقوا شيعًا وأحزابًا في شأنه فقال بعضهم: إنه إله، وقال بعضهم: إنه ابن الإله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأهوالها، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق، الواحد الأحد جلَّ وعلا.

اللُّغَةُ: «الأخلاء» جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسرون وتفرحون، والحبورُ: السرور والفرح «أكواب» جمع كوب وهو القدح الذي لا عروة له ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الرحمة، وحزينون من شدة اليأس «أبرموا» أحكموا الشيء يقال: أبرم القوم أمرهم أحكموه، والإبرام: الإحكام ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُقلبون ويُصرفون، أفكه أفكًا أي قَلَبه وصرفه عن الشيء.

سَبَبُ النزول: عن مقاتل قال: مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة، وتآمروا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[٤].

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٢ .

(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٥ قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد .

(٣)، (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٥ .

خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ
ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟
أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ
فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ
يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

التفسير: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعًا وأحزابًا فيه قال ابن كثير: صاروا شيعًا فيه، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولهُ - وهو الحقُّ -، ومنهم من يدّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا إتيانَ الساعة ومجيئها فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء إلاّ من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير: كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه [(١)] قال ابن عباس: صارت كل خلّةٍ عداوةً يوم القيامة إلا المتقين تشريفًا وتطييبًا لقلوبهم فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يا عباد المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضّحهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات، تُنعَّمون فيها وتُسرُّون سرورا يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها الطعام، وأقداح من ذهب فيها الشراب قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ وفي الحديث «لا

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .

تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة »[١] ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبدًا قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور، فإنَّ كل نعيم زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال[٢]. . لمَّا ذكر سبحانه وتعالى الجنة وأنها موضع الحبور، ذكر ما فيها من النعم، فذكر أولاً المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بيانًا كليًّا بقوله ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إمّا مشتهاة في القلوب، أو مستلذةٌ في العيون[٣] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكنْ برحمة الله وفضله، وإنما الدرجاتُ يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات[٤] وفي الحديث «ما من أحدٍ إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار الكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة» وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكهًا وتلذذًا قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا تُرَى فيها شجرةٌ تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينةٌ بالثمار أبدًا، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها»[٦]. . ولما ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبدًا قال الصاوي: والمراد بالمجرمين: الكفارُ لأنهم ذُكروا في مقابلة المؤمنين[٧] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكنْ كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسَهم للعذاب الخالد ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ونادى الكفار مالكًا خازن النار قائلين: لِيُمِتْنا اللهُ حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير: أي

(١) الحديث من رواية الشيخين .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩ .
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٠٤ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٦ .
(٥) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم .
(٦) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩ .
(٧) حاشية الصاوي ٤/ ٥٤ .

ليقبضْ أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه قال ابن عباس: فلم يجبهم إلا بعد ألف سنة[١] ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبدًا، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ خطاب توبيخ وتقريع، أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفًا لأهوائكم وشهواتكم قال الرازي: هذا كالعلة لما ذُكر والمرادُ نفرتهم عن محمد وعن القرآن، وشدة بُغْضهم لقبول الدين الحق[٢] ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ الكلام عن كفار قريش أي أم أحكم هؤلاء المشركون أمرًا في كيد محمد ﷺ فإنا مُحْكِمون أمرنا في نصرته وحمايته، وإهلاكهم وتدميرهم قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة[٣] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي أم يظنون أنَّا لا نسمع ما حدَّثوا به أنفسهم، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي قال في التسهيل: السرُّ ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفية، والنجوى ما تكلموا به بينهم[٤] ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بلى إنا نسمع سرَّهم وعلانيتهم، وملائكتُنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم، روي أنها نزلت في «الأخنس بن شُريق» و«الأسود بن عبد يغوث» اجتمعا فقال الأخنس: أترى الله يسمع سرَّنا!! فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا[٥] ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فُرِض أنَّ لله ولدًا لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه جل وعلا منزَّه عن الزوجة والولد قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبتَ ما قلتَ بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، وترقيقٌ في الكلام[٦] وقال الطبري: هو ملاطفة في الخطاب وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحةُ وجود الولد وعبادتُه له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح[٧] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل، ربُّ السمواتِ والأرضِ، وربُّ العرشِ العظيم، عمَّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وُعِدُوه - وهو يوم القيامة- فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبود في الأرض، لأنه هو الإله الحق،

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٦ .
(٢) التفسير الكبير ٢٧/٢٢٧ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/١١٨ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ .
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ .
(٦) تفسير القرطبي ١٦/١١٩ .
(٧) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية وقيل: «إن» بمعنى «ما» أي ما كان للرحمن ولد وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: (فأنا أول العابدين)، وهذا قول ضعيف .

المستحق للعبادة في السماء والأرض قال في التسهيل: أي هو الإِله لأهل الأرض وأهل السماء[١] وقال ابن كثير: أي هو إله مَنْ في السَّماء وإلهُ من في الأرض، يعبده أهلهما وكلُّهم خاضعون له أذلاء بين يديه[٢] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو الحكيم في تدبير خلقه، العليمُ بمصالحهم، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي له مُلك السمواتِ والأرض وما بينهما من المخلوقات، من الإِنس والجن والملائكة، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا ممانعةٍ ولا مدافعة ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وعنده وحده علم زمان قيام الساعة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه لا إلى غيره مرجعُ الخلائق للجزاء، فيجازي كُلًّا بعمله ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه لا شفاعة إلا بإذنه ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا لمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة، فإنه تنفع شفاعته عند الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه قال المفسرون: والمرادُ بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ عيسى وعزير والملائكة، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية للهِ، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ولئن سألت -يا محمد- كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ليقولُنَّ اللهُ خلقنا، فهم يعترفون بأنه الخالق ثم يعبدون غيره ممن لا يقدر على شيء ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وقول محمد في شكواه لربه: يا ربِّ إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن قال قتادة: هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل[٣] ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد وسامحهم ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به، قال الصاوي: وهو تباعدٌ وتبرؤٌ منهم، وليس في الآية مشروعية السلام على الكفار[٤] وقال قتادة: أُمِرَ بالصفح عنهم ثم أُمر بقتالهم، فصار الصفح منسوخًا بالسيف[٥] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعيدٌ وتهديد للمشركين، وتسلية لرسول الله ﷺ[٦].

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التشبيه البليغ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي كالمهد والفراش حُذفت منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٢ - الاستعارة التبعية ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ شبَّه الأرض قبل نزول المطر بالإِنسان الميت ثم أنشرها الله أي أحياها بالمطر ففيه استعارة تبعية.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٣ .
(٢) المختصر ٣/ ٢٩٨ .
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٥٦ .
(٥) تفسير القرطبي ١٦/ ١٢٤ .
(٦) أبو السعود ٥/ ٥١ .

٣- التأكيد بإنَّ واللام مع صيغة المبالغة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .

٤- الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟ وبين لفظ البنات والبنين طباقٌ .

٥- المجاز المرسل ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ المراد بالكلمة الجملةُ التي قالها ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ففي اللفظ مجاز .

٦- الاستعارة ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ شبه الكفار بالصُّمِّ والعمي بطريق الاستعارة التمثيلية .

٧- جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما .

٨- حذف الإيجاز ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أكواب من ذهب ، وحُذف لدلالة السابق عليه .

٩- ذكر العام بعد الخاص ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ بعد قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ الآية .

١٠- الطباق ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ لأن المراد سرَّهم وعلانيتهم .

١١- السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»
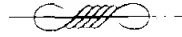
تفسير سورة الدخان

بَين يَدَى السُّورَة

* سورة الدخان مكية وهى تتناول أهداف السور المكية (التوحيد، الرسالة، البعث) لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم- المعجزة الخالدة- الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلةٍ مباركة من أفضل ليالى العمر هى (ليلة القدر) وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التى تُفصَّل وتدبَّر فيها أمور الخلق، والتى اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم فى شكٍّ وارتياب من أمره، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه؛ وأنذرتهم بالعذاب الشديد.

* ثم تحدثت عن قوم فرعون، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام، وعن الآثار التى تركوها بعد هلاكهم، من قصور ودور، وحدائق وبساتين، وأنهار وعيون، وعن ميراث بنى إسرائيل لهم، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله.

* وتناولت السورة الكريمة مشركى قريش، وإنكارَهم للبعث والنشور، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسول، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وأن سنة الله لا تتخلف فى إهلاك الطغاة المجرمين.

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.

التسمية: سميت (سورة الدخان) لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجّاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبى ﷺ.

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ . . إلى . . وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٩).

اللغَة: ﴿يُفْرَقُ﴾ يُبيَّن ويُفصَّل، «ارتقب» انتظر، ﴿يَغْشَى﴾ يغطى ويحيط، ﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بشدة وعنف، ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا وامتحنا، ﴿تَعْلُوا۟﴾ تتكبروا وتتطاولوا، ﴿عُذْتُ﴾ استجرتُ والتجأت إلى الله، ﴿أَسْرِ﴾ سر ليلاً ﴿رَهْوًا﴾ ساكناً، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر:

والخيل تمزع رهواً في أعنَّتها كالطير تنجو من الشُّئبوب ذي البرد(١)

قال الجوهري: رها البحر أي سكن، وجاءت الخيل رهواً أي برفق وسكينة ﴿مُنظَرِينَ﴾ مؤخرين ﴿نَعْمَةٍ﴾ النَّعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال.

سَبَبُ النُّزول: عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهْد، فأنزل الله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأتى رسولُ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق لِمُضَر فإنها قد هلكت، فاستسقى فَسُقوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ⑯ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ⑰ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ⑱ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⑲ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ⑳ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ㉑ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ㉒ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ㉓ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ㉔ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ㉕ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ㉖ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ㉗ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ㉘ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

التَّفسِير: ﴿حم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم(٣)، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أُقسِمُ بالقرآن البيِّن الواضح، الفارق بين طريق الهدى والضلال، البيِّن في إعجازه، الواضح في أحكامه، وجوابُه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلةٍ فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال ابن جزي:

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في القرطبي ١٦/ ١٣٧ ومعنى الشؤبوب: السحاب العظيم القطر.
(٢) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود.
(٣) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

وكيفيةُ إنزاله فيها أنه أُنزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، ثم نزل به جبريل على النبى ﷺ شيئاً بعد شيء [١]، وقيل: المعنى ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر، قال القرطبى: ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل اللهُ فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب [٢] ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أى لننذر به الخلق، لأن من شأننا وعادتنا ألاّ نترك الناس دون إنذار وتحذيرٍ من العقاب، لتقوم الحجة عليهم ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أى فى ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر قال ابن عباس: يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القابلة ما كان من حياةٍ، أو موت، أو رزقٍ قال المفسرون: إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر، ما يكون فى تلك السنة من أرزاق العبادِ وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر، وصالح وطالح، حتى إن الرجل ليمشى فى الأسواق وينكحُ ويُولد له وقد وقع اسمه فى الموتى [٣] ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أى جميع ما نقدِّره فى تلك الليلة وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد، هو أمر حاصل من جهتنا، بعلمنا وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال فى البحر: وضع الظاهر ﴿رَّبِّكَ﴾ موضع الضمير (رحمةً منا) إيذاناً بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين [٤] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى السميع لأقوال العباد، العليمُ بأفعالهم وأحوالهم ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى الذى أنزل القرآن هو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أى لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال، يُحيى الأموات، ويميت الأحياء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين. قال الرازى: والمقصودُ من الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء، كان المُنزل- الذى هو القرآن- فى غاية الشرف والرفعة [٥] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أى ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان فى قولهم: اللهُ خالقنا، بل هم فى شكٍّ من أمر البعث، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده: التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب، لكونهم من أهل الشك والامتراء، وكونُ أفعالهم الهزء واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والضار والنافع [٦]، ثم لما بيَّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسليةً له، وإقناطاً من إيمانهم فقال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتى السماءُ بدخان كثيف، بيّنٍ واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود: إن قريشاً لما عصت

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٤ .
(٢) تفسير القرطبى ١٦/ ١٢٦ .
(٣) حاشية زاده على البيضاوى ٣/ ٣١٠ .
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٣ .
(٥) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤١ .
(٦) حاشية شيخ زاده على البيضاوى ٣/ ٣١١ .

الرسول ﷺ دعا عليهم فقال: (اللهم اشدُد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف، وكان الرجل يُحدِّث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض، ثم قال ابن مسعود: خمسٌ قد مضين: (الدخانُ، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام)(١) وقال ابن عباس: لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة، وهو يأتي قُبيل القيامة، يصيبُ المؤمن منه مثلُ الزكام، وينضجُ رءوس الكافرين والمنافقين، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوى، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودبره(٢) ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي ويقولون مستغيثين: ربَّنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا قال البيضاوى: وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم(٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ؟ استبعادٌ لإيمانهم أى من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب؟ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أى والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيّن الرسالة، مؤيدٌ بالبينات الباهرة، والمعجزات القاهرة، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه؟ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أى ثم أعرضوا عنه وبهتوه، ونسبوه إلى الجنون- وحاشاه- فهل يُتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال الإمام الفخر: إن كفار مكة كان لهم فى ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان: منهم من كان يقول: إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس، ومنهم من كان يقول: إنه مجنون والجنٌّ تلقى عليه هذا الكلام حال تخبطه(٤) ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أى سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان قال الرازى: والمقصودُ التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم فى حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف(٥) قال ابن مسعود: لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبى ﷺ عادوا إلى تكذيبه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أى واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى انتقاماً منهم، والبطشُ الأخذُ بقوة وشدة قال ابن مسعود: (البطشة الكبرى) يوم (بدر) وقال ابن عباس: هى يوم القيامة قال ابن كثير: والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يومُ بدر يومَ بطشةٍ أيضاً(٦) وقال الرازى: القول الثانى أصح؛ لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذى يوصف به هذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، ولمّا وصف بكونها (كبرى) وجب أن تكون

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤ .

(٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره أبو السعود وقال: هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم، وذكر ابن كثير الرأيين ثم رجح رأى ابن عباس وقال: إن ما أوردوه فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن. اهـ ابن كثير ٣/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البيضاوى ٣/ ٣١٢ .

(٤) التفسير الكبير للرازى ٢٧/ ٢٤٤ .

(٥) نفس المرجع السابق .

(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ .

أعظم أنواع البطش على الإطلاق، وذلك إنما يكون في القيامة [١]، ثم ذكَّر كفار قريش بما حلَّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم أقباط مصر ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي وجاءهم رسولٌ شريف الحسب والنسب، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي فقال لهم موسى: ادفعوا إليَّ عبادَ الله وأطلقوهم من العذاب، يريد بني إسرائيل [٢] كقوله تعالى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني رسولٌ مؤتمنٌ على الوحي غير متهم، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا تترفَّعوا عن طاعته ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي قد جئتكم بحجةٍ واضحة، وبرهانٍ ساطع، يعترف بهما كل عاقل ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي: كأنهم توعَّدوه بالقتل فاستجار بالله [٣] ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة، فكفوا عن أذاي وخلُّوا سبيلي قال ابن كثير: أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمةً إلى أن يقضي الله بيننا [٤] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي فدعا عليهم لمّا كذبوه قائلاً: يا ربِّ إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: فأوحينا إليه وقلنا له: أسرِ بعبادي أي اخرج ببني إسرائيل ليلاً فإن فرعون وقومه يتبعونكم، ويكون ذلك سبباً لهلاكهم ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي واترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي إنَّ فرعون وقومه سيغرقون فيه قال في التسهيل: لمَّا جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فأمره الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه [٥]، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئناً إلى أنهم لن يدركوا بني إسرائيل، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ كم للتكثير أي لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي ومزارع عديدة فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها [٦] ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر: بيَّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي: الجنات، والعيون، والزروع، والمقام الكريم - وهو المجالس والمنازل الحسنة - ونعمة العيش بفتح النون وهي حسنُه ونضارته [٧]

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤٤ .

(٢) هذا قول مجاهد واختاره في التسهيل، وروى عن ابن عباس أن معناه: أن أدّوا إليَّ الطاعة والإيمان يا عباد الله .

(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٣٥ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٥ .

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٦ .

(٧) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٦ .

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ أى كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، كانوا مستعبدين فى يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير: والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا- بعد غرق فرعون وقومه- على الممالك القبطية، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وقال تعالى فى مكان آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [١] ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أى فما حزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أى وما كانوا مؤخرين وممهلين إلى وقت آخر. بل عُجّل عقابهم فى الدنيا قال القرطبى: تقول العرب عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أى عمَّت مصيبتُه الأشياء حتى بكته الأرض والسماء، والريح والبرق قال الشاعر:

فيا شجر الخابور ما لك مورقاً … كأنك لم تجزع لموتِ طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً فى وجوب الجزع والبكاء عليه والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْدٌ، وقيل: هو على حذف مضاف أى ما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض [٢].

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ . . إلى . . فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ من آية (٣٠) إلى آية (٥٩) نهاية السورة.

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه، أردفه بذكر إحسانه لبنى إسرائيل، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه، ثم حذَّر كفار مكة من بطش الله وانتقامه، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء فى يوم الفصل والجزاء.

اللغَةُ: ﴿عَالِيًا﴾ متكبراً جباراً ﴿بَلَٰٓؤٌا۟﴾ اختبار وامتحان «منشرين» مبعوثين بعد الموت، وأنشر الله الموتى: أحياهم ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ملوك اليمن، وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة قال الجوهرى: التبابعة ملوك اليمن، واحدهم: تُبَّع [٣]، وقال أهل اللغة: تُبَّع للملك منهم كالقياصرة للروم، والأكاسرة للفرس، والخلفاء للمسلمين [٤] ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ﴿مَوْلًى﴾ قريب وناصر «المهل» النحاس المذاب ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ الفاجر من أثِمَ الرجل يأثم إذا وقع فى الإثم والفجور «اعتلوه» جرُّوه وسوقوه بعنفٍ وشدَّة ﴿سُندُسٍ﴾ رقيق الديباج «استبرق» غليظ الديباج ﴿عِينٍ﴾ واسعات الأعين جمع عيناء «ارتقب» انتظر.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٣ .
(٢) تفسير القرطبى ١٦/ ١٣٩ .
(٣) الصحاح للجوهرى مادة تبع .
(٤) تفسير القرطبى ١٦/ ١٤٤ .

عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ .

التفسير: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد، المفرط في الإذلال والإهانة، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبراً جباراً، متجاوزاً الحد في الطغيان والإجرام، قال الصاوي: هذا من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه[1] ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي اصطفيناهم وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة: على أهل زمانهم، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جليّ لمن تدبّر وتبصّر قال الرازي: والآياتُ مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة، التي ما أظهر الله مثلها على أحدٍ سواهم[2] ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ أي إن كفار قريش ليقولون: لن نموت إلا موتةً واحدةً وهي موتتنا الأولى في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم قال المفسرون: لمّا كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش، والغرضُ من قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا: إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور، ثم صرحوا بذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤٨/ ٦٠ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٨ .

التعجيز أى أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين فى أن هناك حياةً بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر: إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم فى البعث يوم القيامة[١] وقال القرطبى: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقاً فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما: قُصيّ بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما يكون بعد الموت[٢] ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام إنكار مع التهديد أى أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن؟ الذين كانوا أكثر أموالاً، وأعظم نعيماً من كفار مكة؟ ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أى والذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، وخربنا بلادهم، وفرقناهم شذر مذر قال أبو السعود: والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأسٍ شديد، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإهلاك هؤلاء أولى[٣] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك أى أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين.. ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحقِّ فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أى وما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعبًا وعبثًا ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحقِّ المبين؛ لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال المفسرون: إن الله تعالى خلق النوع الإنسانى، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلفهم الإيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلابدَّ إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسيء؛ لتجزى كل نفسٍ بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهوًا وعبثًا، وتنزَّه الله عن ذلك، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين سُمى يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى فى ذلك اليوم الرهيب لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحدًا ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ استثناء متصل أى لا يغنى قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإنه يُؤذن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض[٤] وقيل: منقطع أى لكنْ من رحمه الله فإنه يشفع وينفع، قال ابن عباس: يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤٩ .
(٢) تفسير القرطبى ١٦/ ١٤٤ .
(٣) تفسير أبى السعود ٥/ ٥٥ .
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٩ .

والملائكة[١] ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو المنتقم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه . . ولما ذكر سبحانه الأدلة على القيامة، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب، فذكر وعيد الكفار أولاً ثم وعد الأبرار ثانياً للجمع بين الترهيب والترغيب فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة-شجرة الزقوم-التي تنبتُ في أصل الجحيم، طعام كل فاجر، ليس له طعام غيرها، قال أبو حيان: الأثيمُ صفة مبالغة وهو الكثير الآثام، وفُسِّر بالمشرك[٢] ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حرُّه، فهو يُجرجر في البطن ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة، قال القرطبي: وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار وشبَّه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهل وهو النحاس المذاب، والمرادُ بالأثيم: الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل، وذلك أنه كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثَّريد بالزبد والتمر[٣] ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخريةً واستهزاءً بكلام الله، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي يُقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حرُّه ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم قال عكرمة: التقى النبي ﷺ بأبي جهل، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال: بأي شيء تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، إني لمن أعزِّ هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه ونزلت هذه الآية[٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي إنَّ هذا العذاب هو ما كنتم تشكُّون فيه في الدنيا، فذوقوه اليوم ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ والجمعُ في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم . . ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي الذين اتقوا اللهَ في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه- هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره، وهو الجنة ولهذا قال بعده: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيونٍ جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإستبرق ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضاً بالحور الحسان في الجنان، قال

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٥١ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٩ .
(٤) القرطبي ١٦/ ١٥١ .

البيضاوي: أي قرناهم بالحور العين، والحوراءُ: البيضاءُ والعيناءُ: عظيمة العينين[1]، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه عن الغم، ثم ذكر الحور الحِسان لأن بها اكتمال سعادة الإنسان كما قيل: (ثلاثةٌ تنفي عن القلب الحزن: الماء، والخضرةُ، والوجهُ الحسن) ثم زاد في بيان النعيم فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة؛ لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض، فلا تعب في الجنة ولا وَصَب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت بل خلود الآبدين ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي خلّصهم ونجّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي أُعْطُوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فإنما سهلنا القرآن بلغتك - وهي لسان العرب - لعلهم يتعظون وينزجرون ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

٢ - الطباق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وكذلك ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

٣ - تحريك الهمة للإيمان والتبصر ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

٤ - الإيجاز بحذف بعض الكلام «أن أسر بعبادي» أي وقلنا له بأن أسر.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم، والعرب يقولون في التعظيم: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت له الدنيا. ويقولون في التحقير: مات فلان فلم تخشع له الجبال.

٦ - أسلوب التعجيز ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٧ - أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

٨ - التفجع وإظهار الأسى والحسرة ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾!

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٨٢.

بين يدى السورة

* سورة الجاثية مكية، وقد تناولت العقيدة الإسلامية فى إطارها الواسع (الإيمان بالله تعالى ووحدانيته، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام، الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء) ويكاد يكون المحور الذى تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو اللهُ العزيز فى ملكه، الحكيم فى خلقه، الذى أنزل كتابه المجيد رحمةً بعباده، ليكون نبراسًا مضيئًا ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة فى هذا العالم الفسيح، ففى السموات البديعة آياتٌ، وفى الأرض الفسيحة آياتٌ، وفى خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آياتٌ، وفى تعاقب الليل والنهار، وتسخير الرياح والأمطار آياتٌ، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته

* ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن، الذين يسمعون آياته المنيرة، فلا يزدادون إلا استكباراً وطغياناً، وأنذرتهم بالعذاب الأليم فى دركات الجحيم.

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه، ويتفكروا فى آلائه التى أسبغها عليهم، ويعلموا أنَّ الله وحده هو مصدر هذه النعم، الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله.

* وتحدثت عن إكرام الله لبنى إسرائيل بأنواع التكريم، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام، وبيَّنت أنه لا يتساوى فى عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار، ثم بيَّنت سبب ضلال المشركين، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهًا ومعبودًا حتى طُمِست بصيرتهم فلن يهتدوا إلى الحق أبدًا.

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين: فريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

التسمية: سميت (سورة الجاثية) للأهوال التى يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الرُّكب فى انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحقًّا إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان!!

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . . إلى . . وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ . من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

اللُّغَة: ﴿يَبُثُّ﴾ ينشر ويفرِّق «تصريف» تقليب، صرَّف الله الريح قلَّبها من جهة إلى جهة، ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تستعمل فى العذاب والدمار، ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذَّاب، والإفك: الكذبُ ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رِّجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿يُصِرُّ﴾ أصرَّ على الشيء: عزم على البقاء عليه بقوة وشدة «يغنى» ينفع أو يدفع ومنه ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ ﴿بَصَـٰٓئِرُ﴾ دلائل ومعالم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

التَّفسِير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أى هذا القرآن تنزيلٌ من الله، العزيز فى ملكه، الحكيم فى صنعه، الذى لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمةٌ ومصلحة للعباد، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة فقال: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى إنَّ فى خلق السمواتِ والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، والأمور البديعة، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته، لقوم يصدّقون بوجود الله ووحدانيته ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى وفى خلقكم أيها الناسُ من نطفةٍ ثم من علقة، متقلبة فى أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق، وفيما

(١) انظر تفصيل البحث فى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة من هذا التفسير.

ينشره تعالى ويُفرقه من أنواع المخلوقات التى تدب على وجه الأرض، آياتٌ باهرةٌ أيضاً لقوم يصدّقون عن إذعان ويقين بقدرة ربِّ العالمين ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أى وفى تعاقب الليل والنهار، دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وذاك بضيائه، بنظام محكم دقيق ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أى وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر الذى به حياة البشر فى معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير: وسمَّى تعالى المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق[١] ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى فأحيا بالمطر الأرض بعد ما كانت هامدةً يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أى وفى تقليب الرياح جنوباً وشمالاً، باردة وحارة ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى علامات ساطعة واضحة على وجود الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيّرة وبصائر مشرقة قال الصاوى: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستةً فى ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها فى التعبير: أن الإنسان إذا تأمل فى السمواتِ والأرض، وأنه لابدَّ لهما من صانع: آمَنَ، وإذا نظر فى خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر فى سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه[٢] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أى هذه آيات الله وحججه وبراهينه، الدالة على وحدانيته وقدرته، نقصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذى لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟ أى وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه، فبأى كلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرضُ استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى هلاك ودمارٌ لكل كذَّاب مبالغ فى اقتراف الآثام قال الرازى: وهذا وعيدٌ عظيم، والأفّاك الكذَّاب، والأثيمُ المبالغ فى اقتراف الآثام[٣] ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه، وهى فى غاية الوضوح والبيان ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى ثم يدوم على حاله من الكفر، ويتمادى فى غيّه وضلاله، مستكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى فبشّره يا محمد بعذاب شديد مؤلم، وسمَّاه (بشارة) تهكماً بهم، لأن البشارة هى الخبر السارُّ قال فى التسهيل: وإنما عطفه بـ (ثم) لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله، واستبعاد ذلك فى العقل والطبع[٤] قال المفسرون: نزلت فى (النضر بن الحارث) كان يشترى أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآيةُ عامةٌ فى كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى إذا بلغه شيء من الآيات التى أنزلها الله على محمد، سخر واستهزأ بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى أولئك الأفاكون المستهزئون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه من التعزز فى الدنيا والتكبر عن الحق ﴿وَلَا يُغْنِى

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٨ .
(٢) حاشية الصاوى على الجلالين ٤/ ٦٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦١ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٨ .

عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم عذاب دائم مؤلم قال أبو السعود: وتوسيط النفي ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ مع إنَّ عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد مبنيٌّ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم [١] ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن كامل في الهداية لمن آمن به واتَّبعه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سطوعه، وفيه زيادة تشنيع على كفرهم به، وتفظيع حالهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب مؤلمٌ موجعٌ قال الزمخشري: والرجزُ أشدُّ العذاب، والمراد بـ ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآن [٢]. . ثم لمَّا توعَّدهم بأنواع العذاب ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة ليشكروه ويوحّدوه فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته وعِظمه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي لتسير السفنُ على سطحه بمشيئته وإرادته، دون أنْ تغوص في أعماقه قال الإمام الفخر: خلَق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها السفن، وخلق الخشبة على وجهٍ تبقى طافيةً على وجه الماء دون أنْ تغوص فيه، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله [٣] ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة، والغوص على اللؤلؤ والمرجان، وصيد الأسماك وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولأجل أنْ تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضَّل قال القرطبي: ذكر تعالى كمال قدرته، وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنه خلقَ ما خلق لمنافعهم، وكلٌّ ذلك من فعله وخلقه، وإحسانٌ منه وإنعام [٤] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال، وبحار، وأنهار، ونبات، وأشجار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، من عنده وحده جلَّ وعلا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعِبراً وعظات لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون، ثم لمَّا بيَّن تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار، ويتجاوزوا عمَّا يصدر عنهم من الأذى والأفعال الموحشة قال مقاتل: شتم رجلٌ من الكفار عمر بمكة فهمَّ أنْ يبطش به، فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية [٥]، والمرادُ من قوله ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يخافون بأسَ الله وعقابه؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله قال ابن كثير: أُمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفاً لهم، ثم لما أصرُّوا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد [٦] ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨ .
(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٧ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٢ .
(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٠ .
(٥) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٦٣ .
(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٩ .

يَكْسِبُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد أى ليجازى الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام، والتنكيرُ للتحقير ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ أى من فعل خيراً فى الدنيا فنفعُه لنفسه، ومن ارتكب سوءاً وشرًّا فضرره عائد عليها، ولا يكاد يسرى عملٌ إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده، فيجازى كُلاًّ بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته . . ولما ذكَّر بالنعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بنى إسرائيل فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أى والله لقد أعطينا بنى إسرائيل التوراة، وفصل الحكومات بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أى ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المآكل والمشارب، والأقوات والثمار ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى وفضلناهم على سائر الأمم فى زمانهم قال الصاوى: والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال: لا تحزن يا محمد على كفر قومك، فإننا آتينا بنى إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا بل أصرُّوا على الكفر، فكذلك قومك[1] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ أى وبينا لهم فى التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه قال ابن عباس: يعنى أمر النبى ﷺ وشواهد نبوته بأنه يُهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها[2] ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أى فما اختلفوا فى ذلك الأمر، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أى حسداً وعناداً وطلباً للرياسة قال الإمام الفخر: والمقصودُ من الآية التعجبُ من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، فلذلك علموا وعاندوا[3] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى هو جل وعلا الذى يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفى الآية زجرٌ للمشركين أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ أى ثم جعلناك يا محمد على طريقةٍ واضحة، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك ربك من الدين القيّم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا تتَّبع ضلالات المشركين قال البيضاوى: لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش حيث قالوا: ارجع إلى دين آبائك[4] ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ أى لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾ أى وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً فى الدنيا ولا ولى لهم فى الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أى وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين فى الدنيا والآخرة ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر فى القلوب، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ٤/ ٦٥ .
(٢) حاشية الجمل ٤/ ١١٦ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٥ .
(٤) البيضاوى على زاده ٣/ ٣٢٣ .

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . إلى . . وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ . من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٧) .

المَنَاسَبَة: لما حكى تعالى ضلالات بنى إسرائيل، وبيّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسَّك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور.

اللُّغَة: ﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾ اكتسبوا والاجتراحُ الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غِشَٰوَةً﴾ غطاء وغشَّى الشىء غطَّاه ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الركب لشدة الهول جثا- يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ استنسخ الشىء أمر بكتابته وتدوينه «حاق» نزل وأحاط ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال: استعتبتهُ فأعتبنى أى استرضيتهُ فقبل منى عذرى ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والمُلك والجلال.

سَبَبُ النزول: روى أن أبا جهلٍ طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا فى شأن النبى ﷺ فقال أبو جهل: والله إنى لأعلم أنه لصادق، فقال له: مهْ، وما دلَّك على ذلك؟ فقال: يا أبا عبد شمسٍ، كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقلهُ وكمُل رشده نسميه الكذاب الخائن!! والله إنى لأعلم أنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدِّقه وتُؤمن به؟ قال: تتحدث عنى بنات قريش أنى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسْرة، واللاتِ والعُزَّى لا أتَّبعه أبداً؛ فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ . .﴾ [1] الآية.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) رواه مقاتل، كذا فى القرطبى ١٦/ ١٧٠ .

﴿وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

التفسير: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى هل يظنُّ الكفار الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أن نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي نساوي بينهم في المحيا والممات؟ لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكفار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية، وشتان بين الفريقين كقوله ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾؟ قال مجاهد: المؤمنُ يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً [١] ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين قال ابن كثير: ساء ما ظنّوا بنا وبِعَدْلِنا نساوي بين الأبرار والفجار، فكما لا يُجتنى من الشوكِ العنبُ، كذلك لا ينال الفُجّار منازل الأبرار [٢] ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي وخلق الله السمواتِ والأرض بالعدل والأمر الحقِّ ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكي يُجزى كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، دون أن يُنقص في ثواب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر قال شيخ زاده: لما خلق تعالى السمواتِ الأرض لأجل إظهار الحق، وكان خلقهما من جملة حكمته وعدله، لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم، فثبت بذلك حشر الخلائق للحساب [٣] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه!! قال في البحر: أي هو مطواعٌ لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه [٤] قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي وأضلَّ الله ذلك الشقي في حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به، فهو أشدُّ قبحاً وشناعةً ممن يضل عن جهل، لأنه يُعرض عن الحقِّ والهُدى عناداً كقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أي وطبع على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنُّذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد، ولا يرى حجة يستضيء بها ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾؟ أي فمن الذي يستطيع أنْ يهديه بعد أنْ أضله الله؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعظون؟ قال الصاوي: وصف تعالى الكفار بأربعة أوصاف: الأول: عبادة الهوى، الثاني: ضلالهم على علم. الثالث: الطبع على أسماعهم وقلوبهم. الرابع: جعل الغشاوة على أبصارهم، وكلُّ وصفٍ منها مقتضٍ للضلالة، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجهٍ من الوجوه [٥]. ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٦٦ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ .
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٢٥ .
(٤) البحر المحيط ٨/٤٨ .
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٧ .

إنكار القيامة، وفى إنكار الإله القادر العليم فقال ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى وقال المشركون: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد، ومرادهم ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك معادٌ ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع، المعتقدين أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه [١] ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أى وما يهلكنا إلا مرورُ الزمان، وتعاقبُ الأيام قال الرازى: يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة [٢]، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل، ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجةٍ ولا بينة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلون، يتكلمون بالظن من غير يقين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى وإذا قرئت آياتُ القرآن على المشركين، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى ما كان مُتَمَسَّكَهم فى دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا: أَحْيوا لنا آباءنا الأولين، إن كان ما تقولونه حقًّا، سُمِّيَ قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أى قل لهم يا محمد: الله الذى خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطفاً هو الذى يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم فى الدنيا، فإنَّ من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمةُ اقتضت الجمع للجزاء فى يوم القيامة، الذى لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى ولكنَّ أكثر الناس لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والجزاء.

ثم بيَّن تعالى إمكان الحشر والنشر وذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى ويوم القيامة يخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى وترى أيها المخاطب كل أمةٍ من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفزع، كما يجثو الخصوم بين يدى الحاكم بهيئة الخائف الذليل قال ابن كثير: وهذا إذا جىء بجهنم فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه [٣] ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أى كلُّ أمةٍ من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى يقال لهم: فى هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خيرٍ أو شر ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ . (٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٧٥ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٢ .

زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل: فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذى أمر الملائكة أنْ يكتبوه[١] ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى كنَّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم قال المفسرون: ننسخ هنا بمعنى تكتب، وحقيقة النسخ هو النقل من أصلٍ إلى آخر، وقال ابن عباس: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه الله فى القِدم على العباد قبل أنْ يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يقول: ألستم عزباً، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل[٢]؟ ثم بيَّن تعالى أحوال كلٍّ من المطيعين والعاصين فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أى فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله فى الحياة الدنيا، فيدخلهم الله فى الجنة، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزّل رحمةِ الله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أى ذلك هو الفوز العظيم، البيّن الظاهر الذى لا فوز وراءه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى وأمَّا الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله؟ ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى فتكبرتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مغرقين فى الإجرام ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أى وإذا قيل لكم: إن البعث كائن لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى والقيامة آتيةٌ لا شك فى ذلك ولا ريب ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أى قلتم لغاية عتوكم: أيُّ شىء هى؟ أحقٌّ أم باطل؟ قال البيضاوى: قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها[٣] ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي لا نصدِّق بها ولكن نسمع الناس يقولون: إنَّ هناك آخرة فنتوهم بها توهماً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقيناً، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أى وظهر لهم فى الآخرة قبائح أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى ونزل وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى ويقال لهم: اليوم نترُككم فى العذاب ونعاملكم معاملة الناسى، كما تركتم الطاعة التى هى الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أى ومستقركم فى نار جهنم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أى وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أى إنما جازيناكم هذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أى خدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى ظننتم ألاَّ حياة سواها، وألاَّ بعث ولا نشور ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى فاليوم لا يُخرجون من النار، ولا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٠ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ٥١ ومختصر ابن كثير ٣/ ٢١٣ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ١٢٢ .

يُطلب منهم أنْ يُرْضوا ربَّهم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذٍ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى فلله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ سواه؛ لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى وله العظمة والجلال، والبقاء والكمال فى السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أى الغالب الذى لا يغلب، الحكيم فى صنعه وفعله وتدبيره.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلى:

١- التأكيد بإنَّ واللام ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله.

٢- صيغة المبالغة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة.

٣- الأسلوب التهكمى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة تكون بالخير، واستعمالها بالشر تهكمٌ.

٤- المجاز المرسل ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أى مطر، مجاز مرسل علاقته السببية؛ لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذى ينشأ عنه النبات والرزق.

٥- التشبيه المرسل ﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى كأنه لم يسمع آيات القرآن.

٦- المبالغة بذكر المصدر ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ كأن القرآن لوضوح حجته عين الهُدى.

٧- الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ .. وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لإظهار الامتنان.

٨- طباق السلب ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- المجاز المرسل ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أى فى الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله.

١٠- الطباق بين ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ وبين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وبين ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

١١- الاستعارة التصريحية ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أى يشهد عليكم، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

١٢- الالتفات ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب.

١٣- الاستعارة التمثيلية ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ مثَّل تَرْكَهم فى العذاب بمن حُبس فى مكانٍ ثم نسيه السَّجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية: نترككم فى العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يَعْرِض له النسيان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية، العقيدة في أصولها الكبرى: (الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء) ومحور السورة الكريمة يدور حول (الرسالة والرسول) لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن.

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده، فبيَّنت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع، ثم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن، فردَّت على ذلك بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع.

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها، فذكرت نموذج الولد الصالح، المستقيم في فطرته، البارّ بوالديه، الذي كلما زادت سنه وتقدم في العمر ازداد تُقى وصلاحًا وإحسانًا لوالديه.. ونموذج الولد الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاقِّ لوالديه، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما.

* ثم تحدثت السورة عن قصة (هود) عليه السلام مع قومه الطاغين (عاد) الذين طغوا في البلاد واغتروا بما كانوا عليه من القوة والجبروت، وما كان من نتيجتهم حيث أهلكهم الله بالريح العقيم، تحذيرًا لكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ.

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجنِّ الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان، تذكيرًا للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام.

التسمية: سميت (سورة الأحقاف)؛ لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ..﴾ الآية.

اللُغَةُ: ﴿شِرۡكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أَثَرَةٍ﴾ بقية من الشيء ﴿تُفِيضُونَ﴾ الإفاضة فى الشيء: الخوض فيه والاندفاع يقال: أفاضوا فى الحديث اندفعوا فيه، وأفاض الناس من عرفات أى دفعوا منها ﴿بِدۡعًا﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازى: والبِدعُ والبديع من كل شيء المبدع، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السُنَّة[1] ﴿إِفۡكٌ﴾ كذب ﴿كُرۡهًا﴾ بكرهٍ ومشقة «فصاله» فطامه ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ ألهمنى ﴿أُفٍّ﴾ كلمة تضجر وتبرم ﴿خَلَتِ﴾ مضت.

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝١٦ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝١٨ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[1] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أى هذا الكتاب المجيد منزّل من عند الإله العزيز فى ملكه، الحكيم فى صنعه ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أى ما خلقنا السمواتِ والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثًا، وإنما خلقناهما خلقًا متلبسًا بالحكمة، لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى وإلى زمن فنائهما يوم القيامة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ أى وهؤلاء الكفار معرضون عما خُوّفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له . . ثم لما بيّن وجود الإله العزيز الحكيم ردَّ على عبدة الأصنام فقال ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا

(١) انظر تفصيل الموضوع فى أول سورة البقرة .

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبرونى عن هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها آلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ؟ أى أرشدونى وأخبرونى أىَّ شيء خلقوا من أجزاء الأرض، وممَّا على سطحها من إنسانٍ أو حيوان؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾؟ أى أمْ لهم مشاركة ونصيب مع الله فى خلق السمواتِ؟ ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أى هاتوا كتابًا من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟ وهو أمر تعجيز؛ لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشراك بالله، بل الكتب كلُّها ناطقة بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أى أو بقية من علمٍ من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها شركاء مع الله، قال فى البحر: طلب منهم أن يأتوا بكتابٍ واحدٍ يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله، أو بقيةٍ من علوم الأولين، والغرضُ توبيخهم؛ لأن كل كتب الله المنزَّلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من نقل أو عقل[(١)].. ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ؟ أى لا أحد أضلُّ وأجهل ممن يعبد أصنامًا لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، ولا تستجيب لمن ناداها أبدًا؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى وهم لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بها وبعبدتها، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء؛ لأنهم لما عبدوها ونزّلوها منزلة من يضر وينفع، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع، مجاراة لزعم الكفار ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أى وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أى وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ والله على كل شيء قدير[(٢)] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى هذا سحرٌ لا شبهة فيه ظاهر كونه سحرًا، وإنما وضع الظاهر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير تسجيلًا عليهم بكمال الكفر والضلالة، قال فى البحر: وفى قوله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ تنبيهٌ على أنهم لم يتأملوا ما يُتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عنادًا وظلمًا، ووصفوه بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ أى ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه[(٣)] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أى أيقولون: اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ وهو إنكار توبيخى ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى قل إن افتريتُه– على سبيل الفرض– فالله حسبى فى ذلك وهو الذى يعاقبنى على الافتراء عليه،

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٥ .
(٢) انظر التفسير الكبير ٢٨/ ٦ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٦ .

ولا تقدرون أنتم على أن تردُّوا عنى عذاب الله، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى هو جل وعلا أعلمُ بما تخوضون فى القرآن وتقدحون به من قولكم هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أى كفى أن يكون تعالى شاهدًا بينى وبينكم، يشهد لى بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أى وهو الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان: وفيه وعدٌ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعارٌ بحلمه تعالى عليهم إذْ لم يعاجلهم بالعقوبة(١) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أى لست أول رسول طرق العالم، ولا جئت بأمرٍ لم يجىء به أحدٌ قبلى، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلى، فلأىّ شىءٍ تنكرون ذلك علىَّ؟ والبِدْعُ والبديعُ من الأشياء هو الذى لم يُر مثله، قال ابن كثير: أى ما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا بعثتى إليكم، فقد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم(٢) ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أى ولا أدرى بما يقضى اللهُ علىَّ وعليكم، فإن قدر الله مغيَّب ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أى لا أتبع إلا ما ينزله اللهُ علىَّ من الوحى، ولا أبتدع شيئًا من عندى ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ لكم من عذاب الله، بيّن الإنذار بالشواهد الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أى قل يا محمد: أخبرونى يا معشر المشركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقًّا وقد كذبتم به وجحدتموه وجوابه محذوف تقديره: كيف يكون حالكم؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى وقد شهد رجل من علماء بنى إسرائيل على صدق القرآن، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان، كيف يكون حالكم، ألستم أضل الناس وأظلم الناس؟ قال الزمخشرى: وجوابُ الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣) أى لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجرًا قال المفسرون: والشاهد من بنى إسرائيل هو (عبد الله بن سلام) وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سلام ليمتحنه، فلما نظر إلى وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه هو النبى المنتظر، فقال له: إنى سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبى: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أُمه؟ فلما أجابه ﷺ قال: أشهد أنك رسول الله حقًّا(٤).. إلخ ثم ردَّ تعالى على شبهةٍ أُخرى من شبه المشركين فقال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أى وقال كفار مكة فى حق المؤمنين: لو كان هذا القرآن والدين خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء!! وقال ابن كثير: يعنون (بلالاً)

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٦ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٦ .

(٣) تفسير الكشاف ٤/ ٢٣٦ .

(٤) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة فى صحيح البخارى .

و(عمارًا) و(صهيبًا) و(خبابًا) وأشباههم من المستضعَفين والعبيد والإماء ممن أسلم وآمن بالنبى[١] ﷺ ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أى ولمّا لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح إعجازه، قالوا هذا كذبٌ قديم مأثور عن الأقدمين، أتى به محمد ونسبه إلى الله تعالى ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أى ومن قبل القرآن التوراة التى أنزلها الله على موسى قدوةً يؤتم بها فى دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها، قال الإمام الفخر: ووجه تعلق الآية بما قبلها أن المشركين طعنوا فى صحة القرآن، وقالوا لو كان خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الصعاليك، فردَّ الله عليهم بأنكم لا تنازعون أن الله أنزل التوراة على موسى، وجعل هذا الكتاب- التوراة- إمامًا يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلمتم كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمدًا ﷺ رسولٌ حقًا من عند الله[٢] ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، مصدِّقٌ للكتب قبله بلسان عربى فصيح، فكيف ينكرونه وهو أفصح بيانًا، وأظهر برهانًا، وأبلغ إعجازًا من التوراة؟ ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى ليخوِّف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنات النعيم.. ولما بيَّن تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن، أردفه بذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى فلا يلحقهم مكروهٌ فى الآخرة يخافون منه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا فى الدنيا ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى أولئك المؤمنون المستقيمون فى دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لمَّا كان رضا الله فى رضا الوالدين، وسخطه فى سخطهما حثَّ تعالى العباد عليه والمعنى أمرنا الإنسان أمرًا جازمًا مؤكدًا بالإحسان إلى الوالدين، ثم بيَّن السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى حملته بكرهٍ ومشقة ووضعته بكرهٍ ومشقة ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أى مدة حمله ورضاعه عامان ونصف، فهى لا تزال تعانى التعب والمشقة طيلة هذه المدة قال ابن كثير: أى قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبًا من وحَم، وغثيان، وثقل، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة أيضًا من الطَّلق وشدته، وقد استدل العلماء بهذه الآية مع التى فى لقمان ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح[٣] ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كمال قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى واستمر فى الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد[٤] ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٨ .

(٢) التفسير الكبير للرازى ٢٨/١٢ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٩ .

(٤) قال العلماء: ولذلك لم يبعث نبىٌّ قبل أربعين.

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أى قال ربِّ ألهمنى شكر نعمتك التى أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ حتى ربيانى صغيرًا ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أى ووفقنى لكى أعمل عملاً صالحًا يرضيك عنى ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أى اجعل ذريتى ونسلى صالحين قال شيخ زاده: طلب هذا الداعى من الله ثلاثة أشياء: الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة والثانى: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله والثالث: أن يصلح له فى ذريته، وهذه كمال السعادة البشرية[١] ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أى إنى يا رب تبت إليك من جميع الذنوب، وإنى من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير: وفى الآية إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها[٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أى أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أى ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، فى جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أى بذلك الوعد الصادق الذى وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم . . ولما مثَّل تعالى لحال البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة، مثَّل لحال الإنسان العاقِّ لوالديه وما يئول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ أى وأمَّا الولد الفاجر الذى يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍ لكما أى قبحًا لكما على هذه الدعوة ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أى أتعداننى أن أُبعث بعد الموت وقد مضت قرونٌ من الناس قبلى ولم يُبعث منهم أحد؟ ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أى وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له: ويْلك آمن بالله وصدِّق بالبعث والنشور وإلا هلكت ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أى وعدُ الله صدقٌ لا خُلف فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أى فيقول ذلك الشقى: ما هذا الذى تقولان من أمر البعث إلاّ خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون فى الكتب مما لا أصل له، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أى أولئك المجرمون هم الذين حقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار قال القرطبى: أى وجب عليهم العذاب وهى كلمة الله، كما فى الحديث «هؤلاء فى النار ولا أبالى»[٣] ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أى فى جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ﴾ أى كانوا كافرين لذلك ضاع سعيهم وخسروا آخرتهم، وهو تعليل لدخولهم جهنم قال الإمام الفخر: قال بعضهم: إن الآية نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصّديق قبل إسلامه، والصحيحُ أنه لا يراد بالآية شخص معيَّن، بل المراد منها كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحقِّ فأباه وأنكره، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذى قال لوالديه ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ بأنه من الذين حقَّ عليهم القول بالعذاب، ولا

---

(١) حاشية البيضاوى ٣/ ٣٣٦ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٠ .
(٣) تفسير القرطبى ١٦/ ١٩٨ .

شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه[١] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أى لكل من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فمراتب المؤمنين فى الجنة عالية، ومراتب الكافرين فى جهنم سافلة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى وليعطيهم جزاء أعمالهم وافية كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدركات، من غير نقصان بالثواب، ولا زيادة فى العقاب.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ .. إلى .. فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٩) نهاية السورة

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء، أعقبه بذكر حال الكفار الفجار فى الآخرة، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة، تذكيرًا لكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجنّ الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إلى الإيمان.

اللُّغَةُ: ﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان والذل «الأحقاف» الرمال العظيمة جمع حِقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجّ، والأحقاف ديار عاد[٢] ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا وتزيلنا، والإفك: الكذب ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا يعرض فى الأفق ﴿تُدَمِّرُ﴾ تُهلك، والتدميرُ الهلاك وكذلك الدَّمار ﴿صَرَفْنَا﴾ بعثنا ووجهنا «يعى» يضعف ويعجز من الإعياء؛ وهو التعب والعجز.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٣ وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبى وأبى السعود وصاحب البحر المحيط.

(٢) تفسير القرطبى ١٦/ ٢٠٣.

يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ .

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أى وذكرهم يا محمد يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إليها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ فى الكلام حذف أى ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: أذهبتم طيباتكم؟! أى لقد نلتم وأصبتم لذائذ الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم فى الآخرة قال فى البحر: والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب، والملابس والمفارش، والمراكب والمواطيء، وغير ذلك مما يتنعَّم به أهل الرفاهية[١] ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى وتمتعم بتلك اللذائذ والطيبات فى الدنيا، قال المفسرون: المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى، وآثرتم الفانى على الباقى، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم، ولهذا قال بعده ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أى ففى هذا اليوم- يوم الجزاء- تنالون عذاب الذُلِّ والهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أى بسبب استكباركم فى الدنيا عن الإيمان وعن الطاعة ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أى وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله، وارتكاب الفجور والآثام قال الإمام الفخر: وهذه الآية لا تدل على المنع من التنعم؛ لأن هذه الآية وردت فى حق الكافر، وإنما وبَّخ الله الكافر؛ لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدى شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدى بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾!! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعم أولى، وعليه يُحمل قول عمر: (لو شئت لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، ولكنى أستبقى طيباتى لحياتى الآخرة)[٢] وقال فى التسهيل: الآية فى الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهى مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله- وقد رآه اشترى لحمًا- أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله فى بطنه! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[٣]!! ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أى اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبى الله هود عليه السلام مع قومه عادٍ ليعتبروا بها ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أى حين حذَّر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا وهم مقيمون بالأحقاف- وهى تلال عظيمة من الرمل

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٣ .
(٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٥ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٤ .

في بلاد اليمن– قال ابن كثير : الأحقاف جمع حِقف وهو الجبل من الرمل ، قال قتادة : كانوا حيًّا باليمن أهل رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يُقال لها : الشَّحْر[1] ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي وقد مضت الرسلُ بالإِنذار من قبل هودٍ ومن بعده ، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هودٍ وبعده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي حذرهم هود عليه السلام قائلاً لهم : بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي أني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يومٍ هائلٍ وهو يوم القيامة ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي قالوا جوابًا لإنذاره : أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو استفهام ، يراد منه التسفيه والتجهيل لما دعاهم إليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقًا فيما تقول قال ابن كثير : استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه[2] ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم هود : ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمه عند الله ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أي وإنما أنا مبلّغٌ ما أرسلني به الله إليكم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنني أجدكم قومًا جهلة في سؤالكم استعجال العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فلما رأوا السحاب معترضًا في أفق السماء متجهًا نحو أوديتهم استبشروا به ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر ، قال المفسرون : كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر ، وقُحطوا مدةً طويلةً من الزمن ، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا عارضٌ ممطرنا ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي قال لهم هود : ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر ، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم فسَّره بقوله : ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هو ريحٌ عاصفة مدمّرة فيها عذابٌ فظيع مؤلم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تُخرِّب وتُهلك كل شيء أتت عليه من رجالٍ ومواشٍ وأموال ، بأمره تعالى وإذنه قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد ، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ، ثم تضربهم على الأرض ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، فهي التي قال فيها ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تدمّر كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها ، والتدميرُ الهلاك[3] ، وفي الحديث عن عائشة قالت : كان ﷺ إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه فقلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال يا عائشة : ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[4] ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فأصبحوا هلكى لا تُرى إلا مساكنهم ؛ لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصيًا مجرمًا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٢ .
(٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .
(٣) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠٦ .
(٤) أخرجه البخاري .

قال الرازى: والمقصود منه تخويف أهل مكة [١]؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ (إنْ) نافية بمعنى (ما) أى ولقد مكَّنا عادًا فى الذى لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة، والسَّعة، وطول الأعمار [٢]، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أى وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أى فما نفعتهم تلك الحواس أى نفع، ولا دفعت عنهم شيئًا من عذاب الله، قال الإمام الفخر: المعنى أنَّا فتحنا عليهم أبواب النعم: أعطيناهم سمعًا فما استعملوه فى سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها فى تأمل العبَر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها فى طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تغن عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لما سبق أى؛ لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزَّلة على رسله ويكذبون رسله ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى ونزل وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ تخويفٌ آخر لكفار مكة أى ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط، والمراد بإهلاك القرى إهلاكُ أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى وكررنا الحجج والدلالات، والمواعظ والبينات، أوضحناها وبيَّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أى فهلاَّ نصرتهم آلهتهم التى تقربوا بها إلى الله بزعمهم، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب؟! و(لولا) تحضيضية بمعنى هلاَّ ومعناها النفى أى لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أى غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، فإن الصديق وقت الضيق، قال أبو السعود: وفى الآية تهكمٌ بهم كأنَّ عدم نصرهم كان لغيبتهم [٣] ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أى وذلك الذى أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله وشفعاء لهم عند الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أى واذكر يا محمد حين وجهنا إليك وبعثنا جماعةً من الجن ليستمعوا القرآن قال البيضاوى: والنفر دون العشرة، روى أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادى النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ فى تهجده القرآن [٤] ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أى فلما حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن قال القرطبى: هذا توبيخٌ

---

(١) التفسير الكبير للرازى ٢٨/ ٢٩ .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن (إن) زائدة والمعنى: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أى فى مثل الذي مكناكم فيه، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم؟ وإنما لم يؤت بـ(ما) فيقال: فيما مكّناكم فيه؛ دفعاً لثقل التكرار.

(٣) تفسير أبى السعود ٥/ ٦٩ .

(٤) حاشية البيضاوى ٣/ ٣٤١ .

لمشركى قريش، أى إن الجنَّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصرّون على الكفر [١] ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أى فلما فُرغَ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، قال الرازى: وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم؛ لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلاّ وقد آمنوا [٢] ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أى سمعنا كتابًا رائعًا مجيدًا منزَّلاً على رسول من بعد موسى قال ابن عباس: إنَّ الجنَّ لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام [٣] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى مصدّقًا لما قبله من التوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى هذا القرآن يرشد إلى الحقِّ المبين، وإلى دين الله القويم ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ أى أجيبوا محمدًا ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدِّقوا برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أى يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى ويخلصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب أى ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله، فإنه لا يفوت الله طلبًا، ولا يعجزه هربًا ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله فى خسرانٍ واضح، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذى خلق السموات والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى ولم يضعف ولم يتعب بخلقهنَّ ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ أى قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء؟ ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أى واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التى يرونها فى الآخرة، وذكّرهم يوم يُعرضون على النار فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ ؟ أى أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقٌّ؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى قالوا بلى وعزة ربنا، أكّدوا كلامهم بالقسم طمعًا فى الخلاص، قال الفخر الرازى: والمقصود بالآية التهكمُ بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [٤] ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى فيقال لهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى ولا تدع على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أى كأنهم حيث يعاينون العذاب فى الآخرة

(١) تفسير القرطبى ١٦/ ٢١٠ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٢ .
(٣) تفسير أبى السعود ٥/ ٧٠ . (٤) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٤ .

لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعةً واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بَلَٰغٌ﴾ أى هذا بلاغ وإنذار ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أى لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله .

تَنبِيهٌ: قال المفسرون: إن الجنَّ كانوا يسترقون السمع، فلما حُرست السماء بالشهب، قال إبليس: إن هذا الذى حدث بالسماء من أمر حدث فى الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، فذهب ركبٌ من نصيبين- وهم أشراف الجن- إلى تهامة، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبى ﷺ يصلى ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين فدعوهم إلى الإيمان، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبى ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلى:

١ - التعجيز ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أمرٌ يراد منه التعجيز .

٢- جناس الاشتقاق ﴿يَدْعُوا . . وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ ومثله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ .

٣- الطباق بين ﴿ءَامَنَ . . وَكَفَرْتُم﴾ وبين ﴿ينذر . . وَبُشْرَىٰ﴾ .

٤- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ثم قال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم .

٥- الطباق بين ﴿حَمَلَتْهُ . . وَوَضَعَتْهُ﴾ .

٦- صيغة الحصر ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

٧- الاستعارة ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ استعار الدرجات للمراتب، للسعداء والأشقياء .

٨-ال إيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ أى يقال لهم: أذهبتم .

٩ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ثم قال ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم .

١٠ - توافق الفواصل مما يزيد فى جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ إلخ .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»

بين يدي السورة

سورة محمد من السور المدنية، وهي تُعْنى بالأحكام التشريعية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت السورة أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع (الجهاد في سبيل الله).

* ابتدأت السورة الكريمة بدءًا عجيبًا بإعلان حربٍ سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية؛ ليصدوا الناس عن دين الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ . . .﴾ الآيات.

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين، وحصدهم بسيوف المجاهدين؛ لتطهير الأرض من رجسهم؛ حتى لا تبقى لهم شوكةٌ ولا قوة، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ . . .﴾ الآيات.

* ثم بيَّنت طريق العزَّة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ . . .﴾ الآيات.

* وضربت لكفار مكة الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة، وكيف دمَّر الله عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

* وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، فكشفت عن مساوئهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ . . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر، بالجهاد في سبيل الله وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي، وحذَّرت من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصًا على الحياة والبقاء، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ . .﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد، كما بدأت بالدعوة إليه، حفزًا لعزائم المؤمنين، وليتناسق البدء مع الختام ألطف التئام!!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ .. إلى .. وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٩).

اللغَة: ﴿كَفَّرَ﴾ أزال ومحا ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال فى المصباح: أثخن فى الأرض إثخانًا، سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً، وأثخنته الجراحة أوهنته وأضعفته[1] ﴿ٱلْوَثَاقَ﴾ القيد والحبل الذى يربط به ﴿مَنًّۢا﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آلاتها وأثقالها وهى الأسلحة والعتاد يقال: وضعت الحرب أوزارها أى انقضت الحرب وانتهت، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والخيل قال الشاعر:

وأعددت للحرب أوزارها ... رماحًا طوالاً وخيلاً ذكورًا[2]

«تعسا» شقاءً وهلاكًا ﴿ءَاسِنٍ﴾ متغيّر ومنتن ﴿حَمِيمًا﴾ حارًّا شديد الحرارة ﴿ءَانِفًا﴾ الآن، من قولهم: استأنف الأمر إذا ابتدأ به «أشراط» أمارات وعلامات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

(١) المصباح المنير مادة ثخن.
(٢) البيت للأعشى، كذا فى القرطبى ١٦/ ٢٢٩.

التفسير: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا إعلان حربٍ من الله تعالى على أعدائه وأعداء دينه؛ والمعنى الذين جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام، ومنعوا الناس عن الدخول فيه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا ثواب لها؛ لأنها لم تكن لله فبطلت، والمراد أعمالهم الصالحة كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وقرى الضيف، قال الزمخشرى: وحقيقة إضلال الأعمال جعلُها ضالة ضائعة، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل، التى لا ربَّ لها يحفظها ويعتنى بأمرها، والمراد أعمالهم التى عملوها فى كفرهم بما كانوا يسمونه «مكارم الأخلاق»، من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار[1] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى جمعوا بين الإيمان الصادق، والعمل الصالح ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أى صدّقوا بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ تصديقًا جازمًا لا يخالجه شك ولا ارتياب وهو عطف خاص على عام، والنكتةُ فيه تعظيم أمره والاعتناء بشأنه، إشارة إلى أن الإيمان لا يتمُّ بدونه[2]، ولذا أكّده بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أى وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحيهُ المنزَّل من عند الله، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أى أصلح شأنهم وحالهم، فى دينهم ودنياهم، ثم بيَّن تعالى سبب ضلال الكفار، واهتداء المؤمنين فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى ذلك الإضلال لأعمال الكفار بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال، واختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أى وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى، وتمسكوا بالحق والإيمان المنزل من عند الرحمن ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى مثل ذلك البيان الواضح، بيَّن الله أمر كلٍ من الفريقين – المؤمنين والكافرين – بأوضح بيانٍ، وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا.. وبعد إعلان هذه الحرب السافرة على الكافرين أمر تعالى المؤمنين بجهادهم فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى فإذا أدركتم الكفار فى الحرب فاحصدوهم حصْدًا بالسيوف قال فى التسهيل: وأصله فاضربوا الرقاب ضربًا ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد: اقتلوهم، ولكنْ عبَّر عنه بضرب الرقاب؛ لأنه الغالب فى صفة القتل[3] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أى حتى إذا هزمتموهم وأكثرتم فيهم القتل والجراحات ولم تبق لهم قوة للمقاومة فأسروهم وكفُّوا عن قتلهم قال الزمخشرى: وفى هذه العبارة ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو حزُّ العنق وإطارة رأس البدن، ولقد زاد فى هذه الغلظة فى قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ومعنى ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أى فأسروهم، والوثاق اسم لما يربط من حبلٍ وغيره[4] ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أى ثم أنتم

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠.
(٢) حاشية الصاوى ٤/ ٨١.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٦.
(٤) الكشاف ٤/ ٢٥١.

مخيَّرون بعد أسرهم إمَّا أن تمنُّوا عليهم وتطلقوا سراحهم بلا مقابل من مال، أو تأخذوا منهم مالاً فداءً؛ لأنفسهم، ولكنْ بعد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم، وأعجزتموهم بكثرة القتل والجراح ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى حتى تنقضى الحرب وتنتهى بوضع آلاتها وأثقالها، وتنتهى الحرب بين المسلمين والمناوئين له، وذلك بعزة الإسلام واندحار المشركين ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى الأمر فيهم ما ذُكر، ولو أراد الله لانتصر منهم وأهلكهم بقدرته، دون أن يكلفكم- أيها المؤمنون- إلى قتالهم، قال ابن كثير: أى لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده [١] ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى ولكنَّه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم وثباتكم، فيظهر حال الصادق فى الإيمان من غيره كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وليبتلى المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين، فيصير من قُتل من المؤمنين إلى الجنة، ومن قتل من الكافرين إلى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أى والذين استشهدوا فى سبيل الله فلن يُبطل الله عملهم، بل يكثّره ويضاعفه وينميّه ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى سيهديهم إلى ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، بتوفيقهم إلى العمل الصالح وإرشادهم إلى الجنة دار الأبرار ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى ويُصلح حالهم وشأنهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى ويدخلهم الجنة دار النعيم بيَّنها لهم بحيث يعلم كل واحدٍ منزله ويهتدى إليه قال مجاهد: يهتدى أهله إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا [٢] وفى الحديث «والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا» [٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أى إن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أى ويثبتكم فى مواطن الحرب ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أى والذين كفروا بالله وآياته فهلاكًا وشقاءً لهم، وهو دعاءٌ عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أى أبطلها وأحبطها؛ لأنها كانت فى طاعة الشيطان ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أى ذلك التعس والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشرى: أى كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام؛ لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العَنان فى الشهوات والملاذّ فشقَّ عليهم ذلك وتعاظمهم [٤] ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أى أذهبها وأضاعها؛ لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبطٌ للعمل [٥]، ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥ .

(٣) جزء من حديث رواه البخارى . (٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣ .

(٥) قال فى الظلال: (وإحباط الأعمال تعبير تصويرىّ على طريقة القرآن فى التصوير، فالحبوط: انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعاً من المرعى أو النبات السام، ينتهى بها إلى الهلاك والموت، وكذلك هؤلاء الكفار انتفخت أعمالهم وورمت ثم انتهت إلى الهلاك والضياع، إنها صورة وحركة مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله، ثم تباهوا بالأعمال الضخام المنتفخة كبطون الأنعام، حين ترعى ذلك النبت السام) الظلال ٢٥/ ٦٠ .

المجرمين، كيف كان مآلهم؟ وماذا حلَّ بهم من العذاب؟ فإنَّ آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أى أهلكهم الله، واستأصل كل ما يخصهم من مالٍ وبنين ومتاع، فإذا هو أنقاض متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض (ودمَّر عليهم) أبلغ من دمَّرهم؛ لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقًا فلم يبق شيء إلا شمله الدمار ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ أى ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمّر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أى وليُّهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أى لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث، ثم بيَّن تعالى مآل كلٍ من الفريقين- المؤمنين والكافرين- فى الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أى يدخل المؤمنين جناتِ النعيم، التى فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أى والكافرون فى الدنيا ينتفعون بشهواتها ولذائذها، ويأكلون كما تأكل البهائم، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أى وجهنم مقامهم ومنزلهم فى الآخرة قال الزمخشرى: المراد أنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل، ويأكلون غافلين غير مفكرين فى العاقبة كما تأكل الأنعام فى مسارحها ومعالفها غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح، والنار منزل ومقام لهم فى الآخرة(١) . . ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أى وكم من أهل قرية(٢) عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ أى أهلكناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء قال ابن عباس: لما خرج النبى ﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجرًا إلى المدينة، التفت إلى مكة ثم قال: «إنك لأحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إلي ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت» فنزلت الآية(٣) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أى هل من كان على حجة وبصيرة، وثباتٍ ويقين من أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ ؟ أى كمن زُيّن له عمله القبيح فرآه حسنًا؟ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ أى انهمكوا فى الضلال حتى عبدوا الهوى، ليس هذا كهذا، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاةً للمعنى قال المفسرون: يريد بـ(من كان على بينة) رسول الله ﷺ وبمن ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أبا جهل وكفار قريش. . واللفظ أعمُّ؛ لأن الغرض المباينة بين من يعبد الله، وبين من يعبد هواه، ولذلك مثَّل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ أى صفة الجنة الغريبة العجيبة الشأن، التى وعد الله بها عباده الأبرار وأعدَّها للمتقين الأخيار ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ أى فيها أنهار جاريات من ماءٍ غير متغير الرائحة، قال ابن مسعود: أنهار الجنة تفجَّر من جبلٍ من مسكٍ(٤) ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ أى وأنهار جاريات من

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٢٥٣ .
(٢) الكلام على حذف مضاف أى من أهل قرية وهو مجازٌ مشهور .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ١٤٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٢ .

حليبٍ فى غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا، وفى حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية»[١] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أى وأنهار جاريات من خمرٍ لذيذة الطعم يتلذذ بها الشاربون؛ لأنه ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وإنما قيَّدها بأنها لذة للشاربين؛ لأن الخمر كريهة الطعم فى الدنيا لا يلتذ بها إلاَّ فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهى طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى وأنهارٌ جارياتٌ من عسلٍ فى غاية الصفاء وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود: ﴿عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى لم يخالطه الشمع وفضلات النحل[٢] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أى ولهم فى الجنة أنواعٌ متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال فى حاشية البيضاوى: وفى ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للَّذَّة لا للحاجة[٣] ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيمٌ روحى وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان، وفى الحديث «أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا» قال الصاوى: فى الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه[٤] ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أى كمن هو مخلَّدٌ فى الجحيم؟ والاستفهام للإنكار أى لا يستوى من هو فى ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد فى الجحيم؟ ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أى وسُقوا مكان تلك الأشربة ماءً حارًّا شديد الغليان، فقطَّع أحشاءهم من فرط حرارته؟ قال المفسرون: بلغ الماء الغاية فى الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[٥] ولما بيَّن تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أى ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أى حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أى قالوا لعلماء الصحابة- كابن عباس وابن مسعود- ماذا قال محمدٌ قريبًا فى تلك الساعة؟ قال ابن كثير: أخبر تعالى عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة: ماذا قال محمد ﴿ءَانِفًا﴾ أى الساعة، لا يعقلون ما قال ولا يكترثون به[٦] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى ختم على قلوبهم بالكفر ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أى ساروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أى وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وألهمهم رشدهم قال الإمام الفخر: لما بيَّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٢) تفسير أبى السعود ٥/ ٧٤ .
(٣) حاشية زاده على البيضاوى ٣/ ٣٤٨ .
(٤) حاشية الصاوى ٤/ ٨٤ .
(٥) تفسير القرطبى ١٦/ ٢٣٧ .
(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٣ .

يستفيد، بيَّن أن حال المؤمن المهتدى بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، وفيه فائدة وهى قطع عذر المنافق، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه، يُردُّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط، فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب[1] ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أى فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأةً فتبغتهم وهم سادرون غارون غافلون؟ ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى فقد جاءت أماراتها وعلاماتها، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أى فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة، حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أى فدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أى اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أى يعلم تصرفكم فى الدنيا، ومصيركم فى الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم المعاد.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ .. إلى .. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾. من آية (٢٠) إلى آية (٣٨) نهاية السورة.

المناسبة: كان بدء السورة فى الحديث عن الكافرين، ثم جاء عن المؤمنين، وهنا يأتى الحديث عن المنافقين، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه.

اللغة: ﴿سَوَّلَ﴾ زيَّن وسهَّل ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادهم الدفينة قال الجوهرى: الضغنُ والضغينة: الحقد، وتضاغن القوم أبطنوا على الأحقاد[2] ﴿سِيمَٰهُمْ﴾ علامتهم ﴿ٱلسَّلْمِ﴾ الصلح والموادعة «يحفكم» يلحُّ عليكم يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحَّ بمعنى واحد «يتركم» ينقصكم يقال: وتره حقه أى نقصه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/٥٨ . (٢) الصحاح للجوهرى مادة ضغن .

﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ .

التفسير: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أى ويقول المؤمنون المخلصون شوقًا إلى الجهاد وحرصًا على ثوابه: هلاَّ أنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أى فإذا أنزلت سورة صريحةٌ ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال قال القرطبى: ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ أى لم تنسخ وقد قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة، وهى أشد القرآن على المنافقين [١] ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى رأيت المنافقين الذين فى قلوبهم شك ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أى ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جنبًا وهلعًا، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أى فويلٌ لهم قال فى التسهيل: وهى كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [٢] ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى طاعةٌ لك يا محمد، وقولٌ جميلٌ طيب خيرٌ لهم وأفضل وأحسن، قال الرازى: وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خيرٌ لهم أى أحسن وأمثل، وإنما جاز الابتداء بالنكرة؛ لأنها موصوفة ويدل عليه قوله ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كأنه قال: طاعة مخلصة، وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم [٣] ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أى فإذا جدَّ الجدُّ وفُرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدق ويقين لكان ذلك خيرًا لهم من التقاعس والعصيان، والجملةُ جواب الشرط ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ أى فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية، من الإفساد فى الأرض بالمعاصى، وقطع الأرحام!! قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟! قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ [٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أى فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق

---

(١) تفسير القرطبى ١٦/ ٢٤٣ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٩ وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أى أحقّ وأجدر بهم وخبره ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وما ذكرناه أظهر وهو اختيار القرطبى .

(٣) التفسير الكبير ٢٨/ ٦٢ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد قال القرطبى: أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التى لا تعقل [1] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟ الاستفهام توبيخى أى أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟! ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (أم) بمعنى (بل) وهو انتقالٌ من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكر والتدبر، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبَّلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان قال الرازى: إن القلب خُلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود، وهذا كما يقول القائل فى الإنسان المؤذى: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر [2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أى رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد أن وضح لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أى الشيطان زيَّن لهم ذلك الأمر، وغرَّهم وخدعهم بالأمل، وطول الأجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أى ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذى نزَّله الله حسدًا وبغيًا ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أى سنطيعكم فى بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد، وتثبيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى وهو جل وعلا يعلم خفاياهم، وما يبطنونه من الكيد والدسّ والتآمر على الإسلام والمسلمين، قال المفسرون: قال المنافقون لليهود ذلك سرًّا فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أى فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم ومعهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ قال القرطبى: والمعنى على التخويف والتهديد أى إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر [3] قال ابن عباس: لا يُتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره [4] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أى ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضى الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أى أبطل ما عملوا حال إيمانهم من أعمال البر ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ ؟ أى أيعتقد المنافقون الذين فى قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ وأنه لن يظاهر بغضهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين؟ لابدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أى لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتهم عيانًا بعلامتهم ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين لعلهم يتوبون ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أى ولتعرفنَّ يا محمد المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه،

(١) تفسير القرطبى ١٦/ ٢٤٦ .
(٢) التفسير الكبير للرازى ٢٨/ ٦٦ .
(٣) القرطبى ١٦/ ٢٥٠ .
(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٤ .

فيما يعرضونه بك من القول الذى ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبَّة قال الكلبى : لم يتكلم بعد نزولها عند النبى ﷺ منافق إلا عرفه[1] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم، ففيه وعدٌ ووعيد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أى ولنخبرنَّكم أيها الناسُ بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة حتى نعلم- علم ظهور- المجاهدين فى سبيل الله، والصابرين على مشاقّ الجهاد ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أى ونختبر أعمالكم حسنها وقبيحها قال فى التسهيل : المراد قوله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أى نعلمه علمًا ظاهرًا فى الوجود تقوم به الحجة عليكم، وقد علم الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا[2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أى عادوا الرسول وخرجوا عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقُه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى لن يضروا الله بكفرهم وصدّهم شيئًا من الضرر، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها فى الآخرة ثوابًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أى امتثلوا أوامر الله وأوامر رسوله ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى ولا تُبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، والعُجب والرياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى جحدوا بآيات الله وصدُّوا الناس عن طريق الهدى والإيمان ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أى وماتوا على الكفر ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أى فلن يغفر الله لهم بحالٍ من الأحوال، وهذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال أبو السعود : وهذا حكم يعم كل من مات على الكفر، وإن صحَّ نزوله فى أصحاب القليب[3] ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا لقيتموهم ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى وأنتم الأعزة الغالبون؛ لأنكم مؤمنون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أى والله معكم بالعونِ والنصر ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لن ينقصكم شيئًا من ثواب أعمالكم قال ابن كثير : وفى قوله ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء[4] ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية، لا فرار لها ولا ثبات، كاللعب واللهو الذى يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده : بيَّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة، لا يصلح مانعًا من الإقدام إلى الجهاد، وما يؤدى إلى ثواب الآخرة، لكونها بمنزلة اللهو واللعب فى سرعة زوالها، وأن الآخرة هى الحياة الباقية، فلا ينبغى أن يكون حبُّ الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سببًا للجبن عن الغزو والتخلف عن الجهاد[5] ﴿وَإِن

---

(١) تفسير القرطبى ١٦/ ٢٥٣ .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٠ .
(٣) أبو السعود ٥/ ٧٨ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٨ .
(٥) حاشية زاده على البيضاوى ٣/ ٣٥٢ .

تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أى وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حقَّ تقواه، يعطكم ثواب أعمالكم كاملاً ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أى ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم، بل الزكاة المفروضة فيها قال ابن كثير: أى هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك وثوابه عليكم [١] ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ أى إن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ فى طلبها، ويلح عليكم فى إنفاقها تبخلوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أى ويخرج ما فى قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق قال فى التسهيل: وذلك؛ لأن الإنسان جبل على محبة الأموال، ومن نوزع فى حبيبه ظهرت سرائره، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم فى التكاليف [٢] ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى ها أنتم معشر المخاطبين تُدعون للإنفاق فى سبيل الله، وقد كلفتم ما تطيقون ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أى فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أى ومن بخل عن الإنفاق فى سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه؛ لأنه يمنعها الأجر والثواب قال الصاوي: وبخل يتعدى بـ(على) إذا ضُمِّن معنى شحَّ، وبـ(عن) إذا ضُمِّن معنى أمسك [٣] ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أى والله مستغن عن إنفاقكم ليس بمحتاج إلى أموالكم، وأنتم محتاجون إليه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: وإن تعرضوا عن طاعته واتباع أوامره، يخلف مكانكم قومًا آخرين يكونون أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ أي: لا يكونون مثلكم في البخل عن الإنفاق بل يكونوا كرماء أسخياء.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلى:

١- المقابلة بين الآية الأولى والثانية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وبين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ .. الآية وهو من المحسنات البديعية.

٢- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ والنكتة تعظيمه والاعتناء بشأنه.

٣- الاستعارة التبعية ﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ شبَّه ترك القتال بوضع آلته، واشتق من الوضع (تضع) بمعنى تنتهى وتترك بطريق الاستعارة التبعية.

٤- المجاز المرسل ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أى يثبتكم، وعبَّر بالأقدام؛ لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها وهو مثل «بما كسبت أيديكم».

٥- الطباق بين ﴿مَنًّۢا﴾ .. و ﴿فِدَآءً﴾ وبين ﴿ءَامَنُواْ﴾ .. و ﴿كَفَرُواْ﴾ وبين ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ .. و ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

٦- المجاز العقلي ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ نسب العزم إلى الأمر وهو لأهله مثل نهاره صائم.

٧- الالتفات ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع.

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٨.
(٢) التسهيل ٤/ ٥٠.
(٣) حاشية الصاوى ٤/ ٨٩.

٨- الاستعارة التصريحية ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ شبَّه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فإنها لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا يفيد فيها عذل عاذل، وهى من لطائف الاستعارات.

٩- الإطناب بتكرار ذكر الأنهار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ . .﴾ الآية وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة.

١٠- الكناية ﴿ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

١١- السجع الرصين غير المتكلف ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»

بَينَ يَدَى السُّورَة
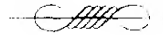
* هذه السورة الكريمة مدنية، وهى تُعنى بجانب التشريع شأن السور المدنية التى تعالج الأسس التشريعية فى المعاملات، والعبادات والأخلاق، والتوجيه.

* تحدثت السورة الكريمة عن (صلح الحديبية) الذى تمَّ بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذى كان بدايةً للفتح الأعظم (فتح مكة) وبه تمَّ العزُّ والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . .﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين، وعن (بيعة الرضوان) التى بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد فى سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعةً جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضى عن أصحابها، وسجلها فى كتابه العظيم فى سطور من نور ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ . .﴾ الآية.

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين فى قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين فلم يخرجوا معهم، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا . .﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التى رآها رسول الله ﷺ فى منامه- فى المدينة المنورة- وحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، وهى دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ . .﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار الأخيار ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ . . الآية.

التسمية: سميت سورة الفتح؛ لأن الله تعالى بشَّر المؤمنين بالفتح المبين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ . . الآيات.

فضلها: نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هى أحب إليّ من الدنيا وما فيها» ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أخرجه الإمام أحمد.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . إلى . . وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٧).

اللُّغَة: ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ السكونُ والطمأنينة والثباتُ ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ المساءة والحزن والألم قال الجوهري: ساءَه سوءًا بالفتح ومساءةً نقيضُ سرَّه، والإسمُ السُّوءُ بالضم، ودائرة السُّوء يعني الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المساءة[1] «تعزروه» تعظّموه وتنصروه وتمنعوا الأذى عنه، وسمي التعزيرُ في الحدود تعزيرًا؛ لأنه مانع من فعل القبيح ﴿نَّكَثَ﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بُورًا﴾ هلكى قال الجوهري: البورُ: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، و﴿قَوْمًا بُورًا﴾ جمع بائر، وبار فلان أي هلك[2] ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: تخلف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن استنفرهم معه حذرًا من قريش، وأحرم بعمرةٍ وساق معه الهدى ليعلم الناسُ أنه لا يريد حربًا، فتثاقلوا عنه واعتلُّوا بالشغل فنزلت ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا . .﴾ الآية[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ

---

(١) الصحاح للجوهري . (٢) نفس المرجع السابق .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٨ .

كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

التفسير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أى قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحًا بينًا ظاهرًا، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك، والمراد بالفتح فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضى لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين، قال الزمخشرى: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية، وهو وعدٌ له بالفتح، وجيء به بلفظ الماضى على عادة ربِّ العزَّة سبحانه فى أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح ما لا يخفى[١] ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أى ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود: وتسميتُه ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل[٢] وقال ابن كثير: هذا من خصائصه ﷺ التى لا يشاركه فيها غيره، وفيه تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة، وهو فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٣] ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أى ويكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى ويرشدك إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى وينصرك الله على أعدائك نصرًا قويًّا منيعًا، فيه عزةٌ وغلبة، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى هو جل وعلا الذى جعل السكون والطمأنينة فى قلوب المؤمنين ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أى ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم، برسوخ العقيدة فى القلوب، والتوكل على علاَّم الغيوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى ولله - جلّت عظمته - كل جنود السموات والأرض، من الملائكة والجن، والحيوانات، والصواعق المدمّرة، والزلازل، والخسف، والغرق، جنودٌ لا تُحصى ولا تُغلب، يسلطها على من يشاء، قال ابن كثير: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد، لما له فى ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة[٤] ولذلك قال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى عليمًا بأحوال خلقه،

(١) الكشاف ٤/ ٢٦٢ وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح: (صلح الحديبية) لما ترتب عليه من الآثار العظيمة: من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذى عقده رسول الله مع قريش، ومن دخول كثير فى الإسلام. إلى غير ما هنالك، وإلى هذا ذهب ابن كثير .

(٢) أبو السعود ٥/ ٨٠ .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٠ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤١ .

حكيمًا فى تقديره وتدبيره قال المفسرون: أراد بإنزال السكينة فى قلوب المؤمنين (أهل الحديبية) حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب، من صد الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود، فلم يرجع منهم أحدٌ عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وماجوا، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبى ﷺ وقال: ألست نبيَّ الله حقًّا؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلم نعط الدنيَّة فى ديننا إذن؟ قال: إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى[1] .. إلخ. ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أى ليدخلهم- على طاعتهم وجهادهم- حدائق وبساتين ناضرة، تجرى من تحتها أنهار الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أى: ويمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أى وكان ذلك الإدخال فى الجنات والتكفير عن السيئات، فوزًا كبيرًا وسعادةً لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أى وليعذِّب الله أهل النفاق والإشراك، وقدَّمهم على المشركين؛ لأنهم أعظم خطرًا وأشد ضررًا من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أى الظانين بربهم أسوأ الظنون، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم جميعًا كما قال تعالى ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ قال القرطبى: ظنوا أن النبى ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية[2] ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم أى عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أى وهيأ لهم فى الآخرة نارًا مستعرة هى نار جهنم، وساءت مرجعًا ومنقلبًا لأهل النفاق والضلال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين قال الرازى: كرر اللفظ؛ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين[3] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى عزيزًا فى ملكه وسلطانه، حكيمًا في صنعه وتدبيره قال الصاوى: ذكر هذه الآية أولاً فى معرض الخلق والتدبير فذيَّلها بقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وذكرها ثانيًا فى معرض الانتقام فذيَّلها بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4] وهو فى منتهى الترتيب الحسن؛ لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين.. ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى إنا أرسلناك يا

(١) انظر تفصيل القصة فى صحيح البخارى وفى سيرة ابن هشام .

(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٥ . (٣) التفسير الكبير ٢٨/ ٨٤ .

(٤) حاشية الصاوى ٤/ ٩٢ .

محمد شاهدًا على الخلق يوم القيامة، ومبشرًا للمؤمنين بالجنة، ومنذرًا للكافرين من عذاب النار ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حقَّ الإيمان، إيمانًا عن اعتقاد ويقين، لا يخالطه شك ولا ارتياب ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أى تُفخموه وتُعظِّموه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أى تحترموا وتجلُّوا أمره مع التعظيم والتكريم، والضمير فيهما للنبى ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أى تسبحوا ربكم فى الصباح والمساء ، ليكون القلب متصلاً بالله فى كل آن، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أى إن الذين يبايعونك يا محمد فى الحديبية (بيعة الرضوان) إنما يبايعون فى الحقيقة الله، وهذا تشريفٌ للنبى حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله؛ لأن الرسول سفيرٌ ومعبِّر عن الله قال المفسرون: المراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية، حين بايع الصحابة رسول الله على الموت كما روى الشيخان عن سلمة بن الأكوع أنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت وسميت (بيعة الرضوان) لقول الله فيها ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن كثير: أى هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله وقال الزمخشرى: يريد أن يد رسول الله التى تعلو أيدى المبايعين هى يدُ الله، والمعنى أن من بايع الرسول فقد بايع الله كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ﴾ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أى فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه؛ لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذى عاهد به ربه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ أى ومنْ وفّى بعهده ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى فسيعطيه الله ثوابًا جزيلاً، وهو الجنة دار الأبرار ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أى سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أى شُغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد، فاطلب لنا من الله المغفرة؛ لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار قال فى التسهيل: سمَّاهم تعالى بالمخلَّفين؛ لأنهم تخلَّفوا عن غزوة الحديبية، - والأعراب هم أهل البوادى من العرب- لما خرج رسول الله إلى مكة يعتمر، رأوا أنه يستقبل عدوًّا كثيرًا من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه، ولم يكن متمكنًا فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله فى هذه السورة وأعلمَ تعالى رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون فى اعتذارهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى يقولون خلاف ما يبطنون وهذا

الضمير هنا عائد إلى الله تعالى وقيل: إن الضمائر كلها راجعة إلى الله سبحانه وهو اختيار البيضاوى وأبى السعود، وما ذكرناه منقول عن الضحاك وهو اختيار القرطبى .

[٢] مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢ . [٣] الكشاف ٤/ ٢٦٥ .

[٤] التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٢ .

هو النفاق المحض، فهم كاذبون فى الاعتذار وطلب الاستغفار؛ لأنهم قالوه رياءً من غير صدقٍ ولا توبة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أى قل لهم: مَن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه، إن أراد أن يُلحق بكم أمرًا يضركم كالهزيمة، أو أمرًا ينفعكم كالنصر والغنيمة؟ قال القرطبى: وهذا ردٌّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضرُّ، ويُعجل لهم النفع[1] ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم بل الله مطلع على ما فى قلوبكم من الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه فى نفوسهم فقال ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى بل ظننتم أيها المنافقون أن محمدًا وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبدًا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أى وزُيّن ذلك الضلال فى قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أى ظننتم أنهم يُستأصلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أى وكنتم قومًا هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لما بيَّن حال المتخلفين عن رسول الله، وبيَّن حال ظنهم الفاسد، وأنه يفضى بصاحبه إلى الكفر، حرَّضهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم والمعنى من لم يؤمن بالله ورسوله بطريق الإخلاص والصدق ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أى فإنَّا هيأنا للكافرين نارًا شديدة مستعرة، وهو وعيدٌ شديد للمنافقين ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى له جل وعلا جميع ما فى السموات والأرض، يتصرف فى الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أى يرحم من يشاء من عباده ويُعذب من يشاء، وهذا قطع لطمعهم فى استغفار رسول الله لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أى سيقول الذين تخلَّفوا عن الخروج مع رسول الله فى عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم لتحصلوا عليها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أى اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أى يريدون أن يُغيروا وعد الله الذى وعده لأهل الحديبية من جعل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد قال القرطبى: إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح[2] ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أى قل لهم لا تتبعونا فلن يكون لكم فيها نصيب ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أى كذلكم حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى فسيقولون: ليس هذا من الله بل هو حسد منكم لنا على مشاركتكم فى الغنيمة، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى لا يفهمون إلا فهمًا قليلاً وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية- كرَّر وصفهم بهذا الإسم إظهارًا لشناعته ومبالغةً فى ذمهم- ستُدعون إلى حرب

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧١ .

قوم أشداء، هم بنو حنيفة- قوم مسيلمة الكذاب- أصحاب الردة ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ أي إما أن تقتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية، يعذبكم الله عذابًا شديدًا مؤلمًا في نار جهنم . . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعذار الظاهرة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يدخله جنات النعيم خالدًا فيها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذابًا شديدًا، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار .

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ . . إلى . . ﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ . من آية (١٨) إلى نهاية السورة آية (٢٩) .

المناسبة: لَّما ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ذكر تعالى حال المؤمنين المجاهدين الذين بايعوا الرسول (بيعة الرضوان) تسجيلاً لرضى الله تعالى عنهم، وتخليدًا لمآثرهم الكريمة، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد .

اللغة: ﴿أَظۡفَرَكُمۡ﴾ أظهركم وأعلاكم، ظفر بالشيء غلب عليه، وأظفره غلبه[1] ﴿مَعۡكُوفًا﴾ محبوسًا ومنه الاعتكاف ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ المعرَّة: العيب والمشقة اللاصقة بالإنسان من العُرّ وهو الجرب ﴿تَزَيَّلُواْ﴾ تميَّزوا ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغضب الشديد ﴿سِيمَاهُمۡ﴾ علامتهم ﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾ الشطء: الفراخ قال الجوهري: شطءُ الزرع فراخُه والجمع أشطاء[2] «آزره» قوَّاه وأعانه وشدَّه .

سبب النزول: عن أنس رضي الله عنه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسلحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ . .﴾ الآية[3] .

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾

---

(١) البحر ٨/ ٨٨ . (٢) الصحاح للجوهري .

(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٠ .

وهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ .

التفسير : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد رضى الله عن المؤمنين حين بايعوك يا محمد (بيعة الرضوان) تحت ظل الشجرة بالحديبية قال المفسرون : كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمرًا ، وأنه لا يريد حربًا ، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حربًا ، وبايعوه على الموت ، فكانت بيعة الرضوان ، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتى فى العام القابل ، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام ، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت (بيعة الرضوان) ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزنُ والكآبة ، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم فأنزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفًا وأربعمائة رجل ، وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا (الجد بن قيس) من المنافقين ، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين ، ولهذا سُطرت فى الكتاب المبين[1] ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أى فعلم تعالى ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء ، عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أى رزقهم الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر ، وما فيها من النصر والغنائم ، زيادةً على ثواب الآخرة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ أى جعل لهم الغنائم الكثيرة التى

---

(١) انظر تفصيل القصة فى تفسير القرطبى ١٦/ ٢٧٤ .

غنموها من خيبر قال ابن كثير : هو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العامّ بفتح خيبر ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة [١] ؛ ولهذا قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالبًا على أمره ، حكيمًا في تدبيره وصنعه ، ولهذا نصركم عليهم وغنّمكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين- على جهادكم وصبركم- الفتوحات الكثيرة ، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم ، قال ابن عباس : هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة [٢] قال في البحر : ولقد اتّسع نطاق الإسلام ، وفتح المسلمون فتوحًا لا تُحصى ، وغنموا مغانم لا تُعد وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في الهند والسودان- تصديقًا لوعده تعالى- وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وقد فتح أكثر من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا معه وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه [٣] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي فعجّل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إليكم بسوء قال المفسرون : المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان ، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون الغنائم ، وفتح مكة ، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم ، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإخلاصكم ، قال الإمام الفخر : والآية للإشارة إلى أنَّ ما أعطاهم من الفتح والمغانم ، ليس هو كل الثواب ، بل الجزاء أمامهم ، وإنما هي شيء عاجل عجّله لهم لينتفعوا به ، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين ، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم [٤] ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ أي وغنيمةً أخرى يسّرها لكم ، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها ، ولكنّ الله بفضله وكرمه فتحها لكم ، والمراد بها فتح مكة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم ، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوس لكم لا يفوتكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادرًا على كل شيء ، لا يعجزه شيء أبدًا ، فهو القادر على نصرة أوليائه ، وهزم أعدائه قال ابن كثير : المعنى أي وغنيمةً أخرى وفتحًا آخر معينًا ، لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسّرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمرادُ بها في هذه الآية (فتح مكة) وهو اختيار الطبري [٥] ﴿وَلَوْ

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٥ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٨ .

(٣) التفسير الكبير ٢٨/ ٩٦ .

(٤) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وأبي حيان ، وهو منقول عن قتادة والحسن ، ويؤيده أن الله تعالى قال : ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لفتحها وهو منطبق على (فتح مكة) وقيل : إن المراد : فتح فارس والروم ، وقيل : هوازن في حنين ، وما ذكرناه أرجح .

(٥) البحر المحيط ٨/ ٩٧ .

﴿قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ تذكير لهم بنعمةٍ أخرى أى ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ أى ثم لا يجدون من يتولّى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا من ينصرهم من عذاب الله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أى تلك طريقة الله وعادتُه التى سنَّها فيمن مضى من الأمم، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين قال فى البحر: أى سنَّ الله؛ لأنبيائه ورسله سنة قديمة وهى قوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[1] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أى وسنته تعالى لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أى وهو تعالى بقدرته وتدبيره صرف أيدى كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التى هى قريبة من البلد الحرام، قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كفَّ أيدى المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفَّ أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاًّ من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة[2] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أى من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم قال الجلال: وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأُتى بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلَّى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح[3] وقال فى التسهيل: وروى فى سببها أن جماعةً من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى جماعةٍ من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قومًا، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم، فكفُّ أيدى الكفار هو هزيمتهم وأسرهم، وكفُّ أيدى المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل[4] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أى هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم، يعلم ما فيه مصلحة لكم، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمةً بكم، وحرمةً لبيته العتيق؛ لئلا تسفك فيه الدماء.. ثم ذكر تعالى استحقاق المشركين للعذاب والدمار فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أى هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام؛ لأداء مناسك العمرة عام الحديبية ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أى وصدُّوا الهدى أيضًا- وهو ما يُهدى لبيت الله لفقراء الحرم- معكوفًا أى محبوسًا عن أن يبلغ مكانه الذى يذبح فيه وهو الحرم قال القرطبى: يعنى قريشًا منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدى وحبسوه عن أن يبلغ محله، وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكن حملتهم الأنفة ودعتهم الحمية الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينًا، فوبخهم الله على

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٧ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٦ .
(٣) تفسير الجلالين ٤/ ٩٧ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٤ .

ذلك وتوعدَّهم عليه، وأدخل الأنس على رسول الله ببيانه ووعده(١) ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أى ولولا أن فى مكة رجالاً ونساءً من المؤمنين المستضعفين، الذين يخفون إيمانهم خوفًا من المشركين ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أى لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى كراهة أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم بإيمانهم، فينالكم بقتلهم إثم وعيب وجواب (لولا) محذوفٌ تقديره: لأذن لكم فى دخول مكة، ولسلَّطكم على المشركين قال الصاوى: والجواب محذوف قدَّره الجلال بقوله: لأذنَ لكم فى الفتح، ومعنى الآية: لولا كراهة أن تُهلكوا أناسًا مؤمنين بين أظهر الكفار، حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفَّ أيديكم عنهم(٢)، ولأذن لكم فى فتح مكة ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أى إنما فعل ذلك ليخلّص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام قال القرطبى: أى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين، ليُسلم بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكة، وكذلك كان، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامُه، ودخلوا فى رحمته وجنته(٣) ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى لو تفرقوا وتميَّز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشدَّ العذاب، بالقتل والسبى والتشريد من الأوطان ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أى حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل، فرفضوا أن يكتبوا فى كتاب الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم) ورفضوا أن يكتبوا (محمد رسولُ الله) وقولهم: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكنْ اكتبْ اسمك واسم أبيك ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أى أنفةً وغطرسةً وعصبيةً جاهلية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى جعل الطمأنينة والوقار فى قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين(٤) ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أى اختار لهم كلمة التقوى- إلزام تكريم وتشريف- وهى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هذا قول الجمهور، والظاهر: أن المراد بكلمة التقوى هى إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله، وعدم شقّ عصا الطاعة عندما كُتبت بنود الصلح، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين فى الظاهر، فثبَّت الله المؤمنين

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٣ . (٢) حاشية الصاوى على الجلالين ٤/ ٩٨ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٦ .
(٤) يقول سيد قطب رحمه الله فى تفسيره الظلال ما نصه: (وهذه الحميّة: إنما هى حميةُ الكبر والفخر، والبطر والتعنت، الحمية الجاهلية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ والمؤمنين، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه، مخالفين بذلك كل عرفٍ وكل عقيدة؛ كى لا تقول العرب: إن محمداً دخلها عليهم عنوة، ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولا إسلام). اهـ. الظلال ٢٦/ ١١٥ .

على طاعة رسول الله ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين[١] ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي وكانوا أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة؛ لأن الله اختارهم لدينه وصحبة نبيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي عالمًا بمن هو أهل للفضل، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم.. ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام- وهي رؤيا حق-؛ لأنها جزء من الوحي فقال ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ اللام موطئة للقسم، و(قد) للتحقيق أي والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان؛ لأنها رؤيا حق قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلق بعضهم وقصَّر بعضهم، فحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، فلما خرج إلى الحديبية مع الصحابة، وصدَّه المشركون عن دخول مكة، ووقع ما وقع من قضية الصلح، ارتاب المنافقون وقالوا: واللهِ ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيت، فأين هي الرؤيا؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء فنزلت الآية ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فأعلم تعالى أن رؤيا رسوله حق، وأنه لم يكذب فيما رأى، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ستٍ من الهجرة، وإنما أراه مجرد صورة الدخول، وقد حقق الله له ذلك بعد عام فذلك قوله تعالى ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي تدخلونها آمنين من العدو، تؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصِّر بعض ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ أي غير خائفين، وليس فيه تكرارٌ؛ لأن المراد آمنين وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ أي فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم قال ابن جزي: يريد ما قدَّره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة، وغزا (غزوة الفتح) بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف[٢] ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ أي فجعل قبل ذلك فتحًا عاجلاً لكم وهو (صلح الحديبية) وسُمي فتحًا لما ترتَّب عليه من الآثار الجليلة، والعواقب الحميدة، ولهذا روى البخاري عن البراء رضي الله عنه: «تعدون أنتم الفتح (فتح مكة) وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعدُّ الفتح (بيعة الرضوان) يوم الحديبية..»[٣] الحديث ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي

---

(١) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح الحديبية ولعله واضح لمن تمعن فيه .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٦ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري وتتمته (كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئرٌ فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا) .

أرسل محمدًا بالهداية التامة الشاملة الكاملة، والدين الحق المستقيم دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليعليه على جميع الأديان، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بالله شاهدًا على أن محمدًا رسوله. . ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الرسول المسمَّى محمدًا هو رسولُ الله حقًّا لا كما يقول المشركون ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظٌ على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال أبو السعود: أي يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة[1] قال المفسرون: وذلك؛ لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم، رهبانٌ بالليل أسودٌ بالنهار ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه قال ابن كثير: وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عز وجل والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه[2] ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامتهم وسمتُهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي: لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر، قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، قال منصور: سألت مجاهدًا عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع[3] ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي فقوَّاه حتى صار غليظًا ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يعجب هذا الزرع الزراع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار قال الضحّاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ، والشطءُ أصحابُه، كانوا قليلاً فكثروا، وضُعفاء فقووا، وقال القرطبي: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفًا، فأجابه

---

(١) أبو السعود ٥/٨٦ .
(٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٥٥ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٩٣ .

الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان[1] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي وعدهم تعالى بالآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في جنات النعيم، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿مَا تَقَدَّمَ .. وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا .. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً .. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿نَّكَثَ .. و أَوْفَىٰ﴾ وبين ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ وبين ﴿يَغْفِرُ .. وَيُعَذِّبُ﴾ وبين ﴿مُحَلِّقِينَ .. وَمُقَصِّرِينَ﴾ وبين ﴿أَشِدَّآءُ .. رُحَمَآءُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ..﴾ الآية وبين ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ الآية.

٣ - الاستعارة التصريحية المكنية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ شبَّه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلبًا لمرضاته بدفع السِّلع في نظير الأموال، واستعير اسم المشبَّه به للمشبه واشتق من البيع يبايعون بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، والمكنية في قوله ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ شبَّه اطلاع الله على مبايعتهم ومجازاته على طاعتهم بملكٍ وضع يده على يد أميره ورعيته، وطوى ذكر المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية، ففي الآية استعارتان.

٤ - الكناية ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ كناية عن الهزيمة؛ لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه للهرب.

٥ - التعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.

٦ - الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان.

٧ - الإطناب بتكرار الحرج ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لتأكيد نفي الإثم عن أصحاب الأعذار.

٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ..﴾ الآية؛ لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد.

٩ - مراعاة الفواصل في نهاية الآيات، وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٩٥.

بين يدى السورة
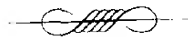
* هذه السورة الكريمة مدنية، وهى على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة، وأسس المدنيّة الفاضلة، حتى سمَّاها بعض المفسرين (سورة الأخلاق).

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذى أدَّب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألا يُبرموا أمرًا، أو يُبدوا رأيًا، أو يقضوا حكمًا فى حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

* ثم انتقلت إلى أدبٍ آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيمًا لقدره الشريف، واحترامًا لمقامه السامى، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه فى الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . .﴾.

* ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار، لا سيما إن كان الخبر صادرًا عن شخص غير عدل أو شخص متَّهم، فكم من كلمةٍ نقلها فاجر فاسق سببَّت كارثةً من الكوارث، وكم من خبرٍ لم يتثبت منه سامعه جرَّ وبالاً، وأحدث انقسامًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا . .﴾.

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . .﴾ الآيات.

* وحذَّرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفَّرت من الغيبة والتجسس والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذَّرت من الغيبة جاء النهى فى تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإبداع، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . .﴾ الآية ويا له من تنفير عجيب!!

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمةً تقال باللسان، وجاءوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذى جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . .﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

التسمية: سميت (سورة الحجرات)؛ لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبى ﷺ وهى الحجرات التى كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن.

□□□

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ .. إلى .. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٢).

اللغة: ﴿يَغُضُّونَ﴾ غضَّ صوته خفضه وخافت به ﴿فَاسِقٌۢ﴾ الفاسق: الخارج من حدود الشرع، وهو فى أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى الخروج، مأخوذ من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وسمى فاسقًا لخروجه عن الطاعة ﴿نَبَإٍ﴾ النبأ: الخبر الهام قال الراغب: لا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن [١] ﴿عَنِتُّمْ﴾ وقعتم فى العَنت وهو المشقة والهلاك قال فى اللسان: العنت: الهلاك وأعنته أوقعه فى الهلكة [٢] ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ جمع راشد وهو المهتدى إلى محاسن الأمور «تفيء» ترجع ﴿بَغَتْ﴾ اعتدت واستطالت وأصله مجاوزة الحد فى الظلم أو الطغيان ﴿تَلْمِزُوٓا۟﴾ تعيبوا.

سبب النّزول:

أ- روى أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبى ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد أُخرج إلينا، يا محمد أُخرج إلينا فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ب- وروى أن النبى ﷺ بعث (الوليد بن عقبة) إلى (الحارث بن ضرار) ليقبض ما كان عنده من الزكاة التى جمعها من قومه، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله: إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهمَّ بعض الصحابة بالخروج إليهم وقتالهم فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ..﴾ الآية [٣].

ج- عن أنس قال: قيل للنبى ﷺ: لو أتيت (عبد الله بن أبىّ) - وهو رأس المنافقين - فانطلق إليه وركب حمارًا، وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبى ﷺ قال له: إليك عنى - أى تنحَّ وابتعد عنى - فو الله لقد آذانى نتنُ حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب للأنصارى آخرون من قومه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدى والنعال، فأنزل الله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ..﴾ [٤] الآية.

---

(١) مفردات القرآن للراغب.

(٢) لسان العرب مادة عنت.

(٣) انظر تفصيل الرواية فى مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٨.

(٤) أخرجه الشيخان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

التَّفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى يا أيها المؤمنون، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بكتاب الله، لا تُقدموا أمرًا أو فعلاً بين يدى الله ورسوله، وحُذِف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قولٍ أو فعل، كما إذا عرضت مسألة فى مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك، قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه ﷺ وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم[1] وقال البيضاوى: المعنى لا تقطعوا أمرًا قبل أن يحكم الله ورسوله به، وقيل: المراد بين يدى رسول الله، وذُكر اللهُ تعظيمًا له وإشعارًا بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله[2] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى واتقوا الله فيما أمركم به، إن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنياتكم وأحوالكم، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة فى النفس.. ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أى إذا كلمتم رسولَ الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوتِ النبى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أى ولا تبلغوا حدَّ الجهر عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم فى الحديث مع البعض، ولا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٧ . (٢) البيضاوى ٣/ ٣٦٥ من الحاشية .

تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضًا فتقولوا: يا محمد، ولكنْ قولوا: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، تعظيمًا لقدره، ومراعاة للأدب. قال المفسرون: نزلت فى بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أى خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن فى رفع الصوت والجهر بالكلام فى حضرته ﷺ استخفافًا قد يؤدى إلى الكفر المحبط للعمل، قال ابن كثير: روى أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية قال: أنا الذى كنتُ أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملى، وجلس فى أهله حزينًا، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقَّدك رسول الله ﷺ ما لك؟ فقال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ حبط عملى أنا من أهل النار، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبى ﷺ: لا بل هو من أهل الجنة[1] وفى رواية: «أترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟» فقال: رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتى أبدًا على صوت رسول الله ﷺ[2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرَّنها عليها وجعلها صفة راسخة فيها قال ابن كثير: أى أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أى لهم فى الآخرة صفحٌ عن ذنوبهم، وثواب عظيم فى جنات النعيم.. ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون فى ندائهم للرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ أى يدعونك من وراء الحجرات، منازل أزواجك الطاهرات ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضى حسنٍ الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيمّا لمن كان بهذا المنصب الخطير، قال البيضاوى: قيل: إن الذى ناداه (عُيينة بن حُصين) و(الأقرع بن حابس) وفدا على رسول الله ﷺ فى سبعين رجلاً من بنى تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: يا محمد اخرج إلينا[3] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى ولو أنَّ هؤلاء المنادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيرًا لهم وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب فى مقام النبوة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم يُنزل العقاب بهم.. ثم حذَّر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أى إذا أتاكم رجل فاسق-غير موثوق بصدقه وعدالته- بخبرٍ من الأخبار ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أى فتثبتوا من صحة الخبر ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أى لئلا تصيبوا قومًا وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أى فتصيروا نادمين أشد الندم على

(١) الحديث أخرجه أحمد.
(٢) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبرى.
(٣) تفسير البيضاوى ٣/ ٣٦٧.

صنيعكم[١] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي واعلموا -أيها المؤمنون- أنَّ بينكم الرسول المعظَّم، والنبيَّ المكرم، المعصوم عن اتباع الهوى ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو يسمع وشاياتكم. ويصغي بسمعه لإرادتكم، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور، لوقعتم في الجهد والهلاك قال ابن كثير: أي اعلموا أنَّ بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم[٢] ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ أي ولكنه تعالى -بمنّه وفضله- نوَّر بصائركم فحبَّب إلى نفوسكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وحسَّنه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي وبغَّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله، قال ابن كثير: والمراد بالفسوق الذنوبُ الكبار، وبالعصيان جميع المعاصي[٣] ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي هذا العطاء تفضلٌ منه تعالى عليكم وإنعام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليمٌ بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره.. ثم عقَّب تعالى على ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغضٍ وتقاتل فقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي وإنْ حدث أنَّ فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما، والجمعُ ﴿اقْتَتَلُوا﴾ باعتبار المعنى، والتثنية ﴿بَيْنَهُمَا﴾ باعتبار اللفظ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدَّها بالظلم والطغيان، ولم تقبل الصلح وصمَّمت على البغي ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه، وتُقلع عن البغي والعدوان، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ أي فإن رجعت وكفَّت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيفٍ على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم، قال البيضاوي: والآية نزلت في قتالٍ حدث بين (الأوس) و(الخزرج) في عهده ﷺ كان فيه ضرب بالسَّعف والنعال، وهي تدلُّ على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كفَّ عن الحرب ترك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة[٤] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي ليس المؤمنون إلا إخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء، ولا تباغضٌ ولا تقاتل قال المفسرون: ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر فكأنه يقول: لا أخوَّة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين مؤمن وكافر، وفي الآية إشارة إلى أنَّ أخوة الإسلام أقوى من أخوَّة النسب، بحيث لا تعتبر أخوَّة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام

---

(١) انظر سبب النزول.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٢.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٧١.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أى فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدبُّ، والبغضاء تعمل عملها ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى اتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمته، وتسعدوا بجنته ومرضاته ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أى يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيرًا عند الله من الساخر، وربَّ أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه[1] ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أى ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيرًا عند الله وأفضل من الساخرة ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَٰبِ﴾ أى ولا يعب بعضكم بعضًا، ولا يدع بعضكم بعضًا بلقب السوء، وإنما قال ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأن المسلمين كأنهم نفسٌ واحدة ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَٰنِ﴾ أى بئس أن يسمى الإنسان فاسقًا بعد أن صار مؤمنًا قال البيضاوى: وفى الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح[2] ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾ أى ومن لم يتبْ عن اللَّمز والتنابز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أى ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظنِّ بالأهل والناس، وعبَّر بالكثير ليحتاط الإنسان فى كل ظنٍّ ولا يسارع فيه بل يتأملُ ويتحقَّق ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أى إنَّ فى بعض الظنِّ إثمًا وذنبًا يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رضى الله عنه: (لا تظُنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيكَ المؤمنِ إلا خيرًا، وأنت تجدُ لها فى الخير محملاً)[3] ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أى لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم[4] ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أى لا يذكر بعضكم بعضًا بالسوء فى غيبته بما يكرهه ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح أى هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أى فكما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا الغيبة شرعًا، فإن عقوبتها أشدُّ من هذا. شبَّه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتًا، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان- فضلاً عن كونه أخًا، وفضلاً عن كونه ميتًا وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أى خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أى إنه تعالى كثير التوبة عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حثٌّ على التوبة، وترغيبٌ بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

❑ ❑ ❑

(١) هذا حديث صحيح. (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٧٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤.

(٤) وفى الحديث (يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتَّبع الله عورته، ومن يتَّبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . إلى . . وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من آية (١٣) إلى آية (١٨) نهاية السورة.

المناسبة: لَّما دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساوئها، وحذَّر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة، دعا الناس هنا جميعًا للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب، ثم بيَّن صفات المؤمن الكامل.

اللغة: ﴿يَلِتْكُم﴾ ينقصكم «قبائل» جمع قبيلة وهى الجماعة التى يربطها حسبٌ أو نسب، وهى أخصُّ من الشعب؛ لأن الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، فالشعب يجمع القبيلة، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ ﴿يَرْتَابُوا۟﴾ يشكُّوا والريب: الشكُّ ﴿يَمُنُّونَ﴾ المنُّ: الامتنان على الشخص والاعتداد عليه بفعل المعروف، وأصله فى اللغة القطع ومنه ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله: أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، وأخذوا يمنون عليه فنزلت الآية الكريمة ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ . .﴾ [١] الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

التّفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الخطاب لجميع البشر أى نحن بقدرتنا خلقناكم من أصلٍ واحد، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم وآدم من تراب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أى وجعلناكم شعوبًا شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف قال مجاهد: ليعرف الإنسان نسبه فيقال فلان بن فلان من قبيلة كذا[٢]، وأصل تعارفوا: تتعارفوا حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، قال شيخ زاده: والمعنى إن الحكمة التى من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هى أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه، لا أن تتفاخر بالآباء والأجداد، والنسب وإن كان يُعتبر عرفًا وشرعًا، حتى لا تُزوج الشريفة بالنبطىّ، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦٩.　(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦٧.

ما هو أعظم قدرًا منه وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس[١] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أى إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفًا فى الدنيا ومنزلةً فى الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[٢] وفى الحديث «الناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله تعالى ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى»[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أى عليمٌ بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقى والشقى، والصالح والطالح ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أى زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا بعد؛ لأن الإيمان تصديقٌ مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكنْ قولوا: استسلمنا خوف القتل والسبى، قال المفسرون: نزلت فى نفرٍ من بنى أسد، قدموا المدينة فى سنةٍ مجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصَّدقة ويمنون على الرسول، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبةٌ أعلى من الإسلام، الذى هو الاستسلام والانقياد بالظاهر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أى ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد، ولفظةُ (لمَّا) تفيد التوقع كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان عند اطلاعكم على محاسن الإسلام، وتذوقكم لحلاوة الإيمان، قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون فى هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم، فادَّعو؛ لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا فى ذلك، ولو كانوا منافقين- كما ذهب إليه البخارى- لعُنفوا وفُضِحوا[٤] ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أى وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المنِّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى عظيم المغفرة، واسع الرحمة؛ لأن صيغة (فعول) و(فعيل) تفيد المبالغة.. ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكُمَّل الصادقين فى إيمانهم فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أى إنما المؤمنون الصادقون فى دعوى الإيمان، الذين صدَّقوا الله ورسوله، فأقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أى ثم لم يشكو ويتزلزلوا فى إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى وبذلوا أموالهم ومهجهم فى سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أى أولئك الذين صدقوا فى ادعاء الإيمان.. وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف:

---

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوى ٣/ ٣٧٥ . (٢) البيضاوى ٣/ ٣٧٥ .
(٣) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٩ .

الأول: التصديق الجازم بالله ورسوله.

الثاني: عدم الشك والارتياب.

الثالث: الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أى قل لهم يا محمد: أتخبرون الله بما فى ضمائركم وقلوبكم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد، لا تخفى عليه خافية لا فى السموات ولا فى الأرض ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى واسع العلم رقيب على كل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أى يعدُّون إسلامهم عليك يا محمد منَّة، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أى قل لهم: لا تمتنوا علىّ بإسلامكم، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أى بل للهِ المنةُ العظمى عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه، إن كنتم صادقين فى دعوى الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى يعلم ما غاب عن الأبصار فى السموات والأرض ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى مطَّلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية.. كرَّر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه، وشموله لكل صغيرة وكبيرة، فى السر والعلن، والظاهر والباطن.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلى:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ شبَّه حالهم فى إبداء الرأى وقطع الأمر فى حضرة الرسول بحال ملكٍ عظيم تقدَّم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضى أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لوجود أداة التشبيه.

٣ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بعد قوله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهذا من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة بين ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

٥ - الطباق ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٧ - التشبيه التمثيلى ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ مثَّل للغيبة بمن يأكل لحم الميت، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها فى الذهن.

٨ - طباق السلب ﴿ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾.

٩ - الاستفهام الإنكارى للتوبيخ ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

١٠-التشبيه البليغ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أصل الكلام المؤمنون كالإخوة فى وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغًا مع إفادة الجملة الحصر.

تَنْبِيهٌ: سورة الحجرات تسمى سورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مراتٍ، وفى كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها فى فقرات:

أولاً: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ثانيًا: احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ..﴾.

ثالثًا: وجوب التثبت من الأخبار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ..﴾.

رابعًا: النهى عن سخرية بالناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ...﴾.

خامسًا: النهى عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ .. الآية.

لطيفة: سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال فقال: (تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»
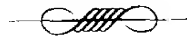
بَين يَدَى السُّورة

* هذه السورة مكية، وهى تعالج أصول العقيدة الإسلامية (الوحدانية، الرسالة، البعث) ولكنَّ المحور الذى تدور حوله هو موضوع (البعث والنشور) حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد عالجه القرآن بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة. وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحسّ تهزُّ القلب هزًّا، وترجُّ النفس رجًّا، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التى أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهى قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ . .﴾ الآيات.

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين- المنكرين للبعث- إلى قدرة الله العظيمة، المتجلية فى صفحات هذا الكون المنظور، فى السماء والأرض، والماء والنبت والثمر والطلع، والنخيل والزرع وكلها براهين قاطعة على قدرة العلى الكبير ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا . . .﴾ الآيات.

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة، وما حلَّ بهم من الكوارث وأنواع العذاب، تحذيرًا لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ . . .﴾ الآيات.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم فى ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد تنتهى به بإلقائه فى الجحيم ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ . . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن (صيحة الحقِّ) وهى الصيحة التى يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثباتٌ للبعث والنشور الذى كذب به المشركون ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ . .﴾ الآيات.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ . . إلى . . فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢).

اللُّغَة: ﴿مَّرِيجٍ﴾ مختلط قال ابن قتيبة: مرج الأمر ومرج الدين اختلط، وأصله أن يقلق الشيء

ولا يستقر، يقال: مرج الخاتم فى يدى إذا قلق للهزال ﴿فُرُوجٍ﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشقُّ ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوال، بسق الشيء بُسوقًا إذا طال ﴿نَّضِيدٌ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لَبْسٍ﴾ حيرة وشك واضطراب «عيينا» عجزنا يقال: عيى به يعيا أى عجز عنه ﴿رَقِيبٌ﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ قال الجوهرى: العتيد الشيء الحاضر المهيأ ومنه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ وفرسٌ عتيد معدٌّ للجرى[1] ﴿حَدِيدٌ﴾ حادٌّ نافذ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۢ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

التَّفْسِير: ﴿قٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[2] ﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ قسمٌ حذف جوابه أى أقسم بالقرآن الكريم، ذى المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثنَّ بعد الموت، قال ابن كثير: وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقديره: إنك يا محمد لرسول وإنَّ البعث لحق[3]، وهذا كثير فى القرآن وقال أبو حيان: والقرآنُ مقسم به، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب، والجواب محذوفٌ يدل عليه ما بعده تقديره: لقد جئتهم منذرًا بالبعث فلم يقبلوا[4] ﴿بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى فقال كفار مكة: هذا شيءٌ فى منتهى الغرابة والعجب، والإظهار فى موضع

(١) الصحاح مادة عتد .

(٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة .

(٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر المختصر ٣/ ٣٧١ .

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٠ .

الإضمار لتسجيل جريمة الكفر عليهم، والآية إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يعجبوا ويستهزئوا، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أئذا متنا واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنّا؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودماءهم إذا ماتوا، فلا يضل عنا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض منهم، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي فهم في أمرٍ مختلط مضطرب، فتارة يقولون عن الرسول: إنه ساحر، وتارةً يقولون: إنه شاعر، وتارة يقولون: إنه كاهن، وهكذا قالوا أيضًا عن القرآن إنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك.. ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادرٌ على إعادة الإنسان بعد موته؟ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي وجعلنا فيها جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات حسن المنظر، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي فعلنا ذلك تبصيرًا منا وتذكيرًا على كمال قدرتنا، لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وحبَّ الزرع المحصود، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ أي وأخرجنا شجر النخيل طوالاً مستويات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي لها طلعٌ منضود، منظمٌ بعضه فوق بعض، قال أبو حيان: يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر، وأول ظهور الثمر يكون منضَّدًا كحب الرمان، فما دام ملتصقًا بعضه ببعض فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[1] ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي أنبتنا كل ذلك رزقًا للخلق لينتفعوا به ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضًا جدبة لا ماء فيها ولا زرع فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٢ .

بعد موتكم، قال ابن كثير: وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف فى حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى[1] . . ثم ذكَّر تعالى كفار مكة بما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين إنذارًا لهم وإعذارًا فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أى كذَّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ أى وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود رسُّوا نبيَّهم فيها أى دسُّوه فيها ﴿وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ سمَّاهم إخوانه؛ لأنه صاهرهم وتزوج منهم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أى وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، نُسبوا إلى الأيكة؛ لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضُها على بعض ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال المفسرون: هو ملكٌ كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تُبَّع اليمانى[2] ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أى جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم قال ابن كثير: وإنما جمع الرسل؛ لأن من كذَّب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى فوجب عليهم وعيدى وعقابى، والآية تسليةٌ للنبى ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أى أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ قال القرطبى: وهو توبيخٌ لمنكرى البعث، وجوابٌ لقولهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[4] ومراده أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادةُ أسهلُ منه فكيف يُتوهم عجزنا عن البعث والإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى بل هم فى خلطٍ وشبهةٍ وحيرة من البعث والنشور، قال الألوسى: وإنما نكَّر الخلق ووصف بجديد، ولم يقل: من الخلق الثانى تنبيهًا على استبعادهم له وأنه خلق عظيم يجب أن يهتم بشأنه فله نبأ عظيم[5] ثم نبه تعالى على سعة علمه وكمال قدرته فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أى خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول فى قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أى ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير فى العنق متصل بالقلب، قال أبو حيان: ونحن أقرب إليه قرب علم، نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته، فكأن ذاته تعالى قريبة منه، وهو تمثيل لفرط القرب كقول العرب: هو مني معقد الإزار[6] وقال ابن كثير: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدَّس، وهذا كما قال فى المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ يريد به الملائكة[7] ، ويدل عليه قوله بعده: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أى حين يتلقى

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٢ .
(٢) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٩١ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٢ .
(٤) تفسير القرطبى ١٧/ ٨ .
(٥) تفسير روح المعانى ٢٦/ ١٧٨ .
(٦) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٢٣ .
(٧) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧٣ .

الملكان الموكلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات، وفى الكلام حذفٌ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه، قال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان- مع علمه بأحواله- ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره إلزامًا للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١) وقال الألوسى: والمراد أنه سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل رقيب، حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه عز وجل غنىٌ عن استحفاظ الملكين، فإنه تعالى أعلم منهما ومطَّلع على ما يخفى عليهما، لكنْ الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد، فإذا علم العبد ذلك- مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه- ازداد رغبةً فى الحسنات، وانتهاءً عن السيئات (٢) ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أى ما يتلفظ كلمةً من خيرٍ أو شر، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه ﴿عَتِيدٌ﴾ أى حاضر معه أينما كان مهيأً لكتابة ما أُمر به قال ابن عباس: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر (٣) وقال الحسن: فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (٤) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أى وجاءت غمرة الموت وشدته التى تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عيانًا ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع؛ وفى الحديث عن عائشة أن النبى ﷺ لمّا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إنَّ للموت لسكراتٍ» (٥) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أى ونفخ فى الصور نفخة البعث ذلك هو اليوم الذى وعد الله الكفار به بالعذاب ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى وجاء كل إنسان برًّا كان أو فاجرًا ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهى الأيدى والأرجل ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان، ملك يسوقه وملك يشهد عليه (٦) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أى فأزلنا عنك الحجاب الذى كان على قلبك وسمعك وبصرك فى الدنيا ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى فبصُرك اليوم قوىٌّ نافذ، ترى به ما كان محجوبًا عنك لزوال الموانع بالكلية.

❑ ❑ ❑

(١) تفسير القرطبى ١٧/ ٩ .
(٢) تفسير روح المعانى ٢٦/ ١٧٩ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٤ .
(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٢٤ .
(٥) رواه البخارى .
(٦) اخترنا قول مجاهد هنا؛ لأنه الظاهر من الآية الكريمة، وهو ما رجحه الطبرى وابن كثير .

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . . إلى . . فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ من آية (٢٣) إلى آية (٤٥) نهاية السورة .

المناسبة: لمّا حكى تعالى فى الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث، وأقام الأدلة والبراهين على البعث والنشور، ذكر هنا الأهوال والشدائد التى يلقاها الكافر فى الآخرة، والنعيم الذى أعدَّه للمؤمنين الأبرار فى الجنة، وختم السورة الكريمة ببيان دلائل البعث وأحواله وأطواره .

اللغة: ﴿أُزْلِفَتِ﴾ قُربت يقال: زلف يزلف أى قرب، وأزلفه قرَّبه ﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى الله من آب يئوب أوبًا إذا رجع ﴿بَطْشًا﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف «نقبوا» طوَّفوا وساروا، وأصل التنقيب التنقير عن الشيء والبحث عنه قال الشاعر:

نقّبوا فى البلاد من حذر الموت وجالوا فى الأرض كلَّ مجال [١]

﴿مَّحِيصٍ﴾ مفر ومهرب من حاص يحيص حيصًا إذا أراد الهرب ﴿لُّغُوبٍ﴾ تعب .

سبب النزول: عن قتادة أن اليهود قالوا: إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وأنه تعب فاستراح يوم السبت وسمَّوه يوم الراحة فكذبهم الله تعالى فيما قالوا فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [٢] .

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ .

التفسير: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أى وقال الملك الموكل به: هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرتُ ديوان عمله ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى يقول الله تعالى للملكين (السائق والشهيد) اقذفا فى جهنم كلَّ كافر معاند للحقِّ لا يؤمن بيوم الحساب ﴿مَّنَّاعٍ

(١) تفسير القرطبى ١٧/ ٢٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧٨ .

﴿لِّلْخَيْرِ﴾ أي مبالغ في المنع لكل حقٍّ واجب عليه في ماله ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ أي ظالم غاشم شاك في الدين ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي فألقياه في نار جهنم، وكرر اللفظ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ للتوكيد ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيَّض له: ربنا ما أضللتهُ ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ولكنَّه ضلَّ باختياره، وآثر العمى على الهدى من غير إكراهٍ أو إجبار، وفي الآية محذوفٌ دل عليه السياق كأن الكافر قال: يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني، فيقول قرينه: ربنا ما أطغيتُه بل كان هو نفسه ضالاً معاندًا للحق فأعنته عليه ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي فيقول الله عز وجل للكافرين وقرنائهم من الشياطين: لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآياتُ والنُّذر ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي ما يُغيَّر كلامي، ولا يُبدَّل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين، قال المفسرون: المراد وعدهُ تعالى بعذاب الكافر وتخليده في النار بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [(١)] ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ولست ظالمًا حتى أعذب أحدًا بدون استحقاق، وأعاقبه بدون جرم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت، وتقول هل هناك من زيادة؟ وفي الحديث «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول: قط قط وعزتك وكرمك - أي قد اكتفيت - وينزوي بعضها إلى بعض» [(٢)] والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتهما، والله على كل شيء قدير، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً، وحاصلٌ شرعًا، وقد أخبر القرآن الكريم أنَّ نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وورد في صحيح مسلم أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر، فينطق الله الشجر والحجر.. إلخ وقيل: إن الآية على التمثيل وأنها تصويرٌ لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقي فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم [(٣)]، وهو كقولهم: قال الحائط للمسمار لم تشقني؟ قال: سلْ منْ يدقني. ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قُربت وأدنيت الجنة من المؤمنين المتقين مكانًا غير بعيد، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي يقال لهم: هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل عبدٍ أوّاب أي رجَّاع إلى الله، حافظٍ لعهده وأمره ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه دون أن يراه لقوة يقينه،

---

(١) انظر حاشية الجمل ٤/ ٩٦ والقرطبي ١٧/ ١٧ .

(٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم .

(٣) هذا القول أنه ليس ثمة قول وإنما هو على طريق التمثيل قول الخلف، ونقل القرطبي أن هذا هو تفسير مجاهد، والقول الأول قول السلف .

وجاء بقلبٍ تائب خاضع خاشع ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۢ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أى يقال لهم: ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم والأكدار، ذلك هو يوم البقاء الذى لا انتهاء له أبدًا؛ لأنه لا موت فى الجنة ولا فناء ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أى لهم فى الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، وتلذ به أعينهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أى وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم [(١)] . . ثمَّ خوَّف تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهم فقال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أى وأهلكنا قبل كفار قريش أممًا كثيرين من الكفار المجرمين ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أى هم أقوى من كفار قريش قوة، وأعظم منهم فتكًا وبطشًا ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أى فساروا فى البلاد، وطوَّفوا فيها وجالوا فى أقطارها، فهل كان لهم من الموت مهرب؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى إن فيما ذُكر من إهلاك القرى الظالمة، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكر ويعتبر، قال سفيان: لا يكون حاضرًا وقلبه غائب، وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب [(٢)]، وعبَّر عن العقل بالقلب؛ لأنه موضعه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ هذه الآية ردٌّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام، أوَّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش، فكذبهم الله تعالى [(٣)] والمعنى والله خلق السموات السبع فى ارتفاعها وعظمتها، والأرض فى كثافتها وسعتها، وما بينهما من المخلوقات البديعة فى ستة أيام، وما مسَّنا من إعياء وتعب ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أى فاصبرْ يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش، واهجرهم هجرًا جميلاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أى ونزِّه ربك عما لا يليق به، وصلِّ له واعبدْه وقتى الفجر والعصر، وخصَّهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أى ومن الليل فصلِّ للهِ تهجدًا وأعقاب الصلوات المفروضة، قال ابن كثير: كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس، وثنتان قبل الغروب، وكان قيام الليل واجبًا على النبى ﷺ وعلى أُمته حولاً ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلواتٍ، وبقى منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب [(٤)] ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أى واستمع يا محمد النداء والصوت حين ينادى إسرافيل بالحشر من

---

(١) هذا القول مروى عن أنس وجابر بن عبدالله قالا: المزيد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يرونه وذلك فى كل جمعة، انظر روح المعانى ٢٦/ ١٩٠ .

(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧٨ .

(٣) هذا قول قتادة والكلبى كذا فى القرطبى ١٧/ ٢٤ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٨ .

موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء، قال أبو السعود: وفيه تهويلٌ وتفظيع لشأن المخبر به، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء[1] ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يوم يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحقِّ - وهي النفخة الثانية في الصور - ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي نُحيي الخلائق ونميتُهم في الدنيا، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي يوم تنشقُّ الأرضُ عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابةً لنداء المنادي ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك جمع وبعث سهلٌ هيّنٌ علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يقول كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلَّط عليهم تجبرهم على الإسلام، إنما بعثت مذكِّر ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عظْ بهذا القرآن من يخاف وعيدي.. ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإظهار في موطن الإضمار ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل فقالوا للتسجيل عليهم بالكفر.

٢ - الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ؟

٣ - الإضراب عن السابق لبيان ما هو أفظع وأشنع من التعجب ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ شبَّه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ مثَّل علمه تعالى بأحوال العبد، وبخطرات النفس، بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيلٌ للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو مني معقد الإزار.

٦ - الحذف بالإيجاز ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أصله عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وبين اليمين والشمال طباقٌ، وهو من المحسنات البديعية.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ استعار لفظ السَّكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿عَنِيدٍ﴾ و ﴿عَتِيدٌ﴾ لتغاير حرفيْ النون والتاء.

٩ - الطباق بين ﴿نُحْيِۦ﴾ ﴿وَنُمِيتُ﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٩٦ .

١٠ - توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ومـــثـــل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ . . ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، لما فيه من جميل الوقع على السمع .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»

تفسير سورة الذاريات

بَين يَدَى السُّورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التى تقوم على تشييد دعائم الإيمان، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التى تذرو الغبار، وتسيَّر المراكب فى البحار، وعن السحب التى تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون الخلق، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة، وأنه لابدَّ من البعث والجزاء.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة، فبينت حالهم فى الدنيا، ومآلهم فى الآخرة، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكالها.

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين، وما أعدَّ الله لهم من النعيم والكرامة فى الآخرة؛ لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين، على طريقة القرآن فى الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية فى هذا الكون الفسيح، فى سمائه وأرضه، وجباله ووهاده، وفى خلق الإنسان فى أبدع صورة وأجمل تكوين، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين.

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم وما حلَّ بهم من العذاب والدمار، فذكرت قصة إبراهيم ولوط، وقصة موسى، وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح، وفى ذكر القصص وتكراره فى القرآن تسلية للرسل الكرام، وعبرةٌ لأولى الأبصار، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن، وهى معرفة الله جل وعلا، وعبادته وتوحيده، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ . . إلى . . ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٧)

اللغَة: ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزنًا ومعنى، قال الزجاج: الحُبك: الطرائق الحسنة، والمحبوك فى اللغة ما أجيد عمله [1] وقال ابن الأعرابى: كلُ شيءٍ أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته [2] ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ جمع خرَّاص وهو الكذَّاب ﴿غَمۡرَةٖ﴾ الغمرة ما ستر الشىء وغطَّاه

(١) زاد المسير ٨/ ٢٩ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٢ .

ومنه نهر غمر ﴿يَهْجَعُونَ﴾ ينامون والهجوع النومُ ليلاً ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أحسَّ وشعر ﴿صَرَّةٍ﴾ صيحة وضجة ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلَّمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٣٠ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٣٧﴾

التَّفسير: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ هذا قسمٌ، أقسم تعالى به أى أقسم بالرياح التى تذرو التراب فتفرّقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أى وأقسم بالسحب التى تحمل أثقال الأمطار، وهى محمَّلة بالماء الذى فيه حياة البشر ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ أى وأقسم بالسفن التى تجرى على وجه الماء جريًا سهلاً بيسر وهى تحمل ذرية بنى آدم ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أى وأقسم بالملائكة التى تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد، وكل ملك مخصَّص بأمر، فجبريل صاحب الوحى إلى الأنبياء، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح [(١)] قال المفسرون: أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته، ثم ذكر جواب القسم فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أى إن الذى توعدونه من الثواب والعقاب، والحشر والنشر، لأمر صدقٌ محقَّق لا كذب فيه ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أى وإنَّ الجزاء لكائن لا محالة، ثم ذكر تعالى قسمًا آخر فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أى وأقسم بالسماء ذات الطرائق المحكمة والبنيان المتقن قال ابن عباس: ذات الخلق الحسن المستوى [(٢)] ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ جواب القسم أى إنكم أيها الكفار لفى قول مضطرب فى أمر محمد، فمنكم من يقول: إنه ساحر، ومنكم من يقول: إنه شاعر، وبعضكم يقول: إنه مجنون

(١) حاشية الجمل ٤/ ٢٠١ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٠ .

إلى غير ما هنالك من أقوال مختلفة ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عن الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه السلام، من صُرف عن الهداية في علم الله تعالى وحُرم السعادة ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أي لعن الكذابون الذين قالوا: إن النبي ﷺ ساحر وكذاب وشاعر، قال ابن الأنباري: والقتلُ إذا أُخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك[1] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يقولون تكذيبًا واستهزاءً: متى يوم الحساب والجزاء؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي هذا الجزاء كائن يوم يدخلون جهنم ويُحرقون بها ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي تقول لهم خزنة النار: ذوقوا تعذيبكم وجزاءكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاءً.. ولما ذكر حال الكفار ذكر المؤمنين الأبرار فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي هم في بساتين فيها عيون جاريةٌ، تجري فيها على نهاية ما يُتنزه به ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي راضين بما أعطاهم ربهم من الكرامة والنعيم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كانوا في دار الدنيا محسنين في الأعمال، ثم ذكر طرفًا من إحسانهم فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كانوا ينامون قليلاً من الليل ويصلُّون أكثره قال الحسن: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً[2] ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وفي أواخر الليل يستغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع إحسانهم يعدُّون أنفسهم مذنبين، ولذلك يكثرون الاستغفار بالأسحار قال أبو السعود: أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار، كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم[3]، وهو مدح ثانٍ للمحسنين ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ مدحٌ ثالث أي وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج، وللمتعفف الذي لا يسأل لتعففه[4] ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي وفي الأرض دلائل واضحة على قدرة الله سبحانه ووحدانيته للموقنين بالله وعظمته، الذين يعرفونه بصنعه قال ابن كثير: أي وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات، والجبال والقفار، والبحار، والأنهار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الخلق البديع[5]، ولهذا قال بعده ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث؟ قال ابن عباس: يريد اختلاف الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع،

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٣٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٠ .

(٤) هذا هو المشهور عن ابن عباس أنه حق سوى الزكاة، يقري به ضيفاً، ويصل به رحماً، ويحمل به كلاًّ، وقيل: إنه الزكاة وهو قول قتادة وابن سيرين .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٤ .

والسمع والبصر والعقل إلى غير ذلك من العجائب المودعة فى ابن آدم، وقال قتادة: من تفكَّر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خُلق ولُيّنت مفاصله للعبادة ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أى وفى السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذى به حياة البلاد والعباد، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك فى السماء قال الصاوى: والآيةُ قُصد بها الامتنان والوعد والوعيد[٢] ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أى أُقسم بربِّ السماءِ والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحقٌّ كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تشكون فى نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكوا فى الرزق والبعث: قال المفسرون: وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أى رزقكم مقسوم فى السماء كنطقكم فلا تشكوا فى ذلك، وهذا كقول القائل: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حقٌّ كما أنك ترى وتسمع[٣]، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص فى حالٍ من الأحوال، وفى الحديث «لو أن أحدكم فر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت»[٤].. ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبى الكريم فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلانى؟ يريد تشويقه إلى استماعه والمعنى: هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظَّمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام[٥]، سُمُّوا مكرمين لكرامتهم عند الله عز وجل ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أى حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى: قال عليكم سلامٌ أنتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم؛ لأنهم قدموا عليه فى صورة شبانٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم[٦]، وقال أبو حيان: والذى يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك، إذْ فيه من عدم الإنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك فى نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف[٧] ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أى فمضى إلى أهله فى سرعة وخفية عن ضيفه؛ لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه فى التأخير، قال ابن قتيبة: عدل إليهم فى خفية ولا يكون الرَّواغُ إلا أن تُخفى ذهابك ومجيئك[٨] ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: فجاءهم بعجل سمينٍ مشوى، والعجلُ ولدُ البقرة وكان عامة ماله البقر، واختاره لهم سمينًا زيادة فى إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أى فأدناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم فى تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام؟ قال ابن كثير: وفى الآية تلطف فى العبارة وعرض حسن، وقد

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٣ . (٢) حاشية الصاوى ٤/ ١٢٥ .
(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ١٣٧ .
(٤) ذكره القرطبى فى تفسيره ١٧/ ٤٣ وأسنده إلى الثعلبى .
(٥) تفسير القرطبى ١٧/ ٤٤ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .
(٧) البحر المحيط ٨/ ١٣٩ . (٨) تفسير ابن الجوزى ٨/ ٣٦ .

انتظمت الآية آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامٍ من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أولاً فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعةٍ وخفاءٍ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتيٌّ سمين مشوي، فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون؟ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل[١] ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا له: لا تخف إنا رسل ربك ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي وبشروه بولدٍ يولد له من زوجته سارة يكون عالمًا عند بلوغه، قال أبو حيان: وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء[٢]، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق لقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي فأقبلت سارة نحوهم حين سمعت البشارة في صيحةٍ وضجة، قال المفسرون: لما سمعت بالبشارة وكانت في زاوية من زوايا البيت جاءت نحوهم في صيحة عظيمة تريد أن تستفسر الخبر ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب، قال ابن عباس: لطمت وجهها تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب[٣] ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي قالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ والعقيم هي التي لم تلد قطّ لانقطاع حبلها، قال الإمام الجلال: كان عمرها تسعًا وتسعين سنة، وعمر إبراهيم مائة وعشرين[٤] ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي الأمر كما أخبرناك هكذا حكم وقضى ربك من الأزل فلا تعجبي ولا تشكّي فيه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بمصالح خلقه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار؟ قال البيضاوي: لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمرٍ عظيم سأل عنه[٥] ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي قالوا: إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط الذين ارتكبوا أفحش الجرائم (اللواط) وكانوا ذوي جرائم متعددة، وهي كبار المعاصي من كفر وعصيان ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي لنهلكهم بحجارةٍ من طين متحجر مطبوخ بالنار وهو السجيل، قال أبو حيان: والسجيلُ: طينٌ يُطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصبح في صلابة الحجارة[٦] ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي معلَّمة من عند الله بعلامة، على كل واحدةٍ منها اسم صاحبها الذي يهلك بها ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الفجور، قال الصاوي: كان في قرى لوط ستمائة ألف فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم ثم قلبها، ثم أرسل الحجارة على من كان خارجًا عنها[٧] ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٩ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .
(٤) حاشية تفسير الجلالين ٤/ ١٢٦ .
(٥) تفسير البيضاوي ٤/ ١٦٧ .
(٦) البحر المحيط ٨/ ١٤٠ .
(٧) حاشية الصاوي ٤/ ١٢٦ .

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى فأخرجنا من كان فى قرى أهل لوط من المؤمنين لئلا يهلكوا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أى فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين قال مجاهد: هم لوط وابنتاه، والغرضُ من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك، قال الإمام الجلال: وصفوا بالإيمان والإسلام أى هم مصدقون بقلوبهم، عاملون بجوارحهم الطاعات[1] ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أى أبقينا فى تلك القرى المهلكة بعد هلاك الظالمين علامةٌ على هلاكهم بجعل عاليها سافلها ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أى للذين يخافون عذاب الله فإنهم المعتبرون به قال ابن كثير: ومعنى الآية ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أى جعلناها عبرةً بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرةً منتنة خبيثة، ففى ذلك عبرةً للمؤمنين الذى يخافون العذاب الأليم[2].

تَنْبِيهٌ: قال الإمام الرازى: فى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبى الكريم ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وكون النبى ﷺ على سنته فى بعض الأشياء، وفيها إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين[3].

❒ ❒ ❒

قال الله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ . . إلى . . مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ من آية (٣٨) إلى آية (٦٠) نهاية السورة.

المُنَاسَبَة: لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أُرسلوا لهلاك قوم لوط، أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية، فذكر منهم فرعون وجنوده، وعادًا، وثمود، وقوم نوح، تسلية للنبى عليه السلام، وتذكيرًا للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، ثم ذكر دلائل القدرة والوحدانية، وختم السورة الكريمة بإنذار المكذبين الضالين.

اللُّغَةُ: «فَنَبَذْنَاهُمْ» طرحناهم ﴿ٱلْيَمِّ﴾ البحر ﴿مُلِيمٌ﴾ آت بما يلام عليه «الرَّمِيم» الشيء الهالك البالى قال الزجاج: الرميمُ: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم[4]، ورمَّ العظم إذا بلى فهو رِمَّة ورميم، قال جرير يرثى ابنه:

تركْتنى حين كفَّ الدهر من بصرى ... وإذْ بقيتُ كعظم الرمَّة البالى[5]

﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ مهدتُ الفراش مهدًا بسطته ووطأته، والتمهيد تسوية الشيء وإصلاحه ﴿ذَنُوبًا﴾ الذَنوب: بفتح الذال النصيب من العذاب.

(١) تفسير الجلالين ٤/ ٢٠٥ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .
(٣) التفسير الكبير ٧/ ٦٦٦ .
(٤) زاد المسير ٨/ ٣٩ .
(٥) تفسير القرطبى ١٧/ ٥١ .

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

التفسير: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أى وجعلنا فى قصة موسى أيضًا آيةً وعبرة وقت إرسالنا له إلى فرعون ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أى بحجة واضحة ودليلٍ باهر ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أى فأعرض عن الإيمان بموسى بجموعه وأجناده، وقوته وسلطانه قال مجاهد: تعزَّز عدوُّ الله بأصحابه[1] والغرض أن فرعون أعرض عن الإيمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده؛ لأنهم كانوا له كالركن الذى يعتمد عليه البنيان ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى وقال اللعين فى شأن موسى: إنه ساحرٌ ولذلك أتى بهذه الخوارق، أو مجنون ولذلك ادَّعى الرسالة، وإنما قال ذلك تمويهًا على قومه لا شكًّا منه فى صدق موسى[2] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أى فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أى فطرحناهم فى البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان.. ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبها بذكر قصة عاد فقال: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أى وجعلنا فى قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة، التى لا خير فيها ولا بركة؛ لأنها لا تحمل المطر ولا تلقّح الشجر، وإنما هى للإهلاك، وهى الريح التى تسمَّى الدبور وفى الصحيح: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»، قال المفسرون: سميت ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ تشبيهًا لها بعقم المرأة التى لا تحمل ولا تلد، ولما كانت هذه الريح لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ولا خير فيها ولا بركة؛ لأنها لا تحمل المطر شبهت بالمرأة العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى ما تترك شيئًا مرَّت عليه فى طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أى إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالى قال ابن عباس:

---

(١) المختصر ٣/ ٣٨٦. ونقل عن ابن عباس أن المراد (بركنه) أى بقوته وسلطانه، وقد جمعنا بين القولين فى التفسير.

(٢) لفظة (أو) للشك، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أى ساحر ومجنون؛ لأن اللعين قال الأمرين معاً فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهو اختيار القرطبى، وقال الألوسى: لا ضرورة إلى ذلك التأويل؛ لأن اللعين كان يتلوّن تلوّن الحرباء.

«الرميم» الشيء الهالك البالي وقال السدي: هو التراب والرماد المدقوق [١] كقوله تعالى ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ قال المفسرون: كانت الريح التي أرسلها الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت عليهم ثمانية أيام متتابعة، فكانت تهدم البنيان وتنتزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ . . ثم أخبر تعالى عن هلاك ثمود فقال ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي وجعلنا في ثمود أيضًا آية وعبرة ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقرهم للناقة، وهو ثلاثة أيام كما في هود ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي فاستكبروا عن امتثال أمر الله، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة- صيحة العذاب- ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي وهم يشاهدونها ويعاينونها؛ لأنها جاءتهم في وضح النهار قال ابن كثير: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار [٢] وقال الألوسي: إن صالحًا عليه السلام وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام وقال لهم: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودَّة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله، وفي اليوم الرابع أتتهم الصاعقة وهي نار من السماء وقيل صيحة فهلكوا [٣] ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي ما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصيحة، بل أصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب. . ثم أخبر تعالى عن هلاك قوم نوح فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وأهلكنا قوم نوحٍ بالطوفان من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليلٌ للهلاك أي؛ لأنهم كانوا فسقةً خارجين عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان. .

ولما انتهى من أخبار هلاك الأمم الطاغية المكذبة، شرع في بيان دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوةٍ وقدرة قال ابن عباس: ﴿بِأَيْدٍ﴾ بقوة [٤] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي وإنا لموسعون في خلق السماء، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في بعض الأحاديث [٥] وقال ابن عباس: ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي والأرض مهدناها لتستقروا عليها، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات وأنواع المزروعات، ولا ينافي ذلك كرويتها، فذلك أمرٌ مقطوع به، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة،

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٦ .
(٣) روح المعاني ٢٧/ ١٦ . (٤) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٤٠ .
(٥) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل؛ لترى عظمة الخالق الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ما هي إلا ذرة أو نقطة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله رب العالمين، منشئ الأكوان وخالق الإنسان، وتمعَّنْ وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ عظمة الكون لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك .

والبقاع الواسعة، مع الجبال والهضاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ومن كل شىء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكرًا وأنثى، وحلوًا وحامضًا ونحو ذلك[١] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى كى تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى الجأوا إلى الله، واهرعوا إلى توحيده وطاعته، قال أبو حيان: والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول فى الإيمان وطاعة الرحمن، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقابًا وعذابًا، وأمرٌ حقه أن يُفر منه، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء، ومثله قول النبى ﷺ: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»[٢] وقال ابن الجوزى: المعنى اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان[٣] ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ أى إنى أنذركم عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مُّبِينٌ﴾ أى واضحٌ أمرى فقد أيدنى الله بالمعجزات الباهرات ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أى لا تشركوا مع الله أحدًا من بشر أو حجر ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراك بالله، قال الخازن: وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة، والنهى عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلاّ مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلاّ مع الإيمان، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلاّ الجامع بينهما ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هذه تسلية للنبى ﷺ أى كما كذبك قومك يا محمد، وقالوا عنك إنك ساحرٌ أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ أى هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، ثم أضرب عن هذا النفى والتوبيخ فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى فأعرض يا محمد عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أى فلا لوم عليك ولا عتاب؛ لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وبذلت الجهد فى النصح والإرشاد ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة.. ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتى وتوحيدى، لا لطلب الدنيا والانهماك بها، قال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليقروا لى بالعبادة طوعًا أو كرهًا، وقال مجاهد: إلا ليعرفونى[٤] قال الرازى: لما بيَّن تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية ليبيّن سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن إلا

(١) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: يعنى به المتقابلات كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والخير والشر وأمثال ذلك، كذا فى القرطبى ١٧/ ٥٣ وهو اختيار الطبرى؛ لأنه أدل على العظمة والقدرة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٢.

(٣) تفسير ابن الجوزى ٨/ ٤١.

(٤) تفسير القرطبى ١٧/ ٥٥.

للعبادة [١] ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أى لا أريد منهم أن يرزقونى أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزَّاق المعطى ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أى ولا أريد منهم أن يطعموا خلقى ولا أن يطعمونى فأنا الغنى الحميد، قال البيضاوى: والمراد أن يبيّن أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم [٢]، فكأنه سبحانه يقول: ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أى إنه جل وعلا هو الرازق، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، أتى باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم، وأكد الجملة بإن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق فى أمور الرزق، وليقوى اعتمادهم على الله ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أى ذو القدرة الباهرة ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ أى شديد القوة لا يطرأ عليه عجزٌ ولا ضعف، قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إلى الله فى جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم، وفى الحديث القدسى: «ياابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك» [٣] ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أى فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم الذين أُهلكوا كقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أى فلا يتعجلوا عذابى فإنه واقع لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أى هلاك ودمار وشدة عذاب لهؤلاء الكفار فى يوم القيامة الذى وعدهم الله به.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلى:

١ - الطباق ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾؛ لأن السائل الطالب، والمحروم المتعفف.

٢ - تأكيد الخبر بالقسم وإنَّ واللام ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ويسمى هذا الضرب إنكاريًّا؛ لأن المخاطب منكر لذلك.

٣ - أسلوب التشويق والتفخيم ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

٤ - الاستعارة ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ استعار الركن للجنود والجموع؛ لأنه يحصل بهم التقوي والاعتماد كما يعتمد على الركن فى البناء أو استعارة للقوة والشدة.

٥ - المجاز العقلى ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول أى ملام على طغيانه.

٦ - الاستعارة التبعية ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة.

٧ - حذف الإيجاز ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى أنا عجوز.

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أى نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين فى الشدة والغلظة، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٧/ ٦٨٥. (٢) تفسير البيضاوى ٤/ ١٦٨.

(٣) أخرجه الترمذى وأحمد وانظر المختصر ٣/ ٣٨٧.

٩ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ للمبالغة والتأكيد.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذى يزيد فى جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ . . ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: ذكر أن أعرابيًّا سمع قارئًا يقرأ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ فقال: يا سبحان الله من الذى أغضب الجليل حتى حلف! ألم يصدقوه فى قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ يا ويح الناس!!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

بين يدى السورة

سورة الطور من السور المكية التى تعالج موضوع العقيدة الإسلامية، وتبحث فى أصول العقيدة وهى (الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء).

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعما يلقاه الكافرون فى ذلك الموقف الرهيب (موقف الحساب) وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وكان القسم بأمور خمسة تنبيهًا على أهمية الموضوع.

* ثم تناولت الحديث عن المتقين وهم فى جنات النعيم، على سرر متقابلين، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة: (الحور العين، واجتماع الشمل بالذرية والبنين، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب من فواكه وثمار، ولحوم متنوعة مما يشتهى ويستطاب) إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم، مما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار، غير عابىء بما يقوله المشركون وما يفتريه المفترون حول الرسالة والرسول، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون.

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة فى شأن نبوة محمد ﷺ، وردَّت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التى تقصم ظهر الباطل، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام.

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع، وبينت شدة عنادهم، وفرط طغيانهم، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى فى سبيل الله حتى يأتى أمر الله.

التسميَة: سميت (سورة الطور)؛ لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذى كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكانًا وبقعةً مشرفة على سائر الجبال فى بقاع الأرض.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ . . إلى . . ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٨).

اللُّغَةُ: ﴿رَقٍّ﴾ الرَّق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وقال أبو عبيدة: الرقُّ الورق وفى

الصحاح: الرقُّ بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق[١] ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الموقد نارًا يقال: سجرت النار أي أوقدتها ﴿تَمُورُ﴾ مار الشيء يمور مورًا إذا تحرك واضطرب، وجاء وذهب، قال جرير:

وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل[٢]

﴿يُدَعُّونَ﴾ يدفعون بشدة وعنف، والدَّع: الدفع بشدة وإهانة ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾ أنقصناهم ﴿رَهِينٌ﴾ محبوس ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ الريح الحارة النافذة في المسام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذى كلَّم الله عليه موسى، وأقسم بالكتاب الذى أنزله الله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب ﴿فِى رَقٍّ﴾ أى فى أديم من الجلد الرقيق ﴿مَّنشُورٍ﴾ أى مبسوط غير مطوى وغير مختوم عليه، قال القرطبى: أقسم الله تعالى بالطور- وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى- تشريفًا له وتكريمًا، وتذكيرًا لما فيه من الآيات، وأقسم بالكتاب المسطور أى المكتوب وهو القرآن يقرأه المؤمنون من المصاحف، ويقرأه الملائكة من اللوح المحفوظ، وقيل: يعنى بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن كل كتاب في رقٍّ ينشره أهله لقراءته، والرقُّ ما رُقّق من الجلد ليكتب فيه[٣] ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ أى وأقسم بالبيت المعمور الذى تطوف به الملائكة الأبرار، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض، وفى حديث الإسراء ثم رفع إلى البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم[٤] وقال ابن عباس: هو بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة- أى مقابلها

(١) الصحاح مادة رقَّ.
(٢) تفسير القرطبى ١٧/ ٦٣.
(٣) تفسير القرطبى ١٧/ ٥٨.
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه.

وحذائها- تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه[١] ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أى والسماء العالية المرتفعة، الواقفة بقدرة الله بلا عمد، سمَّى السماء سقفًا؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أى والبحر المسجور الموقد نارًا يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أى أضرمت حتى تصير نارًا ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم أى إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة، قال ابن الجوزى: أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق[٢] ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى ليس له دافع يدفعه عنهم، قال أبو حيان: والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف، والجملة المقسم عليها هى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ وفى إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر فى مصلحة العبد، فإضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمانٌ له ﷺ وأن العذاب واقع بمن كذبه، ولفظ واقع أشد من كائن، كأنه مهيأ فى مكان مرتفع فيقع على من حلَّ به[٣] ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أى تتحرك السماء وتضطرب اضطرابًا شديدًا من هول ذلك اليوم ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى تنسف نسفًا عن وجه الأرض فتكون هباءً منثورًا كقوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قال الخازن: والحكمة فى مور السماء وسير الجبال، الإنذار والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا، وذلك؛ لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بنى آدم بذلك، فلما لم يبق لهم عودٌ إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة[٤] ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى هلاك ودمار وشدة عذاب للمكذبين أرسله الله فى ذلك اليوم الرهيب ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى الذين هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل غافلون ساهون عما يراد بهم ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أى يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعًا بشدة وعنف قال فى البحر: وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدى الكفار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون بهم دفعًا إلى النار على وجوههم وزجًا فى أقفيتهم حتى يردوا إلى النار[٥]، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى هذه نار جهنم التى كنتم تهزءون وتكذبون بها فى الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أى وتقول لهم الزبانية تقريعًا وتوبيخًا: هل هذا الذى ترونه بأعينكم من العذاب سحرٌ، أم أنتم اليوم عميٌ كما كنتم فى الدنيا عميًا عن الخير والإيمان؟ قال أبو السعود:

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٨ . (٢) زاد المسير ٨/ ٤٨ .

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٧ والآية فيها أهوال وشدائد ينخلع لها قلب المؤمن، روى عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمتُ المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر، فوافيتهُ يقرأ فى صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ . . إلى . . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صدع قلبى، فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بي العذاب.

(٤) تفسير الخازن ٤/ ١٠٧ . (٥) البحر المحيط ٨/ ١٤٧ .

وقوله تعالى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخ لهم وتقريع حيث كانوا يسمون القرآن الناطق بالحق سحرًا كأنه قيل لهم: كنتم تقولون عن القرآن إنه سحر أفهذا العذاب أيضًا سحر أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا[(١)]؟ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي قاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وهو توبيخ آخر﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتساوى عليكم الصبر والجزع؛ لأنكم مخلدون فى جهنم ابدا ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب، ولا يظلم ربك أحدًا.. ولما ذكر حال الكفرة الأشقياء ذكر حال المؤمنين السعداء على عادة القرآن الكريم فى الجمع بين الترهيب والترغيب فقال﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أى إن الذين اتقوا ربهم فى الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم فى الآخرة فى بساتين عظيمة ونعيم مقيم خالد ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومراكب، وغير ذلك من ملاذ الجنة ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أى وقد نجاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها قال ابن كثير: وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[(٢)] ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشربًا هنيئًا، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال.. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند أكلهم وشربهم فقال﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أى جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت، مصطفة بعضها إلى جانب بعض، قال ابن كثير: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أى وجوه بعضهم إلى بعض كقوله﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[(٣)] وفى الحديث: «إن الرجل ليتكيء المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»[(٤)] ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسانًا من الحور العين، وهنَّ نساء بيض واسعات العيون- من الحَوَر وهو شدة البياض، والعينُ جمع عيناء وهى كبيرة العين- والبياضُ مع سعة العين نهاية الحسن والجمال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أى كانوا مؤمنين وشاركهم أولادهم فى الإيمان ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى ألحقنا الأبناء بالآباء لتقرَّ بهم أعينهم وإن لم يبلغوا عملهم، قال ابن عباس: إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّ بهم عينه وتلا الآية[(٥)]، قال الزمخشري: فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم فى أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم[(٦)] ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ

(١) تفسير أبى السعود على هامش الرازى ٧/ ٦٩٧ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٠ .
(٣) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٤) أخرجه ابن أبى حاتم .
(٥) تفسير القرطبى ١٧/ ٦٦ .
(٦) تفسير الكشاف ٤/ ٢٧٢ .

عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أى وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئًا، قال فى البحر : المعنى أنه تعالى يُلحق المقصَّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئًا[١] ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى كل إنسان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره سواء كان أبًا أو ابنًا وقال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم[٢] وقال الخازن : المراد بالآية الكافر أى كل كافر بما عمل من الشرك مرتهن بعمله فى النار، والمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[٣] . . ثم ذكر ما وعدهم به من الفضل والنعمة فقال : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى وزدناهم - فوق ما لهم من النعيم - بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويُشتهى ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى يتعاطون فى الجنة كأسًا من الخمر، يتجاذبها بعضهم من بعض تلذذًا وتأنسًا، قال الألوسى : أى يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى فى الدنيا لشدة سرورهم[٤] ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أى لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر فى الدنيا، قال قتادة : نزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صُداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذى لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحسن منظرها، وطيب طعمها، فقال : ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[٥] ثم قال تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أى ويطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى لخدمتهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أى كأنهم فى الحسن، والبياض، والصفاء اللؤلؤ المصون فى الصدف، قال القرطبى : وهؤلاء الغلمان قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة، وليس فى الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم[٦] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، تلذذًا بالحديث، واعترافًا بالنعمة ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى قال المسئولون : إنا كنا فى دار الدنيا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة، وأجارنا مما نخاف، وحمانا من عذاب جهنم النافذة فى المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهى التى تسمى ﴿السَّمُومِ﴾ قال الفخر الرازى : والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم فى الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم فى الدنيا، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، ويزداد الكافر ألمًا حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم[٧] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى قال أهل الجنة : إنا كنا فى الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب الله لنا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٩ وهذا تأويل ابن عباس .
(٢) القرطبى ١٧/ ٦٨ .
(٣) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٨ .
(٤) روح المعانى ٢٧/ ٣٤ .
(٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٩١ .
(٦) تفسير القرطبى ١٧/ ٦٩ .
(٧) التفسير الكبير للرازى ٧/ ٧٠٥ .

فأعطانا سؤلنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى هو المحسن، المتفضل على عباده بالرحمة والغفران، وهو كالتعليل لما سبق، عن مسروق أن عائشة رضي الله عنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم[1].

❑❑❑

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ . . إلى . . ﴿فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ من آية (٢٩) إلى آية (٤٩) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمر تعالى رسوله بالتذكير، إنذارًا للكافرين وتبشيرًا للمؤمنين، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ.

اللُّغَة: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب:

أمِنَ المنونِ وريْبِه تتوجَّع والدَّهر ليس بمعتب من يجزع[2]

والمنون أيضًا الموتُ من المنِّ بمعنى القطع؛ لأنه يقطع الأعمار ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم جمع حُلم وهو العقل ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسيطر: المتسلط على الشيء ﴿كِسْفًا﴾ قطعة يقال: كسف بسكون السين وكسفة أي قطعة وجمعه كسف بفتح السين ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متجمع ومتراكم بعضه فوق بعض.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

التَّفْسِير: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي فذكّر يا محمد بالقرن قومك وعظهم به، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي لست كاهنًا تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي، ولا مجنونًا كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي . . ثم أنكر عليهم مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي بل

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٩٢ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٥٤ وانظر الصحاح للجوهري .

أيقول المشركون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه؟ قال الخازن: وريبُ المنون حوادث الدهر وصروفه، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء، والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع، سُميا بذلك؛ لأنهما يقطعان الأجل [١] ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أى قل لهم يا محمد: انتظروا بى الموت فإنى منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكى، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾؟ أى أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ قال الخازن: وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل [٢]، وهو تهكم آخر بالمشركين ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى بل هم قوم مجاوزون الحد فى الكفر والطغيان، والمكابرة والعناد ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أى أم يقولون: إن محمدًا اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه، قال القرطبى: والتقوُّل تكلف القول، وإنما يستعمل فى الكذب فى غالب الأمر، يقال: قوَّلتنى ما لم أقل أى ادعيته علىَّ، وتقوَّل عليه أى كذب عليه [٣] ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكبارًا وعنادًا ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أى فليأتوا بكلام مماثلٍ للقرآن فى نظمه وحسنه وبيانه، إن كانوا صادقين فى قولهم إن محمدًا افتراه، وهو تعجيز لهم مع التوبيخ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أى هل خُلقوا من غير رب ولا خالق؟ قال ابن عباس: من غير ربٍ خلقهم وقدَّرهم [٤] ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أى أم هم الخالقون؛ لأنفسهم، حتى تجرءوا فأنكروا وجود الله جل وعلا؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى أم هم خلقوا السموات والأرض؟ وإنما خصَّ السموات والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعظمها وشرفها، ثم بيَّن تعالى السبب فى إنكارهم لوحدانية الله فقال ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أى بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق، قال الخازن: ومعنى الآية هل خُلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق ضرورى، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، أم هم الخالقون؛ لأنفسهم؟ وذلك فى البطلان أشدُّ؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا فليؤمنوا به، وليوحدوه، ولْيعبدوه، ولْيوقنوا أنه ربهم وخالقهم [٥] ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ ؟ أى أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن شاءوا؟ قال ابن عباس ﴿خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ المطر والرزقُ وقال عكرمة: النبوة [٦] ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ ؟ أى أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا فى الخلق كما يشاءون؟ لا بل الله عز وجل هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أم هم

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٩ .
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٣) تفسير القرطبى ١٧/ ٧٣ .
(٤) تفسير القرطبى ١٧/ ٧٤ .
(٥) تفسير الخازن: ٤/ ٢١٠ .
(٦) تفسير القرطبى ١٧/ ٧٤ .

الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي[١] ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ ؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي فيعلمون أنهم على حقٍّ فهم به مستمسكون؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع . . ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون؛ لأنفسهم فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ؟ أي كيف تجعلون لله البنات- مع كراهتكم لهن- وتجعلون؛ لأنفسكم البنين؟ أهذا هو المنطق والإنصاف؟ قال القرطبي: سفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا والمعنى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث[٢] وقال أبو السعود: تسفيهٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم، وإيذانٌ بأن من هذا رأيه لا يكاد يُعد من العقلاء، فضلاً عن الترقي إلى عالم الملكوت، والاطلاع على الأسرار الغيبية، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ[٣] ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغُرم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك، ولا يدخلون في الإسلام؟ فإن العادة أن من كلف إنسانًا مالاً وضربَ عليه جُعلاً يصير مثقلاً وغارمًا بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمتثله ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ؟ أي أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أنَّ ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطلٌ فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفة ويقين؟ قال قتادة: هو ردٌّ لقولهم ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ والمعنى أعَلموا أن محمدًا يموتُ قبلهم حتى يحكموا بذلك[٤]؟ وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه، ويُخبرون الناس بما فيه[٥]؟ ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ ؟ أي أيريد هؤلاء المجرمون أن يتآمروا عليك يا محمد؟ قال المفسرون: والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم؛ لأن ضرر ذلك عائد عليهم، ووباله راجع على أنفسهم كقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، قال الصاوي: وأوقع الظاهر ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موقع المضمر تشنيعًا وتقبيحًا عليهم بتسجيل وصف الكفر[٦] ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ؟ أي ألهم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة؟ ويستنجدوا به لدفع الضُّرِّ والعذاب عنهم؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٥٧ .
(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٦ .
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥ .
(٤) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٥٨ .
(٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٦ .
(٦) حاشية الصاوي ٤/ ١٣٤ .

يشركون به من الأوثان والأصنام، قال الإمام الجلال: والاستفهام بـ(أم) في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتقريع والإنكار[1].. ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا في هذا النازل عنادًا واستهزاءً: إنه سحاب مركوم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي إنه سحاب متراكم بعضه فوق بعض قد سقط علينا، قال أبو حيان: كانت قريشٌ قد اقترحت على رسول الله ﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عيانًا حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا: هو سحابٌ مركوم أي سحاب تراكم بعضه فوق بعض ممطرنا، وليس بكسفٍ ساقطٍ للعذاب[2] ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي اتركهم يا محمد يتمادون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب- يوم القيامة- الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع عنهم شيئًا من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي وإن للذين كفروا عذابًا شديدًا في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس: هو عذاب القبر، وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين[3] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبرْ يا محمد على قضاء ربك وحكمه فيما حمَّلك به من أعباء الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ونزِّه ربك عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول: سبحان الله وبحمده، قال ابن عباس: أي صلِّ لله حين تقومُ من منامك[4] ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة والصلاة والناسُ نيام كقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وصلِّ له في آخر الليل حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، وفي الحديث: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[5].

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- جناس الاشتقاق ﴿تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

٢- الإهانة والتوبيخ ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ وبين قوله: ﴿اصْبِرُوا﴾ وقوله: ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ طباق السلب وهو من المحسنات البديعية.

٣- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

(١) تفسير الجلالين ٤/ ٢٢١. (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٥٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٥٣. (٤) تفسير ابن الجوزى ٨/ ٦١.
(٥) المختصر ٣/ ٣٩٥.

٤ـ الاستعارة التبعية ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذى هو الشك بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة فى كلٍ منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطريق الاستعارة التبعية.

٥ـ الأسلوب التهكمى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ ؟ هذا بطريق التهكم والسخرية بعقولهم.

٦ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ؟.

٧ـ أسلوب الفرض والتقدير ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أى لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا.

٨ـ السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ومثل ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ وهلم جرًّا.

فَائِدَة: عن جبير بن مطعم قال: قدمتُ المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر، فوافيتهُ يقرأ فى صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ .. فلما قرأ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبى، فأسلمتُ خوفًا من نزول العذاب، فلما انتهى إلى هذه الآية﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ كاد قلبى أن يطير.

«تم بعون الله تفسير سورة الطور»
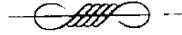
تفسير سورة النجم

بين يدى السورة

* سورة النجم مكية، وهى تبحث عن موضوع الرسالة فى إطارها العام، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع (المعراج)الذى كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبدالله صلوات الله عليه، والذى رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب فى ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحيّر الألباب، وذكّرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والممارة فى مواضيع الغيب والوحى.

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التى عبدها المشركون من دون الله، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة، وبطلان عبادة غير الله، سواء فى ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام.

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين، حيث تجزى كل نفسٍ بما كسبت، فينال المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، ويتفرق الناس إلى فريقين: أبرار، وفجار.

* وقد ذكرت برهانًا على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه، وأنه لا تحمل نفسٌ وزر أُخرى؛ لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم، وهو شرع الله المستقيم، وحكمه العادل الذى بينه فى القرآن العظيم، وفى الكتب السماوية السابقة.

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا فى الإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والإفقار، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

* وختمت السورة الكريمة بما حلَّ بالأمم الطاغية كقوم عاد، وثمود، وقوم نوح ولوط، من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بالعذاب الذى ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وزجرًا لأهل البغى والطغيان عن الاستمرار فى التمرد والعصيان.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ .. إلى .. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢).

اللغة: ﴿هَوَىٰ﴾ هوى يهوى إذا سقط إلى أسفل ﴿مِرَّةٍ﴾ المِرةَّ بكسر الميم القوة قال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأى حصيف العقل: ذو مرَّة[1] «تَدَلَّى» التدلى: الامتداد من أعلى إلى أسفل يقال: تدلَّى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قَابَ﴾ قدر قال فى البحر: القابُ والقاد والقيد:

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٨٦ .

المقدار [(١)] ﴿ضِيزَىٰ﴾ جائرة مائلة عن الحق يقال: ضاز في الحكم أي جار، وضازه حقه أي بخسه قال الشاعر:

ضازت بنو أسدٍ بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

﴿اللَّمَمَ﴾ الصغائر من الذنوب، قال الزجاج: أصل اللَّمم ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرة ولا يقيم عليه يقال: ما فعلتُه إلا لممًا ولمامًا ﴿أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنينًا لاستتاره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أي أقسمُ بالنجم وقت سقوطه من علو، قال ابن عباس: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انقضَّت في إثر الشياطين حين استراقها السمع [(٢)] وقال الحسن: المراد في الآية النجوم إذا انتثرت يوم القيامة كقوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ قال ابن كثير: الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يُقسم إلا بالخالق [(٣)] ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي ما ضلَّ محمدٌ عن طريق الهداية، ولا حاد عن نهج الاستقامة ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي وما اعتقد باطلاً قط بل هو في غاية الهدى والرشد، قال أبو السعود: والخطاب لكفار قريش، والتعبير بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٤ .

(٢) هذه إحدى الروايات عن ابن عباس، وعنه أن المراد بالنجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٦ .

مقتضيةً ذلك[١] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أى لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسى ورأى شخصى﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ أى لا يتكلم إلا عن وحيٍ من الله عزَّ وجل، قال البيضاوى: أى ما القرآن إلا وحىٌ يوحيه الله إليه[٢] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أى علَّمه القرآن ملكٌ شديدٌ قواه وهو جبريل الأمين، قال المفسرون: ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحيه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه بالوحى على الأنبياء أو صعوده فى أسرع من رجعة الطرف ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أى ذو حصافة فى العقل، وقوةٍ فى الجسم، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أى وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق، قال ابن عباس: المراد بالأفق الأعلى: مطلع الشمس[٣]، قال الخازن: كان جبريل يأتى رسول الله ﷺ فى صورة الآدميين كما كان يأتى الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التى جُبل عليها، فأراه نفسه مرتين مرةً فى الأرض، ومرة فى السماء، فأما التى فى الأرض فبالأفق الأعلى أى جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشيًا عليه، فنزل جبريل فى صورة الآدميين فضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وأما التى فى السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته الملكية التى خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ[٤] ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أى ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أى فكان منه على مقدار قوسين أو أقل، قال الألوسى: والمراد إفادة شدة القرب فكأنه قيل: فكان قريبًا منه[٥] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أى فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أى ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية، قال ابن مسعود: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منهما قد سدَّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما اللهُ به عليم[٦] ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ؟ أى أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج؟ قال فى البحر: كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره فى الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم ﷺ بيت المقدس، والجمهور على أن المرئى مرتين هو جبريل، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول الله ﷺ رأى ربه بعينى رأسه، وأنكرت ذلك عائشة وقالت: إنه رأى جبريل فى صورته مرتين ثم قال أبو حيان: والصحيح أن جميع ما فى هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾

---

(١) تفسير أبى السعود (٥).
(٢) تفسير البيضاوى ٤/ ١٧١ .
(٣) تفسير القرطبى ١٧/ ٨٨ .
(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢١٣ .
(٥) تفسير الألوسي ٢٧/ ٤٨ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد .

فإنه يقتضي مرة متقدمة [١]﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أى رأى الرسول جبريل فى صورته الملكية مرةً أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أى عند سدرة المنتهى التى هى فى السماء السابعة قرب العرش، قال المفسرون: والسدرة شجرة النَّبق التى تنبع من أصلها الأنهار، وهى عن يمين العرش، وسميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهى إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحدٌ ما وراءها إلا الله جل وعلا وفى الحديث: «ثم صعد بى إلى السماء السابعة ورفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها- أى ثمرها- مثل قلال هجر وإذا أوراقها كآذان الفيلة . .» [٢]﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أى عند سدرة المنتهى الجنة التى تأوى إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أى رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب قال الحسن: غشيها نور رب العالمين فاستنارت، وقال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب [٣]وفى الحديث: «لما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها» [٤]، قال المفسرون: رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سبحات أنوار الله عز وجل، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، يجتمعون حولها مسبِّحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة وفى الحديث: «رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى» [٥]﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أى ما مال بصر النبى ﷺفى ذلك المقام وفى تلك الحضرة يمينًا وشمالاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أى وما جاوز الحدَّ الذى رأى قال القرطبى: أى لم يمدَّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وهذا وصف أدب النبى ﷺ فى ذلك المقام إذ لم يلتفت يمينًا ولا شمالاً [٦]وقال الخازن: لما تجلَّى رب العزة وظهر نوره، ثبت ﷺفى ذلك المقام العظيم الذى تحار فيه العقول، وتزلُّ فيه الأقدام، وتميل فيه الأبصار [٧]﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أى والله لقد رأى محمد - ليلة المعراج - عجائب ملكوت الله، رأى سدرة المنتهى، والبيت المعمور، والجنة والنار، ورأى جبريل فى صورته التى يكون عليها فى السموات له ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق [٨]وغير ذلك من الآيات العظام، قال الفخر: وفى الآية دليل على أن النبى ﷺرأى ليلة المعراج آيات الله ولم يرَ الله كما قال البعض، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤية الآيات، وقال فى الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٨ أقول: ما ذكره صاحب البحر قوىّ من حيث الدلالة، ومذهب أهل السنة أن النبى ﷺ رأى ربه ليلة المعراج فى السموات العلى رؤية بصرية، ولهم أدلة من السنة النبوية، أمَّا الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور، والله أعلم .

(٢) جزء من حديث أخرجه الشيخان .

(٣) الحديث رواه مسلم .

(٤) أخرجه مسلم أيضاً .

(٥) تفسير أبى السعود ٥/ ١٥٧ .

(٦) تفسير القرطبى ١٧/ ٩٨ .

(٧) تفسير الخازن ٤/ ٢١٦ .

(٨) رؤيته ﷺللرفرف الأخضر الذي سد الأفق: أخرجها البخاري عن ابن مسعود .

ءَايَٰتِنَآۚ﴾ ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ولأخبر تعالى به[(١)] ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها (اللات والعزى ومناة) هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة؟ قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزَّى، وكانت اللات بالطائف، والعُزَّى بغطفان وقد حطمها خالد بن الوليد، ومناة صنم لخزاعة يعبده أهل مكة[(٢)] ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ ؟ توبيخٌ وتقريع أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى؟ ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ أي تلك القسمة قسمة جائرة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه؛ لأنفسكم قال الرازي: إنهم ما قالوا لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة[(٣)] ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات أُلقيت على جمادات ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار، قال ابن الجوزي: وفيه تعجيبٌ من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان[(٤)] ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام، قال الصاوي: والمراد بالإنسان الكافر، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجيء لغير الله طلبًا للفاني، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي، واتباعُ الهوى هوان[(٥)] ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ أي فالملك كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء؛ لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه . . ثم أكّد هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبثين في السموات﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي أن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحدًا إلا بإذن الله، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها؟! ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق

---

(١) التفسير الكبير ٧/ ٧٤٠ .
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٢١٨ .
(٣) التفسير الكبير ٧/ ٧٤٣ .
(٤) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٧٤ .
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٣٩ .

الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى ؟ ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي ليزعمون أنهم إناثٌ وأنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي لا علم لهم بما يقولون أصلاً؛ لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي وإن الظنَّ لا يجدى شيئًا، ولا يقوم أبدًا مقام الحق ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وليس لهم همٌّ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل، والمتعة الفانية، قال أبو السعود: والمراد النهيُ عن دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث صارت منتهى همته وقصارى سعيه، لا تزيده الدعوة إلا عنادًا وإصرارًا على الباطل[١] ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي هو عالم بالفريقين: الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له كل ما في الكون خلقًا وملكًا وتصرفًا ليس لأحد من ذلك شيء أصلاً ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي ليجازى المسيء بإساءته ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ أي وليجازى المحسن بالجنة جزاء إحسانه، قال ابن الجوزي: والآية إخبارٌ عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾؛ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن جازى كلاًّ بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك[٢] .. ثم ذكر تعالى صفات المتقين المحسنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحها عقلاً وشرعًا كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب، قال القرطبي: وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله كالقبلة والغمزة والنظرة[٤] وفي الحديث «إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[٥] فإذا اجتنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بفضله وكرمه الصغائر لقوله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠١ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٠ .
(٣) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٧٥ .
(٤) تفسير القرطبي ١٧/ ١٠٦ .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم .

سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يعنى الصغائر [1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أى هو تعالى غفار الذنوب ستار العيوب، يغفر لمن فعل ذلك ثم تاب قال ابن كثير: أى رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها [2] قال البيضاوى: ولعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى [3] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أى هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم، ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أى ومن حين أن كنتم مستترين فى أرحام أُمهاتكم، فهو تعالى يعلم التقىَ والشقى، والمؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر، علم ما تفعلون وإلى ماذا تصيرون ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أى لا تمدحوها على سبيل الإعجاب، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى، فإن النفس خسيسة إذا مُدحت اغترت وتكبَّرت قال أبو حيان: أى لا تنسبوها إلى الطهارة عن المعاصى، ولا تثنوا عليها، فقد علم الله منكم الزكيَّ والتقى قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أُمهاتكم [4] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أى هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه فى السر والعلن.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ .. إلى .. ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ من آية (٣٣) إلى آية (٦٢) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما ذكر تعالى فى الآيات السابقة سفاهات المشركين وضلالاتهم فى عبادتهم للأصنام، وميَّز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعًا خاصًا من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمة ببيان ما حلَّ بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا للمشركين بانتقام الله من أعدائه المكذبين لرسوله.

اللغَة: «أَكدَى» قطع العطاء مأخوذة من الكُدية يقال لمن حفر بئرًا ثم وجد صخرة تمنعه من إتمام الحفر قد أكدى، ثم استعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئًا فلم يبلغ آخره قال الحطيئة:

فأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ومن يبذل المعروف فى الناس يُحمد[5]

«أَقنى» أعطاه الكفاية من المال ورضَّاه بما أعطاه قال الجوهرى: قنى الرجل يقنى مثل غنى

---

(١) قال الخازن: روى عن عمر وابن عباس أنهما قالا: لا كبيرة فى الإسلام ومعناه: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، فالكبيرة تمحى بالاستغفار والتوبة، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها.

(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٠٣. (٣) تفسير البيضاوى ٤/ ١٧٣.

(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٦٥.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٥.

يغنى أى أعطاه الله ما يُقتنى من المال والنشب، وأقناه الله رضًاه[١] ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ الكوكب المضيء الذى يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ﴿أَزِفَتِ﴾ قربت قال كعب بن زهير:

بان الشباب وهذا الشيبُ قد أزفا ... ولا أرى لشبابٍ بائنٍ خلفا[٢]

والآزفة القيامة سميت بذلك لقربها ودنوها ﴿سَٰمِدُونَ﴾ لاهون لاعبون، والسمودُ اللهو.

سَبَبُ النّزول: روى أن (الوليد بن المغيرة) جلس عند النبى ﷺ وسمع وعظه، فتأثر قلبه بما سمع وكاد أن يُسلم، فعيَّره رجلٌ من المشركين وقال: تركت دين آبائك وضلَّلتهم وزعمت أنهم فى النار؟! فقال الوليد: إنى خشيتُ عذاب الله، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئًا من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عز وجل، فأعطاه بعض الذى ضمن له ثم بخل ومنعه الباقى فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلًا وَأَكۡدَىٰٓ﴾[٣] الآيات.

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلًا وَأَكۡدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾

التّفسِير: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أى أخبرني يا محمد عن هذا الفاجر الأثيم الذى أعرض عن الإيمان واتباع الهدى؟ ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلًا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ أى وأعطى لصاحبه الذى عيَّره قليلاً من المال المشروط ثم بخل بالباقى قال مجاهد: نزلت فى الوليد بن المغيرة[٤] ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أى أعنده علمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أى لم يُخبر بما فى التوراة المنزلة على موسى ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أى وبما فى صحف إبراهيم الذى تمَّم ما أُمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته، على وجه الكمال والتمام قال الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفَّى به كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾، ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أى أن لا تحمل نفسٌ ذنب غيرها، ولا يؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره، والآية ردٌّ على من زعم أنه يتحمل العذاب عن غيره كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾. ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أى ليس للإنسان إلا عمله وسعيه قال

---

(١) تفسير القرطبى ١٧/ ١١٩ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٥ .
(٣) التفسير الكبير للرازى ٧/ ٧٦٤ .
(٤) انظر سبب النزول السابق .

ابن كثير: أى كما لا يُحمل عليه وزرُ غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه (١) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أى وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة، ويراه فى ميزانه قال الخازن: وفى الآية بشارة للمؤمن، وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها، ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غمًّا (٢) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أى ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل، وهو وعيدٌ للكافر ووعدٌ للمؤمن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أى إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير فيعاقب ويثيب. . ثم شرع تعالى فى بيان آثار قدرته فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أى هو الذى خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك فى الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى، قال مجاهد: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار (٣) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أى خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره، ولهذا كرر الإسناد (هو) لبيان أن هذا من خصائص فعل الله ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أى أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان، قال الخازن: والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين فى محل واحد: الضحك والبكاء، والإحياء والإماتة، والذكر والأنثى، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه، وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة، وفيه تنبيه على كمال قدرته؛ لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة، وطباعًا متباينة، وخلق منها الذكر والأنثى، وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته (٤)؛ ولهذا قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أى خلق الذكر والأنثى من نطفةٍ إذا تدفقت من صلب الرجل، وصُبّت فى رحم المرأة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أى وأن عليه جل وعلا إعادة خلق النَّاس للحساب والجزاء، وإحياؤهم بعد موتهم، قال فى البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه (٥) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أى أغنى من شاء، وأفقر من شاء (٦)، وقال ابن عباس: أعطى فأرضى، أغنى الإنسان ثم رضاه بما أعطاه ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أى هو ربُّ الكوكب المضيء المسمَّى بالشعرى الذى كانوا يعبدونه، قال أبو السعود: أى هو رب معبودهم وكانت خزاعة تعبدها، سنَّ لهم ذلك رجلٌ من أشرافهم هو (أبو كبشة) (٧) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أى أهلك قوم عاد القدماء الذين بُعث لهم نبيُّ الله (هود) عليه السلام، وكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله وأطغاهم، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، قال البيضاوى: سميت عادًا الأولى أى القدماء؛ لأنهم أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح عليه السلام (٨) ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أى وثمود دمَّرهم فلم يُبق منهم أحدًا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أى وقوم نوح قبل عادٍ وثمود

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٤ .

(٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٣ .

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٨ .

(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٤ .

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٦٨ .

(٦) هذا قول ابن زيد ثم قرأ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ .

(٧) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٣ .

(٨) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٤ .

أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أى كانوا أظلم من الفريقين، وأشد تمردًا وطغيانًا ممن سبقهم، قال فى البحر: كانوا فى غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه، قال قتادة: دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، كلما هلك قرن نشأ قرن، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إلى نوح ليحذره منه ويقول له: يا بنى إن أبى مشى بى إلى هذا وأنا مثلك يومئذٍ فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على بغض نوح[1] ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أى وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أى فغطَّاها من فنون العذاب ما غطَّى، وفيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لما أصابهم منه، قال في البحر: والمؤتفكة هى مدائن قوم لوط، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [2] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أى فبأى نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان وتكذب!! ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أى هذا هو محمد رسول منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أى دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبى: سميت آزفة لدنوها وقرب قيامها[3] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى لا يقدر على كشفها وردها إذا غشيت الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ استفهامٌ للتوبيخ أى أفمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاءً؟ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أى وتضحكون عند سماعه، ولا تبكون من زواجره وآياته؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزنًا على ما فرطتم ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أى وأنتم لاهون غافلون؟ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى فاسجدوا لله الذى خلقكم وأفردوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات والعزى، ومناة والشعرى، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لا يليق السجود والعبادة إلاَّ له جل وعلا.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلى:

١ - الإبهام للتعظيم والتهويل ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ومثله ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ وكذلك ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

٢- الجناس ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ فالأول هوى بمعنى خرَّ وسقط، والثانى بمعنى هوى النفس.

٣- الطباق بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين ﴿ضَلَّ﴾ و ﴿اهْتَدَىٰ﴾ وبين ﴿الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ وبين ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ وهى من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ كما فيه إطناب فى تكرار لفظ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٠ . (٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٢ .

يجزى وكلاهما من المحسنات البديعية .

٥- الاستفهام التوبيخى مع الإزراء بعقولهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ .

٦- الجناس الناقص بين ﴿أَغْنَىٰ﴾ . . ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ لتغير بعض الحروف .

٧- جناس الاشتقاق ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ .

٨- عطف العام على الخاص ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ .

٩- مراعاة الفواصل ورءوس الآيات، مما له أجمل الوقع على السمع مثل ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ؟ ومثله ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾؟ ويسمى بالسجع .

تَنْبِيهٌ: كانت الأصنام التى عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثمائة وستين صنمًا ومعظمها حول الكعبة وقد حطمها ﷺ عند فتحه لمكة، وأشهر هذه الأصنام (اللات، والعُزَّى، ومناة) وقد أرسل ﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزَّى فحطمها وهو يقول :

يا عزُّ كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيتُ الله قد أهانك

وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام، ودخل الناس فى دين الإسلام أفواجًا أفواجًا .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»
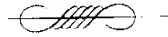
تفسير سورة القمر

بَين يدَى السُّورة

* سورة القمر من السور المكية، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية، وهى من بدئها إلى نهايتها حملةٌ عنيفةٌ مفزعة على المكذبين بآيات القرآن، وطابع السورة الخاص، هو طابع التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار، مع صور شتَّى من مشاهد العذاب والدمار.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك المعجزة (المعجزة الكونية) معجزة انشقاق القمر، التى هى إحدى المعجزات العديدة لسيد البشر ﷺ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . .﴾ الآيات.

*ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزًّا، ويحرك فى النفس الرعب والفزع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

* وبعد الحديث عن كفار مكة، يأتى الحديث عن مصارع المكذبين، وما نالهم فى الدنيا من ضروب العذاب والدمار بدءًا بقوم نوح ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ . .﴾.

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكًا فظيعًا، ودمَّرهم عن بكرة أبيهم، وقد تحدثت الآيات عن قوم (عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون) وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيء من الإسهاب، مع تصوير أنواع العذاب.

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة- مشاهد العذاب والنكال- الذى حلَّ بالمكذبين لرسل الله صلى الله عليهم وسلم توجهت السورة إلى مخاطبة قريش، وحذرتهم مصرعًا كهذه المصارع بل ما هو أشد وأنكى ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . .﴾ الآيات وختمت السورة ببيان مآل السعداء المتقين، بعد ذكر مآل الأشقياء المجرمين، على طريقة القرآن فى الجمع بين الترغيب والترهيب، بأسلوبه العجيب ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ . . إلى . . فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢).

اللُّغَةُ: ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع فى سيره أى أسرع ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ انهمر الماء نزل بقوة غزيرًا «دُسُرٍ» الدُّسر: المسامير التى تُشدُّ بها السفينة جمع

دِسار ككتاب وكُتب، قال في الصحاح: الدِّسار واحد الدُسرُ وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ويقال: هي المسامير[١] ﴿مُدَّكِرٍ﴾ متعظ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالاً ثم أدغمت الذال فيها فصارت مدَّكر ﴿صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو تصويته ﴿أَعْجَازُ﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ المنقعر: المنقلع من أصله يقال: قعرت الشجرة قعرًا قلعتها من أصلها فانقعرت ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون من قولهم: ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر:

تخالُ بها سُعرًا إذا السَّفر هزَّها[٢]

﴿أَشِرٌ﴾ الأشر: البطر، ورجلٌ أشر أي بطر أبطرته النعمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

التفسير: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ أي وإن ير كفار قريش علامة، واضحة ومعجزة ساطعة، تدل على صدق محمد ﷺ يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا: هذا سحرٌ دائم، سحر به محمدٌ أعيننا قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقًا فشقّ لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشقَّ القمر نصف على جبل الصفا، ونصفٌ على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم!! فقال أبو جهل:

(١) الصحاح مادة دسر.
(٢) تفسير القرطبي ١٧/١٣٨.

اصبروا حتى تأتينا أهل البوادى فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحرٌ مستمر أى دائم فأنزل الله ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال الخازن: وانشقاقُ القمر من آيات رسول الله الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس (أن أهل مكة سألوا رسول الله أنه يُريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين) وما روى عن ابن مسعود قال: (انشق القمر على عهد رسول الله شقتين، فقال رسول الله: اشهدوا) وما روى عن جبير بن مطعم قال: (انشق القمر على عهد رسول الله فصار فرقتين، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم) فهذه الأحاديث الصحيحة قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن العظيم بذلك، فإنه أدل دليل وأقوى مثبتٍ له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن، وقيل فى معنى الآية: ينشق القمر يوم القيامة، وهذا قول باطل لا يصح، وشاذ لا يثبت، لإجماع المفسرين على خلافه، ولأن الله ذكره بلفظ الماضى ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وحمل الماضى على المستقبل بعيد[١] ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أى وكذبوا النبى وما عاينوه من قدرة الله تعالى فى انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى وكل أمرٍ من الأمور منتهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، قال مقاتل: لكل حديث منتهى وحقيقة ينتهى إليها، وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمرٍ مستقر بأهله[٥] ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسل، ما فيه واعظ لهم عن التمادى فى الكفر والضلال ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أى هذا القرآن حكمة بالغة، بلغت النهاية فى الهداية والبيان ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أى أىَّ شىء تُغنى النُذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على سمعه وقلبه؟! قال المفسرون: المعنى لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقوم أصموا آذانهم عن سماع كلام الله؟ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أى يوم يدعو إسرافيل إلى شىءٍ منكر فظيع، تنكره النفوس لشدته وهوله، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أى ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول

---

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروى عن ابن عباس وأنس وابن عمر، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة، قال ابن الجوزى: وهو قول شاذ لا يقاوم الإجماع.

(٢) رواه البخارى ومسلم. (٣) أخرجه الترمذى وغيره.

(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٦. (٥) تفسير ابن الجوزى ٨/ ٨٩.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أى يخرجون من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أى كأنهم فى انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعى جرادٌ منتشر فى الآفاق، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة، قال ابن الجوزى: وإنما شبههم بالجراد المنتشر؛ لأن الجراد لا جهة له يقصدها، فهم يخرجون من القبور فزعين ليس لأحد منهم جهة يقصدها، والداعى هو إسرافيل(١) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أى مسرعين مادّى أعناقهم إلى الداعى لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى يقول الكافرون هذا يوم صعبٌ شديد، قال الخازن: وفيه إشارة إلى أنَّ ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا على المؤمنين كقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾(٢). ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال تسلية لرسول الله ﷺ وتحذيرًا لكفار مكة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أى كذب قبل قومك يا محمد قومُ نوح ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ أى فكذبوا عبدنا نوحًا وقالوا: إنه مجنون، وانتهروه وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ قال فى البحر: لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أى أنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة فى تكذيبهم، وإنما قال: ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريفًا له وخصوصية بالعبودية(٣) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أى فدعا نوح ربه وقال: يا ربّ إنى ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لى منهم وانتصر لدينك، قال أبو حيان: وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشيًّا عليه وهو يقول: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون(٤) ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أى فأرسلنا المطر من السماء منصبًّا بقوة وغزارة، قال أبو السعود: وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدة انصبابها(٥) ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أى جعلنا الأرض كلها عيونًا متفجرة بالماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدَّرها الله فى الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقًا قال قتادة: قضى عليهم فى أم الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أى وحملنا نوحًا على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال فى البحر: وذات الألواح والدُسر هى السفينة التى أنشأها نوح عليه السلام، ويفهم من هذين الوصفين أنها (السفينة) فهى صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ونحوه: قميصى مسرودة من حديد أى درع، وهذا من فصيح الكلام وبديعه، ولو جمعت بين الصفة والموصوف لم يكن بالفصيح، والدُّسُر: المسامير(٦) ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أى تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءتنا وتحت رعايتنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أى أغرقنا قوم نوح انتصارًا لعبدنا نوح؛ لأنه كان قد كُذِّب وجُحد فضلُه قال الألوسى: أى فعلنا ذلك جزاءً لنوح؛ لأنه كان نعمةً أنعمها الله على قومه فكفروها،

---

(١) تفسير ابن الجوزى ٨/ ٩١ .
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٨ .
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٧٦ .
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٧٦ .
(٥) تفسير أبى السعود ٧/ ٧٨٦ .
(٦) البحر المحيط ٨/ ١٧٧ .

وكذلك كلُ نبيٍ نعمةٌ من الله تعالى على أمته[١] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾ أى تركنا تلك الحادثة (الطوفان) عبرة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى فهل من معتبر ومتعظ؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهام تهويل وتعجيب أى فكيف كان عذابى وإنذارى لمن كذب رسلى، ولم يتعظ بآياتى؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أى والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاتعاظ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى فهل من متعظٍ بمواعظه، معتبر بقصصه وزواجره؟ قال الخازن: وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به؛ لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربى والعجمى، قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كُتب الله تعالى يُقرأ كلُّه ظاهرًا إلا القرآن[٢]، وبالجملة فقد جعل الله القرآن مهيئًا ومسهلاً لمن أراد حفظه وفهمه، أو الاتعاظ به، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أى كذبت عادٌ رسولهم هودًا فكيف كان إنذارى لهم بالعذاب؟ ثم شرع فى بيان ما حلَّ بهم من العذاب الفظيع المدمر: فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أى أرسلنا عليهم ريحًا عاصفة باردة شديدة الهبوب والصوت، قال ابن عباس: الصرصر: الشديدة البرد وقال السدى: الشديدة الصوت[٣] ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أى فى يومٍ مشئوم دائم الشؤم، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه، قال ابن كثير: استمر عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أى تقلع الريح القوم ثم ترمى بهم على رءوسهم فتدقُّ رقابهم وتتركهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أى كأنهم أصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض، شبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم، قال الخازن: كانت الريح تقلعهم ثم ترمى بهم على رءوسهم فتدق رقابهم، وتفصل رءوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رءوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض[٤] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تهويلٌ لما حلَّ بهم من العذاب وتعجيبٌ من أمرهم أى كيف كان عذابى وإنذارى لهم؟ ألم يكن هائلاً فظيعًا؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ كرره للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن، أى ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم، فهل من متعظٍ ومعتبر بزواجر القرآن!؟ ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أى كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التى أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ أى أنتَّبع إنسانًا مثلنا من آحاد الناس، ليس من الأشراف ولا العظماء، ونحن جماعة كثيرون؟ قال فى البحر: قالوا ذلك حسدًا منهم واستبعادًا أن يكون نوع البشر يفضل

---

(١) روح المعانى ٢٧/ ٨٣ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٨ .

(٣) قال ابن كثير بعد أن نقل الأقوال: والحقُّ أنها متصفة بجميع ذلك، فقد كانت ريحاً شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد، وكانت ذات صوت مزعج. اهـ. وهذا القول هو الذى اخترناه .

(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٩ .

بعضُه بعضًا هذا الفضل، فقالوا: أنكون جمعًا ونتبع واحدًا منا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على من رضيه [١] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أى إنا إذا اتبعناه لفى خطإٍ وذهابٍ عن الحقِّ واضح، وجنون دائم قال ابن عباس: سُعُر أى جنون من قولهم: ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة [٢] ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ استفهام إنكارى أى هل خصَّ بالوحى والرسالة وحده دوننا، وفينا من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً؟ قال الإمام الفخر: وفى الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة، وذلك؛ لأن الإلقاء إنزالٌ بسرعة، فكأنهم قالوا: الملك جسيم والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحى فى لحظة؟ وقولهم: ﴿عَلَيْهِ﴾ إنكارٌ آخر كأنهم قالوا: ما أُلقى عليه ذكرٌ أصلاً، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه فى الشرف والذكاء؟ وقولهم: ﴿أَءُلْقِىَ﴾ بدلاً من قولهم: أألقى الله إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى [٣] ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أى بل هو كاذب فى دعوى النبوة، متجاوز فى حد الكذب، متكبرٌ بطِرٌ يريد العلو علينا، وإنما وصفوه بأنه ﴿أَشِرٌ﴾ مبالغة منهم فى رفض دعواه كأنهم قالوا: إنه كذب لا لضرورةٍ وحاجةٍ إلى الخلاص كما يكذب الضعيف، وإنما تكبَّر وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد أن تتبعوه فكذب على الله، فلا يلتفت إلى كلامه؛ لأنه جمع بين رذيلتين: الكذب والتكبر، وكلٌ منهما مانع من اتباعه، قال تعالى تهديدًا لهم وردًّا لبهتانهم: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أى سيعلمون فى الآخرة من هو الكذَّاب الأشر، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون؟ قال الألوسى: المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكنْ أورد ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى [٤] ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أى مخرجوا الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختبارًا كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير: أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به [٥] ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أى فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون وما يُصنع بهم، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أى وأعلِمْهم أنَّ الماء الذى يمرُ بواديهم مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، قال ابن عباس: إذا كان يوم شُربهم لا تشرب الناقةُ شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا فى نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تُبق لهم شيئًا [٦]، وإنما قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغليبًا للعقلاء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أى كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أى فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه قدار بن

---

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٨٠ .
(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣٨ .
(٣) التفسير الكبير للرازى ٧/ ٧٩٩ .
(٤) روح المعانى ٢٧/ ٨٨ .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١١ .
(٦) تفسير القرطبى ١٧/ ١٤٠ .

سالف لقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فكيف كان عقابى وإنذارى لهم؟ ألم يكن فظيعًا شديدًا؟! ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أى أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تبق منهم عين تطْرف ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى فصاروا هشيمًا متفتتًا كيابس الشجر إذا بلى وتحطَّم وداسته الأقدام، قال الإمام الجلال: المحتظر هو الذى يجعل لغنمه حظيرةً من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو كالهشيم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر؟.

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ. . إلى . . عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ من آية (٣٣) إلى آية (٥٥) نهاية السورة.

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى المكذبين من قوم (عاد وثمود) ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله فى عقاب الكفرة المجرمين.

اللغَة: ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب: الحجارة وقيل: هى الريح الشديدة التى تثير الحصباء وهى الحصى ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقابنا الشديد ﴿الزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهى ﴿أَدْهَى﴾ أفظع من الداهية وهى الأمر المنكر العظيم ﴿وَسُعُرٍ﴾ خسرانٍ وجنون ﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها.

سَبَبُ النّزول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريشٍ يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [1].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء، قال ابن كثير: أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأُتبعت بحجارةٍ من سجيلٍ منضود، والحاصب هي الحجارة[1] ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي غير لوطٍ وأتباعه المؤمنين ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي نجيناهم من الهلاك قُبيل الصبح وقت السحر ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي إنعامًا منَّا عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي طلبوا منه أن يسلّم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواطة ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا أبصارهم، قال المفسرون: لما جاءت الملائكة إلى لوطٍ في صورة شبابٍ مردٍ حسان، أضافهم لوط عليه السلام، فجاء قومه يُهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا[2] ﴿فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذابٌ دائم متصل بعذاب الآخرة، قال الصاوي: وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الاخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار[3] ﴿فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبر فهل من متعظٍ ومعتبر؟ قال المفسرون: حكمة تكرار ذلك في كل قصة، التنبيهُ على الاتعاظ والتدبر في أنباء الغابرين، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسولٍ مقتضٍ لنزول العذاب كما كرر قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقريرًا للنعم المختلفة المعدودة، فكلما ذكر نعمةً وبّخ على التكذيب بها[4] ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا، قال أبو السعود: صُدِّرت قصتهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، وفرعون رأس الطغيان[5] ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي كذَّبوا بالمعجزات التسع التي أعطيها موسى[6] ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي فانتقمنا منهم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٢ .

(٢) انظر تفسير الخازن ٤/ ٢٣٠ وتفسير الرازي ٧/ ٨٠٨ .

(٣) حاشية الصاوي ٤/ ١٥٠ .   (٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٧/ ٨١٠ .

(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٨ .

(٦) قال القرطبي: المراد: المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي: «العصا، واليد، والسنون، والطمس، والطوفان، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم» .

بإغراقهم في البحر، وأخذناهم بالعذاب أخذ إلهٍ غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء.. ثم خوَّف تعالى كفار مكة فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾؟ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ أي أكفاركم يا معشر العرب خيرٌ من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوطٍ، وقوم فرعون، حتى لا أعذبهم، قال القرطبي: استفهام إنكار ومعناه النفي أي ليس كفاركم خيرًا من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم[1] ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي بل أيقولون نحن جمعٌ كثير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد؟ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار منهزمين قال ابن الجوزي: وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب، فكانت الهزيمةُ يوم بدر[2] ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي ليس هذا تمام عقابهم بل القيامة موعد عذابهم ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي أعظم داهيةً وأشدُّ مرارةً من القتل والأسر ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إن المجرمين في حيرةٍ وتخبطٍ في الدنيا، وفي نيرانٍ مسعَّرة في الآخرة قال ابن عباس: في خسرانٍ وجنون[3] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يوم يُجرُّون في النار على وجوههم عقابًا وإذلالاً لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا أيها المكذبون عذاب جهنم قال أبو السعود: وسقر علم لجهنم ولذلك لم يُصرف[4] ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كل شيءٍ مقدَّرًا مكتوبًا في اللوح المحفوظ من الأزل ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة نقول للشيء: كن فيكون قال ابن كثير: أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك موجودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين[5] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي ووالله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي وجميع ما فعلته الأمم المكذبة من خير وشر مكتوب عليهم، مسجل في كتب الحفظة التي بأيدي الملائكة قال ابن زيد: ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أي في دواوين الحفظة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي وكل صغير وكبير من الأعمال مسطور في اللوح المحفوظ، مثبت فيه ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في جنات وأنهار قال القرطبي: يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل واللبن ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان مرضي، ومقام حسن ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي عند ربٍ عظيم جليل، قادرٍ في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٤٥ .
(٢) تفسير ابن الجوزي ٨/ ١٠٠ .
(٣) روح المعاني ٢٧/ ٩٣ .
(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٩ .
(٥) المختصر ٣/ ٤١٤ .

١ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ .

٣ـ الكناية ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير.

٤ ـ التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ومثله ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ .

٥ـ صيغة المبالغة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي كثير الكذب عظيم البطر؛ لأن فعَّال وفعل للمبالغة.

٦ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ لزيادة التخويف والتهويل.

٧ـ المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ و ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ .

٨ـ الطباق بين ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ .

٩ـ السجع المرصَّع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

بين يدي السورة
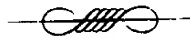
سورة الرحمن من السور المدنية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف (لكل شيءٍ عروس، وعروسُ القرآن سورة الرحمن).

ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يحصيها عد، وفي مقدمتها نعمة «تعليم القرآن» بوصفه المنة الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ .

ثم فتحت السورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى، الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة، والأرضُ التي بثَّ فيها من أنواع الفواكه، والزروع، والثمار، رزقًا للبشر ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ . .﴾ الآيات.

وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار وكأنها الجبال الشاهقة عظمةً وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ . .﴾ الآيات.

ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور، تُطوى صفحات الوجود، وتتلاشى الخلائق بأسرها، فيلفها شبح الموت الرهيب، ويطويها الفناء، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفردًا بالبقاء ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ .

وتناولت السورة أهوال القيامة. فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين، وما يلاقونه من الفزع والشدائد في ذلك اليوم العصيب ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ . .﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين في شيء من الإسهاب والتفصيل، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أروع صور البيان!!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ . . إلى . . ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٤٥).

اللغَة: ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ الحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغُفران والكُفران ومعناه الحساب «الأنام» الخلق وكلُّ ما دبَّ على وجه الأرض ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾ ورق الزرع الأخضر إذا يبس ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ كل نباتٍ طيب الريح، سمي ريحانًا لرائحته الطيبة ﴿مَّارِجٖ﴾ المارج: اللهب الذي يعلو النار، قال الليث: هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية؛ لأنها تمشي على سطح الماء «الأعلام» الجبال جمع علم وهو الجبل الطويل، قال الشاعر: «إذا قطعن علمًا بدا علمٌ» ﴿تَنفُذُواْ﴾ النفوذ: الخروج من الشيء بسرعة ﴿شُوَاظٞ﴾ الشُواظ: اللهب الذي لا دخان له «الدهان» الجلد الأحمر ﴿ءَانٖ﴾ نهاية في الحرارة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ۝٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ۝٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

التَفْسِير: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي الله الرحمنُ علَّم القرآن، ويسَّره للحفظ والفهم قال مقاتل: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ قال كفار مكة: وما الرحمن؟ فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن فقال تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [٢] وقال الخازن: إن الله عز وجل عدَّد نعمه على عباده، فقدَّم أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز؛

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٦١ . (٢) زاد المسير ٨/ ١٠٥ .

لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكرًا، وأحسنه في أبواب الدين أثرًا، وهو سنام الكتب السماوية المنزَّلة على أفضل البرية[١] ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق، والمرادُ بالإنسان الجنسُ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته، ويتميَّز به عن سائر الحيوان، قال البيضاوي: والمقصودُ تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان، حثًّا على شكره، وتنبيهًا على تقصيرهم فيه، وإنما قدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان؛ لأنه أصل النعم الدينية فقدَّم الأهم[٢] ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما، ويتنقلان في منازلهما لمصالح العباد قال ابن كثير: أي يجريان متعاقبين بحساب مقنَّن لا يختلف ولا يضطرب[٣] ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي والنجمُ والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما، هذا بالتنقل بالبروج، وذاك بإخراج الثمار[٤] ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء رفيعة القدر والشأن، وأمر بالميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافيًا ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي لئلا تبخسوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي اجعلوا الوزن مستقيمًا بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تطففوا الوزن ولا تُنقصوه كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي والأرض بسطها لأجل الخلق، ليستقروا عليها، وينتفعوا بما خلق الله على ظهرها، قال ابن كثير: أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أرجائها[٥] ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر قال ابن كثير: أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس، وهو الذي يطلع فيه القنو، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسرًا ثم رُطبًا، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه[٦] ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة والشعير وسائر ما يُتغذى به، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد، والفُلّ، والياسمين وما شاكلها قال في البحر: ذكر تعالى الفاكهة أولاً ونكَّر لفظها؛ لأن الانتفاع بها نفسها، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من ليفٍ، وسعف، وجريدٍ، وجذوع، وجُمَّار،

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٤٦ .
(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٢٧ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٥ .
(٤) الأظهر أن المراد بالنجم هو النجم الذي في السماء، وهو قول مجاهد واختيار ابن كثير، وروي عن ابن عباس أن المراد بالنجم هو كل نبات ينجم من الأرض وليس له ساق لمقابلته بالشجر الذي له ساق، واختار هذا القول ابن جرير، والأول أظهر .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦ .
(٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦ .

وثمر، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق، ووصفه بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ تنبيهًا على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب، وما يقوت بهائمهم من ورقه وهو التبنُ، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يُتفكه، وما به يُتقوَّت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة[(١)] ولما عدَّد نعمه خاطب الإنس والجن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى؟ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: ما لي أسمع الجنَّ أحسن جوابًا لربها منكم؟ ما أتيتُ على قول الله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد[(٢)] . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابسٍ يسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقر، قال المفسرون: ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ وفي سورة الحجر ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي من طين أسود متغير، وفي الصافات ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي يلتصق باليد، وفي آل عمران ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ولا تنافي بينهما، وذلك؛ لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طينًا لازبًا أي متلاصقًا يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنونًا أي طينًا أسود منتنًا، ثم صوَّره كما تُصوَّر الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقر صوَّت، فالمذكور ههنا آخر الأطوار[(٣)] ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي وخلق الجنَّ من لهبٍ خالصٍ لا دخان فيه من النار، قال ابن عباس: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي لهبٍ خالصٍ لا دخان فيه، وقال مجاهد: هو اللهب المختلط بسواد النار[(٤)] ، وفي الحديث (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم)[(٥)] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ قال أبو حيان: والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك، وقال ابن قتيبة: إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم، فكلما ذكر نعمةً كرر قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(٦)] وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر، وربُّ مغربهما، ولمَّا ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان؟ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي أرسل البحر الملح والبحر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينهما

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٠ . (٢) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم .
(٣) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ وحاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٤ .
(٤) روح المعاني ٢٧/ ١٠٥ . (٥) أخرجه مسلم وأحمد .
(٦) البحر المحيط ٨/ ١٩٠ .

حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة، قال ابن كثير: والمراد بالبحرين: الملح والحلو، فالملح هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وجعل الله بينهما برزخًا وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر [١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان؟ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي يُخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان، قال الألوسي: واللؤلؤ صغار الدُر، والمرجان كباره قاله ابن عباس، وعن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر [٢]، والآية بيانٌ لعجائب صنع الله حيث يخرج من الماء المالح أنواع الحلية: كالدر والياقوت والمرجان، فسبحان الواحد المنَّان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي وله جل وعلا السفن المرفوعات الجارياتُ في البحر كالجبال في العظم والضخامة، قال القرطبي: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال، والعلمُ الجبل الطويل، فالسفن في البحر كالجبال في البر [٣]، ووجه الامتنان بها أن الله تعالى سيَّر هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء، وهو جسم لطيف مائع يحمل فوقه هذه السفن الكبار المحمَّلة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، قال شيخ زاده: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: الترابُ، والماءُ، والهواءُ، والنارُ، فبيَّن تعالى بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أن التراب أصلٌ لمخلوق شريف مكرَّم، وبيَّن بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أن النار أيضًا أصلٌ لمخلوق آخر عجيب الشأن، وبيَّن بقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أيضًا أصل لمخلوق آخر له قدرٌ وقيمة، ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفن المشابهة للجبال فقال ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ وخصَّ السفن بالذكر؛ لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك حيث يقولون: «لك الفُلك ولك المُلك» وإذا خافوا الغرق دعوا الله تعالى خاصة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل من على وجه الأرض من الإنسان والحيوان هالك وسيموت ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ويبقى ذات الله الواحد الأحد، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام كقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، قال ابن عباس: الوجهُ عبارة عن الله جل وعلا الباقي الدائم، قال القرطبي: ووجه النعمة في فناء الخلق التسويةُ بينهم في الموت ومع الموت تستوي الأقدام، والموتُ سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء [٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يفتقر إليه تعالى كل

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧ .
(٢) روح المعاني ٢٧/ ١٠٦ .
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٦٤ .
(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ .
(٥) تفسير القرطبي ١٧/ ١٦٥ .

من في السموات والأرض، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق، يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين، قال المفسرون: هي شئونٌ يُبديها ولا يبتديها أي يظهرها للخلق ولا ينشئها من جديد؛ لأن القلم جفَّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويشفي سقيمًا ويمرض سليمًا، ويعز ذليلاً ويذل عزيزًا، ويفقر غنيًّا ويغني فقيرًا قال مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئًا، فردَّ الله عليهم بذلك[1] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان؟ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجنِّ قال ابن عباس: هذا وعيدٌ من الله تعالى للعباد، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ[2] قال في البحر: أي ننظر في أموركم يوم القيامة، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك أي سأتجرد للانتقام منك من كل ما شغلني[3] وقال البيضاوي: أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، وفيه تهديد مستعارٌ من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه، وأجدَّ فيه، والثقلان: الإنسُ والجنُّ سُميا بذلك لثقلهما على الأرض[4] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابه، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي لا تقدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغلبة، وأنَّى لكم ذلك؟ قال ابن كثير: معنى الآية أنكم لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره، بل هو محيطٌ بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر حيث الملائكة محدقةٌ بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان أي إلا بأمر الله وإرادته ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[5]؟ وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعده: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾[6] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/ ١١١ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩ .

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٣٢ .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩ .

(٦) جنح بعض المتأخرين في هذه الأيام إلى تفسير الآية تفسيرًا خاطئًا فزعموا أن الإنسان يمكنه الصعود إلى السموات وإلى الكواكب وفسَّروا «السلطان» بالعلم وهو مخالف لأقوال المفسرين ويرده سياق الآية وسباقها، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وقوله بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لا نستنكر إمكان وصول الإنسان -بالصواريخ والمخترعات الحديثة- إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك في مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفًا محفوظًا، أما القمر وسائر الكواكب

تقدم تفسيره ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي يرسل عليكما يوم القيامة لهب النار الحامية ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي ونحاسٌ مذاب يصبُّ فوق رءوسكم قال مجاهد: هو الصفر المعروف يصب على رءوسهم يوم القيامة وقال ابن عباس: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ هو الدخان الذي لا لهب فيه، وقول مجاهد أظهر ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضًا، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير: ومعنى الآية لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكةُ وزبانية جهنم، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرًا[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ أي فإذا انصدعت يوم القيامة لتنزل الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر قاله ابن عباس، وذلك من شدة الهول، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء، لا يُسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه؛ لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه، وزرقة العيون، قال الإمام الفخر: لا يُسأل أحد عن ذنبه، فلا يقال له: أنتَ المذنب أو غيرك؟ ولا يقال: من المذنب منكم؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره[٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي يُعرف يوم القيامة أهل الإجرام بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشاهم من الكآبة والحزن، قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين كقوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[٣] ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم، قال ابن عباس: يُؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يلقى في النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم، قال ابن كثير: أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عيانًا[٤] ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حار بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والجحيم النارُ، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان؟.

□ □ □
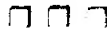
فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها، -ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩. (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ١١٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٧٥.

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٢١.

قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . . إلى . . تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من آية (٤٦) إلى آية (٧٨) نهاية السورة

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال أهل النار، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار من الجنان والولدان والحور الحسان، ليتميز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب.

اللغة: ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فنن وهو الغصن قال الشاعر يصف حمامة:

ربَّ ورقاءَ هتوفٍ في الضُحى ذاتِ شدوٍ صدحَت في فنن

ذكرت إلفًا ودهرًا خاليًا فبكت شوقًا فهاجت حزني

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ من الديباج وخشُن ﴿وَجَنَى﴾ الجني: ما يُجتنى من الشجر ويقطف ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ الطمثُ: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ثم أطلق على كل جماع، ومعنى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد، قال الفراء: الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية[1] ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة، والدهمةُ في اللغة السواد ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ طنافس جمع عبقرية أي طنفسة ثخينة فيها أنواع النقوش، قال الفراء: العبقري الطنافس الثخان منها، وقال أبو عبيد: كل ثوبٍ وشي عند العرب فهو عبقري منسوب إلى أرضٍ يعمل فيها الوشي، قال ذو الرمة:

حتى كأن رياض القف ألبسها من وشي عبقر تجليل وتنجيد[2]

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

التفسير: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب جنتان: جنةٌ لسكنه، وجنةٌ لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصرٌ

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٨١ . (٢) البحر ٨/ ١٨٦ .

ولأزواجه قصر [١]، قال القرطبي: وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة، وقال الزمخشري: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي وفي الحديث: «جنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم وصف تعالى الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة، قال في البحر: وخصَّ الأفنان - وهي الغصون - بالذكر؛ لأنها التي تورق وتثمر، ومنها تمتد الظلال وتُجنى الثمار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي في كل واحدة من الجنتين عين جارية. تجري بالماء الزلال كقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ، قال ابن كثير: أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان [٣]، قال الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروفٌ، وغريب لم يعرفوه في الدنيا، قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرةٌ حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلاَّ الأسماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره قال الفخر الرازي: إن قوله تعالى ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ كلها أوصافٌ للجنتين المذكورتين، وإنما فصل بين الأغصان والفواكه بذكر العينين الجاريتين على عادة المتنعمين، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار، بل يقدمون التفرج على الأكل، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة شديدة فكيف في الجنة!! فذكر تعالى ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار، فسبحان من يأتي بالآيات بأحسن المعاني في أبين المباني [٤] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد على فرش وثيرة بطائنها من ديباج - وهو الحرير السميك - المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها؛ لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظهارة؟، قال ابن مسعود: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقال ابن عباس: لما سئل عن الآية: ذلك مما قال الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [٥] ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ثمرها قريب

---

(١) قال الفخر الرازي: لما قال تعالى في حق المجرم، إنه يطوف بين نار، وبين حميم آن، قال في حق المؤمن الخائف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وقد ذكر تعالى الجنة، والجنتين والجنات فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمهامة وقفار صارت كجنة واحدة، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان. انتهى من التفسير الكبير ٢٩/ ١٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٢٢ .

(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ١٢٥ .

(٥) روح المعاني ٢٧/ ١١٨ .

يناله القاعد والقائم والنائم. بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍ وتعب، قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُ الله إن شاء قائمًا، وإن شاء قاعدًا، وإن شاء مضطجعًا [١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم، كما هو حال المخدَّرات العفائف ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يمسهنَّ ولم يجامعهن أحدٌ قبل أزواجهنَّ لا من الإنس ولا من الجن، بل هنَّ أبكار عذارى، قال الألوسي: وأصلُ الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض: طمثٌ، ثم أُطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم [٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن، قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه [٣] وفي الحديث (إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير، حتى يُرى مخُّها) [٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة، قال أبو السعود: أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب [٥] والغرضُ أنَّ من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والريّ، قال الألوسي: والمراد أنهما شديدتا الخضرة، والخضرةُ إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الريّ بالماء [٦] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء لا تنقطعان وقال ابن مسعود وابن عباس: تنْضَخُ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كزخ المطر [٧] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان، وإنما ذكر النخل والرمان تنبيهًا على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب، قال الألوسي: ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء ما

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٠ . (٢) تفسير الألوسي ٢٧/ ١١٩ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٨ .
(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، قال ابن كثير: والموقوف أصح .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٧ . (٦) روح المعاني ٢٧/ ١٢١ .
(٧) تفسير القرطبي ١٧/ ١٨٥ .

نعرفه [1] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي في تلك الجنان نساء صالحات كريمات الأخلاق، حسان الوجوه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي هنَّ الحورُ العين المخدرات المستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن قد قصرن في خدروهن في خيام اللؤلؤ المجوف، قال أبو حيان: والنساء تُمدح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن قال الحسن: لسن بطوّافات في الطرق، وخيامُ الجنة بيوت اللؤلؤ [2]، وفي الحديث: «إنَّ في الجنة خيمةً من لؤلؤةٍ مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون» [3] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يجامعهن ولم يغشهن أحد قبل أزواجهم لا من الإنس ولا من الجن قال في التسهيل: الجنتان المذكورتان أولاً للسابقين، والجنتان المذكورتان ثانيًا لأصحاب اليمين، وانظر كيف جعل أوصاف الجنتين الأوليين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما، فقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ والجريُ أشدُّ من النضخ، وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والأول أعم وأشمل، وقال في صفة الحور هناك: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ وليس كل حُسْنٍ كحسن الياقوت والمرجان فالوصف هناك أبلغ، وقال هناك في وصف الفرش: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الديباج وقال هنا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ ولا شك أن الفرش المعدَّة للاتكاء أفضل من فضل الخباء [4] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة [5] ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ أي وطنافس ثخينة مزخرفة، محلَّاة بأنواع الصور والزينة قال الصاوي: وهي نسبة إلى «عبقر» قرية بناحية اليمن، يُنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن، فقرَّب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة [6] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي تنزه وتقدَّس الله العظيم الجليل، وكثرت خيراته وفاضت بركاته ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء، والفضل والإنعام قال في البحر: لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم [7].

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ١٢٢ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٩٨ .
(٣) أخرجه البخاري . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٨٦ والقرطبي ١٧/ ١٨٣ .
(٥) هذا قول الحسن وقال ابن عباس. الرفرف: فضول المحابس وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه .
(٦) حاشية الصاوي ٤/ ١٦٠ . (٧) البحر المحيط ٨/ ٢٠٠ .

البَلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وبين ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ .

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي كالجبال في العظم.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ شبه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرَّغ لأمرٍ واحد، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، وإنما هو على سبيل التمثيل.

٥ - الأمر التعجيزي ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ . . . فَٱنفُذُواْۚ﴾ فالأمر هنا للتعجيز.

٦ - التشبيه البليغ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ﴾ أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغًا.

٧ - الجناس الناقص ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ لتغير الشكل والحروف، ويسمَّى جناس الاشتقاق.

٨ - الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

٩ - السجع المرصَّع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلكٍ واحد اقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ وأمثاله في السورة كثير.

فَائِدَة: تسمى سورة الرحمن «عروس القرآن» لما ورد «لكل شيء عروسٌ، وعروسُ القرآنِ سورةُ الرحمن»[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن»

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٢ .

تفسير سورة الواقعة

بين يدي السورة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، أصحاب الشمال، السابقون).

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار.. ثم نوّهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال.

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبيّنت عاقبة كل منهم، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام.

فضلها:

أ- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[١].

ب- وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا» فكان أبو ظبية لا يدعها[٢].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ .. إلى .. ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ هذا نزلهم يوم الدين من آية (١) إلى نهاية آية (٥٦).

اللغة: ﴿رُجَّتِ﴾ زلزلت وحركت تحريكًا شديدًا «بُسَّتِ» فُتِّت حتى صارت كالدقيق المبسوس ﴿هَبَآءً﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة من ثللت الشيء أي قطعته قاله الزجاج فمعنى ثُلة كمعنى فرقة وزنًا ومعنى ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ منسوجة محكمة النسج كأن

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر. (٢) -تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٨١.

بعضها أُدخل في بعض قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة تُساق مع الحيّ عيرًا فعيرا(١)

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ صُدع القوم بالخمر لحقهم الصُداع في رءوسهم منها ﴿يُنزِفُونَ﴾ يسكرون فتذهب عقولهم ﴿مَّخْضُودٍ﴾ خُضد شوكه أي قُطع قال أمية بن أبي الصلت :

إن الحدائقَ في الجنان ظليلةٌ فيها الكواعبُ سِدْرها مخْضود(٢)

«طَلحٍ» الطلح : شجر الموز ﴿مَّنضُودٍ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها ﴿سَمُومٍ﴾ ريح حارة تدخل في مسام البدن ﴿يَحْمُومٍ﴾ اليحموم الشديد السواد ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ الماء المغلي ﴿ٱلْهِيمِ﴾ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

التفسير : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي إذا قامت القيامة التي لابد من وقوعها، وحدثت الداهية الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من الأهوال ما لا يصفه الخيال، قال البيضاوي : سميت واقعة لتحقق وقوعها(٣) وقال ابن عباس : الواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والآزفة والطامة، وهذه الأشياء تقتضي عظم شأنها(٤) ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفس كاذبة تكذِّب بوقوعها كحال المكذبين اليوم؛ لأن كل نفسٍ تؤمن حينئذٍ؛ لأنها ترى العذاب عيانًا

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠١ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٠١ .
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٣٧ .
(٤) تفسير المحيط ٨/ ٢٠٢ .

كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [١] ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام رافعةٌ لآخرين، تخفض أعداء الله في النار، وترفع أولياء الله في الجنة، قال الحسن: تخفض أقوامًا إلى الجحيم وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع آخرين إلى أعلى عليين وإن كانوا في الدنيا وضعاء [٢]. ثم بيَّن تعالى متى يكون ذلك فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي زلزلت زلزالاً عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، بحيث ينهدم كل ما فوقها من بناء شامخ، وطودٍ راسخ قال المفسرون: تُرجُّ كما يرجُّ الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها من بناء، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون [٣] ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي فتِّتت تفتيتًا حتى صارت كالدقيق المبسوس -وهو المبلول- بعد أن كانت شامخة ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي فصارت غبارًا متفرقًا متطايرًا في الهواء، كالذي يُرى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة فهذا هو الهباء [٤]، والمنبثُّ المتفرق، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي وكنتم - أيها الناس - أصنافًا وفرقًا ثلاثة «أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق» فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار، وهذه مراتب الناس في الآخرة قال ميمون بن مهران: اثنان في الجنة وواحد في النار [٥]، ثم فصَّلهم تعالى بقوله ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؟ استفهام للتفخيم والتعظيم أي هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم في أيمانهم، فهو تعجيبٌ لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؟ أي هل تدري من هم؟ وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم قال القرطبي: والتكرير في ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [٦] وقال الألوسي: والمقصود التفخيم في الأول، والتفظيع في الثاني، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال [٧] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة أي والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته ﴿فِي

(١) هذا القول هو الأرجح في تفسير الآية الكريمة وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود والألوسي، واختيار ابن كثير: أن المعنى: ليس لوقوعها -إذا أراد الله- صارف يصرفها ولا دافع يدفعها، وروي نحو هذا عن الحسن وقتادة، والأول أدق وأظهر والله أعلم.

(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٢٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٩٦.

(٤) هذا قول ابن عباس.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٨.

(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ١٩٩.

(٧) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٣١.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي هم في جنات الخلد يتنعمون فيها، قال الخازن: فإن قلت: لم أخَّر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ قلت: فيه لطيفة وذلك أنَّ الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفًا لعباده، فإما محسنٌ فيزداد رغبةً في الثواب، وإمّا مسيء فيرجع عن إساءته خوفًا من العقاب، فلذلك قدَّم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجدوا ويجتهدوا[(١)] ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي وهم قليلٌ من هذه الأمة قال القرطبي: وسمُّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم؛ لأن الأنبياء المتقدمين كانوا كثرة، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا، قال الحسن: سابقوا من مضى أكثر من سابقينا ثم تلا الآية[(٢)] وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أول هذه الأمة، والآخرون المتأخرون من هذه الأمة، فيكون كلا الفريقين من أمة محمد ﷺ[(٣)] ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي جالسين على أسرَّة منسوجة بقضبان الذهب، مرصَّعة بالدر والياقوت، قال ابن عباس: ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به[(٤)] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي حال كونهم مضطجعين على تلك الأسرَّة شأن المنعَّمين المترفين ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد، وهذا أدخل في السرور، وأكمل في أدب الجلوس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي يدور عليهم للخدمة أطفال في نضارة الصبا، لا يموتون ولا يهرمون، قال أبو حيان: وُصفوا بالخلد -وإن كان كل من في الجنة مخلدًا- ليدل على أنهم يبقون دائمًا في سنِّ الولدان، لا يتحولون ولا يكبرون كما وصفهم جل وعلا[(٥)] ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق أي وبأباريق لها عرى تبرق من صفاء لونها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي وكأسٍ من خمرٍ لذة جارية من العيون، قال ابن عباس: لم تعصر كخمر الدنيا بل هي من عيون سارحة، قال القرطبي: والمعين الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون، ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلف ومعالجة[(٦)] ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رءوسهم من شربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا، قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السُّكرُ،

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٥ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٠ .

(٣) القول الأول الذي أسلفناه هو اختيار جمهور المفسرين، كابن جرير، وأبي السعود، والقرطبي، والبيضاوي، والألوسي، واختار ابن كثير القول الثاني فقال: القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها.. إلخ أقول: قد علمت أن الأنبياء كثرة كثيرة وكلهم من السابقين، فإذا انضم إليهم أتباعهم من الخواص كانوا أكثر من خواص هذه الأمة، وتبقى أمة محمد ﷺ أكثر الأمم دخولاً الجنة وأفضل الأمم بمجموعها لا بخواصها، فيندفع بذلك الإشكال والله أعلم .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٣٠ . (٥) البحر المحيط ٨/ ٢٠٥ .

(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٣ .

والصُّداع، والقيء، والبول، وقد ذكر تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال الذميمة[١] ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيه نفوسهم لكثرتها وتنوعها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولحم طيرٍ مما يحبون ويشتهون قال ابن عباس: يخطر على قلب أحدهم لحم الطير فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقليًا أو مشويًّا وفي الحديث: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا»[٢]، قال الرازي: وقدَّم الفاكهة على اللحم؛ لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع بل للتفكه، فميلهم إلى الفاكهة أكثر كحال الشبعان في الدنيا فلذلك قدمها[٣] ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم نساء من الحور العين، الواسعات العيون، في غاية الجمال والبهاء، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء، الذي لم تمسه الأيدي، قال في التسهيل: شبههن باللؤلؤ في البياض، ووصفه بالمكنون؛ لأنه أبعد عن تغيير حسنه، وحين سألت «أم سلمة» رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه قال: «صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي»[٤] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي جعلنا لهم ذلك كله جزاءً لعملهم الصالح في الدنيا.. ثم أخبر تعالى عن كمال نعيمهم في الجنة فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي لا يطرق آذانهم فاحشُ الكلام، ولا يلحقهم إثمٌ مما يسمعون، قال ابن عباس: لا يسمعون باطلاً ولا كذبًا[٥] ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝﴾ أي إلا قول بعضهم لبعضٍ سلامًا سلامًا، يُحيي به بعضهم بعضًا ويفشون السلام فيما بينهم، قال في البحر: والظاهر أنه استثناء منقطع؛ لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم[٦] وقال أبو السعود: والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلّمون سلامًا بعد سلام، أو لا يسمع كلٌ منهم إلا سلام الآخر بدءًا أو ردًّا[٧].. ثم شرع في تفصيل أحوال الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾؟ استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم أي ما أدراك من هم، وما هي حالهم؟ ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي هم تحت أشجار النبق الذي قطع شوكه قال المفسرون: والسِّدرُ: شجر النبق، والمخضود الذي خُضد أي قُطع شوكه، وفي الحديث: (أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال: وما هي؟ قال: السدر فإن له شوكًا، فقال رسول الله ﷺ: أليس اللهُ يقول ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؟ خضَدَ اللهُ شوكه فجعل مكان كل شوكةٍ ثمرة، وإن الثمرة من ثمره تفتَّق عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخر)[٨] ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ هو شجر الموز ومعنى ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي متراكم قد نُضد بالحمل من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كذا في ابن كثير ٣/ ٤٣١.
(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ١٥٣.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٨٩.
(٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٦.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦.
(٧) تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٠.
(٨) أخرجه الحاكم والبيهقي وانظر روح المعاني ٢٧/ ١٤٠.

أسفله إلى أعلاه ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي وظل دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس؛ لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وفي الحديث «إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[1] وقال الرازي: ومعنى ﴿مَّمْدُودٍ﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي دائم، والظلُّ ليس ظل الأشجار، بل ظل يخلقه الله تعالى[2] ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي وماءٍ جارٍ دائمًا لا ينقطع، يجري في غير أخدود قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوعدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار وجريانها[3] ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي وفاكهةٍ كثيرة متنوعة، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وليست ممنوعة عن أحد، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جُنيت، ولا تمتنع من أحدٍ إذا أراد أخذها[4] وفي الحديث «ما قُطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا عاد مكانها أخرى»[5] ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وفي الحديث «ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام»[6] قال الألوسي: ولا تستبعد هذا من حيث العروجُ والنزولُ، فالعالم عالم آخر فوق طور عقلك[7] تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به، والله على كل شيء قدير ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقًا جديدًا، وأبدعناهن إبداعًا عجيبًا، قال في التسهيل: ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقًا آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا، فالعجوز ترجع شابة، والقبيحة ترجع جميلة[8]، قال ابن عباس: يعني الآدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقًا آخر[9] ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي فجعلناهن عذارى، كلما أتاهنَّ أزواجهن وجدوهنَّ أبكارا ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهي المتحببة لزوجها العاشقة له، قال مجاهد: هنَّ العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن اللواتي يشتهين أزواجهن[10] ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السنِّ مع أزواجهن، في سنّ أبناء ثلاث وثلاثين، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فقال يا أم سلمة: هنَّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز، شُمطًا، عُمشًا، رُمصًا، جعلهن الله بعد الكبر أترابًا على ميلادٍ واحد في الاستواء)[11] وفي الحديث أن امرأة عجوزًا جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: أُدع الله أن يُدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولَّت تبكي، فقال:

(١) أخرجه البخاري. (٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤.
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٩. (٤) تفسير الخازن ٤/ ١٨.
(٥) أخرجه الطبراني. (٦) أخرجه النسائي والترمذي.
(٧) روح المعاني ٢٧/ ١٤١. (٨) التسهيل ٤/ ٩٠.
(٩) تفسير الخازن ٤/ ١٨. (١٠) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٤٣.
(١١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٠ والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا.

أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهنَّ في الجنة، ثم قال تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضي، وجماعة من المتأخرين من أُمة محمد ﷺ، قال في البحر: ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وبين الآية التي سبقتها وهي قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال: ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[٢].. ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم أي وأصحابُ الشمال -وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم- ما أصحاب الشمال؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فصَّل تعالى حالهم فقال: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام، وماءٍ شديد الحرارة ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ أي وفي ظلٍ من دخان أسود شديد السواد﴿لَّا بَارِدٖ﴾ أي ليس هذا الظل باردًا يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله قال الخازن: إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين:

أحدهما: دفع الحر. والثاني: حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرمًا، وظلُّ أهل النار بخلاف هذا؛ لأنهم في ظل من دخان أسود حار[٣].. ثم بيَّن تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ أي؛ لأنهم كانوا في الدنيا منعَّمين، مقبلين على الشهوات والملذات ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله، قال المفسرون: لفظ الإصرار يدل على المداومة على المعصية، والحنثُ هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصبح أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؟ تأكيدٌ للإنكار ومبالغة فيه أي وهل سيبعث آباؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتَّتت عظامهم؟ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الخلائق جميعًا السابقين منهم واللاحقين، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدَّده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة، الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والنشور، لآكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ أي فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي فشاربون عليه الماء الحار الذي اشتد غليانه

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل. (٢) البحر المحيط ٨/ ٢٠٧.
(٣) تفسير الخازن ٤/ ٢١.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ أي فشاربون شرب الإبل العطاش قال ابن عباس: الهيمُ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها[1] وقال أبو السعود: إنه يسلط على أهل النار من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمُهل، فإذا ملأوا منه بطونهم -وهو في غاية الحرارة والمرارة- سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى[2] ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، وفيه تهكم بهم قال الصاوي: والنُزُل في الأصل ما يهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة، فتسمية الزقوم نُزلاً تهكم بهم.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ . . إلى . . ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ من آية (٥٧) إلى آية (٩٦) نهاية السورة

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله، وختم السورة الكريمة بالتنويه بذكر أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقين إلى الخيرات، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والمآل.

اللغَة: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تفكَّه بالشيء تمتَّع به، ورجلٌ فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ السحاب جمع مُزْنة قال الشاعر:

ونحن كماء المُزن ما في نصابنا ... كَهَامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيل[3]

﴿تُورُونَ﴾ أورى النار من الزناد قدحها «الـمُقوِينَ» المسافرين يقال: أقوى الرجل إذا دخل القواء وهو القفر، والقوى الجوع قال الشاعر:

وإني لأختار القوى طاوي الحشا ... محافظةً من أن يُقال لئيم[4]

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ المدهن: الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شُبّه بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداهنة ﴿مَدِينِينَ﴾ مجزيين ومحاسبين من الدين بمعنى الجزاء ﴿فَرَوۡحٞ﴾ الرَّوح بفتح الراء الاستراحة ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ الريحان: كل مشموم طيب الريح من النبات.

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢١٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٢ .

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ١٧/ ٢٢٢ .

﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

التَّفْسِير: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي نحن خلقناكم أيها الناسُ من العدم، فهلاَّ تصدقون بالبعث؟ فإن من قدر على البدء قادرٌ على الإعادة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي أخبروني عمَّا تصبُّونه من المنيّ في أرحام النساء ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [1]؟ أي هل أنتم تخلقون هذا المنيَّ بشرًا سويًّا، أم نحن بقدرتنا خلقناه وصوَّرناه؟! قال القرطبي: وهذا احتجاج على المشركين وبيانٌ للآية الأولى، والمعنى إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث [2] ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم فيه، قال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض [3]، سواء فيه الشريف والوضيع، والأمير والصعلوك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي على أن نهلككم ونستبدل قومًا غيرك يكونون أطوع لله منكم كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي

---

(١) يقول شهيد الدعوة (سيد قطب) في تفسيره الظلال ما نصه: «هذه هي الحقيقة الهائلة المتكررة في كل لحظة، يتناساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه، وهي أعجب من كل عجيب تبدعها شطحات الخيال!! نطفةٌ تُمنى وتراق وهي من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق، والدمع، والمخاط، فإذا هي بعد فترةٍ من الزمن إنسانٌ سميع بصير، وإذا هذا الإنسان ذكرٌ وأنثى!! كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن -لولا وقوعها- تخطر على الخيال؟! أين كان هذا الإنسان كامنًا بعظمه ولحمه وجلده، وعروقه وشعره وأظافره، وخلائقه وطباعه؟ أي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة، ثم يتمالك أو يتماسك -فضلاً عن أن يجحد ويتبجح- ويقول: إنها وقعت هكذا والسلام! إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمني رحم امرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين، تعمل وحدها في خلقه وتنميته، وبناء هيكله ونفخ الروح فيه، ومنذ اللحظة الأولى تتم المعجزة وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله، وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها، ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمنى قصة أغرب من الخيال، هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا، كل مجموعة من هذه الخلايا ذات خصائص عجيبة، فهذه خلايا عظام، وهذه خلايا عضلات، وهذه خلايا جلد، وهذه خلايا أعصاب. ثم هذه خلايا لعمل عين، وهذه لعمل لسان، وهذه لعمل أذن، وكل منها تعرف مكان عملها، فلا تخطئ خلايا العين مثلاً فتطلع في البطن أو القدم، فسبحان العظيم القدير القائل: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٦ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٦ .

ولسنا بعاجزين أيضًا أن نعيدكم يوم القيامة في خلقةٍ لا تعلمونها ولا تصل إليها عقولكم، والغرضُ أن الله قادر على أن يهلكهم وأن يعيدهم وأن يبعثهم يوم القيامة، ففي الآية تهديد واحتجاج على البعث [١] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورا، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ ؟! ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته أي أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الطين ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ ؟ أي أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحبُّ أم نحن الفاعلون لذلك؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحبَّ وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من الأرض؟ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيمًا متكسرًا لا ينتفع به في طعام ولا غيره، قال القرطبي: والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبههم بذلك على أمرين: أحدهما: ما أولاهم به من النعم في زرعهم ليشكروه الثاني: ليعتبروا في أنفسهم فكما أنه تعالى يجعل الزرع حُطامًا إذا شاء، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا [٢] ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي فظللتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به وتقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي إنا لمحمَّلون الغرم [٣] في إنفاقنا حيث ذهب زرعنا وغرمنا الحبَّ الذي بذرناه ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بل نحن محرومون الرزق، غرمنا قيمة البذر، وحُرمنا خروج الزرع ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذبًا فراتًا لتدفعوا عنكم شدة العطش ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ قال الخازن: ذكَّرهم تعالى نعمته عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا اللهُ عز وجل [٤] ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي لو شئنا لجعلناه ماءً مالحًا شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزرع قال ابن عباس: ﴿أُجَاجًا﴾ شديد الملوحة وقال الحسن: مُرًّا زُعافًا لا يمكن شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلاَّ تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذبًا فُراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا» [٥] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي هل أنتم الذين خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون؟ قال ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحداهما المرخُ،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩١ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٨ .

(٣) قال الضحاك: «مغرمون» من الغرم، والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، وقال ابن عباس: معذبون والغرام: العذاب.

(٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٣ . (٥) أخرجه ابن أبي حاتم .

والأُخرى العُقار، إذا أُخذ منهما غصنان أخضران، فحُك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار [١]، وقيل: أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، لما روي عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُناب [٢] ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكيرًا للنار الكبرى «نار جهنم» إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى اللهَ ويخاف عقابه وفي الحديث: «ناركم هذه التي توقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم، فقالوا يا رسول الله: إنْ كانت لكافية!! فقال: والذي نفسي بيده لقد فضِّلت عليها بتسعة وسبعين جزءًا، كلهن مثل حرها» [٣] ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي ومنفعةً للمسافرين، قال ابن عباس: «المقوين» المسافرين، وقال مجاهد: للحاضر والمسافر، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين [٤] قال الخازن: والمقوي النازلُ في الأرض القواء - وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران - والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُفَّار، فإن منفعتهم أكثر من المقيم، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثر المفسرين [٥].. ولما ذكر دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان، والنبات، والماء، والنار، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه!! عدَّد سبحانه وتعالى نعمه على عباده، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤه وهو الماء فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ثم بما يصنع به طعامه، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ فيا له من إله كريم، ومنعم عظيم!! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته، وعلو شأنه ومنزلته، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته، وزيادة «لا» كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابة ... وكادَ نياطُ القلب لا يتقطَّع

أي كاد يتقطع قال القرطبي: «لا» صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى (فأقسم) بدليل قوله بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ [٦] أي فأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل، لو عرفتم عظمته لآمنتم وانتفعتم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٨ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٦٦ .
(٣) أخرجه الشيخان ومالك . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٨ .
(٥) تفسير الخازن ٤/ ٢٤ .
(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٣ وانظر تفصيل الأقوال وأرجحها في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» الجزء الثاني ص٥٠٥ .

به[١]، لما في المقسم به من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سُدى ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، والمعنى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم مجيد، جعله الله معجزة لنبيه محمد ﷺ وهو كثير المنافع والخيرات والبركات ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي في كتاب مصونٍ عند الله تعالى، محفوظ عن الباطل وعن التبديل والتغيير، قال ابن عباس: هو اللوح المحفوظ، وقال مجاهد: هو المصحف الذي بأيدينا[٢] ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث، أو لا يمسُّه إلا من كان متوضئًا طاهرًا، قال القرطبي: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر: لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر؛ ولكتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم «وألاَّ يمسَّ القرآن إلا طاهر»[٣] ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي منزَّل من عند الله جل وعلا. . ثم لمَّا عظم أمر القرآن ومجَّد شأنه وبخ الكفار فقال: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم، وهو المنعم المتفضل عليكم؟ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأهوال ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكن لا تعلمون ذلك، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه، قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[٤] ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي فهلاَّ إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم، قال ابن عباس: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير محاسبين ولا مجزين، قال الخازن: أجاب عن قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ وعن قوله ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بجوابٍ واحد وهو قوله ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ ومعنى الآية: إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب، ولا إله يجازي،

---

(١) لم يكن المخاطبون يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل، أما في هذا العصر فقد ظهرت معجزة القرآن، يقول الفلكيون: إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل، الذي لا نعرف له حدودًا، مجموعة واحدة هي «المجرة» التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية -تبلغ ألف مليون نجم، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة «بلايين» نجم، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، ومنها ما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض بآخر في المحيط الهادي، يسيران باتجاه واحد بسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جدًا إن لم يكن مستحيلاً!! نقلاً عن كتاب «الله والعلم الحديث» ص٣٣ .

(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٥ . (٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٠ .

فهلاَّ تردون نفس من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به[١] . . ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبيَّن درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي: والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة[٢] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي فسلامٌ لك يا محمد منهم؛ لأنهم في راحةٍ وسعادة ونعيم ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافتهم التي يُكرمون بها أول قدومهم، الحميمُ الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل: النُزل أول شيءٍ يُقدم للضيف[٣] ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي ولهم إصلاءٌ بنار جهنم وإذاقة لهم من حرها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء لهو الحقُّ الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك عن النقص والسوء، وعمَّا يصفه به الظالمون، لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[٤].

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - جناس الاشتقاق ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ والجناس الناقص في قوله: «روح وَرَيحَانٌ».

٢ - الطباق بين ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ . . وٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ . . وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ وبين ﴿خَافِضَةٌ . . رَّافِعَةٌ﴾ وفي إسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي؛ لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده، يرفع أولياءه ويخفض أعداءه، ونسب إلى القيامة مجازًا كقولهم: «نهاره صائم».

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٤ - التفخيم والتعظيم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ كرره بطريق الاستفهام تفخيمًا.

٥ - التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين، وكذلك بذكر أصحاب المشأمة وذكر أصحاب الشمال ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾.

٦ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾؛ لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم، فهو مدح لهم بإفشاء السلام، وهذا كقول القائل: «لا ذنب لي إلا محبتُك».

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٧.
(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣٢.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩٤.
(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم.

٧- التهكم والاستهزاء ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي هذا العذاب أول ضيافتهم يوم القيامة ففيه سخرية وتهكم بهم؛ لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة .

٨- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ -ثم قال بعد ذلك ملتفتًا عن خطابهم : ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ وذلك للتحقير من شأنهم ، والأصل هذا نزلكم .

٩- الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم .

١٠- توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ومثل ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ ويسمى هذا بالسجع المرصَّع ، وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدى بها الناس في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة ، وتلك ظلمات حسية ، وهذه ظلمات معنوية ، فالقسم هنا جاء جامعًا بين الهدايتين : الحسية للنجوم ، والمعنوية للقرآن ، فهذا وجه المناسبة والله أعلم .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة»
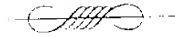
بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

* وقد تناولت السورة الكريمة «سورة الحديد» ثلاثة مواضيع رئيسية وهي:

أولاً: أن الكون كله لله جل وعلا، هو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء.

ثانيا: وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله، ورفع منار الإسلام.

ثالثا: تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاعٍ خادع حتى لا يغتر بها الإنسان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جلَّ وعلا الذي سبَّح له كل ما في الكون من شجرٍ وحجر، ومدر، وإنسانٍ، وحيوان، وجماد؛ فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته.

* ثم ذكرت صفات الله الحسنى، وأسماءه العليا، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان.

* ثم تلتها الآيات التي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عزة الإسلام ورفعة شأنه، فلابدَّ للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة.

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان، وأهل النفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون يتخبطون في الظلمات، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال.

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وصوّرتهما أدقَّ تصوير، فالدنيا دار الفناء، فهي زائلة فانية، كمثل الزرع الخصيب الذي ينبت بقوة بنزول الغيث، ثم يصفر ويذبل حتى يصير هشيمًا وحطامًا تذروه الرياح، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء، التي لا نصب فيها ولا تعب، ولا همَّ ولا شقاء.

* وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام، والأمر بتقوى الله عز وجل، والاقتداء بهدي رسله وأنبيائه.

سميت السورة «سورة الحديد» لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدّته في البنيان والعمران، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة، وتشاد العمائر،

وتصنع الدروع والسيوف والرماح، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة... إلى غير ما هنالك من منافع.

□ □ □
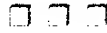
قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. إلى.. هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٥).

اللغة: ﴿سَبَّحَ﴾ نزّه الله ومجّده وقدّسه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على جميع الموجودات ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ﴿يَلِجُ﴾ يدخل ﴿يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بوجوده ومصنوعاته وآثاره ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ بكنه ذاته عن إدراك الأبصار له ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنة والمراد بها الجنة ﴿ٱنظُرُونَا﴾ انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ﴾ تستضيء ونهتدي بنوركم ﴿سُورٍ﴾ حاجز بين الجنة والنار ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان وكل من خدع غيره فهو غار وغرور.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مجّد اللهَ ونزّهه عن السوء كلُّ ما في الكون من إنسانٍ، وحيوان، ونبات، قال الصاوي: والتسبيحُ تنزيهُ المولى عن كل ما لا يليق به قولاً، وفعلاً، واعتقادًا، من سبح في الأرض والماءِ إذا ذهب وأبعد فيهما، وتسبيحُ العقلاء بلسان

المقال، وتسبيح الجماد بلسان الحال أي أن ذاتها دالة على تنزيه صانعها عن كل نقص، وقيل: بلسان المقال أيضًا ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [١] وقال الخازن: تسبيحُ العقلاء تنزيهُ الله عز وجل عن كل سوء، وعما لا يليق بجلاله، وتسبيحُ غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه، فقيل: تسبيحه: دلالته على صانعه، فكأنه ناطق بتسبيحه، وقيل: تسبيحه: بالقول ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي قولهم، والحقُّ أن التسبيح هو القولُ الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان: أحدهما: أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني: أن جميع الموجودات بأسرها منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء، فإن حملنا التسبيح على القول كان المراد بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملائكةُ والمؤمنون العارفون بالله، وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي، فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس، وقمر، ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبالٍ، وبحار، وشجر، ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله، منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء، فإن قيل: قد جاء في بعض فواتح السور ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ بلفظ المضارع فما المراد؟ قلت: فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحًا لله أبدًا، غير مختص بوقت دون وقت، بل هي كانت مسبحة أبدًا في الماضي، وستكون مسبحة أبدًا في المستقبل [٢] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب على أمره الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء، الحكيمُ في أفعاله الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو جل وعلا المالك المتصرف في خلقه، يحيي من يشاء، ويُميت من يشاء، قال القرطبي: يميتُ الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث والنشور [٣] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولفظُ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغة في القادر؛ لأن «فعيل» من صيغ المبالغة ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ أي ليس لوجوده بداية، ولا لبقائه نهايةٌ ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي الظاهرُ للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده، الباطنُ الذي لا تدركه الأبصار، ولا تصلُ العقولُ إلى معرفة كنه ذاته [٤] وفي الحديث: «أنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» [٥] قال شيخ زاده: وقد فسَّر صاحب الكشاف «الباطن» بأنه غير المدرك بالحواسِ وهو تفسير بحسب التشهي يؤيد مذهبه من استحالة رؤية الله في الآخرة، والحقُّ أنه تعالى ظاهرٌ بوجوده، باطنٌ بكنهه، وأنه تعالى جامعٌ

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٦٨ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٢٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣٦ .

(٤) هذا أرجح الأقوال في تفسير «الظاهر والباطن» وقد اختاره أبو السعود والألوسي .

(٥) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم وأحمد .

بين الوصفين أزلاً وأبدًا[١] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بكل ذرةٍ في الكون، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما في مقدار ستة أيام ولو شاء لخلقهما بلمح البصر، وهو تحقيقٌ لعزته، وكمال قدرته، كما أن قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيق لحكمته، وكمال علمه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءٌ يليق بجلاله من غير تمثيلٍ ولا تكييف[٢] ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وأموات، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من الأرزاق، والملائكة، والرحمة، والعذاب، وما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي هو جل وعلا حاضرٌ مع كل أحدٍ بعلمه وإحاطته قال ابن عباس: هو عالمٌ بكم أينما كنتم قال ابن كثير: أي هو رقيبٌ عليكم، شهيدٌ على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم، من برٍّ أو بحر، في ليلٍ أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، يسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سرَّكم ونجواكم[٣] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمال العباد، مطلع على كل صغيرة وكبيرة ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كرره للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر أي هو المعبود على الحقيقة، المتصرف في الخلق كيف يشاء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة فيجازيهم على أعمالهم ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي هو المتصرف في الكون كيف يشاء، يقلِّب الليل والنهار بحكمته وتقديره، ويدخل كلاًّ منهما في الآخر، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وأُخرى بالعكس ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو العالم بالسرائر والضمائر، وما فيها من النيات والخفايا، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه.. ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته، أمر بتوحيده وطاعته فقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي صدِّقوا بأن الله واحد وأن محمدًا عبده ورسوله ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي وتصدّقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة لله لا لكم، قال في التسهيل: يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله؛ لأنه خلقها، ولكنه متَّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٨. (٢) انظر تفصيل معنى الاستواء في سورة الأعراف.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٥ قال في البحر: أجمعت الأمة على تأويل هذه الآية وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بالعلم والقدرة. اهـ. وقال القرطبي: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بقدرته وسلطانه وعلمه، وقال البيضاوي: أي لا ينفك علمه وقدرته عنكم، وقال الألوسي: والآية تمثيل لإحاطة علم الله بهم، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا. اهـ. أقول: وهذه الأقوال عن السلف والخلف ترد على من منع التأويل في كتاب الله تعالى مطلقًا إذ كيف يمكن أن نفهم قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ وقوله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وقوله عليه السلام: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»!!

مالكها أن تنفقوها فيه ، والمقصود التحريضُ على الإنفاق والتزهيد في الدنيا؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق والإنفاق في سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم -لهم أجر عظيم وهو الجنة قال أبو السعود: وفي الآية من المبالغات ما لا يخفى، حيث جعل الجملة اسمية ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأعيد ذكرُ الإيمان والإنفاق﴿ءَامِنُوا۟ . . . وَأَنفِقُوا۟﴾ وكرر الإسناد ﴿لَهُمْ﴾ وفخَّم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ أي أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان بالله؟ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ أي والحالُ أن الرسول يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم، بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاكم -وهو العهد المؤكد- بما ركز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله قال أبو السعود: وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر وقال الخازن: أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وقيل: أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم. . ثم ذكر تعالى بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان به فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي هو تعالى الذي ينزّل على محمد القرآن العظيم، المعجز في بيانه، الواضح في أحكامه، قال القرطبي: يريد بالآيات البينات: القرآن وقيل: المعجزات أي لزمكم الإيمان بمحمد لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة بكم، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؟ أيْ أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم، وأنتم تموتون وتخلّفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى؟ قال الإمام الفخر: المعنى: إنكم ستموتون فتورثون، فهلاَّ قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله !! وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة، قال المفسرون: وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثَّر ناصريه، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ

التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩٥ وقيل: المعنى: مما جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم بالإرث وسيخلفكم فيه من بعدكم. والأول أظهر .

تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٧ . تفسير الخازن ٤/ ٣١ .

تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣٩ . التفسير الكبير ٢٩/ ٢١٨ .

وَقَٰتَلُواْ﴾ أي أعظم أجرًا، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقاتلوا لإعلاء كلمة الله، قال الكلبي: نزلت في «أبي بكر»؛ لأنه أول من أسلم، وأول من أنفق ماله في سبيل الله، وذبَّ عن رسول الله ﷺ[1] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلاً ممن آمن وأنفق قبل الفتح، ومن آمن وأنفق بعد الفتح، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأعمالكم، مطلع على خفاياكم ونياتكم، ومجازيكم عليه، وفي الآية وعدٌ ووعيد ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفًا ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة، قال ابن كثير: أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة، ولما نزلت هذه الآية قال «أبو الدحداح الأنصاري»: يا رسول الله وإِنَّ الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح»، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي -أي بستاني- وله فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه هي وعيالها، فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، فقالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح! ونقلت منه متاعها وصبيانها[2].. ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الأبرار، وما يتقدمهم من الأنوار وهم على الصراط فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي اذكر يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر في سواد الليل ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الفوز الذي لا فوز بعده؛ لأنه سبب السعادة الأبدية، روي أن نور كل أحدٍ على قدر إيمانه، وأنهم متفاوتون في النور، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة، قال الزمخشري: وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم[3].. ولما شرح حال المؤمنين يوم القيامة، أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي انتظرونا لنستضيء من نوركم، قال المفسرون: إن الله تعالى يعطي المؤمنين نورًا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط المستقيم، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم فيقولون للمؤمنين: انتظرونا لنستضيء بنوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ أي فيقول لهم المؤمنون سخريةً واستهزاءً بهم: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٣٢ .
(٢) تفسير ابن كثير المختصر ٣/ ٤٤٨ .
(٣) تفسير الكشاف ٤/ ٣٤٢ .

الأنوار هناك، قال أبو حيان: وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إقناطٌ لهم [١] ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجزٍ له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمةُ وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النارُ، قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب [٢] ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، ونحضر الجمعة والجماعات، ونقاتل معكم في الغزوات؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي قال لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي خدعتكم الأماني الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى جاءكم الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم، قال قتادة: ما زالوا على خُدعةٍ من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم [٣] قال المفسرون: الغرور (بفتح الغين) الشيطان؛ لأنه يغر ويخدع الإنسان قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ يا معشر المنافقين، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآياته وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول للكافر: أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يارب، فيقول الله تبارك وتعالى: قد سألتك ما هو أيسرُ من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم، أن لا تشرك بي فأبيتَ إلا الشرك» [٤] ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هي عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم.

قال بعض العلماء: «السعيد من لا يغتر بالطمع ولا يركن إلى الخدع، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل» [٥].

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ . . إلى . . وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من آية (١٦) إلى آية (٢٩) نهاية السورة.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢١ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٠ .
(٣) تفسير الخازن ٤/ ٣٤ .
(٤) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٧٨ والحديث في الصحاح .
(٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٤٧ .

المنَاسَبة: لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا. نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء. ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع الكاذب، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر والنور باتباعهم هدي الرسول ﷺ.

اللغَة: ﴿يَأْنِ﴾ يحِنْ يقال: أنى يأني مثل رمى يرمي أي حان، قال الشاعر:

ألم يأنِ لي يا قلب أنْ أترك الجهلا ... وأن يُحدث الشيب المبينُ لنا عقلا ؟

﴿تَخْشَعَ﴾ تذل وتلين ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿يَهِيجُ﴾ هاج الزرع إذا جف ويبس بعد خضرته ونضارته ﴿حُطَـٰمًا﴾ فُتاتًا يتلاشى بالرياح ﴿قَفَّيْنَا﴾ ألحقنا وأتبعنا ﴿كِفْلَيْنِ﴾ مثنى كفل وهو النصيب.

سَبَبُ النّزول: لما قدم المؤمنون المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنوات»[2].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢٤٨ . (٢) أخرجه مسلم .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الزمن الذي بينهم وبين أنبيائهم حتى صلبت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة قال ابن عباس: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن، وقال أبو حيان: أي صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة والغرض أن الله يحذّر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهم لما طال عليهم الزمان ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعاليم دينهم؛ من فرط قسوة القلب قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الزمن بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد(٢) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يبسها، وهو تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض المجدبة بالغيث الهتان، قال ابن عباس: يُلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتةً منيبة، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة(٣)، قال في البحر: ويظهر أنه تمثيلٌ لتليين القلوب بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، فكما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مخصبة، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلةً يظهر فيها أثر الخشوع والطاعات(٤) ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله وفي وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي يضاعف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل وهو الجنة، قال المفسرون: أصل ﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾ المتصدقين أدغمت التاء في الصاد فصارت المُصّدّقين، ومعنى القرض الحسن هو التصدق عن طيب النفس، وخلوص النية للفقير، فكأن الإنسان بإحسانه إلى الفقير قد أقرض اللهَ قرضًا يستحق عليه الوفاء في دار الجزاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي صدَّقوا

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٢٣ . (٢) تفسير مختصر ابن كثير ٣/ ٤٥١ .
(٣) تفسير الخازن ٤/ ٣٥ . (٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٢٣ .

بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيمانًا راسخًا كاملًا، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصدّيقية والشهادة في سبيل الله، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيقٌ وشهيد[1] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم، قال البيضاوي: فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن الصيغة تشعر بالاختصاص ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والصحبة تدل على الملازمة[2].. ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعبٌ يُتعب الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل:

أرى أهل القُصور إذا أُميتوا ... بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاةً وفخرًا ... على الفقراء حتى في القبور[3]

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض[4] ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي كمثل مطرٍ غزير أصاب أرضًا. فأعجب الزُّرَّاع نباتهُ الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس بعد خضرته ونُضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهيًا ناضرًا ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيمًا تذروه الرياح كذلك حال الدنيا، قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاع؛ لأنهم يغطون البذر، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن[5] ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفجار، وإما مغفرة من الله ورضوان للأبرار ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل، قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغُرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٣٢ . (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٣ .
(٣) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهباء، أمدّ الله في عمره.
(٤) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٣٣ . (٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٥ .

الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[١] .. ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرها، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها، حثَّ على المسارعة إلى نيل مرضاة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي تسابقوا أيها الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ كأنهم في ميدان سباق يجرون إلى غاية مسابقين إليها، والمعنى: سابِقوا إلى سبب مغفرة وهو الإيمان، وعملُ الطاعات[٢] ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وسارعوا إلى جنةٍ واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة، قال السدي: إن الله تعالى شبَّه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها، فذكر العرض تنبيهًا على أن طولها أضعاف ذلك[٣] وقال البيضاوي: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول[٤] ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ أي هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدّقين بالله ورسله قال المفسرون: وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة؛ لأن ما لم يُخلق بعد لا يوصف بأنه أُعدَّ وهُيِّئ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما يحدث في الأرض مصيبةٌ من المصائب كقحطٍ، وزلزلةٍ، وعاهة في الزروع، ونقصٍ في الثمار ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي من الأمراض، والأوصاب، والفقر، وذهاب الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي إلاّ وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدها، قال في التسهيل: المعنى أن الأمور كلها مقدَّرة في الأزل، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، وفي الحديث: «إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»[٥] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهلٌ هيّنٌ على الله عز وجل وإن كان عسيرًا على العباد.. ثم بيَّن تعالى لنا الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي أثبت وكتب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها، قال المفسرون: والمراد بالحزن: الحزنُ الذي يوجب القنوط، وبالفرح، الفرحُ الذي يورث الأشر والبطر، ولهذا قال ابن عباس: ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبرًا، وغنيمته شكرًا[٦] ومعنى الآية: لا تحزنوا حزنًا يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تفرحوا فرحًا شديدًا يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ولهذا قال بعض

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٤ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٥ .
(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٤ .
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٤ .
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٩٩ .
(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٨ .

العارفين: من عرف سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب»[١] وقال عمر رضي الله عنه: ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبر معجبٍ بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا، فخور به على الناس.. ثم بيَّن تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ أي يبخلون بالإنفاق في سبيل الله، ولا يكفيهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويرغبوهم في الإمساك ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي فإن الله مستغنٍ عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وفيه وعيدٌ وتهديد ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية، وأنزلنا القانون الذي يُحكم به بين الناس، وفسَّر بعضهم الميزان بأنه العدلُ وقال ابن زيد: هو ما يُوزن به ويُتعامل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد؛ لأن آلات الحرب تُتخذ منه، كالدروع، والرماح، والتروس، والدبابات... وغير ذلك ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي وفيه منافع كثيرة للناس كسكك الحراثة، والسكين، والفأس وغير ذلك وما من صناعةٍ إلا والحديدُ آلة فيها قال أبو حيان: وعبَّر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾؛ لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تُلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها، وأراد بالحديد جنسه من المعادن، قاله الجمهور[٢] ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ عطفُ على محذوف مقدر أي وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداءهم ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله، وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة مؤمنًا بالغيب، قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه[٣]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه، عزيزٌ أي غالب لا يُغالب فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد، قال البيضاوي: أي قويٌّ على إهلاك من أراد إهلاكه، عزيزٌ لا يفتقر إلى نصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا الثواب[٤] وقال ابن كثير: معنى الآية أنه جعل الحديد رادعًا لمن أبى الحقَّ وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة تُوحى إليه

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٦.
(٣) تفسير الجلالين ٤/ ١٧٦.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٦.

السور، ويقارعهم بالحجة والبرهان، فلما قامت الحجة على من خالف أمر الله، شرع الله الهجرة وأمر المؤمنين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، ولهذا قال عليه السلام: «بُعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجُعل رزقي تحت ظل رُمحي، وجعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم»[١] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياجٍ منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضهم ببعض[٢] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ لما ذكر بعثة الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيَّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية أي وباللهِ لقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي «التوراة والزبور والإنجيل والقرآن» على ذريتهما، وإنما خصَّ نوحًا وإبراهيم بالذكر تشريفًا لهما وتخليدًا لمآثرهما الحميدة ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون، وكثيرٌ منهم عصاةٌ خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولاً بعد رسول موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس. . . وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل؛ لأنه كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين، قال في التسهيل: هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣] ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ورهبانيةً ابتدعها القسسُ والرهبان وأحدثوها من تلقاء أنفسهم، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قال أبو حيان: والرهبانيةُ: رفضُ النساء وشهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع ومعنى ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم[٤] ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله، والاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حقَّ القيام، ولا حافظوا عليها كما ينبغي، قال ابن كثير: وهذا ذمٌّ لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به اللهُ، والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عز وجل[٥]، وفي الحديث: «لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله»[٦] ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٥ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٠ .
(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٢٨ .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٦ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد.

على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفًا ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نورًا تمشون به على الصراط ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم، فـ(لا) في قوله: ﴿لِّئَلَّا﴾ زائدة والمعنى: ليعلم، قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتابُ والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي وإن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وبين ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وبين ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

٣ - رد العجز على الصدر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهو وما سبقه من المحسنات البديعية.

٤ - حذف الإيجاز ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ حذف منه جملة «ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل» وذلك لدلالة الكلام عليه، ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، فاستعار لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النُّورِ﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مثّل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصًا في عمله بمن يُقرض ربه قرضًا واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧ - الأسلوب التهكمي ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم.

٨ - المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله: ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

٩ - التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا .. ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١٠ ـ الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف .

١١ ـ السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو كثير في القرآن .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»
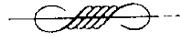
تفسير سورة المجادلة

بين يدي السورة

* سورة المجادلة مدنية، وقد تناولت أحكامًا تشريعية كثيرة كأحكام الظهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله . . . إلى غير ذلك، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة «خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر منها زوجها -على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار- وقد جاءت تلك المرأة رسول الله ﷺ تشكو ظلم زوجها لها وقالت: يا رسول الله «أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني. ورسول الله ﷺ يقول لها: «ما أُراك إلا قد حرمت عليه» فكانت تجادله وتقول: يا رسول الله ما طلقني ولكنه ظاهر مني، فيرد عليها قوله السابق، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك، فاستجاب الله دعاءها، وفرَّج كربتها وشكواها﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ . .﴾ الآيات.

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . .﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي، وهو الكلام سرًّا بين اثنين فأكثر، وقد كان هذا من دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين، فبينت حكمه وحذَّرت المؤمنين من عواقبه﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . .﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة، ظاهرها التحية والسلام. وباطنها الشتيمة والمسبَّة كقولهم: السامُ عليك يا محمد! يعنون الموت ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيءٍ من الإسهاب، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين، ولابدَّ في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ . .﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

□□□

قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا . . إلى . . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠).

اللغَة: ﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ المحاورة: المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يرجع، ومنه الدعاء المأثور «نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر» قال عنترة في فرسه:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال: ظاهر من امرأته إذا حرمها على نفسه بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمي ﴿مُنكَرًا﴾ المنكر: كل ما قبَّحه الشرع وحرَّمه ونفَّر منه، وهو خلاف المعروف ﴿يُحَآدُّونَ﴾ المحادَّة: المعاداة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة، قال الزجاج: المحادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حد صاحبك، وأصلها الممانعة ﴿كُبِتُواْ﴾ الكبتُ: القهر والإذلال والخزي يقال: كبته أي قهره وأخزاه ﴿نَجْوَىٰ﴾ النجوى: الكلام بين اثنين فأكثر سرًّا، تناجى القوم: تحدثوا فيما بينهم سرًّا ﴿حَسْبُهُمْ﴾ كافيهم.

سَبَبُ النّزول:

أ- روي أن «خولة بنت ثعلبة» امرأة «أوس بن الصامت» أراد زوجها مواقعتها يومًا فأبت، فغضب وظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إن أوسًا ظاهر مني بعد أن كبرت سني، ورقَّ عظمي، وإنَّ لي منه صبيةً صغارًا، إن ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا فما ترى؟ فقال لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه» فقالتْ: يا رسول الله واللهِ ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ! فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله: «ما أراك إلا قد حرمتِ عليه» وهي تكرر قولها، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ . . ﴾ الآيات.

ب- وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادلة -خولة بنت ثعلبة- فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك!! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا

(١) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي.

فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

التفسير: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ «قد» لا تدخل إلا على الأفعال، وإذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق، وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل كقولك: قد يجودُ البخيلُ، وقد ينزل المطر، والمعنى: حقًّا لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها، قال الزمخشري: ومعنى سماعه تعالى لقولها: إجابة دعائها، لا مجرد علمه تعالى بذلك، وهو كقول المصلي: سمع اللهُ لمن حمده [1] ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي وتتضرع إلى الله تعالى في تفريج كربتها ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي واللهُ جلَّ وعلا يسمع حديثكما ومراجعتكما الكلام، ماذا قالت لك، وماذا رددت عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه، بصير بأعمال العباد، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صيغ المبالغة أي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات [2]. . ثم ذمَّ تعالى الظهار وبيَّن حكمه وجزاء فاعله فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أي الذين يقولون لنسائهم: أنتن كظهور أمهاتنا يقصدون بذلك تحريمهن عليهم كتحريم أمهاتهن، لسن في الحقيقة أمهاتهم وإنما هنَّ زوجاتهم قال الإمام الفخر: الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، يقصد عُلُوّي عليكِ حرامٌ كعلوي على أمي، والعربُ تقول في الطلاق: نزلتُ عن امرأتي أي طلقتها، فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيهًا بالأم وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ توبيخٌ للعرب وتهجينٌ لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصةٌ دون سائر الأمم [3] ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم في الحقيقة إلاَّ الوالدات اللاتي ولدنهم من بطونهن وفي المثل «ولدك من دمَّى عقبيك» وهو تأكيد لقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ زيادة في التوضيح والبيان ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي والحال إن هؤلاء المظاهرين ليقولون كلامًا منكرًا

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ١٥٠ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٣ .
(٣) التفسير الكبير بشيء من الإيجاز ٢٩/ ٢٥١ .

تنكره الحقيقة وينكره الشرع، وهو كذبٌ وزورٌ وبهتان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب، قال في التسهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور هو الكذب، وإنما جعله كذبًا لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه، وهي لا تصير كذلك أبدًا، والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء: أحدها: قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر والثاني: أنه سمَّاه منكرًا والثالث: أنه سماه زورًا والرابع: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإنَّ العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب، والذنب مع ذلك لازمٌ للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة[١]. . ثم بيَّن تعالى طريق الكفارة عن هذا القول الشنيع فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم بتشبيههنَّ بالأمهات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي يعودون عمَّا قالوا، ويندمون على ما فرط منهم، ويرغبون في إعادة أزواجهم إليهم ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي فعليهم إعتاقُ رقبةٍ -عبدًا كان أو أمةً- من قبل أن يعاشر زوجته التي ظاهر منها أو يجامعها، والتَّماسُّ كنايةٌ عن الجماع ودواعيه من التقبيل واللمس عند الجمهور قال الخازن: المرادُ من التماسِّ: المجامعةُ فلا يحل للمظاهر وطءُ امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكفِّر[٢] وقال القرطبي: لا يجوز للمظاهر الوطءُ قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير، وعن مجاهد تلزمه كفارتان[٣] ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر ليتعظ به المؤمنون، حتى تتركوا الظهار ولا تعودوا إليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالم بظواهر الأمور وبواطنها ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شرع لكم من الأحكام ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متواليين من قبل الجماع، قال المفسرون: لو أفطر يومًا منها انقطع التتابع ووجب عليه أن يستأنفها ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي فمن لم يستطع الصيام لكبرٍ أو مرض، فعليه أن يُطعم ستين مسكينًا ما يشبعهم ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ذلك الذي بيناه من أحكام الظهار من أجل أن تصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي وتلك هي أوامرُ الله وحدوده فلا تعتدوها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللجاحدين والمكذبين بهذه الحدود عذاب مؤلم موجع، قال الألوسي: أطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظًا وزجرًا[٤]. . ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المحادين المخالفين لها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يخالفون أمر الله ورسوله، ويعادون الله ورسوله قال أبو السعود: أي يعادونهما ويشاقونهما لأن كلًّا من المتعادين في حدِّ وجهة غير حدِّ الآخر وجهته، وإنما ذكرت المحادَّة هنا دون المعاداة والمشاقّة لمناسبة ذكر «حدود الله» فكان بينهما من حسن الموقع ما لا غاية

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٢ .
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٤٥ .
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٨٣ .
(٤) تفسير الألوسي ٢٨/ ٢٠ .

وراءه(١) ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ أي خُذلوا وأهينوا كما خُذل من قبلهم من المنافقين والكفار الذين حادُّوا الله ورسله وأُذلوا وأُهينوا ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات، فيها الحلال والحرام، والفرائض والأحكام ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يهينهم ويُذهب عزَّهم، قال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصودُ بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيذلون ويخذلون ويفرق جمعهم فلا تخشوا بأسهم(٢) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وهو جل وعلا مطَّلع وناظر لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء.. ثم بيَّن تعالى سعة علمه، وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مطَّلع على كل ذرةٍ في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ما يقع من حديثٍ وسر بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركًا لهم فيما يتحدثون ويتهامسون به في خفية عن الناس. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي ولا يقع مناجاةٌ وحديث بالسر بين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ﴾ أي ولا أقلَّ من ذلك العدد ولا أكثر منه إلاّ واللهُ معهم يعلم ما يجري بينهم من حديثٍ ونجوى، والغرض: أنه تعالى حاضر مع عباده، مطَّلع على أحوالهم وأعمالهم، وما تهجس به أفئدتهم، لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حسن وسيئ ويجازيهم عليه يوم القيامة؛ لأنه عالم بكل شيء من الأشياء، قال المفسرون: ابتدأ الله هذه الآيات بالعلم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واختتمها بالعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكليات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات لأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، قال ابن كثير: وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعية في هذه الآية ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، فسمعه مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطَّلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء(٣).. ثم أخبر تعالى عن

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٤.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٨١.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦١.

أحوال اليهود والمنافقين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قال القرطبي: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت[1] ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نُهوا عنها، قال أبو السعود: والهمزة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة[2] ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين، قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعُدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظُلامات العباد، ثم ترقَّى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعنٌ على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك[3] ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا حضروا عندك يا محمد حيَّوك بتحيةٍ ظالمةٍ لم يشرعها الله ولم يأذن فيها، وهي قولهم: «السامُ عليكم» أي الموت عليكم، قال المفسرون: كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السامُ عليكم بدلاً من السلام عليكم، والسامُ: الموتُ وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «وعليكم» لا يزيد عليها، فسمعتهم عائشة يومًا فقالت: بل عليكم السامُ واللعنة!! فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة؛ إن الله يكره الفُحش والتفحش» فقالت: يا رسول الله أما سمعتَ ما قالوا؟ فقال لها: «أما سمعتِ ما قلت لهم؟ إني قلت لهم: وعليكم، فيستجيب الله لي فيهم، ولا يستجيب لهم فيَّ» ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي ويقولون فيما بينهم: هلاّ يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبيًّا؟ فلو كان نبيًّا حقًّا لعذبنا الله على هذا الكلام: قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يكفيهم عذابًا أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئست جهنم مرجعًا ومستقرًّا لهم، قال ابن العربي: كانوا يقولون: لو كان محمد نبيًّا لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليمٌ لا يعاجل العقوبة لمن سبَّه فكيف من سبَّ نبيه!! وقد ثبت في الصحيح «لا أحد أصبر على الأذى من الله، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم» فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم، وفضحًا لبواطنهم، وتكريمًا لرسوله ﷺ[4]، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كراماته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمةً للعالمين.. ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرًّا فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان على الغير، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي وتحدثوا بما فيه خيرٌ وطاعة وإحسان، قال القرطبي: نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩١.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٥.
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٣٦.
(٤) نقلاً عن تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٢.

نهى الله عنه [١] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه، الذي سيجمعكم للحساب، ويجازي كلاً بعمله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان؛ ليُدخل بها الحزن على المؤمنين، قال ابن كثير: أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله [٢] ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍّ للمؤمنين شيئًا إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد ولْيثق المؤمنون، ولا يبالوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم، وفي الحديث «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه» [٣].

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ .. إلى .. أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٢) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما نهى تعالى عباده المؤمنين عمَّا يكون سببًا للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سببًا لزيادة المحبة والمودَّة، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض، ثم حذر من موالاة أعداء الله، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين.

اللغة: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ توسَّعوا يقال: فسح له في المجلس أي وسَّع له، ومنه مكان فسيح أي واسع ﴿انشُزُوا﴾ انهضوا وارتفعوا يقال: نشز ينشُز إذا تنحَّى من مجلسه وارتفع منه، وأصله من النَّشز وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جُنَّةً﴾ (بضم الجيم) وقاية ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿الْأَذَلِّينَ﴾ الأذلاء المغمورين في الذل والهوان.

سَبَبُ النّزول:

أ- عن مقاتل قال: كان النبي ﷺ يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم «ثابت بن قيس» وقد سُبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يُوسَّع لهم فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله -من غير أهل بدر- قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل مع هؤلاء، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه!! فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ..﴾ [٤] الآية.

ب- عن ابن عباس قال: إن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٤ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٣ .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم .
(٤) انظر القرطبي ١٧/ ٢٩٧ والتفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٦٨ .

عليه ﷺ فأراد الله أن يخفّف عن نبيه ويثبِّطهم عن ذلك فأنزل الله﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ . .﴾ الآية فلما نزلت جبن كثير من المسلمين وكفُّوا عن المسألة[1] .

ج- قال السدي: كان «عبد الله بن نبتل» المنافق يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حجرةٍ من حجراته إذ قال «يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلبُ جبار، وينظر بعيني شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل -وكان أزرق العينين- فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: «بل فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه فأنزل الله ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[2] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ .

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصفٍ وألطف عبارة أي يامن صدَّقتم الله ورسوله وتحليتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾ أي إذا قال لكم أحد: توسعوا في المجالس -سواءٌ كان مجلس الرسول ﷺ أوغيره من المجالس -فتوسعوا وافسحوا له ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي يوسِّع لكم ربكم في رحمته وجنته قال مجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض[3] قال الخازن: أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٥ وتفسير الخازن ٤/ ٥٢ .
(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٤ . (٣) القرطبي ١٧/ ٢٩٦ .

ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله ﷺ[1] وفي الحديث «لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم»[2] قال الإمام الفخر: وقوله: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه: في المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة، واعلم أن الآية دلت على أن كل من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة وفي الحديث «لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه»[3] ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ أي وإذا قيل لكم أيها المؤمنون: انهضوا من المجلس وقوموا لتوسّعوا لغيركم فارتفعوا منه وقوموا[4] قال ابن عباس: معناه إذا قيل لكم: ارتفعوا، فارتفعوا قال في البحر: أُمروا أولاً بالتفسح في المجلس، ثم ثانيًا بامتثال الأمر فيه إذا أُمروا[5]، وألا يجدوا في ذلك غضاضة ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله، والعالِمين منهم خاصة أعلى المراتب، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة، قال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم فإن الله يقول يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات، وقال القرطبي: بيّن في هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس، وفي الحديث «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وعنه ﷺ «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء» فأعظمْ بمنزلةٍ هي واسطةٌ بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ!![6] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم محادثته سرًّا ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ أي فقدموا قبلها صدقة تصدَّقوا بها على الفقراء، قال الألوسي: وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفعٌ للفقراء، وتمييزٌ بين المخلص والمنافق، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة[7] ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي تقديم الصدقات قبل مناجاته أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله، وأطهر لذنوبكم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله يسامحكم ويعفو عنكم؛ لأنه لم

(١) تفسير الخازن ٤/ ٥٠ .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم .
(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٩ .
(٤) أورد العلامة ابن كثير عند هذه الآية الكريمة «حكم القيام للقادم» فقال رحمه الله: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخّص في ذلك محتجًّا بحديث «قوموا إلى سيدكم» ومنهم من منع من ذلك محتجًّا بحديث «من أحبَّ أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار» ومنهم من فصّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لما استقدمه النبي ﷺ ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه.. ثم قال: وأما اتخاذه ديدنًا فإنه من شعار العجم، وفي السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكنْ حيث يجلس ﷺ يكون هو صدر المجلس. اهـ.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٣٧ .
(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٠ .
(٧) تفسير الألوسي ٢٨/ ٣٠ .

يكلف بذلك إلا القادر منكم ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾ عتابٌ للمؤمنين رقيقٌ رفيق أي أخفتم أيها المؤمنون الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسول ﷺ؟ والغرضُ: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض، وهو عتاب لطيف كما بينا، ثم نسخ تعالى الحكم تيسيرًا على المؤمنين فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي فإذا لم تفعلوا ما أُمرتم به وشقَّ ذلك عليكم، وعفا الله عنكم بأن رخَّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فاكتفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيطٌ بأعمالكم ونياتكم، قال المفسرون: نسخ الله ذلك تخفيفًا على العباد حتى قال ابن عباس: ما كان ذلك إلا ساعةً من نهار ثم نسخ[1] قال القرطبي: نسختْ فرضيةُ الزكاة هذه الصدقة، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: «آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسول ﷺ. . . إلخ فضعيفٌ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ وهذا يدل على أن أحدًا لم يتصدق بشيء[2] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ تعجيبٌ للرسول ﷺ من أمر المنافقين الذين اتخذوا اليهود أصدقاء أي ألا تعجب يا محمد من حال هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان، وقد اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين!! قال الإمام الفخر: كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وكانوا ينقلون إليهم أسرار المؤمنين[3] ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، بل هم مذبذبون بين ذلك كقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ قال الصاوي: أي ليسوا من المؤمنين الخُلَّص، ولا من الكافرين الخُلَّص، لا ينتسبون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[4] ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ويحلفون بالله كاذبين يقولون: والله إنا لمسلمون، وهم يعلمون أنهم كذبة فجرة، قال أبو السعود: والصيغةُ مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يُعلم أنه كذبٌ -في غاية القبح[5] ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم تعالى -بسبب نفاقهم- عذابًا في نهاية الشدة والألم، وهو الدرك الأسفل في جهنم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما فعلوا وبئس ما صنعوا ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً لأنفسهم وسترةً لها من القتل، قال في التسهيل: أصل الجُنَّة: ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا بطريق الاستعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم[6] ﴿فَصَدُّوا۟

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٥٣ .
(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٣ .
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٨٤ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٧ .
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٥ .

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء والمكر والخداع بالمسلمين ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإهانة ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي هم أهل النار لا يخرجون منها أبدًا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يحشرهم يوم القيامة جميعًا للحساب والجزاء ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذبًا أنهم مسلمون، قال ابن عباس: هو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [1] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي يظنون أن حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدفع القتل عنهم، قال أبو حيان: والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على علاَّم الغيوب، ويُجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم، والمقصود أنهم تعودوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا [2] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم وتملَّك نفوسهم حتى أنساهم أن يذكروا ربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة؛ لأنهم فوَّتوا على أنفسهم النعيم الدائم وعرضوها للعذاب المقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو تعالى قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالبٌ على أعدائه، لا يُقهر ولا يُغلب، قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا: نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن سلول: أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟! والله إنهم لأكثر عددًا، وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك!! فنزلت ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [3] ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يصدقون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما؛ لأن من أحبَّ الله عادى أعداءه، ولا يجتمع في قلب واحد حبُّ الله وحبُّ أعدائه، كما لا يجتمع النور والظلام، قال المفسرون: غرضُ الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارٍ مبالغةً في النهي والتحذير قال الإمام الفخر: المعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع حبِّ أعداء الله، وذلك لأن من أحبَّ أحدًا امتنع أن يحب عدوه؛ لأنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٥. (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٣٨.
(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ وتفسير الألوسي ٢٨/ ٣٤.

حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان[١] ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي ولو كان هؤلاء المحادُّون لله ورسوله أقرب الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن قضية الإيمان بالله تقتضي معاداة أعداء الله، قال في البحر: بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء كما قال القائل:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[٢]

قال ابن كثير: نزلت ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ في «أبي عبيدة» قتل أباه «الجراح» يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصِّدّيق همَّ بقتل ابنه «عبد الرحمن بن أبي بكر» ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ في مُصعب بن عمير قتل أخاه عُبيد بن عمير يومئذٍ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا عُتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة يوم بدر[٣] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي أثبت الإيمان، ومكّنه في قلوبهم، فهي مؤمنة موقنة مخلصة ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي وقوّاهم بنصره وتأييده، قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، وسمى ذلك النصر روحًا لأن به يحيا أمرهم[٤] ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآبدين ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي قبل الله أعمالهم فرضي عنهم، ونالوا ثوابه فرضوا بما أعطاهم، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم، وأجلّ المراتب، قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى، عوَّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي أولئك جماعة الله وخاصته وأولياؤه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وهذا في مقابلة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ـ صيغة المبالغة في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ وفي ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

٢ـ الإطناب بذكر الأمهات ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ زيادةً في التقرير والبيان.

٣ـ الطباق ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ لأن معنى أدنى: أقل فصار الطباق بينها وبين أكثر.

٤ـ عطف الخاص على العام تنبيهًا على شرفه ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فإن ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ دخلوا في المؤمنين أولاً ثم خصوا بالذكر ثانيًا تعظيمًا لهم.

٥ـ الاستعارة ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ استعار اليدين لمعنى قبل أي قبل نجواكم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٦ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٣٩ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٧ .
(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٧ .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٨ .

٦ - الاستفهام والمراد منه التعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم . . .﴾ .

٧- الجناس الناقص بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لتغير الرسم .

٨- المقابلة بين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وبين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ . . .﴾ الآية .

٩ - تحلية الجملة بفنون المؤكدات مثل «ألا ، وإنَّ ، وهم» في قوله : ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل (الخاسرون ، الكاذبون ، خالدون ، يعملون) .

لطيفة: روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل أن «نافع بن عبد الحارث» لقي عمر بن الخطاب بعسفان -وكان عمر استعمله على مكة- فقال عمر : من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال : استخلفت عليهم «ابن أبزى» فقال : ومن ابن أبزى؟ فقال : رجلٌ من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى؟! فقال : يا أمير المؤمنين إنه قارئٌ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاضٍ! فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ، ويضع به آخرين» .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المجادلة»
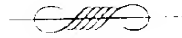
بَيْــن يَدَي السُّورَة

* سورة الحشر مدنية وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية، والمحورُ الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن «غزوة بني النضير» وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة «سورة بني النضير» وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود، وبإيجاز هي سورة «الغزوات والجهاد والفيء والغنائم».

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده، فالكون كله بما فيه من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله، ناطق بعظمته وسلطانه﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته، ومظاهر عزته، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ . .﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء؛ لئلا يستأثر به الأغنياء، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع، بما فيه خير الفريقين، وبما يحقق المصلحة العامة﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ . .﴾ الآيات.

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر، فنوَّهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حبًّا في الله، والأنصار نصروا دين الله، وآثروا إخوانهم -المهاجرين- بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا . .﴾ الآيات.

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار، ذكرت السورة المنافقين الأشرار، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، وضربت لهم أسوأ الأمثال، فمثلتهم بالشيطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ . .﴾ الآيات.

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب،

ولا يفيد فيه جاه ولا مال، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار، ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ . . ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . ﴾ الآيات وهكذا يتناسق البدء مع الختام، أبدع تناسقٍ ووئام!!

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى:﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . إلى . . رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠).

اللغَة: ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ الجمع، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ أي جمع له الجنود ﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿شَآقُّوا۟﴾ عادوا وخالفوا ﴿لِّينَةٍ﴾ (بكسر اللام) النخلة القريبة من الأرض، الكريمة الطيبة، سميت لينة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش:

قد شجاني الحمامُ حين تغنَّى ... بفراق الأحباب من فوقِ لينةْ[1]

﴿أَوْجَفْتُمْ﴾ الوجيف: سرعة السير يقال: أوجف البعيرَ إذا حثَّه وحمله على السير السريع ﴿دُولَةًۢ﴾ (بضم الدال) الشيء الذي يتداول من الأموال، وينتقل من يد إلى يد ﴿خَصَاصَةٌ﴾ فقر واحتياج ﴿غِلًّا﴾ حِقدًا وضغينة.

سَبَبُ النّزول: لما نقض اليهود «بنو النضير» العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإحراقه إهانةً لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك نبي؟ وأنك تنهى عن الفساد؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها؟! فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ . . ﴾[2] الآية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

(١) تفسير القرطبي ١٨/٩. (٢) التفسير الكبير ٢٩/٢٨٣.

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

التَّفْسِير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزَّه الله تعالى ومجَّده وقدَّسه جميع ما في السموات والأرض من ملك، وإنسان، وجماد، وشجر كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى أن جميع ما في السمواتِ والأرض يسبح له ويُمجده ويقدِّسه ويُوحِّده[1] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيمُ في صنعه ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ بيانٌ لبعض آثار قدرته تعالى الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جلَّ وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، قال البيضاوي: لما قدم ﷺ المدينة صالح «بني النضير» على ألاَّ يكونوا معه ولا عليه، فلما ظهر يومَ بدر قالوا: إنه النبي المنعوتُ في التوراة بالنصرة لا تُردُّ له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا، وخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكبًا إلى مكة وحالفوا «أبا سفيان» فأمر رسول الله ﷺ «محمد بن مسلمة» أخا كعبٍ من الرضاعة فقتله غيلةً، ثم صبَّحهم بالكتائب وحاصرهم، حتى صالحوه على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر، فذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾[2] قال الألوسي: ومعنى ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أن هذا أول حشرهم إلى الشام أي أول ما حُشروا وأُخرجوا، ونبَّه بلفظ ﴿أَوَّلَ﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءٌ قبله[3] ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان؛ لعزتهم ومنعتهم، وشدة بأسهم، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار، ونخيلٍ وثمار ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه، قال البيضاوي: والأصل أن يقال: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتغييرُ النظْم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة[4] ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي فجاءهم بأسُ الله وعذابه من

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٩ .
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٦٩ .
(٣) تفسير الألوسي ٢٨/ ٣٩ .
(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٠ .

حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر ببالهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد؛ مما أضعف قوتهم، وسلبهم الأمن والطمأنينة، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث «نُصرت بالرعب من مسيرة شهر»[١] ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل، وأيدي المؤمنين من الخارج، قال المفسرون: كان بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخربون بيوتهم فيقلعون العُمد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران؛ لئلا يسكنها المؤمنون حسدًا منهم وبغضًا، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي ولهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادوه وعصوا أمره، وارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم، ونقضٍ للعهود في حق رسوله ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله، ويعادِ دينه فاللهُ ينتقم منه لأن عذابه شديد، وعقابه أليم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ .. ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل، وإحراق بعض الأشجار المثمرة، إنما كان بأمر الله وإرادته فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من شجرة نخيل، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فبأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي وليغيظ اليهود ويذلهم بقطع أشجارهم ونخيلهم، قال الرازي: المعنى إنما أذن تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعزِّ أموالهم[٢] قال المفسرون: لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم؛ إهانةً لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا: ما هذا الإفساد يا محمد؟ إنك كنت تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟! فأنزل الله هذه الآية الكريمة[٣] ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي وما أعاد الله وردَّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تسيِّروا إليه خيلكم ولا ركابكم، ولا تعبتم في تحصيله، قال القرطبي: يقال: وجف البعير وجيفًا إذا أسرع السير، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع، والركاب: ما يُركبُ من الإبل، والمعنى: لم تقطعوا إليها شُقةً، ولا لقيتم بها حربًا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فافتتحها

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٨٣ .

(٣) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧١ والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤ وانظر سبب النزول السابق .

رسول الله ﷺ صلحًا، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء[١] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائه، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على كل شيء، لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزه شيء.. ثم بيَّن تعالى حكم الفيء عامةً -وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب- فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما جعله الله غنيمةً لرسوله بدون قتال من أموال الكفار، قال ابن عباس: هي قريظة، والنضير، وفدك، وخيبر[٢] ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب، ولليتامى الذين مات آباؤهم، وللمساكين ذوي الحاجة والفقر ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره، قال في التسهيل: لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغانمين، وأما هذه ففي «حكم الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء، وأنَّ حكمهما مختلف، فالغنيمة: ما أُخذت بالقتال، والفيءُ: ما أُخذ صلحًا، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾[٣]!! ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء، مع شدة حاجة الفقراء للمال، قال القرطبي: أي فعلنا ذلك كي لا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه -وهو المرباعُ- ثم يصطفي منها أيضًا ما يشاء[٤] قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذٍ فقراء، ولم يُعط الأنصار منها شيئًا فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه؛ فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شرٍّ وفساد، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجبٍ، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره[٥]، عن ابن مسعود أنه قال: «لعن اللهُ الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيِّرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يُقال لها: «أم يعقوب» -وكانت تقرأ القرآن- فأتته فقالت:

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠ .
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٦٠ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٠٨ .
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦ .
(٥) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٨٦ .

ما حديثٌ بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا!! وذكرته له، فقال ابن مسعود: وما لي لا ألعنُ من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟ فقالت المرأةُ: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته! فقال: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأتِ قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]؟ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ هذا متعلقٌ بما سبق من حكم الفيء كأنه يقول: الفيءُ والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم، فتركوا الديار والأموال ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة هم الصادقون في إيمانهم، قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال، والأهلين والأوطان حبًّا لله ورسوله، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليُقيم به صُلبه من الجوع[2].. ثم مدح تعالى الأنصار وبيَّن فضلهم وشرفهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكنًا وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار قال القرطبي: أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوء: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد: آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم[3] ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم قال الخازن: وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم[4] ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازةً وغيظًا وحسدًا مما أعطي المهاجرون من الغنيمة دونهم قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثةً منهم، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يفضّلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومن حماه الله وسلم من البخل فقد أفلح ونجح، والشُّحُّ هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها، قال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له[5] وفي الحديث «واتقوا الشُّحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، قال العلماء: الوشم: هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحشى بكحل، والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك، والنَّامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحسن، وكل ذلك منهيٌّ عنه لأن فيه تغييرًا لخلق الله .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠ .

(٤) تفسير الخازن ٤/ ٦٢ . (٥) حاشية الصاوي ٤/ ١٩٠ .

دماءهم، واستحلوا محارمهم»[(١)] ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي يدعون لهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان، قال أبو السعود: وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافًا بفضلهم؛ لأن أخوة الدين عندهم أعزُّ وأشرف من النسب[(٢)] ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحسدًا لأحدٍ من المؤمنين﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغٌ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا، قال ابن كثير: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين[(٣)]، وقال شيخ زاده: بيَّن تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجًا عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات، وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى! وسئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى! وسئلت الرافضة من شرُّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحابُ محمد ﷺ أُمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة[(٤)]. اللهم ارزقنا محبة أصحاب نبيك الكريم.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ . . إلى . . وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٤) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين المخادعين، الذين تركوا نصرة المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، ثم ذكر البون الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، وأنهم لا يستوون في الحال ولا المآل، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا.

اللغة: ﴿شَتَّىٰ﴾ متفرقة، تشتَّت جمعهم أي تفرق ﴿خَٰشِعٗا﴾ ذليلاً خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾ متشققًا تصدَّع البنيان أي تشقق ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ المنزَّه عن كل نقص وعيب ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ المصدّق لرسله بالمعجزات ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القويُ الغالب ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ العظيم القاهر، صاحب العظمة والجبروت ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ المبالغ في الكبرياء والعظمة﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ المبدع المخترع ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ خالق الصور.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٢.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧٥.
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ تعجيبٌ من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي ألا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا؟ ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ : ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي لئن أخرجتم من المدينة لنخرجنَّ معكم منها قال في التسهيل: نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول وقوم من المنافقين، بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: اثبتوا في حصونكم؛ فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم[1]، وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحدٍ إذا أمرنا بخذلانكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به . . . ثم أخبر الله عن حال المنافقين بالتفصيل فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم قال القرطبي: وفي هذا دليل على صحة نبوَّة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب؛ لأنهم أُخرجوا فلم يخرجوا معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنه القرآن[2] ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم -على سبيل الفرض والتقدير- فسوف ينهزمون، ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين قال

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٣٤ .

الإمام الفخر: أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم -وقد كان الأمر كذلك، فإن بني النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقُوتلوا كذلك فما نصروهم- وأما قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لابدَّ وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا [1] ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشدُّ خوفًا وخشيةً في قلوب المنافقين من الله، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشدَّ من رهبتهم من الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حقَّ خشيته قال القرطبي: أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته [2]. . ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جبناء من شدة الهلع، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصِّنين في قلاعهم وحصونهم فقال: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصَّنة بالأسوار والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها؛ لفرط جبنهم وهلعهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ورأي -في الصورة- ذوي ألفةٍ واتحاد، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن آراءهم مختلفة، وقلوبهم متفرقة قال قتادة: أهل الباطل مختلفةٌ آراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفةٌ شهاداتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق [3] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك التفرق والتشتت بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله قال في البحر: وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة [4] ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي صفةُ بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل كصفةِ كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر قال البيضاوي: أي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو المهلكين من الأمم الماضية في زمان قريب [5] ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم عذاب شديد موجعٌ في الآخرة ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ أي مثل المنافقي في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به قال في التسهيل: هذا مثلٌ، مثَّل اللهُ للمنافقين -الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك- بالشيطان الذي يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس [6]، وقولُ الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ كذبٌ منه ورياءٌ لأنه لو خاف الله لامتثل أمره وما عصاه [7] ﴿فَكَانَ

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٨٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٣٥
(٣) تفسير الخازن ٤/ ٦٦ . (٤) تفسير البحر ٨/ ٢٤٩ .
(٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٧٨ . (٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠ .
(٧) قال ابن كثير: أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين -كمثل الشيطان إذ سوَّل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال: إني أخاف الله رب العالمين. مختصر ٣/ ٤٧٦ .

عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة المنافقين واليهود- مثل عاقبة الشيطان والإنسان، حيث صارا إلى النار المؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي وذلك عقاب كل ظالم فاجر، منتهكٍ لحرمات الله والدين.. ولمَّا ذكر صفات كلٍّ من المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال، وعظ المؤمنين بموعظةٍ حسنة؛ تحذيرًا من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي ولتنظر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة قال ابن كثير: انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم[١]، وسُمي يوم القيامة غدًا لقرب مجيئه ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ والتنكير فيه للتفخيم والتهويل[٢] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كرَّره للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا ذكر الله ومراقبته وطاعته، فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان: وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب، تركوا عبادة الله وامتثال أوامره، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظَّ أنفسهم[٣]، حتى لم يقدموا لها خيرًا ينفعها ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ أي أولئك هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء- أهل النار وأهل الجنة- في الفضل والرتبة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية في دار النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.. ثم ذكر تعالى روعة القرآن، وتأثيره على الصمِّ الراسيات من الجبال فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لو خلقنا في الجبل عقلاً وتمييزًا كما خلقنا للإنسان، وأنزلنا عليه هذا القرآن، بوعده ووعيده، لخشع وخضع وتشقق خوفًا من الله تعالى، ومهابةً له، وهذا تصويرٌ لعظمة قدر القرآن، وقوة تأثيره، وأنه بحيث لو خوطب به جبلٌ -على شدته وصلابته- لرأيته ذليلاً متصدعًا من خشية الله، والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن، بل يعرض عما فيه من عجائب وعظائم، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن، ودناءة حال الإنسان[٤] وقال في البحر: والغرضُ توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تأثره بهذا الذي لو أُنزل على الجبل لتخشَّع وتصدَّع، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر[٥] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٧ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٤ .
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥١ .
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٩ .
(٥) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥١ .

وتلك الأمثال نفصّلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون . . ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة ، أتبعه بشرح عظمة الله وجلاله فقال : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الإله المعبود بحقٍّ لا إله ولا رب سواه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي عالم السر والعلن ، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه ، وما شاهدوه وعلموه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد أي لا معبود ولا رب سواه ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات ، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي ، والإيجاد والإعدام ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي المنزَّه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل : القُدُّوسُ مشتقٌّ من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين ، وعن كل نقص وعيب ، والصيغة للمبالغة كالسبُّوح[١] ، وقد ورد أن الملائكة تقول في تسبيحها : «سبُّوح قُدُّوس ، ربُّ الملائكة والروح» ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الذي سلم الخلق من عقابه ، وأمنوا من جوره ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقال البيضاوي : أي ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهو مصدر وصف به للمبالغة[٢] ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيبُ الحافظ لكل شيء وقال ابن عباس : الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء[٣] ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي القهار العالي الجناب الذي يذل له من دونه قال ابن عباس : هو العظيم الذي إذا أراد أمرًا فعله ، وجبروتُ الله عظمته[٤] ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء حقًّا ولا يليق إلا به وفي الحديث القدسي «العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي»[٥] قال الإمام الفخر : واعلم أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم ؛ لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكِبْر ، وذلك نقصٌ في حق الخلق ؛ لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا فكان مذمومًا في حق الناس ، وأما الحقُّ سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه ، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جل وعلا[٦] ، ولهذا قال في آخر الآية : ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس في جلاله وعظمته عمَّا يلحقون به من الشركاء والأنداد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ أي هو جل وعلا الإله الخالق لجميع الأشياء ، الموجد لها من العدم ، المنشئ لها بطريق الاختراع ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قال الخازن : أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده[٧] ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١١ .
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٧٢ .
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧ .
(٤) تفسير الخازن ٤/ ٧٢ .
(٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧ .
(٦) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٩٤ .
(٧) تفسير الخازن ٤/ ٧٣ .

على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي: ختم السورة بالتسبيح كما ابتدأها به إشارة إلى أنها المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة بالله تنزيه عظمته عما صوّرته العقول[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وصنعه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ ـ طباق السلب ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

٣ـ وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٤ ـ الاستعارة اللطيفة﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ شبَّه الإيمان المتمكن في نفوسهم بمنزلٍ ومستقرٍّ للإنسان نزل فيه وتمكّن منه حتى صار منزلاً له، وهو من لطيف الاستعارة.

٥ـ الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجيب﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ . . .﴾ الآية.

٦ـ الطباق بين (جميعًا) و(شتى) في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

٧ـ التشبيه التمثيلي﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾. وجه الشبه منتزع من متعدد.

٨ـ الكناية اللطيفة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ كنّي عن القيامة بالغد لقربها.

٩ـ الطباق بين﴿ٱلْغَيْبِ . . . وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وبين ﴿ٱلْجَنَّةِ . . . ٱلنَّارِ﴾ إلخ.

لطيفَة: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مجهود -أي اشتد بي الجوع والفاقة- فأرسل إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء، ثم أرسل إلى أُخرى فقالت مثل ذلك، وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «من يضيفه هذه الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار يقال له «أبو طلحة» فقال: أنا يا رسول الله!! فانطلق به إلى رحله -أي إلى منزله- فقال لها: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئًا وأكرميه! فقالت: ما عندي إلا قوتُ الصبيان، فقال علّليهم بشيء ونوّميهم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه، ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم، ثم قال: «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة بصاحبكما» وأنزل الله﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . .﴾ الآية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٩٤.
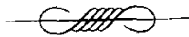
تفسير سورة الممتحنة

بَيْن يَدَي السُّورَة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تهتم بجانب التشريع، ومحورُ السورة يدور حول فكرة «الحبّ والبغض في الله» الذي هو أوثق عُرى الإيمان، وقد نزل صدر السورة عتابًا لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتابًا لأهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قد تجهز لغزوهم، كما ذكر تعالى حكم موالاة أعداء الله، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرئهم من المشركين، وبيَّن حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهن . . . وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ . . .﴾ الآيات.

* ثم بينت السورة أنَّ القرابة والنسب والصداقة في هذه الحياة -لن تنفع الإنسان أبدًا يوم القيامة؛ حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ . . .﴾ الآيات.

* ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين، حين تبرءوا من قومهم المشركين؛ ليكون ذلك حافزًا لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا . . .﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ . . .﴾ . وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ . . .﴾ الآيات.

* وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة، وعدم ردهنَّ إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ . .﴾ الآيات وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة أعداء الله الكافرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله؛ ليتناسق الكلام في البدء والختام.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ . . إلى . . كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ من آية (١) إلى آية (١٣) نهاية السورة.

اللغة: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أصدقاء وأحباء جمع وليّ وهو الصديق والناصر والمعين ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، وأصل الثقف الحذقُ في إدراك الشيء وفعله، ومنه قولهم «رجلٌ ثقِف لقف» ثم استعمل في الظفر والإدراك مطلقًا [١] ﴿أُسۡوَةٌ﴾ قدوة يقتدى به ﴿أَرۡحَامُكُمۡ﴾ جمع رحم وهو في الأصل رحم المرأة، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾ أعانوا «عِصَم» جمع عِصْمة وهي ما يعتصم ويتمسك به الإنسان من حبلٍ أو عقد والمراد به هنا عقد النكاح ﴿ٱلۡكَوَافِرِ﴾ جمع كافرة وهي التي لا تؤمن بالله.

سَبَبُ النّزول: لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة، كتب «حاطب بن أبي بلتعة» إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم: إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، ثم أرسل الكتاب مع ظعينةٍ -أي امرأةٍ مسافرة- فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عليًا، والزبير، والمقداد وقال: «انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ» [٢] فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به» فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا لها: لتخرجنَّ الكتاب أو لتلقينَّ الثياب فأخرجته من عِقاصها [٣]، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ إني كنت أمرأ ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفرًا وارتدادًا عن ديني!! فقال عمر: دعني يا رسول الله أضربُ عنق هذا المنافق!! فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»! فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ . . .﴾ [٤] الآية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ① إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ② لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ

(١) تفسير الألوسي ٢٨/ ٦٨ .
(٢) روضة خاخ: مكان على بعد قليل من المدينة .
(٣) عقاصها: ضفائر شعرها .
(٤) أخرجه الشيخان وانظر روح المعاني ٢٨/ ٦٥ والقرطبي ١٨/ ٥٠ .

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ .

التَّفْسِير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من صدقتم بالله ورسوله، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء، فإنَّ من علامة الإيمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصداقتهم قال في التسهيل: نزلت عتابًا لحاطب وزجرًا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريفٌ له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [(١)] ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي تحبونهم وتودونهم وتصادقونهم مع أنهم أعداء ألداء لكم قال القرطبي: أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم [(٢)] ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ أي والحال أنهم كافرون بدينكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يخرجون محمدًا من مكة ظلمًا وعدوانًا كما يخرجون أيضًا منها المؤمنين قال في البحر: وقدَّم الرسول تشريفًا له ولأنه الأصلُ للمؤمنين [(٣)]، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله الواحد الأحد كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلبًا لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء قال الألوسي: وجوابُ الشرط

---

(١) التسهيل ٤/ ١١٢ .   (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٥٢ .

(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٣ .

محذوف دلَّ عليه ما تقدم كأنه قال: لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي [١] ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم، لا يخفى عليَّ شيءٌ من أحوالكم! والغرض منه التوبيخُ والعتاب ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله، ويفش أسرار الرسول، فقد حاد عن طريق الحق والصواب.. ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة الكفار الشديدة لهم، المستحكمة في قلوبهم فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم والسبِّ ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري: وإنما أورده بذكر الماضي ﴿وَوَدُّوا۟﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ لأنهم أرادوا كفرهم قبل كل شيء [٢] كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئًا، فلن يجلبوا لكم نفعًا، ولن يدفعوا عنكم ضُرًّا قال الصاوي: هذا تخطئةٌ لحاطب في رأيه كأنه قال: لا تحملكم قراباتكم وأولادكم الذين بمكة على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقل أخبارهم وموالاة أعدائهم؛ فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتم الله من أجلهم [٣] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين، فيدخل المؤمنين جنات النعيم، ويدخل المجرمين دركات الجحيم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطَّلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قُدوة حسنةٌ في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي حين قالوا للكفار: إننا متبرئون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقتكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي وظهرت بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء إلى الأبد ما دمتم على هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون: أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة المشركين والتبرؤ منهم؛ لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هذا من تتمة كلام إبراهيم لأبيه أي ما أدفع عنك من عذاب الله شيئًا إن أشركت به، ولا أملك لك شيئًا غير الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي

(١) تفسير الألوسي ٢٨/ ٦٧ . (٢) الكشاف ٤/ ٢٩٥ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٩٥ .

وإليك رجعنا وتبنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة قال المفسرون: إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ واستغفر له بالقول فعلاً كما في سورة الشعراء ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وكلُّ هذا كان رجاء إسلامه، ثم رجع عن ذلك لمَّا تيقَّن كفره كما في سورة التوبة ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطيقه [١] وقال مجاهد: أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب ﴿رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي أنت يا الله الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع والجؤار ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه من المؤمنين قدوةٌ حسنة في التبرؤ من الكفار قال أبو السعود: والتكريرُ للمبالغة في الحثِّ على الاقتداء به عليه السلام ولذلك صُدِّر بالقسم [٢] ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالى، ويخاف عقابه في الآخرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي ومن يُعرض عن الإيمان وطاعة الرحمن، فإن الله مستغنٍ عن أمثاله وعن الخلق أجمعين، وهو المحمود في ذاته وصفاته ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي لعلَّ الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم المشركين محبةً ومودة، محبةً بعد البغضاء، وألفة بعد الشحناء قال في التسهيل: لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم، على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة والمودة، وعلم الله صدقهم، آنسهم بهذه الآية، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة أي محبة، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذٍ سائر قريش [٣]، وجمع الله الشمل بعد التفرق وقال الرازي: و(عسى) وعدٌ من الله تعالى وقد حقق تعالى ما وعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسلمين، ومخالطتهم لهم حين فتح مكة [٤] ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، يقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان، ولفظة ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في موضع جر بـ«عن» أي لا ينهاكم جلَّ وعلا عن البر والإحسان لهؤلاء ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) القول الأول مروي عن ابن عباس، والثاني قول مجاهد والأول هو الأرجح لأنه دعاءٌ لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم، وهو اختيار ابن عطية .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٧ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٤ .
(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٣٠٣ .

﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدًا، فرخَّص الله في برهم والإحسان إليهم[١].. وروي عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: قدمت أمي -وهي مشركة- في عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ -تعني في صلح الحديبية- فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمتْ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صِلي أمك»[٢]، فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ...﴾ الآية ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم، أن تتولَّهم فتتخذوهم أولياء وأنصارًا وأحبابًا ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصارًا وأحبابًا، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي اختبروهنَّ لتعلموا صدق إيمانهنَّ قال المفسرون: كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة -يعني المشركين- رُدَّ إليهم، فجاءت «أم كلثوم» بنت عقبة بن أبي مُعيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ، فخرج في أثرها أخواها «عُمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: رُدَّها علينا بالشرط، فقال ﷺ: «كان الشرطُ في الرجال لا في النساء»، فأنزل الله الآية، قال ابن عباس: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضًا لزوجها، ولا طمعًا في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله، ورغبةً في دين الإسلام[٣] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي والله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان؛ لأنه تعالى المطّلع على قلوبهن، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفى عليه خافية ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي فإن تحققتم إيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهنَّ إلى أزواجهن الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي لا تحل المؤمنة للمشرك، ولا يحل للمؤمن نكاح المشركة قال الألوسي: والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك[٤] ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر: أمر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت، فلا يجمع عليه خُسران الزوجة والمالية[٥] ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي ولا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهنَّ قال الخازن: أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٣٠٤ .
(٢) أخرجه الشيخان وأحمد .
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٦ .
(٤) تفسير الألوسي ٢٨/ ٧٦ .
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٥٧ .

لأن الإسلام فرَّق بينهن وبين أزواجهنَّ الكفار، وتقع الفرقة بانقضاء عدتها[١] ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية قال القرطبي: المراد بالعصمة هنا النكاحُ، يقول: من كانت له امرأةٌ كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين[٢] ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ أي اطلبوا يا أيها المؤمنون ما أنفقتم من المهر إذا لحقتْ أزواجكم بالكفار، وليطلبوا هم -أي المشركون- ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات قال ابن العربي: كان مَن ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمةً مهاجرة: ردُّوا إلى الكفار مهرها، وكان ذلك نَصفًا وعدلاً بين الحالتين[٣] ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي ذلكم هو شرعُ الله وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه لهم، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي وإن فرَّت زوجة أحدٍ من المسلمين ولحقت بالكفار ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فغزوتم وغنمتم وأصبتم من الكفار غنيمة﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي فأعطوا لمن فرَّت زوجته مثل ما أنفق عليها من المهر، من الغنيمة التي بأيديكم قال ابن عباس: يعني إن لحقت امرأة رجلٍ من المهاجرين بالكفار، أمر له رسولُ الله ﷺ أن يُعطى مثل ما أنفق من الغنيمة[٤] قال القرطبي: لما نزلت الآية السابقة ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ قال المسلمون: رضينا بما حكم اللهُ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت هذه الآية[٥] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وراقبوا اللهَ في أقوالكم وأفعالكم، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره ﴿الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي الذي آمنتم وصدقتم بوجوده، فإن من مستلزمات الإيمان تقوى الرحمن.. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يُبايعنه على الإسلام، كما بايعه الرجال فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعْهُنَّ على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله جلَّ وعلا ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى، التي هي من أفحش الفواحش ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أي ولا يئدن البنات كما كان يفعله أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر، قال ابن كثير: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعمُّ قتله وهو جنينٌ كما يفعله بعض النساء الجاهلات، تُطرح نفسها لئلا تحبل، إمّا لغرضٍ فاسد أو ما أشبهه[٦] ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي لا تنسب إلى زوجها ولدًا لَقيطًا ليس

(١) تفسير الخازن ٤/ ٧٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٨.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٦.
(٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٨ ثم نقل القرطبي عن قتادة أن هذا الحكم قد نسخ بسورة «براءة».
(٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٩.

منه تقول له: هذا ولدي منك قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحًا[١] قال ابن عباس: لا تُلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقطُ المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[٢] ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهنَّ به من معروف، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط، واطلب لهنَّ من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة قال أبو حيان: كانت «بيعة النساء» في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه، يبايعهنَّ بأمره ويبلغهنَّ عنه، وما مست يده عليه الصلاة والسلام يد امرأةٍ أجنبيةٍ قطُّ، وقالت «أسماء بنتُ السكن»: كنتُ في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله أُبسط يدك نبايعك، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «إني لا أصافح النساء، لكنْ آخذُ عليهنَّ ما أخذ اللهُ عليهنَّ» وكانت «هند بنت عُتبة»--وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد- متنكرة في النساء، فلما قرأ عليهن الآية ﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت وهي متنكرة: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني لأصيب الهنة -أي القليل وبعض الشيء- من ماله، لا أدري أيحل لي ذلك أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبتِ من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنتُ عتبة؟» قالت: نعم فاعفُ عما سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك، فلما قرأ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: أوتزني الحُرة؟! فلما قرأ ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا فأنتم وهم أعلم -وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر- فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قالت هند: والله إن البهتان لأمرٌ قبيح، ولا يأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت: واللهِ ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء[٣] وأخرج الإمام أحمد عن «أميمة بنت رقيقة» -أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء- قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نساءٍ لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية وقال: «فيما استطعتنَّ وأطقتُنَّ» فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأةٍ واحدة قولي لمائة امرأة»[٤] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تصادقوا يا

---

(١) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٠ وتفسير أبي السعود ٥/ ١٥٨ وتفسير الرازي ٢٩/ ٣٠٨ .

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ٨٠ .

(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٨ وانظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٣٠٧ .

(٤) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي .

معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، ولا تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم؛ فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم قال الحسن البصري: هم اليهود لقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقال ابن عباس: هم كفار قريش لأن كل كافر عليه غضبٌ من الله[1]، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير: يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه[2] ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي أولئك الفجار الذين يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبدًا[3]. . ختم تعالى السورة الكريمة بمثل ما فتحها به وهو النهي عن موالاة الكفار أعداء الله، وهو بمثابة التأكيد للكلام، وتناسق الآيات في البدء والختام، وهو من البلاغة في مكان.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ لأن الإخفاء يطابق الإعلان.

٢ - العتاب والتوبيخ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ . . .﴾ الآية.

٣ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الصيغة للحصر ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، والأصل توكلنا عليك، وأنبنا إليك. . إلخ.

٤ - صيغة المبالغة ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو كثير في القرآن ومثله ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٥ - طباق السلب ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ . .﴾ الآية.

٦ - الجملة الاعتراضية ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن للإنسان الظاهر والله يتولى السرائر.

٧ - العكسُ والتبديلُ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وهو من أنواع البديع.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كنّى بذلك عن اللقيط، وهي من لطائف الكنايات.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ كما أن فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٥٩ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٠ .

(٣) هذا هو الراجح في تفسير الآية الكريمة وهو خلاصة قول ابن عباس وقتادة والحسن، وقال مجاهد: معناه: أنهم يئسوا من نعيم الآخرة كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. والأول أظهر والله أعلم .

تفسير سورة الصف

بَيْن يَدَي السُّورَة

*سورة الصف هي إحدى السور المدنية، التي تُعنى بالأحكام التشريعية، وهذه السورة تتحدث عن موضوع «القتال» وجهاد أعداء الله، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو «القتال»، ولهذا سميت سورة الصف.

*ابتدأت السورة الكريمة -بعد تسبيح الله وتمجيده- بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾.

*ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته؛ لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل، وهو رفع منار الحق، وإعلاء كلمة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

*وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي .. ﴾ الآيات.

*وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرة دينه، وأنبيائه، وأوليائه، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

*ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة، وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصرة العاجلة في الدنيا، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ .. ﴾ الآيات.

*وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ .. ﴾. وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام.

□□□

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . إلى . . وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٩).

اللغة: ﴿سَبَّحَ﴾ التسبيح: تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مَقْتًا﴾ بغضًا قال الزمخشري: المقتُ: أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه[1] ﴿مَرْصُوصٌ﴾ المتماسك المتلاصق بعضه ببعض قال الفراء: رصصتُ البناء إذا لائمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة[2] ﴿زَاغُوا﴾ مالوا عن الهدى والحق ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات.

سَبَبُ النّزول: روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا!! فلما فرض الله الجهاد كره بعضهم فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزَّه اللهَ وقدَّسه ومجَّده جميعُ ما في السمواتِ والأرض من مَلَك، وإنسان، ونبات، وجماد ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ قال الإمام الفخر: أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض[4] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لِمَ تقولون بألسنتكم شيئًا ولا تفعلونه؟ ولأي شيءٍ تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير: هذا إنكارٌ على من يَعِد وعدًا، أو يقول قولاً لا يفي به، وفي الصحيحين «آية المنافق ثلاثٌ: إذا وعد

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٣١٤ .
(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١١ .
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٩ .
(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٠ .

أخلف، وإذا حدَّث كذب، وإذا ائتمن خان»[١] ثم أكَّد الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ أي عظُم فعلكم هذا بغضًا عند ربكم ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أن تقولوا شيئًا ثم لا تفعلونه، وأن تَعِدوا بشيء ثم لا تفون به قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين -قبل أن يُفرض الجهاد- يقولون: لوددنا أنَّ اللهَ عز وجلَّ دلنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية[٢] وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؟ ثم أخبرهم تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي يحب المجاهدين الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال صفًّا، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي كأنهم في تراصِّهم وثبوتهم في المعركة- بناءٌ قد رُصَّ بعضه ببعض، وأُلصق وأُحكم حتى صار شيئًا واحدًا قال القرطبي: ومعنى الآية أنه تعالى يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم[٣]. . ولما ذكر تعالى أمر الجهاد، بيَّن أنَّ موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله وأوذيا بسبب ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾؟ أي واذكر يا محمد لقومك قصة عبده وكليمه «موسى بن عمران» حين قال لقومه بني إسرائيل: لَمَ تفعلون ما يؤذيني[٤]؟ ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي والحال أنكم تعلمون علمًا قطعيًا -بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة- أني رسولُ اللهِ إليكم، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي فلما مالوا عن الحقِّ، أمال الله قلوبهم عن الهدى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي واللهُ لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله قال الرازي: وفي هذا تنبيهٌ على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[٥]. . ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة أيضًا حين قال عيسى لبني إسرائيل: إني رسول اللهِ أرسلت إليكم بالوصف المذكور في التوراة، قال القرطبي:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩١ .

(٢) المختصر ٣/ ٤٩٢ . وهذا القول هو اختيار الطبري .

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٢ .

(٤) قال القرطبي: وإذايتُه عليه السلام: حين رموه بالأدرة -وهو انتفاخ الخصية- ومن الأذى: أنهم دسُّوا امرأةً تدّعي عليه الفجور، ومن الأذى: قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ .

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٣ .

ولـم يقل: «يا قوم» كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه[1] فإنه لم يكن له فيهم أب ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي حال كوني مصدِّقًا ومعترفًا بأحكام التوراة، وكُتب الله وأنبيائه جميعًا، ولم آتكم بشيء يخالف التوراة حتى تنفروا عني ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي وجئت لأبشركم ببعثة رسولٍ يأتي بعدي يسمى «أحمد» قال الألوسي: وهذا الاسم الكريم علمٌ لنبينا محمد ﷺ كما قال حسان:

صلَّى الإلهُ ومن يحفُّ بعرشه والطَّيبون على المبارك «أحمد»[2]

وفي الحديث «لي خمسة أسماءٍ: أنا محمدُ، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناسُ على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب»[3] ومعنى العاقب: الذي لا نبيَّ بعده، وروي أن الصحابة قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك! فقال: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أُمي حين حملت بي كأنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام»[4] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة[5] ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا عن عيسى: هذا ساحرٌ جاءنا بهذا السحر الواضح، والإشارة بقولهم: «سحر» إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام، قال المفسرون: بشَّر كلُّ نبي قومه بنبيِّنا محمد ﷺ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبيٍّ قبل نبينا ﷺ، فبيَّن تعالى أن البشارة به عمَّت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحرًا، وتسمية آياتِ الله المنزلة سحرًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجرًا ظالمًا ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم قال الفخر الرازي: وإطفاء نور الله تعالى تهكمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: إنه سحر، شُبهت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه[6]، وفيه تهكم وسخريةٌ بهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي والله مظهرٌ دينه، بنشره في الآفاق، وإعلائه على الأديان، كما جاء في الحديث «إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها..» الحديث[7] والمراد أنَّ هذا الدين سينتشر في

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٣. (٢) تفسير الألوسي ٢٨/ ٨٦.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (٤) سيرة ابن إسحاق قال ابن كثير: إسناده جيد.
(٥) هذا هو الظاهر أنَّ الضمير يعود إلى «عيسى» لأنه المحدَّث عنه، وقيل: يعود إلى «أحمد» الذي بشروا به، والأول اختيار البيضاوي والألوسي وصاحب المحيط، وهو الأظهر.
(٦) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٤.
(٧) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، ومعنى «زوى الأرض» أي جمعها حتى رآها صلوات الله عليه.

مشارق الدنيا ومغاربها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون المجرمون، فإنَّ الله سيعز شأن هذا الدين رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي: كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق، من أجل توغلهم في الشرك والضلال، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين، بل المرادُ أن يكون أهلهُ عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان، والسيف واللسان إلى آخر الزمان[1] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته وحكمته بعث رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن الواضح، والدين الساطع ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان الكخالفة له من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي ولو كره ذلك أعداءُ الله، المشركون بالله غيره قال أبو السعود: ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام، حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام[2].

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ . . إلى . . فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ من آية (١٠) إلى آية (١٤) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما بيَّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله، وبيَّن لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

اللغَة: ﴿تُنجِيكُم﴾ تخلّصكم وتنقذكم ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ قوّينا وساندنا ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان.

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا نبيَّ الله: لوددنا أن نعلم أيَّ التجارات أحبَّ إلى الله فنتجر فيها!! فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] الآيات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حقَّ الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي تخلِّصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم.. ثم بيَّن تلك التجارة ووضحها فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٠. (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦١.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٧.

وَرَسُولِهِۦ﴾ إيمانًا صادقًا، لا يشوبه شكٌّ ولا نفاق ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله قال المفسرون: جعل الإيمان والجهاد في سبيله «تجارة» تشبيهًا لهما بالتجارة، فإنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء، طمعًا في الربح، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه، لنيل ما عند ربه من جزيل ثوابه، والنجاة من أليم عقابه، فشبَّه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ قال الإمام الفخر: والجهاد ثلاثةُ أنواع:

١- جهادٌ فيما بينه وبين نفسه، وهو قهرُ النفس ومنعُها عن اللذات والشهوات.

٢- وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم.

٣- وجهادُ أعداء الله بالنفس والمال نصرةً لدين الله[1] ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله- خيرٌ لكم من كل شيء في هذه الحياة، إن كان عندكم فهمٌ وعلم ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم أي يسترها عليكم، ويمحها بفضله عنكم ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإقامة ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾ أي ويمنُّ عليكم بخصلةٍ أُخرى تحبونها وهي ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ أي أن ينصركم على أعدائكم، ويفتح لكم مكة وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وبشِّر يا محمد المؤمنين، بهذا الفضل المبين قال في البحر: لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة، ذكر لهم ما يسرُّهم في العاجلة، وهي ما يفتح الله عليهم من البلاد[2]، فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا مناره ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله، ونصرة دينه؟ ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ أي قال أتباع عيسى -وهم المؤمنون الخُلَّص من خاصته المستجيبون لدعوته-: نحن أنصار دين الله قال البيضاوي: والحواريون: أصفياؤه وهم أول من آمن به، مشتقٌّ من الحور وهو البياض، وكانوا اثني عشر رجلاً[3] وقال الرازي: والتشبيه في الآية محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله[4]﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين: جماعةٌ آمنت به وصدَّقته، وجماعةٌ كفرت وكذبت برسالة

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٦.
(٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.
(٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٤٩٢.
(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٩.

عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي فقوينا المؤمنين على أعدائهم الكافرين ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ أي حتى صاروا غالبين عليهم بالحجة والبرهان قال ابن كثير: لما بلَّغ عيسى بن مريم رسالة ربه، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلَّت طائفة فجحدوا نبوته، ورموه وأُمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعنة الله، وغلت فيه طائفةٌ من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فيه فرقًا وشيعًا، فمنهم من زعم أنه ابنُ الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة «الأب والابن وروح القدس» ومنهم من قال: إنه اللهُ -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً- فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى[1].

البَلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- أسلوب التوبيخ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟ وهي «ما» الاستفهامية حذفت ألفها تخفيفًا، والغرض من الاستفهام: التوبيخ.

٢- الإطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وبين ﴿تَقُولُوا۟﴾ .. ﴿تَفْعَلُونَ﴾ طباقٌ.

٣- التشبيه المرسل المفصَّل ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي في المتانة والتراص.

٤- الاستعارة اللطيفة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ استعار نور الله لدينه وشرعه المنير، وشبَّه من أراد إبطال الدين بمن أراد إطفاء الشمس بفمه الحقير، على طريق الاستعارة التمثيلية، وهذا من لطيف الاستعارات.

٥- الاستفهام للترغيب والتشويق ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ﴾.

٦- الطباق ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ .. وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

٧- السجع المرصَّع كأنه حبات در منظومة في سلك واحد مثل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: إنما قرنت قصة موسى وعيسى في هذه السورة لأنهما من أنبياء بني إسرائيل، وهما من أعظم أنبيائهم ومن أولي العزم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بالثناء والتبجيل.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٩٥ .
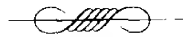
تفسير سورة الجمعة

بَيْن يَدَي السُّورَة

* هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع، والمحور الذي تدور عليه السورة هو بيانُ أحكام «صلاة الجمعة» التي فرضها الله على المؤمنين.

* تناولت السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبيَّنت أنه الرحمة المهداة، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال، وأكرم به الإنسانية، فكانت رسالته بلسمًا لأمراض المجتمع البشري، بعد أن كان يتخبط في الظلام.

* ثم تحدثت السورة عن اليهود، وانحرافهم عن شريعة الله، حيث كُلِّفوا العمل بأحكام التوراة، ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم، وضربت مثلاً لهم بالحمار، الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة، ولكنه لا يناله منها إلا العناء والتعب، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة.

* ثم تناولت أحكام «صلاة الجمعة» فدعت المؤمنين إلى المسارعة لأداء الصلاة، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها، وختمت بالتحذير من الانشغال عن الصلاة بالتجارة والله كحال المنافقين، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين.

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . . إلى . . وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من آية (١) إلى آية (١١) نهاية السورة.

اللغَة: ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُمُّوا بذلك لاشتهارهم بالأمية وهي عدم القراءة والكتابة ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية وهي التطهير من دنس الشرك والمعاصي ﴿أَسْفَارًا﴾ جمع سفر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيِّدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعيرُ إذا غدا ... بأوساقه أو راحَ ما في الغرائر[(١)]

﴿هَادُواْ﴾ تدينوا باليهودية ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ تفرقوا وانصرفوا.

سَبَبُ النّزول: عن جابر رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائمًا، إذْ قدمت عيرٌ من المدينة، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا . .﴾[(٢)] الآية.

---

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٦٦.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير «روح المعاني» للألوسي ٢٨/ ١٠٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ① هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ② وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ③ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ④ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ⑤ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ⑥ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ⑦ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ .

التَّفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينزِّه الله ويمجده ويقدِّسه كلُّ شيء في الكون من إنسانٍ، وحيوان، ونبات، وجماد، وصيغةُ المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تسبيحٌ دائم على الدوام ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي هو الإله المالك لكل شيء، المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ أي المقدَّس والمنزَّه عن النقائص، المتصف بصفات الكمال ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي هو جل وعلا برحمته وحكمته الذي بعث في العرب رسولاً من جملتهم، أميًّا مثلهم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسرون: سُمي العرب أميّين لأنهم لا يقرءون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال عليه الصلاة والسلام: «نحن أمةٌ أمية، لا نكتب ولا نحسب . . .»[1] الحديث والحكمةُ في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسولٌ إلى كافة الخلق: تشريفُ العرب حيث أُضيف صلوات الله عليه إليهم، وكفى بذلك شرفًا للعرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب قال ابن عباس: أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان[2] ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلمهم ما يتلى من الآيات والسنة النبوية المطهرة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلالٍ واضح عن النهج القويم، والصراط المستقيم قال ابن كثير: بعث الله محمدًا ﷺ على حين فترةٍ من الرسل، وطموسٍ من السُّبُل، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيَّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها اللهُ، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدَّلوا كتبهم

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٢ .

وحرّفوها، فبعث الله محمدًا ﷺ بشرع عظيم، شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين والآخرين[١] ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي وبعث الرسول إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة قال الصاوي: والمعنى أنه بعث إلى المؤمنين الموجودين في زمانه، وإلى الآتين منهم بعدهم، فليست رسالته خاصة بمن كان موجودًا في زمانه، بل هي عامة لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة[٢]، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء»[٣] قال مجاهد في تفسير الآية: هم الأعاجم وكلُّ من صدَّق النبي ﷺ من غير العرب[٤] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي القويُّ الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر، وهو كونه مبعوثًا إلى كافة الناس، وما شرَّف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم- هو فضلُ اللهِ يعطيه من يشاء من خلقه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.. ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها، وشبَّههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي مثل اليهود الذين أعطوا التوراة، وكُلفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أي مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي: شبههم تعالى -والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها- بالحمار يحمل كتبًا، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها[٥] وقال في حاشية البيضاوي: ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قراءُ التوراة، عالمون بما فيها، وفيها آياتٌ دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين، وشبههم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم والحكمة ولا ينتفع بها، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع، مع الكدِّ والتعب[٦] ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام[٧] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق للخير، ولا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٩٧.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٤.
(٣) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٩٨.
(٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٥.
(٦) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٤.
(٧) أقول: هذه الآية الكريمة فيها تعريضٌ بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

يرشد للإيمان من كان ظالمًا فاسقًا قال عطاء: هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء[١] ثم كذَّب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحبابُ الله فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تهودوا وتمسكوا بملة اليهودية: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقًا كما تدَّعون ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم لتنقلوا سريعًا إلى دار كرامته المعدَّة لأوليائه، إن كنتم صادقين في هذه الدعوى قال أبو السعود: كان اليهود يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ويدَّعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة، ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهارًا لكذبهم: إن زعمتم ذلك فتمنوا الموت لتنقلوا من داء البلاء إلى دار الكرامة، فإنَّ من أيقن بأنه من أهل الجنة، أحبَّ أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقرُّ الأكدار[٢]، قال تعالى فاضحًا لهم، ومبينًا كذبهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث «والذي نفسي بيده لو تمنوا الموتَ ما بقى على ظهرها يهودي إلا مات»[٣] قال الألوسي: لم يتمنَّ أحدٌ الموت منهم لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفيُ هذا التمني بلفظ ﴿وَلَن﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور[٤] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عالمٌ بهم وما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير «عليمٌ بهم» ذمًّا لهم، وتسجيلاً عليهم بأنهم ظالمون[٥] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا الموت الذي تهربون منه، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة، لا ينفعكم الفرار منه كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ لأنه قدرٌ محتوم، ولا يغني حذرٌ عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم، وفيه وعيدٌ وتهديد.. ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرابحة قال في التسهيل: والسعيُ في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري[٦] لحديث «إذا أقيمت الصلاة فلا

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٥ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٣ .
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٦ .
(٤) روح المعاني ٢٨/ ٩٦ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٣ .
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٩ .

تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة»[١] . . وقال الحسن: واللهِ ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعيٌ بالقلوب، والنية، والخشوع[٢] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله، وتركُ البيع والشراء- خيرٌ لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة أجلُّ وأبقى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم، والفهم السليم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فتفرقوا في الأرض وانبثوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه، فإن الرزق بيده جلَّ وعلا وهو المنعم المتفضل، الذي لا يُضيع عمل العامل، ولا يخيّب أمل السائل ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي واذكروا ربكم ذكرًا كثيرًا، باللسان والجنان، لا وقت الصلاة فحسب ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير: ذكرُ الله: طاعته، فمن أطاع اللهَ فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكرٍ ولو كان كثير التسبيح[٣] . . ثم أخبر تعالى أنَّ فريقًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويفضلون العاجل على الآجل فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ هذا عتابٌ لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائمًا يخطب يوم الجمعة، والمعنى: إذا سمعوا بتجارة رابحة، أو صفقةٍ قادمة، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إليها، وأعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ لأنها المقصود الأهم ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي وتركوا الرسول قائمًا على المنبر يخطب قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عيرٌ من الشام بطعام، قدم بها «دحية الكلبي» -وكان أصاب أهل المدينة جوعٌ وغلاء سعر- وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورًا بها، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهل المسجد إليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إلا اثني عشر رجلاً قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم، فنزلت الآية[٤] قال ابن كثير: وينبغي أن يعلم أن هذه القصة كانت لـمَّا كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين، كما روى ذلك أبو داود[٥] ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ ما عند الله من الثواب والنعيم- خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير مَن رزق وأعطى، فاطلبوا منه الرزق، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه.

البَلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ لأن

---

(١) أخرجه الستة .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠٣ .

(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٦ .

(٤) انظر سبب النزول المتقدم .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٢ .

وجه الشبه منتزع من متعدد أي مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء .

٢- طباق السلب ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ . . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ .

٣- الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٤- التفنن بتقديم الأهم في الذكر ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال : ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ فقدَّم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدَّم ما هو أهم في الموضعين .

٥- المجاز المرسل ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها .

تنبيه: يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة، وقد كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ومعناه الرحمة كما قال السهيلي، وأول من سمَّاه جمعة «كعب بن لؤي» وأول من صلى بالمسلمين الجمعة «أسعد بن زرارة» صلى بهم ركعتين وذكَّرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فهي أول جمعة في الإسلام[١] .

فَائِدَة: كان «عراك بن مالك» إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : «اللهم إني أجبتُ دعوتك، وصليتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[٢] .

لطيفة: التعبير بقوله تعالى : ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه لطيفة، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة، وجد ونشاط ؛ لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم، ولهذا قال الحسن البصري : والله ما هو سعيٌ على الأقدام، ولكنه سعيٌ بالنية والقلوب .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»
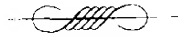
(١) روح المعاني ٢٨/ ١٠٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠٣ .

تفسير سورة المنافقون

بَيْنَ يَدَي السُّورَة

* سورة «المنافقون» مدنية، شأنها شأن سائر السور المدنية، التي تعالج «التشريعات والأحكام» وتتحدث عن الإسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية.

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح، الكاشف لأستار النفاق «سورة المنافقون».

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب، ومخالفة الظاهر للباطن، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم، ثم تآمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم، فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدُّون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكافر المعلن لكفره، ولذلك كان خطرهم أعظم، وضررهم أكبر وأجسم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ .

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ، واعتقادهم بأنَّ دعوته ستضمحل وتتلاشى، وأنهم بعد عودتهم من «غزوة بني المصطلق» سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة.

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين، وبيّنت أن ذلك طريق الخسران، وأمرت بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل، فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم.

اللغة: ﴿جُنَّةً﴾ وقاية وسُترة يحفظون بها أنفسهم وأموالهم وفي الحديث «الصوم جُنَّة» أي وقاية من عذاب الله ﴿طُبِعَ﴾ ختم عليها بالكفر، والطبعُ: الختم ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق إلى الضلال، من الإفك وهو الصَّرف ﴿لَوَّوْا﴾ عطفوا وحرَّكوا يقال: لوَّى رأسه إذا حرَّكه وأداره ﴿يَنفَضُّوا﴾ يتفرقوا ﴿تُلْهِكُمْ﴾ تشغلكم، واللهو: ما لا خير فيه ولا فائدة من القول أو العمل.

سَبَبُ النزول: روي أن النبيَّ ﷺ غزا «بني المُصطَلق» فازدحم الناسُ على ماءٍ فيه، فكان ممن ازدحم عليه «جهجاه بن سعيد» أجير لعمر بن الخطاب، و«سنان الجُهني» حليفٌ لعبد الله بن سلول -رأس المنافقين- فلطم الجهجاهُ سنانًا، فغضب سنان وصرخ: ياللأنصار!! وصرخ جهجاه: ياللمهاجرين!! فقال «عبد الله بن سلول»: أوقد فعلوها!! والله ما مثلنا ومثل هؤلاء -يعني المهاجرين- إلا كما قال الأول: «سمِّنْ كلبك يأكلك»، أما واللهِ لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل -يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه- ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم، فسمعه «زيد بن أرقم» فاخبر بذلك رسول الله ﷺ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئًا وكذَّب زيدًا، فنزلت السورة إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ..﴾ الآيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

التفسير: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي قالوا بألسنتهم نفاقًا ورياءً: نشهد بأنك يا محمد رسولُ الله، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود: أكّدوا كلامهم بإنَّ واللام ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم، وخلوص اعتقادهم، ووفور رغبتهم ونشاطهم [٢] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي واللهُ جل وعلا يعلم أنك يامحمد رسولهُ حقًّا؛ لأنه هو الذي أرسلك، والجملةُ اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوى رسالته ﷺ لئلا يتوهم السامع أن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كذبٌ في حدِّ ذاته، قال في التسهيل: وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرسالة، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة [٣] ثم قال

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٢ وانظر البخاري .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٤ .
(٣) التسهيل ٤/ ٢١٢ .

تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يشهد بكذب المنافقين فيما أظهروه من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم؛ لأنَّ من قال بلسانه شيئًا واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ لذمهم وتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم، كما جاءت الصيغة مؤكدة بإِنَّ واللام زيادةً في التقرير والبيان ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ أي اتخذوا أيمانهم الفاجرة وقاية وسُترةً يستترون بها من القتل قال الضحاك: هي حلفهم بالله إنهم مسلمون ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فمنعوا الناسَ عن الجهادِ، وعن الإيمان بمحمد ﷺ قال الطبري: أي أعرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقه[1] وقال ابن كثير: إن المنافقين اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، فاغترَّ بهم من لا يعرف جليّة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بذلك ضررٌ كبير على كثير من الناس[2] ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي قبح عملهم وصنيعهم لأنهم يظهرون بمظهر الإيمان، وهم من أهل النفاق والعصيان، فبئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة قال الصاوي: و(ساءَ) كـ(بئس) في إرادة الذم، وفيها معنى التعجب[3] وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدُّ عن سبيل الله- بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم قال أبو السعود: أي نطقوا بكلمة الشهادة عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم المجرمين، وما فيه من الإشارة بالبعيد «ذلك» للإشعار ببعد منزلته في الشر[4] ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي ختم على قلوبهم فلا يصل إليها هدى ولا نور ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي فهم لا يعرفون الخير والإيمان، ولا يفرقون بين الحسن والقبيح؛ لختم الله على قلوبهم ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ أي وإذا رأيتَ هؤلاء المنافقين، أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم؛ لحسنها ونضارتها وضخامتها ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ أي وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم؛ لفصاحتهم وذلاقة لسانهم قال ابن عباس: كان ابن سلول -رأس المنافقين- جسيمًا، فصيحًا، ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وكذلك كان أصحابه إذا حضروا مجلس النبي ﷺ يعجب الناس بهياكلهم[5] ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ أي يشبهون الأخشاب المسنَّدة إلى الحائط في كونهم صورًا خالية عن العلم والنظر، فهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام قال أبو حيان: شُبّهوا بالخشب لعزوب أفهامهم، وفراغ قلوبهم من الإيمان، والجملة التشبيهية وصفٌ لهم بالجبن والخور[6]، ولهذا قال: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي يظنون -لجبنهم وهلعهم- كل نداء وكل صوت، أنهم يرادون بذلك، فهم دائمًا في خوفٍ ووجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم قال ابن كثير:

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٦٩ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٣ .
(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٢٠٨ .
(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٥ .
(٥) حاشية الصاوي ٤/ ٢٠٨ .
(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٧٢ .

كلما وقع أمر أو خوفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم [١] قال مقاتل: إذا سمعوا نشدان ضالة، أو صياحًا بأي وجه كان، طارت عقولهم، وظنوا ذلك إيقاعًا بهم [٢] ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام، فاحذرهم ولا تأمنهم على سرّ؛ فإنهم عيونٌ لأعدائك ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جملة دعائية أي أخزاهم الله ولعنهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين؟! وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيتُهم لعنة، وطعامهم نُهبة، وغنيمتُهم غلول، لا يقربون المساجد إلا هُجرًا، ولا يأتون الصلاة إلا دُبرًا، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤْلفون، خشبٌ بالليل، صُخبٌ بالنهار» [٣] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: هلُمُّوا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ أي حركوها وهزوها استهزاءً واستكبارًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وتراهم يعرضون عمَّا دُعوا إليه، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد [٤] قال المفسرون: لمَّا نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم!! فأبوا وحركوا رءوسهم سخريةً واستهزاءً فنزلت الآية، ثم جاءوا إلى «ابن سلول» وقالوا له: امض إلى رسول الله ﷺ واعترفْ بذنبك يستغفر لك، فلوَّى رأسه إنكارًا لهذا الرأي ثم قال لهم: لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتم عليَّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأمروني بالسجود لمحمد!! ثم بيَّن تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم، لأنهم مردوا على النفاق فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي يتساوى الأمر بالنسبة لهم فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئًا؛ لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي: والآية للتيئيس من إيمانهم أي إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء؛ فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم [٥] ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر، وإصرارهم على العصيان، ثم علَّله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي لا يوفق للإيمان من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الرحمن.. ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٠٤ .
(٢) تفسير الألوسي ٢٨/ ١١١ .
(٣) أخرجه أحمد، كذا في ابن كثير ٣/ ٥٠٤ .
(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٣ .
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٩ .

هم الفجرة الذين قالوا لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن محمد! قال في البحر: والإشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه، سفَّه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى، وقولهم: ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هو على سبيل الهزء، إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر، والظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ، ولكنه تعالى عبَّر به عن رسوله إكرامًا له وإجلالاً[١] ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا يملك أحدٌ أن يمنع فضل الله عن عباده ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ولكنَّ المنافقين لا يفهمون حكمة الله وتدبيره، فلذلك يقولون ما يقولون من مقالات الكفر والضلال. ثم عدَّد تعالى بعض قبائحهم وأقوالهم الشنيعة فقال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي يقولون: لئن رجعنا من هذه الغزوة -غزوة بني المصطلق- وعُدْنا إلى بلدنا «المدينة المنورة» ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أي لنخرجنَّ منها محمدًا وصحبه، والقائل هو ابن سلول، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه[٢] قال المفسرون: لما قال ابن سلول ما قال ورجع إلى المدينة، وقف له ولده «عبد الله» على باب المدينة واستلَّ سيفه، فجعل الناسُ يمرون به، فلما جاء أبوه قال له ابنه: وراءك، والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول: إنَّ رسول الله هو الأعزُّ، وأنا الأذل!! فقالها، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه!! فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[٣] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لله جل وعلا القوة والغلبة ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم، والصيغة تفيد الحصر قال القرطبي: توهموا أنَّ العزة بكثرة الأموال والأتباع، فبيَّن الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين[٤] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم لا يعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما ذكر قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والمعنى: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين، قال أبو حيان: أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات[٥] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي ومن

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٤ . (٢) انظر سبب النزول المتقدم .
(٣) يستحسن الرجوع إلى سيرة ابن إسحاق ففيها تفصيل للقصة وتوضيح .
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٢٩ . (٥) البحر المحيط ٨/ ٢٧٤ .

تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضلوا العاجل على الآجل ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموتُ بالإنسان، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي فيقول عند تيقنه بالموت: ياربِّ هلاَّ أمهلتني وأخرت موتي إلى زمنٍ قليل!! ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقيًا صالحًا قال!! ابن كثير: كلُّ مفرطٍ يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات[1] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي ولن يمهل الله أحدًا أيًا كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات؛ حذرًا أن يجيء الأجل وقد فرَّط ولم يستعد للقاء ربه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع وعالم بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بالقسم وإنَّ واللام ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

٢- الجملة الاعتراضية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة، والأصل ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما.

٣- الاستعارة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فإن أصل الجنَّة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم.

٤- الطباق بين ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥- التشبيه المرسل المجمل ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وهو من روائع التشبيه.

٦- طباق السلب ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

٧- الجملة الدعائية ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ وهي دعاءٌ عليهم باللعنة والخزي والهلاك.

٨- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام.

تنبيه: النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ الإسلام وكثر أنصاره، وقد كان المنافقون يظهرون الإسلام لصون دمائهم وأموالهم كما قال الشاعر:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلاّ ... لصون دمائهم أن لا تُسالا

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٦ .

فَـائِـدَة: العزةُ غير الكبر، ولا يحل للمسلم أن يُذلَّ نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، والكبر جهل الإنسان بنفسه، قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: إن الناس يزعمون أن فيك كبرًا وتيهًا فقال: ليس بتيه ولكنه عزة المسلم! ثم تلا الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

لطيفَـة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجلٌ: يابن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار!! فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنًا﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ . .﴾ الآية .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»
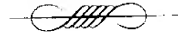
بَيْن يَدَي السُّورَة

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع، ولكنَّ جوَّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم تناولت موضوع الإنسان المعترف بربه، والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله.

* وضربت الأمثال بالقرون الماضية، والأمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وما حلَّ بهم من العذاب والدمار نتيجةً لكفرهم وعنادهم وضلالهم.

* وأقسمت السورة على أن البعث حقٌّ لابدَّ منه، أقرَّ به المشركون أو أنكروه.

* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذَّرت من الإعراض عن دعوة الله.

* كما حذَّرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد، فإنهم كثيرًا ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة.

* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه، وحذرت من الشح والبخل، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وهو شطر الجهاد في سبيل الله.

اللغَة: «صوّركم» التصوير: التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نَبَؤُا﴾ النبأ: الخبر الهام ﴿وَبَالَ﴾ الوبال: العقوبة والنكال ﴿زَعَمَ﴾ ظنَّ، والزعمُ هو القول بالظن ومنه قولهم «زعموا: مطيةُ الكذب» قال شريح: «لكل شيءٍ كنيةٌ، وكنيةُ الكذب زعموا»[1] ﴿التَّغَابُنِ﴾ الغبنُ ومعناه: النقص يقال: غبنه غبنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، وسمي يوم القيامة يوم التغابن لأنه يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان.

سَبَبُ النزول: روي أن رجالاً من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ..﴾[2] الآية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٣٥ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢١٢ .

فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات، تنزيهًا دائمًا مستمرًّا بدون انقطاع، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي له جل وعلا المُلك التام والتصرف الكامل في خلقه، وهو المستحق للثناء وحده؛ لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى، وقدَّم الجار والمجرور فيهما لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء، يغني ويفقر، ويعز ويذل، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون، وهو كالدليل لما تقدم من أنَّ الملك والحمد له سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ هذا تفصيلٌ لبعض آثار قدرته أي هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الإيمان به، لكنْ منكم من كفر بربه، ومنكم من آمن وصدَّق بخالقه قال الطبري: أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدِّق به موقنٌ أنه خالقه وبارئه[1]، وقدَّم الكافر على المؤمن؛ لكثرة الكفار وقلة المؤمنين ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأحوالكم، مطَّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها.. ثم فصَّل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٧٨ .

الدنيا والدين، لا عبثًا ولا لهوًا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإن من نظر في شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبًا غير منكب على وجهه[١] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلًّا بعمله ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما في السموات والأرض من أجرام ومخلوقات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من نياتكم وأعمالكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة؟ قال في البحر: نبَّه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكنَّته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب[٢] . . ثم ذكَّرهم تعالى بما حلَّ بالكفار قبلهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية كقوم عاد وثمود، ماذا حلَّ بهم من العذاب والنكال!! ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة- بسبب أنه جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، الدالة على صدقهم ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ ؟ أي فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب: أرسلٌ من البشر يصيرون هداةً لنا قال الرازي: أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرًا[٣]، وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ أي فكفروا بالرسول، وأعرضوا عن الإيمان واتباع هدى الرحمن ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم قال الطبري: أي استغنى اللهُ عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله[٤] ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غنيٌّ عن خلقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية؛ لأنه مستغنٍ عن العالمين . . ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة فقال ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ أي ادَّعى كفار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم أبدًا ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس الأمر كما زعمتم، وأُقسم بربي لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثنَّ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي ثم لتخبرنَّ بجميع

---

(١) فإن قيل: إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل، فالجواب: أن ذلك لا يخرجه عن حسن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه .

(٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٧ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣ .

(٤) تفسير الطبري ٢٨/ ٧٨ .

أعمالكم، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وتُجزون بها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي وذلك البعث والجزاء، سهلٌ هينٌ على الله؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء قال الرازي: أنكروا البعث بعد أن يصيروا ترابًا، فأخبر تعالى أن إعادتهم أهون في العقول من إنشائهم[1].. ولما بالغ في الإخبار عن البعث، وذكر أحوال الأمم المكذبة، أمر بالاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أي فصدِّقوا بالله وبرسوله وبهذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فإنه النور الوضاء، المبدّد للشبهات، كما يبدد النور الظلمات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي واذكروا ذلك اليوم الرهيب -يوم القيامة- الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد للحساب والجزاء قال ابن كثير: سُمي (يوم الجمع) لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[2] ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا، واشترى الكفار النار بترك الآخرة، فظهر غبن الكافرين قال الخازن: وأصله من الغبن وهو أخذ الشيء بدون قيمته، والمغبونُ من غُبن أهله ومنازله في الجنة، وذلك لأن كل كافر له أهلٌ ومنزل في الجنة لو أسلم، فيظهر يومئذٍ غبن كل كافرٍ بتركه الإيمان، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان[3] ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي ومن يصدِّق بالله ويعمل عملاً صالحًا، يمح الله تعالى عنه ذنوبه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي ويدخله جنات النعيم، التي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة، لا يموتون ولا يُخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والسعادة التي لا سعادة بعدها﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وقدرته، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبآيات القرآن الكريم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك مآلهم جهنم، ماكثين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست النار مرجعًا ومستقرًّا لأهل الكفر والضلال.. ثم أخبر تعالى بأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقال ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أصاب أحدًا مصيبةٌ في نفسه أو ماله أو ولده، إلا بقضاء الله وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي ومن يصدِّق بالله ويعلم أن كل حادثةٍ بقضائه وقدره، يهدِ قلبه للصبر والرضا ويثبته على الإيمان قال ابن عباس: يهدِ قلبه لليقين، حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[4] وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى

(١) تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٩ .
(٣) تفسير الخازن ٤/ ١٠٤ .
(٤) تفسير الطبري ٢٨/ ٨٠ .

بها ويُسلم لقضاء الله[١] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بكل الأشياء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قال القرطبي: أي لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلَّم لأمره، ولا كراهة من كرهه[٢] ولم يرض بقضائه ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم، إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي اللهُ جل وعلا لا معبود سواه، ولا خالق غيره- عليه الاعتماد وإليه المرجع والمآب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فعليه وحده توكلوا أيها المؤمنون في جميع أموركم قال الصاوي: وهو تحريضٌ وحثٌّ للنبي ﷺ على التوكل على الله، والالتجاء إليه، وفيه تعليمٌ للأمة ذلك[٣]، بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم، يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله، فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم قال المفسرون: إن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فندموا وأسفوا وهمُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم فنزلت الآية الكريمة[٤]، والآية تعم كلَّ من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾ أي وإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصفحتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة، يعاملكم بمثل ما عاملتم ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي ليست الأموالُ والأولادُ إلاّ اختبارًا وابتلاءً من الله تعالى لخلقه؛ ليعلم من يطيعه ومن يعصيه، وقدَّم المال لأن فتنته أشد ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وما عند الله من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله، والآية ترغيبٌ في الآخرة وتزهيدٌ في الدنيا، وفي الأموال والأولاد التي فتن الناسُ بها ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون قال المفسرون: هذا في المأمورات وفضائل الأعمال يأتي الإنسان منها بقدر طاقته، وأما في المحظورات فلابدَّ من اجتنابها بالكلية ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥١٠ .
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٤٠ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢١٢ .
(٤) انظر سبب النزول المتقدم .

استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[١] ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما تُؤْمرون به وتُنهون عنه ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم، يكنْ خيرًا لأنفسكم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومن سلم من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس، فقد فاز بكل مطلوب ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي إذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثواب، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطفٌ بليغ في الإحسان إلى الفقراء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويمحُ عنكم سيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي شاكرٌ للمحسن إحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب وحضر، لا تخفى عليه خافية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب في ملكه الحكيم في صنعه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق في الاسم مثل ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وكذلك بين ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ والطباق في الفعل مثل ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢- تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي له وحده الملك والحمد.

٣- الاستعارة اللطيفة ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة، فإن القرآن يزيل الشبهات، كما يزيل النور الظلمات.

٤- المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا...﴾ الآية وبين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآية.

٥- الجناس الناقص ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لاختلاف الحركات في الشكل.

٦- جناس الاشتقاق ﴿أَصَابَ.. مُّصِيبَةٍ﴾ و ﴿يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾.

٧- الإطناب بتكرار الفعل زيادة واعتناءً بشأن الطاعة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

٨- صيغة المبالغة ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لأن (فعول) و(فعيل) من صيغ المبالغة.

٩- الاستعارة التمثيلية ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ شبَّه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء بمن يُقرض الله قرضًا واجب الوفاء وذلك بطريق التمثيل، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة.

١٠- السجع المرصَّع لتوافق الفواصل مثل ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

بَيْن يَدَي السُّورَة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع . . . إلى غير ما هنالك من أحكام.

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق -الطلاق السُّني، والطلاق البدعي- فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق عند تعذر استمرار الحياة الزوجية، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع، وهو أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها.

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوةٌ للرجال أن يتمهلوا ولا تسرعوا في فصل عرى الزوجية؛ فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، ولولا الضرورات القسرية لمَا أبيح الطلاق لأنه هدم للأسرة.

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها؛ لئلا تختلط الأنساب، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر ودعت إلى الوقوف عند حدود الله، وعدم عصيان أوامره.

* وتناولت السورة أحكام العدة، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبرٍ أو مرض، وكذلك عدة الصغيرة، وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد.

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى «تقوى الله» بالترغيب تارةً، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيفٌ أو ظلم من أحد الزوجين، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة.

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله، وما ذاقت من الوبال والدمار، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق، وخلق الأرضين، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ . . إلى . . وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ من بداية السورة الكريمة إلى نهايتها.

اللغَـة: ﴿ٱلْعِدَّةَ﴾ المدة التي تحتبس فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها ﴿وَأَحْصُوا۟﴾ اضبطوا بطريق العَدَد ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه ﴿وُجْدِكُمْ﴾ طاقتكم ووسعكم ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم ﴿وَكَأَيِّن﴾ كثير ﴿عَتَتْ﴾ تكبرت وتجبرت وأعرضت ﴿نُّكْرًا﴾ منكرًا شنيعًا وفظيعًا ﴿خُسْرًا﴾ خسارًا وهلاكًا.

سَبَبُ النّزول:

أ- روى البخاري أن عبد الله بن عمر طلّق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر

لرسول الله ﷺ فتغيَّظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجِعْها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلِّقها فليطلِّقها طاهرًا قبل أن يمسَّها، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل»[١].

ب-وروي عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعْها فإنها صوَّامة قوَّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة[٢].

ج-وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ قال جماعة من الصحابة: يا رسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كِبَر؟ فنزلت﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ...﴾[٣]الآية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، وخص هو بالنداء ﷺ تعظيمًا له، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٢.
(٣) روح المعاني ٢٨/ ١٣٧.

فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم قال القرطبي: الخطابُ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا[١] والمعنى: يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، وذلك في الطهر، ولا تطلقوهن في الحيض قال مجاهد: أي طاهرًا من غير جماع لقوله ﷺ: «فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسَّها، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يُطلَّق لها النساء»[٢] قال المفسرون: وإنما نُهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر، ولأن حالة الحيض منفِّرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرًا، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر؛ لئلا يحصل من ذلك الوطء حملٌ[٣]، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء كاملة لئلا تختلط الأنساب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي خافوا الله ربَّ العالمين بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾ أي لا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقة عملاً قبيحًا كالزنى فتخرج لإقامة الحد عليها[٤] قال في التسهيل: نهى الله سبحانه وتعالى أن يُخرج الرجلُ المرأة المطلَّقة من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهارًا إلا لضرورة التصرف، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، واختلف في الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنى فتخرج لإقامة الحد عليها، وقيل: إنه سوء الكلام مع الأصهار وبذاءة اللسان فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويؤيده قراءة «إلا أن يفحشن عليكم»[٥] ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرَّ بها حيث فوَّت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه قال الرازي: وهذا تشديدٌ فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا تعرف أيها السامع ماذا يُحدث اللهُ بعد ذلك الطلاق من الأمر، فلعل الله يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، فيجعله راغبًا في زوجته بعدما كان كارهًا لها، قال ابن عباس: يريد الندم على

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٤٨ .

(٢) الحديث في الصحيحين وانظر سبب النزول المتقدم .

(٣) انظر حكمة التشريع في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٦٠٤ .

(٤) تفسير الفاحشة بالزنى هو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة، وروي عن ابن عباس أيضًا أنه البَذاء باللسان على الأحماء، وهو قول أبي بن كعب .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٦ .

طلاقها، والمحبة لرجعتها في العدة [١] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي فإذا شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهنَّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن قال المفسرون: الإمساك بالمعروف هو إحسان العشرة وتوفية النفقة، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة، والفراق بالمعروف هو أداء الصَّداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة شخصين من أهل العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما قال في البحر: وهذا الإشهاد مندوبٌ إليه عند أبي حنيفة كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وعند الشافعية واجبٌ في الرجعة، مندوبٌ إليه في الفرقة [٢] ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي اشهدوا بالحق دون تحيز لأحد، خالصًا لوجه الله تعالى من غير تبديل ولا تغيير، ودون مراعاةٍ للمشهود له أو المشهود عليه ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي هذا الذي شرعناه من الأحكام إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي ومن يراقب الله ويقف عند حدوده، يجعل له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجلٌ فقال إنه طلَّق امرأته ثلاثًا، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحموقته ثم يقول: يابن عباس!! والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجًا، عصيت ربك وبانت منك امرأتك [٣] وقال المفسرون: الآية عامة وقد نزلت في «عوف بن مالك الأشجعي» أسر المشركون ابنه، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إن العدوَّ أسر ابني وجزعتْ أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له: «اتق الله واصبر، وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل هو وامرأته، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [٤] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي ومن يعتمد على الله، ويثقْ به فيما أصابه ونابه، فإن الله كافيه قال الصاوي: أي من فوَّض إليه

---

(١) قال ابن القيم: «إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق لما فيه من انفصام عرى الزوجية، وموافقة عدوه إبليس حيث يفرح بافتراق الزوجين، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة، شرعه على وجه تحصل به المصلحة، وتندفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه، فشرع له أن يطلقها طاهرًا من غير جماع طلقة واحدة، ثم يتركها حتى تنقضي عدتها، فإن زالت أسباب الخلاف وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه» نقلاً عن محاسن التأويل ١٦/ ٥٨٣٢ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٢ . (٣) عن محاسن التأويل ١٦/ ٥٨٣٨ .

(٤) انظر القرطبي ١٨/ ١٦٠ والطبري ٢٨/ ٩٠ .

أمره كفاه ما أهمَّه، والأخذُ بالأسباب لا ينافي التوكل؛ لأنه مأمور به ولكنْ لا يعتمد على تلك الأسباب [(١)]، وفي الحديث «لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا» [(٢)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي نافذُ أمره في جميع خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيدٌ له؛ لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكَّل على الله وحده ولم يعوِّل على سواه [(٣)] ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي قد جعل الله لكل أمرٍ من الأمور مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا، حسب الحكمة الأزلية قال القرطبي: أي جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه [(٤)].. ثم بيَّن سبحانه حكم المطلَّقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهن لكبر سنهنَّ، إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن فهذا حكمهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فعدةُ الواحدة منهن ثلاثة أشهر، كل شهرٍ يقوم مقام حيضة ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواءٌ كانت مطلقة، أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي ومن يخش الله في أقواله وأفعاله، ويجتنب ما حرَّم الله عليه، يسهِّل عليه أمره ويوفقه لكل خير ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به، وتعملوا بمقتضاه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي ومن يتَّق ربه يمح عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والثواب قال الصاوي: كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقلٍ ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى [(٥)] وقال في البحر: لمَّا كان الكلام في أمر المطلقات، وكنَّ لا يطلَّقن إلا عن بغض أزواجهنَّ لهنَّ، وقد ينسب الزوج إليها ما يشينها وينفِّر الخُطَّاب عنها، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى، وجاء مبرزًا في صورة شرط وجزاء ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل...﴾ [(٦)] الآية ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها، على قدر طاقتكم ومقدرتكم، فإن كان موسرًا وسَّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرًا فعلى قدر الطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ أي ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي وإن كانت المطلَّقة حاملاً ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي فعلى الزوج أن ينفق عليها -ولو طالت مدة الحمل- حتى تضع حملها ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢١٥ .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) التسهيل ٤/ ١٢٨ .

(٤) القرطبي ١٨/ ١٦٨ .

(٥) حاشية الصاوي ٤/ ٢١٧ .

(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤ .

فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة؛ لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء قال في التسهيل: والمعنى إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم، فآتوهنَّ أجرة الرضاع وهي النفقة وسائر المؤن[١] ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي وليأمر كلٌ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإحسان، قال القرطبي: أي ولْيقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل، والمعروف منها: إرضاعُ الولد من غير أجرة، والمعروف منه: توفيرُ الأجرة عليها للإرضاع[٢] ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم وتشددتم، وعسر الاتفاق بين الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب، وأبت الزوجة أن ترضعه بأنقص من ذلك الأجر ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي فليستأجر لولده مرضعةً غيرها، وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسترضعْ لولده مرضعةً أُخرى قال أبو حيان: وفيه عتابٌ للأم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم[٣] قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر[٤] ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هذا بيانٌ لقدر الإنفاق والمعنى: لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير، على قدر وسعه وطاقته، قال في التسهيل: وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله، فلا يكلف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً، وفي الآية دليلٌ على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس[٥] يسرًا وعسرًا ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي ومن ضُيِّق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي فلينفق على مقدار طاقته، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي لا يكلف الله أحدًا إلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني قال أبو السعود: وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده[٦]، وقد أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه بشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم.. ثم حذَّر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده، وضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية من الأمم السالفة ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي فجازيناها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذابًا منكرًا عظيمًا يفوق التصور ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي وكانت نتيجة بغيها الهلاك والدمار، والخسران الذي ما بعده خسران.. ولمَّا ذكر ما حلَّ بالأمم الطاغية، أمر المؤمنين بتقوى الله، تحذيرًا من عقابه لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك المجرمين فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ

---

(١) التسهيل ٤/ ١٢٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٩ .

(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٨٥ .

(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٩ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٩ .

(٦) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٢ .

﴿لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد المؤبد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي فخافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أصحاب العقول السليمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحيًا يتلى وهو القرآن الحكيم [١] ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً وهو محمد ﷺ يقرأ عليكم آياتِ الله واضحات جليات، تبيِّن الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام قال في البحر: والظاهر أن الذكر هو القرآن، وأن الرسول هو محمد ﷺ [٢] ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخله في الآخرة جنات النعيم، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين في تلك الجنان - جنان الخلد- أبدًا لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ أي قد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّعه لهم؛ لأن نعيمها دائم لا ينقطع قال الطبري: أي وسَّع لهم في الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهم [٣]، وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب. ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي اللهُ العظيم الكبير هو الذي خلق بقدرته سبع سمواتٍ طباقًا [٤]، ومن الأرض كذلك خلق سبع أرضين بعضها فوق بعض بدون فتوق بخلاف السموات ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يتنزل وحيُ الله ويجري أمره وقضاؤه بين السموات والأرضين ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي ولتعلموا أنه تعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ وكذلك ﴿بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

٢ - الإظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾.

٣- الالتفات لمزيد الاهتمام ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ورد بطريق الخطاب

---

(١) اختار بعض المفسرين أن المراد بالذكر: هو الرسول ﷺ بدليل أنه أبدل منه قوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو﴾ وإليه ذهب الطبري وأبو السعود، وما ذكرناه هو أرجح الأقوال أن المراد بالذكر: «القرآن» وبالرسول. محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره وأرسل رسولاً، وهو اختيار ابن عطية وصاحب البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٦. (٣) تفسير الطبري ٢٨/ ٩٨.

(٤) لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع، وأما الأرض فاختلف فيها: فقيل: إنها سبع أرضين لظاهر الآية وللحديث الصحيح «من ظلم قيد شبر من أرض طوّقه من سبع أرضين» وقيل: إنها أرض واحدة وإن المماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والإبداع أي مثلهن في الإبداع والإحكام، والأول أظهر والله أعلم.

والأصل أن يكون بطريق الغائب «لا يدري».

٤ـ إيجاز الحذف ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ حذف منه الخبر أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضًا.

٥ـ تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ الآية.

٦ـ المجاز المرسل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل.

٧ـ الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان، وهو من روائع البيان، وجلال تعبير القرآن.

٨ـ السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ .. ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ .. ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ .. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»
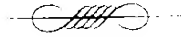
(٦٦) سورة التحريم مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بَيْن يَدَي السُّورَة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشئون التشريعية، وهي هنا تعالج قضايا وأحكامًا تتعلق «ببيت النبوة» وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة.

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته «مارية القبطية» على نفسه، وامتناعه عن معاشرتها إرضاءً لرغبة بعض زوجاته الطاهرات، وجاء العتاب له لطيفًا رقيقًا، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضيّق على نفسه ما وسَّعه الله له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ . . .﴾ الآية.

* ثم تناولت السورة أمرًا على جانب كبير من الخطورة ألا وهو «إفشاء السر» الذي يكون بين الزوجين، والذي يهدِّد الحياة الزوجية، وضربت المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسرَّ إلى حفصة بسرٍّ واستكتمها إياه، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع؛ مما أغضب الرسول حتى همَّ بتطليق أزواجه ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا . .﴾ الآية.

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدةً عنيفة؛ على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس، وغيرة بعضهن من بعض لأمورٍ يسيرة، وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساءٍ خير منهنَّ؛ انتصارًا لرسول الله ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ . .﴾ الآية

* وختمت السورة بضرب مثلين: مثل للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن، ومثلاً للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر؛ تنبيهًا للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحًا ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ . .﴾ الآيات. وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ . . إلى . . وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ من آية (١) إلى آية (١٢) نهاية السورة.

اللغة: ﴿تَحِلَّةَ﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿صَغَتْ﴾ مالت عن الحقِّ وزاغت، وأصغى الإناء

أماله ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿نَّصُوحًا﴾ خالصة صادقة، والتوبةُ النَّصوح هي التي لا عودة بعدها إلى الذنب، سميت نصوحًا لما فيها من الصدق والإخلاص يقال: هذا عسلٌ ناصح إذا خلص من الشمع[1] ﴿غِلَاظٌ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿أَحْصَنَتْ﴾ عفَّت وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة.

سَببُ النّزول:

أ- روي أنَّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها، فلما خرجت أرسل إلى جاريته «مارية القبطية» فعاشرها في بيت حفصة، فرجعت فوجدتها في بيتها، فغارت غيرةً شديدة، وقالت: أدخلتها بيتي في غيابي وعاشرتها على فراشي؟! ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضيًا لها: «إني حرمتها عليَّ ولا تخبري بذلك أحدًا»، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة -وكانتا متصافيتين- وأخبرتها بسرِّ النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهرًا واعتزلهن فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ..﴾[2] الآية.

ب- وروي أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه «زينب» رضي الله عنها فيشرب عندها عسلاً، فاتفقت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها: أكلتَ مغافير -وهو طعام حلوٌ كريه الريح- فلما مرَّ على حفصة قالت له ذلك، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك -وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة- فقال عليه السلام: (لا ولكني شربت عسلاً عند زينب ولن أعود له وحلف) فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ..﴾[3] الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ② وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ④

---

(١) القرطبي ١٨/ ١٩٩. (٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/ ١٠١ وحاشية الصاوي ٤/ ٢١٩.

(٣) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول، وهي أن الرسول ﷺ حرَّم عليه «مارية القبطيّة» وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس، والرواية الثانية ذكرت في الصحيحين بأوسع من هذا وهي أصح إسنادًا من الأولى، ولكن كونها سببًا للنزول مستبعد، والذي يرجح الرواية الأولى أمور: أن مثل تحريم بعض النساء مما يبتغى به مرضاة بعض الزوجات لا شرب العسل أو عدمه. ثانيًا: أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهن، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين عونٌ لرسول الله ﷺ يدل على وجود تنافس بينهن وغيرة بعضهن من بعض، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلاً حتى حرَّم بعض جواريه إرضاءً لهن، واستكتم البعض منهن الأمر فأفشين السرَّ، وهذا يرجح ما ذكرناه، وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سببًا للنزول فيه نظر، والله أعلم.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ .

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الخطاب بلفظ النبوة مشعرٌ بالتوقير والتعظيم، والتنويه بمقامه الرفيع الشريف، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله: «يا إبراهيم، يا نوحُ، يا عيسى بن مريم» وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة، وذلك أعظم دليلٍ وبرهانٍ على أنه -صلوات الله عليه- أفضل الأنبياء والمرسلين ومعنى الآية: يا أيها الموحى إليه من السماء، المنبأ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، لماذا تمنع نفسك ما أحلَّ الله لك من النساء؟! قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ خلا بأم ولده «مارية» في بيت حفصة وعلمت بذلك فقال لها: «اكتمي عليَّ وقد حرمت مارية على نفسي» فنزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [1] وفي افتتاح العتاب من حسن التلطف ما لا يخفى، فقد عاتبه على إتعاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه، كأنه يقول: لا تتعب نفسك في سبيل أزواجك، وأزواجك يسعين في مرضاتك، فأرح نفسك من هذا العناء ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحلَّ الله لك؟ قال في التسهيل: يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته [2] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمة بك، وفي هذا إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامةً له، وإنما وقع العتاب لتضييقه عليه السلام على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أُنسٌ ومتعة، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرَّم ما أحل الله له. . . إلخ فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريمُ

---

(١) انظر سبب النزول المتقدم ففيه توضيح وتفصيل للقصة .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣٠ .

للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطييبًا لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقًا به، وتنويهًا بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جريًا على ما أُلف من لطف الله تعالى به[١] ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي والله وليُّكم وناصركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أي واذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجته حفصة خبرًا واستكتمها إياه قال ابن عباس: هو ما أسرَّ إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر[٢]، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحدًا ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي فلما أخبرت بذلك السرَّ عائشة وأفشته لها ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسرِّ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتبًا لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرمًا، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن: ما استقصى كريمٌ قط، وقال سفيان: ما زال التغافل من شيم الكرام[٣] قال الخازن: المعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس[٤] ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشت سرَّه ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا﴾ أي قالت: من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيتُ سرك؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة أن عائشة فضحتها -وكانت قد استكتمتها- فقالت: من أنبأك هذا؟! على سبيل التثبت، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكتت وسلَّمت[٥] ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي فقال عليه السلام: أخبرني بذلك ربُّ العزة، العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيرًا لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي فقد زاغت ومالت قلوبكما عما يجب

---

(١) شنَّ صاحب «الانتصاف على الكشاف» الغارة على الزمخشري وشنَّع عليه وهو محقٌّ في ذلك؛ لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب.

(٢) قال الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها، فأسرَّ إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر. اهـ. التفسير الكبير ٣٠/ ٤٣.

(٣) روح المعاني ٢٨/ ١٥٠.

(٤) تفسير الخازن ٤/ ١١٧.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٩٠.

عليكما من الإخلاص لرسول الله، بحب ما يحبه، وكراهة ما يكرهه[١] ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي وإن تتعاونا على النبي ﷺ بما يسوءه من الوقيعة بينه وبين سائر نسائه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي فإنَّ الله تعالى هو وليُّه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وجبريل كذلك وليه وناصره، والصالحون من المؤمنين قال ابن عباس: أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر فقد كانا عونًا له عليه الصلاة والسلام عليهما قال في التسهيل: معنى الآية: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة، وإفشاء سره ونحو ذلك، فإنَّ له من ينصره ويتولاه، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما يشقُّ عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهنَّ فإنَّ الله معك! وملائكته وجبريل، وأبو بكرٍ وعمر معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر[٢] ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي والملائكة الأبرار بعد حضرة الله، وجبريل، وصالح المؤمنين أعوانٌ لرسول الله ﷺ على من عاداه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصارهُ؟! أفرد «جبريل» بالذكر تعظيمًا له، وإظهارًا لمكانته عند الله تعالى فيكون قد ذُكر مرتين: مرةً بالإفراد، ومرةً في العموم، ووسَّط «صالح المؤمنين» بين جبريل والملائكة تشريفًا لهم، واعتناءً بهم، وإشادةً بفضل الصلاح، وختم الآية بذكر «الملائكة» أعظم المخلوقات وجعلهم ظهراء للنبي عليه السلام ليكون أفخم بالنبي صلوات الله عليه، وعظم مكانته، والانتصار له، إذ هم بمثابة جيشٍ جرارٍ، يملأ القفار، نصرةً للنبي المختار، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوئ الرسول ﷺ بعد ذلك[٣]؟ ثم خوَّف تعالى نساء النبي بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ قال المفسرون: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبٌ أي حقٌّ واجب على الله إن طلقكنَّ رسوله ﴿أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ أي أن يعطيه عليه السلام بدلكُنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ خيرًا وأفضل منكنَّ قال القرطبي: هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه نساءً خيرًا منهن، والله عالم بأنه لن يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته على أن رسوله لو طلقهن لأبدله خيرًا منهن؛ تخويفًا لهنَّ[٤]. ثم وصف تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدله بهنَّ فقال: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ أي خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﴿مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ أي مصدقاتٍ بالله وبرسوله ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي مطيعاتٍ لما يُؤمرن به، مواظباتٍ على الطاعة ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي تائباتٍ من الذنوب، لا يصررن على معصية ﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾ أي متعبداتٍ لله تعالى يكثرن العبادة، كأنَّ العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت سجيةً لهن ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ أي مسافراتٍ مهاجراتٍ إلى الله ورسوله[٥]

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٤.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣١.
(٣) لا يخفى أن الكلام في الآية مسوقٌ للمبالغة ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وإلا فكفى بالله وليًا، وكفى بالله نصيرًا.
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩٣.
(٥) قال ابن عباس: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ أي صائمات. واستدل بحديث «سياحةُ هذه الأمة الصيام» وقال زيد بن أسلم: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ أي مهاجرات. وتلا قوله تعالى ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي المهاجرون، ولعل هذا الرأي أرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة وهي السفر في الأرض للاعتبار، وقد رجح ابن كثير الرأي، الأول والله أعلم.

﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ أي منهنَّ ثيباتٍ، ومنهن أبكارًا، قال ابن كثير: قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإنَّ التنوع يبسط النفس [١]، وإنما دخلت واو العطف هنا ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ للتنويع والتقسيم، ولو سقطت لاختل المعنى؛ لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان، فتدبر سرَّ القرآن.. ولما وعظ نساء الرسول موعظةً خاصة، أتبع ذلك بموعظةٍ عامةٍ للمؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم من نارٍ حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم قال مجاهد: أي اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال الخازن: أي مروهم بالخير، وانهوهم عن الشر، وعلموهم وأدبوهم حتى تقوهم بذلك من النار [٢]، والمراد بالأهل النساءُ والأولاد وما ألحق بهما ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة قال المفسرون: أراد بالحجارة حجارة الكبريت؛ لأنها أشد الأشياء حرًّا، وأسرع اتِّقادًا، وعنى بذلك أنها مفرطة الحرارة، تتقد بما ذكر، لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه قال ابن مسعود: حطبها الذي يلقى فيها بنو آدم، وحجارةٌ من كبريت، أنتن من الجيفة [٣] ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أي على هذه النار زبانيةٌ غلاظ القلوب، لا يرحمون أحدًا، مكلفون بتعذيب الكفار قال القرطبي: المراد بالملائكة: الزبانية، وهم غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا؛ لأنهم خلقوا من الغضب، وحُبّب إليهم عذاب الخلق كما حُبب لبني آدم أكل الطعام والشراب [٤] ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أي لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي وينفِّذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير.. ثم يقال للكفار عند دخولهم النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي لا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار، لأنه قد قُدّم إليكم الإنذار والإعذار ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئًا كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ ثم دعا المؤمنين إلى التوبة الصادقة الناصحة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً صادقةً خالصة، بالغةً في النصح الغاية القصوى، سئل عمر عن التوبة النصوح فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع [٥] قال العلماء: التوبة النصوح هي التي جمعت ثلاثة شروط: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما حدث، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان الحق لآدمي زيد شرط رابع هو: ردُّ المظالم لأصحابها ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي لعل الله يرحمكم فيمحو عنكم ذنوبكم قال المفسرون: «عسى» من الله واجبة بمنزلة التحقيق،

---

(١) ابن كثير ٣/ ٥٢٢.
(٢) تفسير الخازن ٤/ ١٢١.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٣.
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩٦.
(٥) تفسير الخازن ٤/ ١٢٢.

وهذا إطماعٌ من الله لعباده في قبول التوبة تفضلاً منه وتكرمًا؛ لأن العظيم إذا وعد وفَّى، وعادة الملوك أنهم إذا أرادوا فعلاً قالوا: «عسى» فهو بمنزلة المحقق[1] ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يعزهم ويكرمهم قال أبو السعود: وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم اللهُ تعالى من أهل الكفر والفسوق[2] ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل[3] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي يدعون الله قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين[4]، يدعون ربهم به إشفاقًا حتى يصلوا إلى الجنة ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.. ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسِّنان، والمنافقين بالحجة والبرهان؛ لأن المنافقين يظهرون الإيمان، فهم مسلمون ظاهرًا فلذلك لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بقتالهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي وشدِّد عليهم في الخطاب، ولا تعاملهم بالرأفة واللين، إرعابًا وإذلالاً لهم؛ لتنكسر صلابتهم وتلين شكيمتهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست جهنم مستقرًّا ومصيرًا للمجرمين.. ثم ضرب تعالى مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح؛ لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي مثَّل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوحٍ وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما «نوح» و«لوط» عليهما السلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفًا وتكريمًا لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان[5]، فلم يدفعا عن امرأتيهما -مع نبوتهما- شيئًا من عذاب الله ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي وتقول

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي ٢٨/ ١٦٠. (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥.

(٣) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل: كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم؟ فقال: «إنهم يأتون غرًّا محجلين من آثار الوضوء» أي تسطع جباهم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ.

(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠١.

(٥) الخيانة هنا يراد بها: الخيانة في الدين لا في العِرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هنَّ شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيٍّ قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين. فتدبره فإنه دقيق.

لهما خزنة النار يوم القيامة : ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين من الكفرة المجرمين قال القرطبي : ضرب تعالى هذا المثل تنبيهًا على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن قريبٍ ولا نسيب ، إذ فرَّق بينهما الدين ، كما لم يدفع نوح ولوط -مع كرامتهما على الله تعالى- عن زوجتيهما لما عصتا شيئًا من عذاب الله [١] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهذا مثلٌ آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمنًا قال أبو السعود : أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم ، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله «فرعون» وهي في أعلى غرف الجنة [٢] قال المفسرون : واسمها «آسية بنت مزاحم» آمنت بموسى عليه السلام ، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها ، فنجَّاها الله من شره ، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا ربِّ العالمين ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي حين دعت ربها قائلةً : يا ربِّ اجعل لي قصرًا مشيدًا بجوار رحمتك في جنة النعيم قال بعض العلماء : ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت : ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور ، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وأنقذني من الأقباط ، أتباع فرعون الطاغين ، قال الحسن : لما دعت بالنجاة نجَّاها الله تعالى أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم [٣] ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ أي ومريم ابنة عمران مثلٌ آخر في الإيمان ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظت فرجها وصانته عن مقارفة الفواحش ، فهي عفيفةٌ شريفةٌ طاهرة ، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي فنفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها ، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى قال ابن كثير : إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر ، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام [٤] ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي وآمنت بشرائع الله القدسية ، وكتبه السماوية ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي وكانت من القوم المطيعين ، العابدين لله عز وجل ، وهو ثناءٌ عليها بكثرة العبادة والطاعة ، والخشوع ، وفي الحديث «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» [٥] .

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين حرَّم وأحلَّ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ﴾ وبين ﴿عَرَّفَ . . وَأَعْرَضَ﴾ وبين ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠١ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٦ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٥ .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٥ .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم .

وكلها من المحسنات البديعية التي تزيد في جمال الكلام.

٢- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ زيادةً في اللوم والعتاب.

٣- صيغ المبالغة ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿نَّصُوحًا﴾ ﴿ظَهِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ إلخ.

٤- ذكر العام بعد الخاص ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فقد خصَّ جبريل بالذكر تشريفًا، ثم ذكره ثانية مع العموم اعتناءً بشأن الرسول ﷺ ووسَّط صالح المؤمنين بين الملائكة المقربين.

٥- المجاز المرسل ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ذكر المسبَّب وأراد السبب أي لازِموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله.

٦- المقابلة بين مصير أهل الإيمان ومصير أهل الطغيان ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٧- التغليب ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ غلَّب الذكور على الإناث.

٨- السجع المرصَّع كأنه اللؤلؤ والمرجان، وهو كثير في القرآن فتدبره بإمعان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»
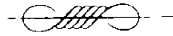
بَيْن يدَي السُّورَة

* سورة المُلْك من السور المكية، شأنها شأن السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى، وقد تناولت هذه السورة أهدافًا رئيسية ثلاثة وهي «إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة.. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول، فذكرت أن الله جل وعلا بيده المُلْك والسلطان، وهو المهيمن على الأكوان، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنو له الجباه، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ..﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن خلق السموات السبع، وما زيَّن الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة، والنجوم اللامعة، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا..﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغيظ على أعداء الله، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ...﴾.

* وبعد أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته، حذَّرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآيات ويا له من وعيد شديد، ترتعد له الفرائص!!

فضلها: تسمى هذه السورة «الواقية» و«المنجية» لأنها تقي قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ «هي المانعة وهي المنجية، تنجي من عذاب القبر» أخرجه الترمذي.

□ □ □
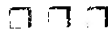
قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ.. إلى.. فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ من آية (١) إلى آية (٣٠) نهاية السورة الكريمة.

اللغَـة : ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، من طابق النعل بالنعل إذا قطعه بقدره وجعله فوقه ﴿فُطُورٍ﴾ شقوق وخروق، من فطر بمعنى شق، قال الشاعر :

بنى لكمو بلا عَمدٍ سماءً وسوَّاها فما فيها فُطور[1]

﴿حَسِيرٌ﴾ كليل، من الحسور وهو الإعياء يقال : حسر البعير إذا كلَّ وانقطع قال الشاعر :

نظرتُ إليها بالمحصب من منى فعاد إليَّ الطَّرف وهو حسير[2]

﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا منكرًا كصوت الحمير ﴿تَمَيَّزُ﴾ تتقطع وينفصل بعضها من بعض، وأصلها تتميَّز حذفت إحدى التاءين تخفيفًا ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ أطرافها ونواحيها، وأصل المنكب : الجانب ومنه منكب الرجل ﴿لَجُّوا﴾ تمادوا وأصروا ﴿تَمُورُ﴾ ترتج وتضطرب ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا منهم ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا ذاهبًا في الأرض.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨ . (٢) القرطبي ١٨/ ٢١٠ .

التفسير: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي تمجَّد وتعالى اللهُ العلي الكبير، المفيض على المخلوقات من فنون الخيرات، الذي بقبضة قدرته ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء قال ابن عباس: بيده الملك، يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع[١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على كل شيء له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مدافع.. ثم بيَّن تعالى آثار قدرته، وجليل حكمته فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي أوجد في الدنيا الحياة والموت، فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع قال العلماء: ليس الموت فناءً وانقطاعًا بالكلية عن الحياة، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يسمع، ويرى، ويُحسُّ وهو في قبره كما قال عليه السلام: «إنَّ أحدكم إذا وضع في قبره وتولَّى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم»[٢] الحديث وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم لكنهم لا يجيبون» فالموتُ هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها للجسد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليمتحنكم ويختبركم -أيها الناس- فيرى المحسن منكم من المسيء قال القرطبي: أي يعاملكم معاملة المختبر، فإن الله تعالى عالم بالمطيع والعاصي أزلاً[٣] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالبُ في انتقامه ممن عصاه ﴿الْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب وأناب إليه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي خلق سبع سمواتٍ متطابقة، بعضها فوق بعض، كل سماء كالقبة للأخرى ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي لست ترى أيها السامع في خلق الرحمن البديع من نقص أو خلل، أو اختلاف أو تنافر، بل هي في غاية الإحكام والإتقان، وإنما قال: ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقل: «فيهن» تعظيمًا لخلقهن، وتنبيهًا على باهر قدرة الله ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾؟ أي فكرّر النظر في السموات وردّده في خلقهن المحكم، هل ترى من شقوق وصدوع؟ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي ثم ردِّد النظر مرةً بعد أُخرى، وانظر بعين الاعتبار في هذه السموات العجيبة مرةً بعد مرة ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي يرجع إليك بصرك خاشعًا ذليلاً، لم ير ما تريد ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي وهو كليلٌ متعب قد بلغ الغاية في الإعياء قال الإمام الفخر: المعنى إنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود الخلل والعيب بل رجع خاسئًا مبعدًا لم ير ما يهوى مع الكلال والإعياء[٤] وقال القرطبي: أي اردد طرفك وقلّب البصر في السماء ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرةً بعد أخرى، يرجع إليك البصر خاشعًا صاغرًا، متباعدًا عن أن يرى شيئًا من ذلك العيب والخلل، وإنما أمر بالنظر كرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى، والمراد بالكرتين التكثير بدليل قوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ

---

(١) القرطبي ١٨/ ٢٠٦ .
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم .
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠٧ .
(٤) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٥٨ .

خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو دليلٌ على كثرة النظر[١] . . ثم بيَّن تعالى ما زين به السماء من النجوم الزاهرة والكواكب الساطعة فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ اللام لام القسم و ﴿قَدْ﴾ للتحقيق والمعنى والله لقد زينا السماء القريبة منكم أيها الناس بكواكب مضيئة ساطعة، هي السماء الأولى أقرب السموات إلى الأرض قال المفسرون: سميت الكواكب مصابيح لإضاءتها بالليل إضاءة السراج ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وجعلنا لها فائدةً أخرى وهي رجم أعدائكم الشياطين، الذين يسترقون السمع قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء ورجومًا للشياطين وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر[٢] وقال الخازن: فإن قيل: كيف تكون زينة للسماء، ورجومًا للشياطين؟ وكونها زينة يقتضي بقاءها، وكونها رجومًا يقتضي زوالها، فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟ فالجواب: أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وتُرمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب، ومثلها كمثل قبسٍ يؤخذ من النار وهي على حالها[٣]، أقول: ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فعلى هذا، الكواكب لا يرجم بها، وإنما يكون الرجم بالشهب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وهيأنا وأعددنا للشياطين في الآخرة - بعد الإحراق بالشهب في الدنيا - العذاب المستعر، وهو النار الموقدة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي وللكافرين بربهم عذاب جهنم أيضًا، فليس العذاب مختصًا بالشياطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست النار مرجعًا ومصيرًا للكافرين. . ثم وصف تعالى جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال فقال: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي إذا قذفوا وطرحوا في جهنم كما يطرح الحطبُ في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي سمعوا لجهنم صوتًا منكرًا فظيعًا كصوت الحمار لشدة توقدها وغليانها[٤] قال ابن عباس: الشهيقُ لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفرُ زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف[٥] ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي وهي تغلي بهم كما يغلي المرجل - القدر - من شدة الغضب ومن شدة اللهب قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحبُّ القليل في الماء الكثير ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي تكاد جهنم تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها وحنقها على أعداء الله ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي كلما طرح فيها جماعةٌ من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي سألتهم الملائكة الموكلون على جهنم - وهم الزبانية - سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسولٌ ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب؟ قال المفسرون:

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠٩ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٢٩٩ .
(٣) تفسير الخازن ٤/ ١٢٥ .
(٤) قال في التسهيل: الشهيق أقبح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به ما يسمع من صوت جهنم لشدة غليانها وهولها.
(٥) التسهيل ٤/ ١٣٤، تفسير القرطبي (١٨/ ٢١١) .

وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ليزدادوا حسرةً فوق حسرتهم، وعذابًا فوق عذابهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي أجابوا نعم لقد جاءنا رسول منذر، وتلا علينا آيات الله، ولكننا كذبناه وأنكرنا رسالته ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي وقلنا إمعانًا في التكذيب وتماديًا في النكير: ما أنزل الله شيئًا من الوحي على أحدٍ قال الرازي: هذا اعترافٌ منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل الكرام، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا: ما نزَّل الله من شيء [١] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تتمة كلام الكفار أي ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بعدٍ عن الحق وضلال واضح عميق ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي وقال الكفار: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو كنا نسمع سماع طالب للحق، ملتمسٍ للهدى ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ما كنا نستوجب الخلود في جهنم ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي فأقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فبعدًا وهلاكًا لأهل النار، قال ابن كثير: عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة [٢]، والجملة دعائية أي أبعدهم الله من رحمته وسحقهم سحقًا.. ثم لما ذكر حال الأشقياء الكفار أتبعه بذكر حال السعداء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، ويكفُّون عن المعاصي طلبًا لمرضاة الله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم عند الله مغفرةٌ عظيمة لذنوبهم، وثواب جزيل لا يعلم قدره غير الله تعالى ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ الخطاب لجميع الخلق أي أخفوا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوه وأظهروه، فسواءٌ أخفيتموه أو أظهرتموه فإنَّ الله يعلمه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لأنه تعالى العالم بالخفايا والنيات، يعلم ما يخطر في القلوب، وما توسوس به الصدور قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم حتى لا يسمع إله محمد، فأخبر الله أنه لا تخفى عليه خافية [٣] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ أي ألا يعلم الخالق مخلوقاته؟ كيف لا يعلم مَن خلق الأشياء وأوجدها سرَّ المخلوق وجهره؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي والحال أنه اللطيف بالعباد، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا تتحرك ذرة، ولا تسكن أو تضطرب نفسٌ إلا وعنده خبرها.. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار فضله وامتنانه على العباد فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي الله جل وعلا جعل لكم الأرض لينةً سهلة المسالك ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي فاسلكوا أيها الناس في جوانبها وأطرافها قال ابن كثير: أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وتردّدوا في أقاليمها وأرجائها للمكاسب والتجارات [٤] ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي وانتفعوا بما أنعم به جل وعلا عليكم من أنواع الكسب والرزق قال الألوسي: كثيرًا ما يُعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم، وفي الآية دليل على ندب التسبب والكسب، وهو لا ينافي التوكل، فقد مرَّ

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٦٤). (٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).
(٣) الخازن (٤/ ١٢٦) والألوسي (٢٩/ ١٣). (٤) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

عمر رضي الله عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون! فقال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجلٌ ألقى حبةً في بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل[١] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي وإليه تعالى المرجع بعد الموت والفناء، للحساب والجزاء.. ثم توعّد تعالى كفار مكة المكذبين لرسول الله ﷺ فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي هل أمنتم يا معشر الكفار ربكم العليَّ الكبير أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم في مجاهلها، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها؟ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي فإذا بها تضطرب وتهتز بكم هزًّا شديدًا عنيفًا قال الرازي: والمراد أنَّ الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فيذهبون، والأرضُ فوقهم تمور فتقلبهم إلى أسفل سافلين[٢] ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ أي أم أمنتم الله العليَّ الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل؟ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي فستعلمون عند معاينة العذاب كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين!! وفيه وعيد وتهديدٌ شديد، وأصلها «نذيري» و«نكيري» حذفت الياء مراعاةً لرءوس الآيات ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد كذب كفار الأمم السابقة رسلهم، كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود وأمثالهم، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب؟ ألم يكن في غاية الهول والفظاعة؟ ثم لما حذَّرهم ما عسى أن يحل بهم من الخسف وإرسال الحاصب، نبَّههم على الاعتبار بالطير، وما أحكم الله من خلقها، وعن عجز آلهتهم المزعومة عن خلق شيءٍ من ذلك فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ﴾ أي أولم ينظروا نظر اعتبار إلى الطيور فوقهم، باسطاتٍ أجنحتهن في الجو عند طيرانها وتحليقها ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ أي ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتًا بعد وقت؟ ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبَّر عنه بالاسم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وكان القبض متجددًا عبَّر عنه بالفعل ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ قال في التسهيل: فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: «قابضات» على طريقة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبضُ الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلّته[٣] ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ أي ما يمسكهن في الجو عن السقوط في حال البسط والقبض، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان قال الرازي: وذلك أنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، وإلهامها إلى كيفية البسط والقبض المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن[٤] ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق، وكيف يبدع العجائب بمقتضى علمه وحكمته.. ثم وبَّخ تعالى المشركين في

---

(١) تفسير الألوسي (٢٩/ ١٥).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٧٠).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٣٦).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٧١).

عبادتهم لما لا ينفع ولا يسمع فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ ؟ أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار والأعوان؟! قال ابن عباس: أي من ينصركم مني إن أردتُ عذابكم[1] ؟ ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضرُّ إلا في جهل عظيم، وضلال مبين، حيث ظنوا الأوهام حقائق، فاعتزوا بالأوثان والأصنام ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ ؟ أي من هذا الذي يرزقكم غير الله إن منع الله عنكم رزقه؟ والخطاب في الآيتين للكفار على وجه التوبيخ والتهديد، وإقامة الحجة عليهم[2] ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل تمادوا في الطغيان، وأصرّوا على العصيان، ونفروا عن الحق والإيمان.. ثم ضرب تعالى مثلاً للكافر والمؤمن فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ؟ أي هل من يمشي منكسًا رأسه، لا يرى طريقه فهو يخبط خبط عشواء، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيخرّ لوجهه، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يرى طريقه ولا يتعثر في خطواته؛ لأنه يسير على طريق بيّن واضح؟ قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة، لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه، والمؤمن كالرجل السويّ الصحيح البصر، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمن من الخبط والعثار، هذا مثلهما في الدنيا، وكذلك يكون حالهما في الآخرة، المؤمن يحشر فيمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، والكافر يحشر فيمشي على وجهه إلى دركات الجحيم قال قتادة: الكافر أكبَّ على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله على الطريق السويّ يوم القيامة وقال ابن عباس: هو مثلٌ لمن سلك طريق الضلالة ولمن سلك طريق الهدى[3].. ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة، ليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والإشراك فقال ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله جل وعلا وهو الذي أوجدكم من العدم، وأنعم عليكم بهذه النعم «السمع والبصر والعقل» وخصَّ هذه الجوارح بالذكر لأنها أداة العلم والفهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلَّما تشكرون[4] ربكم على نعمه التي لا تُحصى قال الطبري: أي قليلاً ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي أنعمها عليكم[5] ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وكثَّركم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

---

(١) تفسير الخازن (٤/ ١٢٦) . (٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٧٣) .

(٣) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر: فالكافر مثله فيما هو فيه من الضلالة كمثل من يمشي مكبًّا على وجهه أي منحنيًا لا مستويًا، لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، فهو تائه حائر ضال، والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح بيِّن، أيهما أهدى سبيلاً أهذا أم ذاك؟! مختصر ابن كثير (٣/ ٣٠) .

(٤) قال ابن عطية: المراد: نفي الشكر، فعبر بالقلة كما تقول العرب: هذه أرضٌ قل ما تنبت كذا، وهي لا تنبته ألبتة. اهـ. نقلاً عن البحر (٨/ ٣٠٣) .

(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ٧) .

﴿ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر، وهذا استهزاء منهم ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة ووقت العذاب عند الله تعالى لا يعلمه غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ منذر أخوفكم عذاب الله امتثالاً لأمره.. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين في ذلك اليوم العصيب فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي فلما رأوا العذاب قريبًا منهم، وعاينوا أهوال القيامة ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ظهرت على وجوههم آثار الاستياء، فعلتها الكآبة والغم والحزن، وغشيها الذل والانكسار، قال في البحر: أي ساءت رؤية العذاب وجوههم، وظهر فيها السوء والكآبة، كمن يساق إلى القتل[1] ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي وقالت لهم الملائكة توبيخًا وتبكيتًا: هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءً وتكذيبًا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بتأخير آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فمن يحميكم من عذاب الله الأليم، ووضع لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عوضًا عن الضمير «يجيركم» تشنيعًا وتسجيلاً عليهم بالكفر قال المفسرون: كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمسلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي، فأي راحةٍ وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم وتنقذكم من العذاب الأليم[2]؟ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي قل لهم: آمنا بالله الواحد الأحد، وعليه اعتمدنا في جميع أمورنا لا على الأموال والرجال ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم؟ وفيه تهديد للمشركين ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني إذا صار الماء غائرًا ذاهبًا في أعماق الأرض بحيث لاتستطيعون إخراجه ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي فمن الذي يخرجه لكم حتى يكون ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض؟ هل يأتيكم غير الله به؟ فلمَ تشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان؟!

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿ٱلْمَوْتَ... وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وبين ﴿وَأَسِرُّوا۟... ٱجْهَرُوا۟﴾ وبين ﴿صَٰٓفَّٰتٍ... وَيَقْبِضْنَ﴾ لأن المعنى صافات وقابضات.

٢ - وضع الموصول للتفخيم والتعظيم ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له الملك والسلطان، والتصرف في الأكوان.

٣ - الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادة في التذكير والتنبيه ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ.. ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾

(١) البحر (٨/ ٣٠٧).
(٢) انظر التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٧٦).

وكذلك ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . . فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

٤ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ؟

٥ - المقابلة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قابله بقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٦ - الاستعارة المكنية ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ شبَّه جهنم في شدة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية .

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا بطريق التمثيل للمؤمن والكافر ، فالمؤمن يمشي سويًّا على صراط مستقيم ، والكافر يمشي مكبًّا على وجهه إلى طريق الجحيم ، ويا لها من استعارة رائعة ! !

٨ - السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ؟ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ ومثل ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إلخ .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»

بين يدي السورة

* سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي:

أ- موضوع الرسالة، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله ﷺ.

ب- قصة أصحاب الجنة «البستان»، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى.

ج- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعدَّ الله للفريقين: المسلمين والمجرمين.

ولكن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه - وحاشاه - بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .. الآيات.

* ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ وما أعدَّ الله لهم من العذاب والنكال ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ...﴾ الآيات.

* ثم ضربت مثلاً لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة «الحديقة» ذاتِ الأشجار والزروع والثمار، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرةً للمعتبرين ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ...﴾ الآيات.

* ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ...﴾ .. الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها، وموقف المجرمين في ذلك اليوم العصيب الذي يكلفون فيه بالسجود لربِّ العالمين فلا يقدرون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الآيات.

قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . . إلى . . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ من آية (١) إلى آية (٥٢) نهاية السورة.

اللغة: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون، سَطَر العلمَ كتبه بالقلم ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع يقال: مننتُ الحبل إذا قطعته ﴿عُتُلٍّ﴾ العُتل: الغليظ الجافي، السريع إلى الشر، مأخوذ من العَتل وهو الجر ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ قال في الصحاح: عَتلت الرجل إذا جذبته جذبًا عنيفًا[1] ﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيمُ: الملصق بالقوم وليس منهم، وهو الدعيُّ الذي لا يعرف أبوه قال الشاعر:

زنيمٌ ليس يُعرف من أبوه بغيُّ الأم ذو حَسبٍ لئيم[2]

﴿صَٰرِمِينَ﴾ صرم الشيء قطعه، وصرم النخلة قطع ثمرها ﴿حَرْدٍ﴾ قصد وعزم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل وضمين ﴿مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظًا وغمًّا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

التفسير: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز

---

(١) الصحاح للجوهري مادة عتل. (٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٣٤).

القرآن [١]. . أقسم تعالى بالقلم الذي يكتب الناس به العلوم والمعارف، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الرحمن على عباده، والمعنى: أُقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون، وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وحسبك دليلاً على شرف القلم أن الله أقسم به في هذه السورة تمجيدًا لشأن الكاتبين، ورفعًا من قدر أهل العلم، ففي القلم البيان كما في اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف، قال ابن كثير: والظاهر من قوله تعالى ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أنه جنس القلم الذي يكتب به، وهو قسم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم [٢] ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي لست يا محمد بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة بمجنون، كما يقول الجهلة المجرمون، فأنت بحمد الله عاقل لا كما قالوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قال ابن عطية: هذا جواب القسم، وقوله ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ اعتراض كما تقول للإنسان: أنت - بحمد الله - فاضل [٣] ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي وإنّ لك لثوابًا على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا منقوص ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات. . يا له من شرف عظيم، لم يدرك شأوه بشر، فرب العزة جل وعلا يصف محمدًا بهذا الوصف الجليل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقد كان من خلقه ﷺ العلم والحلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء، والصبر والشكر، والتواضع والزهد، والرحمة والشفقة، وحسن المعاشرة والأدب، إلى غير ذلك من الخلال العلية، والأخلاق المرضية [٤] ولقد أحسن القائل:

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليك فما مقدار ما تمدح الورى؟

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك - كفار مكة - إذا نزل بهم العذاب ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي أيكم الذي فتن بالجنون؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم

---

(١) انظر التحقيق العلمي الذي كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٣٢).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٠٧) قال أبو حيان: والآية كالدليل القاطع على صحة الدعوى لأن النعمة كانت ظاهرة في حقه عليه السلام من كمال الفصاحة والعقل والسيرة المرضية والاتصاف بكل مكرمة مما يكذب التهمة.

(٤) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، وما مسست خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم، وفي البخاري عن عائشة لما سئلت عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن» تعني التأدب بآدابه.

وانصرافهم عن الهدى؟ قال القرطبي: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، ومعظم السورة نزل في «الوليد بن المغيرة» و«أبي جهل» وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطانًا، وعنوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى سيعلمون غدًا بأيهم المجنون أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيد للوعد والوعيد كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فلا تطع رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه، قال الرازي: دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم[2] ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك، قال في التسهيل: المداهنة: هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية[3] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي ولا تطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل، الذي يكثر من الحلف مستهينًا بعظمة الله ﴿مَّهِينٍ﴾ أي فاجر حقير ﴿هَمَّازٍ﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان، وفي الحديث الصحيح «لا يدخل الجنة نمام»[4] ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي ظالم متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام، وجاءت الأوصاف «حلاف، هماز، مشاء، مناع» بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة ﴿عُتُلٍّۭ﴾ أي جاف غليظ، قاسي القلب عديم الفهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ﴿زَنِيمٍ﴾ أي ابن زنا، وهذه أشد معايبه وأقبحُها، أنه لصيق دعي ليس له نسب صحيح، قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دعيًا في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة - أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب - قال ابن عباس: لا نعلم أحدًا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عارًا لا يفارقه أبدًا، وإنما ذُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمدًا وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة في أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زَنِيمٍ﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنينًا - أي لا يستطيع معاشرة النساء - فخفت على المال فمكنت راعيًا من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٢٩).
(٢) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٨٣).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٣٨).
(٤) أخرجه مسلم.

ابن زنا حتى نزلت الآية[١] ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأن كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين[٢]؟ وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئًا ساخرًا: إنها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال تعالى ردًّا عليه متوعدًا له بالعذاب ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر، قال ابن عباس: سنخطم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خطم يوم بدر بالسيف[٣]، قال الإمام الفخر: لما كان الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفَة، وقالوا في الذليل: رغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين، فكيف على أكرم موضع من الوجه[٤]!! ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الحديقة وما ابتلاهم تعالى به من إتلاف الزروع والثمار وضربه مثلاً لكفار مكة فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله ﷺ كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، وكلفنا أهل مكة أن يشكروا ربهم على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم، قال المفسرون: كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبًا وافرًا منه وأكرمهم غاية الإكرام فلما مات الأب ورثه أبناؤه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثير والمال قليل ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى نارًا على الحديقة ليلاً أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجرًا ولا ثمرًا، فظنوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان[٥] ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حين حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج إليهم المساكين ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي ولم يقولوا إن

---

(١) انظر تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليه (٤/ ٢٣٣).

(٢) اختار الطبري وابن كثير هذا المعنى أن الآية متعلقة بما بعدها أي لأنه ذو مال وبنين يتكبر بماله وبنيه ويقول: إن القرآن خرافات وأباطيل، واختار غيرهما أن الآية متعلقة بما سبق أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وولده.

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٨).

(٤) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ٨٦).

(٥) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي (٣٠/ ٨٧) والبحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٣١١).

شاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي فطرقها طارق من عذاب الله، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نيامًا، قال الكلبي: أرسل الله عليها نارًا من السماء فاحترقت وهم نائمون ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيمًا يابسًا، قال ابن عباس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ أي نادى بعضهم بعضًا حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفًا من أن يشعر بهم المساكين قائلين ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي لا تدخلوا في هذا اليوم أحدًا من الفقراء إلى البستان ولا تمكنوه من الدخول ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي ومضوا على قصد وقدرة في أنفسهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، قال ابن عباس: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على قدرة وقصد، وقال السدي: على حنق وغضب، وقال الحسن: على فاقة وحاجة (١)، وقول ابن عباس أظهر ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها وليست هذه حديقتنا قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا عند ذلك (٢) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي لسنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حرمنا ثمرها وخيرها بجنايتنا على أنفسنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ؟ أي قال أعقلهم وأفضلهم رأيًا: هلا تسبحون الله فتقولون «سبحان الله» أو «إن شاء الله» قال في البحر: نبههم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله (٣) وقال الرازي: إن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا حالة البستان ذكرهم بالكلام الأول، فاشتغلوا بالتوبة ولكن بعد خراب البصرة (٤) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي فقالوا حينئذٍ: تنزه الله ربنا عن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا في منعنا حق المساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول: هذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت، ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا

---

(١) قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: غدوا على أمر قد قصدوه واعتدوه واستسروه بينهم قادرين عليه وهو ترجيح لقول ابن عباس وهو الذي اخترناه.

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣١٣).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٠).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٠).

الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم[١] ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغين في منعنا الفقراء، وعدم التوكل على الله، قال الرازي: والمراد أنهم استعظموا جرمهم[٢] ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي لعل الله يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا واعترافنا بخطيئتنا ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي فنحن راجون لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله. ساق تعالى هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم، قال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمدًا ﷺ وأصحابه، ويشربوا الخمور، وتضرب القينات - المغنيات - على رءوسهم، فأخلف الله ظنهم، فقتلوا وأُسروا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا[٣].. ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ﴾ أي إن للمتقين في الآخرة حدائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو حال الدنيا ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أفنساوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ تعجب منهم حيث إنهم يسوُّون المطيع بالعاصي، والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أي هل عندكم كتاب منزل من السماء تقرءون وتدرسون فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هذه الجملة مفعول لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا يزعمونه من الباطل حيث قالوا: إن كان ثمة بعث وجزاء، فسنعطي خيرًا من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا قال الطبري: وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة[٤] ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟ قال ابن كثير: المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون[٥] ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكابرين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول،

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٩١).
(٢) التفسير الكبير (٣١/ ٩١).
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٦).
(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٢٣).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٧).

يرفضها المنطق وتأباها العدالة ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكفلون لهم بذلك . فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم ، قال في التسهيل : وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء ، فأتوا بهم وأحضروهم حتى نرى حالهم[١] . . ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم ، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة ، قال ابن عباس : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة[٢] قال القرطبي : والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة[٣] كقول الزجر :

قد كشفت عن ساقها فشدوا وجدَّت الحرب بكم فجدوا

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون لأن ظهر أحدهم يصبح طبقًا واحدًا ، وفي الحديث «يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا»[٤] ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاء الجسم معافون فيأبون ، قال الإمام الفخر : لا يدعون إلى السجود تعبدًا وتكليفًا ، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا ، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه ، حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل[٥] ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه!! وهذا منتهى الوعيد ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم ، إلى الهلاك والدمار ، من حيث لا يشعرون ، قال الحسن : كم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه[٦] قال الرازي : الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه ، فكلما أذنبوا ذنبًا جدَّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار ، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم ، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين ، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم[٧] ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأطيل في أعمارهم ليزدادوا إثمًا ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد ، وفي الحديث «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٤٠) .
(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٣٨) .
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٩) .
(٤) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم .
(٥) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٦) .
(٦) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٥١) .
(٧) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٦) .

أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ (١) وإنما سمى إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئًا من الأجر، قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم عن الإيمان(٢) ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غمًّا وغيظًا بقوله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو ملام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذمومًا ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين، قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه(٣) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم: نظر إلي نظرًا كاد يصرعني قال ابن كثير: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، ويؤيده حديث «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»(٤) ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك: إن محمدًا مجنون، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون؟! ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن، كما بدأها ببيان عظمة الرسول، فيتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين لفظي ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ و ﴿مَمۡنُونٖ﴾ لاختلاف الحرف الثاني.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ وحذف المفعول للتهويل.

---

(١) أخرجه الشيخان. (٢) تفسير الخازن (٤/ ١٤٠).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٩).

(٤) الحديث رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح.

٣- صيغ المبالغة في ﴿حَلَّافٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ﴾ وكذلك في ﴿أَثِيمٍ﴾ ﴿زَنِيمٍ﴾ .

٤- الاستعارة الفائقة ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ استعار الخرطوم للأنف لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف .

٥- الطباق بين ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وبين ﴿ضَلَّ . . . بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٦- جناس الاشتقاق ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ .

٧- التقريع والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ؟ والجمل التي بعدها .

٨- التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبهًا والعكس ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ؟ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع .

٩- الكناية الرائقة الفائقة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن شدة الهول، وتفاقم الخطب يوم القيامة .

١٠- السجع المرصع المحبوك، كأنه الدر المنظوم اقرأ الآيات الكريمة ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . . .﴾ . . إلخ وتدبر روعة القرآن!!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»
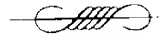
تفسير سورة الحاقة

بين يدي السورة

* سورة الحاقة من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان، وقد تناولت أمورًا عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم، مثل قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون، وقوم نوح، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء، ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو إثبات صدق القرآن وأنه كلام الحكيم العليم، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهمه به أهل الضلال.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . .﴾ الآيات.

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم، واندكاك الجبال، وانشقاق السموات إلخ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً . .﴾ الآيات.

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه، ويلقى الإكرام والإنعام، ويعطى الكافر كتابه بشماله، ويلقى الذل والهوان ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ . . وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ . . الآيات.

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم البليغ بصدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به من الله، وردّ افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه كما نزل عليه، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزًّا، ويثير في النفس الخوف والفزع من هول الموضوع ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

□□□

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ . . إلى . . ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ من آية (١) إلى آية (٥٢) نهاية السورة الكريمة.

اللغَة: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ القيامة سميت حاقة لأنها حقٌّ مقطوع بوقوعها ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر:

«فدارت عليهم فكانت حُسومًا»[1]

﴿رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشّدة والعذاب، ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ساقطة القوة، ضعيفة متراخية من قولهم: وهى البناء إذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمر ويقطف، ﴿غِسْلِينٍ﴾ صديد أهل النار، قال الكلبي: هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو ﴿غِسْلِينٍ﴾ فعلين من الغسل[2] ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسمى الأبهر وفي الحديث «ما زالت أكلةُ خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري»[3] «حسرة» ندامة عظيمة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣١٩). (٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١١٦).

(٣) نفس المرجع السابق (٣٠/ ١١٩).

التَّفْسِير: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ قاطع، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ؟ التكرار لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ وما أعلمك يا محمد ما هي القيامة؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تر ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال[١]، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمرٍ أتوا بصيغة الاستفهام يقولون: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شيء مريع وخطب فظيع. ثم بعد أن عظَّم أمرها وفخم شأنها، ذكر من كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب، تذكيرًا لكفار مكة وتخويفًا لهم؛ فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي كذب قوم صالح، وقوم هود بالقيامة، التي تقرع القلوب بأهوالها ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي فأمَّا ثمود - قوم صالح - فأُهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحدَّ في الشدة، قال قتادة: هي الصيحة التي خرجت عن حدِّ كل صيحة[٢] ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي وأما عاد - قوم هود - فأُهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدَّبور وفي الحديث «نُصرت بالصبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبور»[٣] ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي متجاوزة الحدِّ في الهبوب والبرودة، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها[٤]، قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطُّ إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٥] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي كأنهم أصول نخلٍ متآكلة الأجواف، قال المفسرون: كانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ ؟ أي فهل ترى أحدًا من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثرًا؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من

---

(١) قال أبو السعود: والتكرار تأكيد لهولها وفظاعتها، لبيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه. اهـ.

(٢) وروي عن مجاهد أن معنى الآية: أهلكوا بطغيانهم، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد. أبو السعود (٥/ ١٨٨).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) هذا قول علي وهو مروي عن الكلبي وابن عباس.

(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ٣٢) وقد رفعه القرطبي والصحيح أنه موقوف على ابن عباس.

الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم - قرى قوم لوط - حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى[١] ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالفعلة الخاطئة المنكرة[٢]، وهي الكفر والعصيان ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوطٍ رسولهم لوطًا ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي فأخذهم الله أخذةً زائدةً في الشدة، على عقوبات من سبقهم، كما أن جرائمهم زادت في القبح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حدَّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذَّب رسله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلَّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ[٣]، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال قتادة: الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزَّ وجلّ[٤].. ولما ذكر قصص المكذبين، أتبعه بذكر أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم، قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضرب بعضها ببعضٍ حتى تندق وتتفتَّت وتصير كثيبًا مهيلاً ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعًا مما داخلهم من هول ذلك اليوم، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رءوسهم، وقال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله[٥] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحدٌ، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر.. ثم بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فأما من أُعطي كتاب

---

(١) حاشية الصاوي (٤/ ٢٤٠).

(٢) وقال مجاهد ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يفعلونها.

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٦٣). (٤) البحر المحيط (٨/ ٣٢٢).

(٥) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر، ويؤيده حديث «حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وانظر تفسير الطبري (٢٩/ ٣٨).

أعماله بيمينه لأنه من السعداء ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي فيقول ابتهاجًا وسرورًا: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ هاء السكت وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ قال الرازي: ويدل قوله ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله [١] ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان، والعمل الصالح قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل [٢] وقال الضحاك: كل ظنٍّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك [٣].. قال تعالى مبينًا جزاءه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح أنهم يعيشون فلا يموتون أبدًا، ويصحون فلا يمرضون أبدًا، وينعمون فلا يرون بؤسًا أبدًا ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في جنةٍ رفيعةِ القدر، وقصور عالية شاهقة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع، قال في التسهيل: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع [٤] ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾ أي يقال لهم تفضلاً وإنعامًا: كلوا واشربوا أكلاً وشربًا هنيئًا، بعيدًا عن كل أذى، سالمًا من كل مكروه ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا.. ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء، فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي يا ليت الموتة الأولى التي متُّها في الدنيا، كانت القاطعة لحياتي، فلم أبعث بعدها ولم أُعذب، قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن شيء عنده أكره من الموت [٥]، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمرَّ ممَّا ذاقه من الموت ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئًا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال، قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده إلى عنقه، فذلك قوله تعالى ﴿فَغُلُّوهُ﴾ [٦] ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة، ليصلى

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١١١).
(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٠).
(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٤٣).
(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ٣٩).
(٦) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٢).

حرَّها ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي ثم أدخلوه في سلسلةٍ حديدية طولها سبعون ذراعًا، قال ابن عباس: بذراع الملك، تدخل السلسلة من دبره، وتخرج من حلقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه [1] والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكًا. . لمّا بيَّن العذاب الشديد بيَّن سببه فقال ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ أي كان لا يصدق بوحدانية الله وعظمته قال في البحر: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليلٌ مستأنف كأن قائلاً قال: لم يعذَّب هذا العذاب البليغ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله [2] ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يُحثُّ نفسه ولا غيره على إطعام المسكين، قال المفسرون: ذكر الحضَّ دون الفعل للتنبيه على أن تارك الحضّ بهذه المنزلة، فكيف بتارك الإحسان والصدقة؟ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشونه، ويفرُّون منه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم [3] ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام، قال المفسرون: ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعمد الذنب، والمخطئ الذي يفعل الشيء خطأ دون قصد، ولهذا قال ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ ولم يقل المخطئون. . ولما ذكر أحوال السعداء من أهل الجنة، ثم أحوال الأشقياء من أهل النار، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أُقسم بما ترونه وما لا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار، و ﴿لَا﴾ في قوله ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لتأكيد القسم وليست نافية [4] قال الإمام الفخر: والآية تدل على العموم والشمول، لأنه لا تخرج عن قسمين: مبصرٍ وغير مبصر، فشملت الخالق والخلق: والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة [5] قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلَّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون من آثار القدرة، وما لا تبصرون من أسرار القدرة [6] ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي إن هذا القرآن لكلام الرحمن، يتلوه ويقرأه رسولٌ كريم، هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تاليه ومبلغه عن الله تعالى [7] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مباين لأوزان الشعر كلها، فليس شعرًا ولا نثرًا ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ أي قلمَّا تؤمنون بهذا القرآن،

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١١٤). وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو.

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٢٦).

(٣) نقله الطبري عن ابن عباس، وقال قتادة: شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه.

(٤) هذا هو القول الراجح بدليل ذكر جواب القسم ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقيل: إنها نافية كأنه قال: لا يحتاج الأمر إلى قسم لوضوح الحق وسطوعه.

(٥) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١١٦).

(٦) تفسير الألوسي (٢٩/ ٥٢).

(٧) القرطبي (١٨/ ٢٧٤).

قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون به أصلاً، والعرب تقول: قلَّما يأتينا يريدون لا يأتينا[١] ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي وليس هو بقول كاهنٍ يدعي معرفة الغيب، لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قلَّما تتذكرون وتتعظون ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو تنزيلٌ من ربِّ العزة جل وعلا كقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ والغرض من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة، ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فقال ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أي لو اختلق محمد بعض الأقوال، ونسب إلينا ما لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا[٢] ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي ثم لقطعنا نياط قلبه حتى يموت قال القرطبي: والوتينُ عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه[٣] والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئًا ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى إن محمدًا لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه، ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين المتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين، وفي الآية وعيدٌ لمن كذب بالقرآن[٥] ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي وإنه لحقٌّ يقينيٌّ لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ إلخ.

٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ﴾ الآية وفيه لفٌّ ونشر مرتب.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ الطغيان من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء وكثرته، بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة.

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١١٧).
(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد.
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٦).
(٤) تفسير الخازن (٤/ ١٤٨).
(٥) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن وقال الطبري: وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين، وهو قول مقاتل.

٥ - جناس الاشتقاق مثل ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ومثل ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ .

٦ - المقابلة البديعة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ . . إلخ وهي من المحسنات البديعية .

٧ - طباق السلب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ . . ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ .

٨ - الكناية ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة .

٩ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ومثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع والله أعلم .

تَنْبِيهٌ : روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، قال فقلت في نفسي : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ فقلت : كاهن ، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الخ السورة ، قال : فوقع في قلبي الإسلام كل موقع ، حتى هداني الله تعالى له .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»
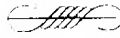
تفسير سورة المعارج

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإِسلامية، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة، وراحةٍ ونصب، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود، والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإِنكارهم البعث والنشور، واستهزائهم بدعوة الرسول ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ، واستهزائهم بالإِنذار والعذاب الذي خُوفوا به، وذكرت مثلاً لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو «النضر بن الحارث» حين دعا أن يُنزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة، وذلك مكابرةً في الجحود والعناد ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ . . .﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السموات، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملوَّن ألوانًا غريبة ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان، فإِنه يجزع عند الشدة، ويبطر عند النعمة فيمنع حقَّ الفقير والمسكين ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات، وفضائل الأخلاق، وبينت ما أعدَّ الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن الكفرة المستهزئين بالرسول، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حقٌّ لا ريب فيه، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيرًا منهم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . . إلى قوله: خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ . . إلى . . ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ من آية (١) إلى آية (٤٤) نهاية السورة .

اللغَة: ﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾ المصاعد والمدارج التي يرتقي بها الإنسان جمع معرج وهو المصعد والعروج الارتفاع إلى السماء ومنه معراج النبي ﷺ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ النحاس المذاب ﴿كَٱلۡعِهۡنِ﴾ الصوف المنفوش ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ الفصيلة: العشيرة الذي فصل عنهم وتولد منهم ﴿لَظَىٰ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك؛ لأن نيرانها تتلظى أي تلتهب ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس قال الأعشى:

قالت قتيلة ما له قد جللت شيبًا شواته[1]

﴿هَلُوعًا﴾ كثير الجزع والضجر، قال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر، وإذا مسّه الضر لم يصبر[2] ﴿عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين جمع عزة وهي الجماعة المتفرقة قال الشاعر:

فجاءوا يَهْرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا[3]

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون يقال: أو فض البعير إذا أسرع السير .

سَبَبُ النزول: عن ابن عباس أن النضر بن الحارث قال حين خوّفهم رسول الله ﷺ من عذاب الله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» فأنزل الله ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨ ۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ

(١) التفسير الكبير (٣٠/١٢٨) . (٢) القرطبي (١٨/ ٢٩٠) .
(٣) روح المعاني (٢٩/ ٦٤) .

مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ .

التفسير: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داعٍ من كفار مكة لنفسه ولقومه بنزول عذاب واقع لا محالة قال المفسرون: السائل هو «النضر بن الحارث» من صناديد قريش وطواغيتها، لمَّا خوفهم رسول الله عذاب الله قال استهزاء: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأهلكه الله يوم بدر، ومات شر ميتة، ونزلت الآية بذمه ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: دعا بهذا العذاب على الكافرين ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي: لا رادَّ له إذا أراد الله وقوعه، وهو نازل بهم لا محالة، سواءً طلبوه أو لم يطلبوه، وإذا نزل العذاب فلن يرفع أو يُدفع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: هو صادر من الله العظيم الجليل، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة وتنزل بأمره ووحيه، ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد الملائكة الأبرار وجبريل الأمين [١] الذي خصه الله بالوحي إلى الله عز وجل ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: في يوم طوله خمسون ألف سنة من سني الدنيا قال ابن عباس: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار [٢]، قال المفسرون: والجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة، وأن هذه المدة الطويلة تخف على المؤمن حتى تكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة [٣] ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: فاصبر يا محمد على استهزاء قومك وأذاهم ولا تضجر، فإن الله ناصرك عليهم، وهذا تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام؛ لأن استعجال العذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ فأمره الله بالصبر، قال القرطبي: والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله [٤] ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي: إن هؤلاء المستهزئين يستبعدون العذاب ويعتقدون أنه غير نازل، لإنكارهم للبعث والحساب ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي: ونحن نراه قريبًا؛ لأن كل ما هو آت قريب. ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته وعن أهوال يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي: تكون السماء سائلة غير متماسكة، كالرصاص المذاب، قال ابن عباس: كدردي الزيت أي كعكر الزيت [٥] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾

---

(١) إنما أفرد جبريل بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمَّى بالروح لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ .

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٢) .

(٣) أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ما أطول هذا اليوم! فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا» .

(٤) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٤) .

(٥) وهذا قول مجاهد. كذا في الطبري (٢٩/ ٤٦) .

أي: وتكون الجبال متناثرة متطايرة، كالصوف المنفوش إذا طيَّرته الريح، قال القرطبي: العهن الصوف الأحمر أو ذو الألوان، شبَّه الجبال به في تلونها ألوانًا، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً، ثم عهنًا منفوشًا، ثم هباءً منثورًا[١]. . هذه حال السماء والأرض في ذلك اليوم المفزع، أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل صديق صديقه، ولا قريب قريبه عن شأنه؛ لشغل كل إنسانٍ بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والفزع ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرونهم ويعرفونهم، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته فلا يسأله ولا يكلمه بل يفر منه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قال ابن عباس: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم، ثم يفرُّ بعضهم من بعض[٢] ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ أي يتمنى الكافر - مرتكب جريمة الجحود والتكذيب - لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابنٍ، وزوجةٍ، وأخٍ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ أي وعشيرته التي كانت تضمه إليها، ويتكل في نوائبه عليها، وليس هذا فحسب بل يتمنى لو يفتدي بجميع أهل الأرض ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب، وفادح الخطب، قال الإمام الفخر: و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه[٣] ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾ ﴿كَلَّا﴾ أداة زجر وتعنيف أي لينزجر هذا الكافر الأثيم وليرتدع عن هذه الأماني، فليس ينجيه من عذاب الله فداء، بل أمامه جهنم تتلظَّى نيرانها وتلتهب ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس[٤] من الإنسان كلما قلعت عادت كما كانت زيادة في التنكيل والعذاب، وخصَّها بالذكر؛ لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثرًا بالنار ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن، وأعرض عن الإيمان، قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول: إليَّ يا كافر إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب[٥] ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق، ولم يؤد منه حقَّ الله وحق المساكين، قال المفسرون: والآية وعيدٌ شديد لمن يبخل بالمال، ويحرص على جمعه، فلا ينفقه في سبيل الخير، ولا يخرج منه حق الله وحقَّ المسكين، وقد كان الحسن البصري يقول: يابن آدم سمعتَ وعيدَ الله ثم أوعيت الدنيا -أي جمعتها- من حلالٍ وحرام!! ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، وما جبل عليه من

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٥) . (٢) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٦) .
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٢٧) .
(٤) هذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جلدًا إلا أحرقته .
(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٩) .

الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جُبل على الضجر، لا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء، قال المفسرون: الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاع فهلع (١)، والمراد بالإنسان: العموم بدليل الاستثناء منه، والاستثناء معيار العموم، ثم فسَّره تعالى بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرض، أو خوف، كان مبالغًا في الجزع مكثرًا منه، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى، وصحة وسعة رزق كان مبالغًا في المنع والإمساك، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أغناه الله لم ينفق، قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره، ويهرب مما يكرهه، ثم تعبَّده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره (٢) ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع؛ لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل؛ لأن نفوسهم صفت من أكدار الحياة، بتعرضهم لنفحات الله ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي في أموالهم نصيبٌ معيَّن فرضه الله عليهم وهو الزكاة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي للفقير الذي يسأل ويتكفف الناس، والمحروم الذي يتعفف عن السؤال، فيُظن أنه غنيٌّ فيحرم كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، ويصدِّقون بمجيئه تصديقًا جازمًا لا يشوبه شك أو ارتياب فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون على أنفسهم من عذاب الله، يرجون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان، إلاَّ من أمَّنه الرحمن والأمور بخواتيمها.. إنَّ هؤلاء المصدقين المشفقين قلَّما تزدهيهم الدنيا، أو يبطرهم نعيمها، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها، فسواءٌ عليهم أخسروا حظوظ الدنيا أم غنموا، إذ إن لديهم من الفكر في جلال ربهم، وذكر معادهم- ما يشغلهم عن الجزع إذا مسَّهم الشر، ويربأ بهم عن المنع إذا مسهم الخير، ثم ذكر تعالى الفريق الخامس من الموفقين للخيرات وفعل الطاعات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي أعفاء لا يرتكبون المحارم، ولا يتلوثون بالمآثم، قد صانوا أنفسهم عن الزنى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي يقتصرون على ما أحلَّ الله لهم من الزوجات المنكوحات، والرقيقات المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين؛ لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات- حلالٌ يؤجر عليه الإنسان، لما فيه من تكثير النسل والذرية ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فقد تعدَّى حدود الله وعرَّض نفسه لعذاب الله، قال الطبري: من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم إلى ما حرَّمه عليهم،

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٢٨). (٢) تفسير البغوي (٤/ ١٥١).

فهم الملومون [١] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يشهدون بالحق على القريب والبعيد، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيرونها، بل يؤدونها على وجهها الكامل، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم، وخصَّها بالذكر مع اندراجها في الأمانات تنبيهًا على فضلها؛ لأن في إقامتها إحياء للحقوق، وفي تركها تضييع للحقوق ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم أي يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها، وإلاَّ كانت حركات صورية لا يجني العبد ثمرتها، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ولما كانت الصلاة عمود الإسلام بولغ في التوكيد عليها، فذكرت في أول الخصال الحميدة وفي آخرها ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني عليها الإسلام [٢]، قال القرطبي: ذكر تعالى من أوصافهم في البدء ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم قال في الختم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها [٣]. وبعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين المتقين، ذكر مآلهم وعاقبتهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة، والمناقب الرفيعة- مستقرون في جنات النعيم، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات، مع الإنعام والتكريم بأنواع الملاذ والمشتهيات لاتصافهم بمكارم الأخلاق ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؟ أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين مسرعين نحوك يا محمد، مادين أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك؟ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا، يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة - كما يقول محمد - فلندخلنها قبلهم!! فنزلت الآية [٤] ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي جالسين عن يمينك وعن شمالك فرقًا فرقًا، وجماعاتٍ جماعات يتحدثون ويتعجبون، قال أبو عبيدة: عزين أي جماعات جماعات في تفرقة ومنه حديث: «ما لي أراكم عزين؟ ألا تصفون كما تصفُّ الملائكة عند ربها» [٥] ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ استفهام

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٥٣).

(٢) قال ابن كثير: افتتح تعالى الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها. اهـ مختصر ابن كثير (٣/ ٥٥٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٢).

(٤) انظر تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٥) وتفسير الخازن (٤/ ١٥٢).

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٣) والحديث أخرجه مسلم.

إنكاري مع التقريع والتوبيخ أي أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار أن يدخله الله جنات النعيم، وقد كذب خاتم المرسلين؟ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر، أي ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبدًا، ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقذرة، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة فمن أين يتشرفون بدخول جنات النعيم قبل المؤمنين، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من القذر فلا يليق بهم هذا التكبر [1] ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغل أنت بما أُمرت به! وهو أمرٌ على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ أي يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، شبَّه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا إلى آلهتهم وطواغيتهم، وفي هذا التشبيه تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلاً من الله ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم!!

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿بَعِيدًا... قَرِيبًا﴾ وبين ﴿ٱلْيَمِينِ ٱلشِّمَالِ﴾ وبين ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

٢- جناس الاشتقاق ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ وكذلك ﴿تَعْرُجُ ... ٱلْمَعَارِجِ﴾.

٣- ذكر الخاص بعد العام تنبيهًا لفضله وتشريفًا له ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ الروح هو جبريل.

٤- التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ لحذف وجه الشبه.

٥- ذكر العام بعد الخاص ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ .. وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف.

---

[1] تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٤).

٦- المقابلة اللطيفة ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ قابله بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ .

٧- الاستفهام الإِنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ؟

٨- الكناية الفائقة الرائقة ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كناية عن المني القذر، مع النزاهة التامة في التعبير، وحسن الإِيقاظ والتذكير، بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

٩- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإِسراع في عبادة غير من يستحق العبادة.

١٠- السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلخ.

تَنْبِيهٌ: نبَّه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا . . .﴾ الآيات إلى طبائع البشر، فبيَّن أنَّ الإِنسان يتسرع إلى مشتهاه اتباعًا لهواه، وأنه مفرط في الهلع والجزع، فإِن مسه خير شحت به نفسه، وإن نزل به شر اشتد له قلقه، ثم استثنى من ذلك الخلق الذميم أصنافًا من البشر، وهم الذين جمعوا مع الإِيمان صالح الأعمال.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»
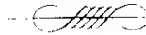
تفسير سورة نوح

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة نوح مكية، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعني بأصول العقيدة، وتثبيت قواعد الإِيمان، وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه، ولهذا سميت «سورة نوح»، وفي السورة بيانٌ لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله، وبيان لعاقبة المرسلين، وعاقبة المجرمين، في شتَّى العصور والأزمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بإِرسال الله تعالى لنوح عليه السلام، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإِنذار قومه من عذاب الله ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح، وصبره، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة، فقد دعا قومه ليلاً ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانًا في الضلال والعصيان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.

* ثم تابعت السورة تذكّرهم بإِنعام الله وإِفضاله على لسان نوح عليه السلام، ليجدّوا في طاعة الله، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾!!

* ومع كل هذا التذكير والنصح والإِرشاد، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا..﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما لانت قلوبهم، ولا انتفعت بالتذكير والإِنذار ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ.. إلى.. وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ من آية (١) إلى آية (٢٨) نهاية السورة.

اللغة: ﴿وَاسْتَغْشَوْا﴾ غطوا غشَّاه أي غطاه، والغشاء الغطاء ﴿مِدْرَارًا﴾ غزيرًا متتابعًا ﴿أَطْوَارًا﴾ أحوالاً مختلفة طورًا بعد طور قال الشاعر:

.... والمرء يخلق طورًا بعد أطوار[1]

﴿فِجَاجًا﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كُبَّارًا﴾ كبيرًا بالغ الغاية في الكبر ﴿دَيَّارًا﴾ أحدًا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿تَبَارًا﴾ هلاكًا ودمارًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ .

التفسير: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: بعثنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب، قال الألوسي: واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل[2] ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بأن خوِّف قومك وحذرهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم، وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فدعاهم إلى الله وقال لهم: إني لكم منذر، موضح لحقيقة الأمر، أُنذركم وأُخوفكم عذاب الله، فأمري واضح ودعوتي ظاهرة، قال المفسرون: نوح عليه السلام أول نبي أرسل، ويقال له: شيخ المرسلين؛ لأنه أطولهم عمرًا فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٣٧) .
(٢) روح المعنى (٢٩/ ٦٩) .

نهايتها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، وأكثروا من البغي والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحًا عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به، يمحو الله عنكم ذنوبكم التي اقترفتموها، وإنما قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾أي بعض ذنوبكم التي حصلت قبل الإسلام، لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الذنوب لا ما بعده[1] ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويمد في أعماركم إن أطعتم ربكم، إلى وقت مقدر ومقرر في علم الله تعالى، مع التمتع بالحياة السعيدة، والعيش الرغيد قال المفسرون: المراد بتأخير الأجل هو التأخير بلا عذاب، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذي كتبه وأثبته[2] ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاقت عليه الحيل: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة، في الليل والنهار، من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هربًا، وشرودًا عن الحق، وإعراضًا عنه.. ثم وصف نفورهم وصور إعراضهم أبلغ تصوير فقال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، ليظهر قبح إعراضهم عنه، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم[3] ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي غطوا رءوسهم ووجوههم بثيابهم، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني قال في البحر: والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغَطَّوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه، كراهة وبغضًا من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره[4] ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكبارًا

---

(١) هذا ما رجحه أبو حيان في البحر، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى يغفر لكم جميع الذنوب، والأول أرجح.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٤٩). (٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٤٩).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٣٨).

عظيمًا، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي دعوتهم علنًا على رءوس الأشهاد، مجاهرًا بدعوتي لهم دون خوف أو تحفظ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي أخبرتهم سرًّا وعلنًا، خفية وجهرًا، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك قال المفسرون: والعطف بثُمَّ يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار، ثم وضح ما وعظهم به سرًّا وعلانية فقال ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي آمنوا بالله وتوبوا عن الكفر والمعاصي، فإن ربكم تواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيرًا متتابعًا، شديد الانسكاب ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها.. أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، ولبيان أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع، ثم عاد فهزَّ نفوسهم هزًّا، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا ترهبون له جانبًا!! قال ابن عباس: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[١]! ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة، وأدوار متباينة، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، إلى سائر الأحوال العجيبة، فتبارك الله أحسن الخالقين.. ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية، منبثة في هذا الكون الفسيح فقال ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار، وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة بعضها فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان!! ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا، منورًا لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر: القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحائها، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذا ههنا[٢]. وقال في البحر: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفًا للقمر؛ لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول: زيد في المدينة وهو في جزء منها[٣]

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٥٩). (٢) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٤٠).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٤٠) أقول: ليس ثمة نص صريح على أن القمر داخل السموات إلا هذا النص وقد عرفت

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولمّا كان نور الشمس أشد، وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بعد أن ذكر دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك لأن في ذكر هذه الأمور، دلالة واضحة على عظمة الله، وقدرته وباهر مصنوعاته والمعنى خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات، وسلّكم من تراب الأرض كما يسل النبات منها قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمى خلقهم وإنشاؤهم إنباتًا، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض[1] ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لبيان أن ذلك واقع لا محالة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر[2] وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كريتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطًا أي تتقلبون عليها كالبساط[3] ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة في أسفاركم، وتنقُّلكم في أرجائها.. ولما أصروا على العصيان، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أي إنهم بالغوا في

تأويله، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء، وجعلها في السماء الدنيا ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فإنه لا يستبعد أن يصل الناس إلى القمر؛ لأنه دون السماء الأولى، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك، فليس ثمة محظور ديني على غزو الكواكب والفضاء، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خرط القتاد؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

(١) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٠) وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص (١٣١).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥١).

(٣) روح المعاني (٢٩/ ٧٦) وانظر ما كتبناه حول كروية الأرض في سورة لقمان من هذا التفسير.

تكذيبي وعصيان أمري ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي واتّبعوا أغنياءهم ورؤساءهم، الذين أبطرتهم الأموال والأولاد، فهلكوا وخسروا سعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسار ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي ومكر بهم الرؤساء مكرًا عظيمًا متناهيًا في الكبر قال الألوسي: و﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر أي كبيرًا في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين، وصدهم الناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام[١] ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام، وتعبدوا رب نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي ولا تتركوا - على وجه الخصوص - هذه الأصنام الخمسة - ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا قال الصاوي: وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمهم عندهم، ولذا خصوها بالذكر[٢]، وهذا من شدة كفرهم، وفرط تعنتهم في المكر والاحتيال، فقد كانوا يلبسون ثوب المتنصح المخلص، ويسلكون في تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي وقد أضل كبراؤهم خلقًا وناسًا كثيرين، بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال، ثم دعا عليهم بالضلال فقال ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي ولا تزدهم يا رب على طغيانهم وعدوانهم، إلا ضلالاً فوق ضلالهم قال المفسرون: دعا عليهم لما يئس من إيمانهم بإخبار الله له بقوله ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم، ولهذا قال تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ أي من أجل ذنوبهم وإجرامهم، وإصرارهم على الكفر والطغيان، أُغرقوا بالطوفان وأدخلوا النيران قال في التسهيل: وهذا من كلام الله تعالى إخبارًا عن أمرهم، و ﴿مَا﴾ في ﴿مِّمَّا﴾ زائدة للتأكيد، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضًا، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي[٣] ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يجدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله قال أبو السعود: وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكم بهم[٤] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك أحدًا على وجه الأرض من الكافرين قال في التسهيل: و﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما في الدار ديار أي ما فيها أحد[٥]. . ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا، أضلوا عبادك عن طريق الهدى ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ قلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول: يا بني احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية،

---

(١) روح المعاني (٢٩/٧٦).
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/٢٥١).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٥١).
(٤) تفسير أبي السعود (٥/١٩٩).
(٥) التسهيل (٤/١٥١).

فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، فلذلك قال ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ . . ولما دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين فقال ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بدأ بنفسه ثم بأبويه، ثم عمَّم لجميع المؤمنين والمؤمنات، ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي ولا تزد يا رب من جحد بآياتك وكذب رسلك، إلا هلاكًا وخسارًا في الدنيا والآخرة.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿أَعْلَنتُ﴾ ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ وبين ﴿جِهَارًا . . . إِسْرَارًا﴾ وبين ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وبين ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا . . . وَيُخْرِجُكُمْ﴾ .

٢- المجاز المرسل ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المراد رءوس الأصابع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

٣- الاستعارة التبعية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم في أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التبعية.

٤- ذكر المصدر للتأكيد مثل ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ و﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ و﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب.

٥- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا . .﴾ الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب، وهو من المحسنات البديعية.

٦- السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿مِّدْرَارًا﴾ ﴿أَنْهَٰرًا﴾ ﴿وَقَارًا﴾ ﴿أَطْوَارًا﴾ إلخ.

فَائِدَة: استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ قالوا: المراد بها نار القبر وعذابه، لأنه تعالى عطف بالفاء، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد، فدل على أن المراد عذاب القبر، وهو استدلال لطيف.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»
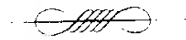
تفسير سورة الجن

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإِسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن، وما يتعلق بهم من أمور خاصة، بدءًا من استماعهم للقرآن، إلى دخولهم في الإِيمان، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم، كاستراقهم للسمع، ورميهم بالشهب المحرقة، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإِخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان، حتى آمنوا به فور استماعه ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . . ﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا، وإِفرادهم له بالعبادة، وتسفيههم لمن جعل لله ولدًا ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا . . ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع، وإِحاطة السماء بالحرس من الملائكة، وإِرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ، وتعجبهم من هذا الحدث الغريب ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا . . ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين، وكافرين ومآل كل من الفريقين ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله، ويفرده جلَّ وعلا بإِخلاص العمل، وأن يتبرأ من الحوْل والطَّوْل ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب، وإِحاطته بعلم جميع ما في الكائنات ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا . . ﴾ الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ . . إلى . . وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ من آية (١) إلى آية (٢٨) نهاية السورة الكريمة.

اللغَة: ﴿الرُّشْدِ﴾ الحق والصواب ﴿جَدُّ﴾ الجد لغة: العظمة والجلال والسلطان يقال: جد فلان في عيني أي عظم وجل، والجد: الحظُّ، وأبو الأب ﴿حَرَسًا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال: حرس وحُراس، والحارس: الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة قال الشاعر: «إذ هم طرائق في أهوائهم قدد»[١] ﴿غَدَقًا﴾ كثيرًا واسعًا ﴿الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق، يقال قسط الرجل إذا جار ﴿صَعَدًا﴾ شاقًّا يعلو الإنسان ويغلبه فلا يطيقه يقال: فلان في صعد من أمره أي في مشقة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخله ﴿لِبَدًا﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال: تلبد الشيء أي تراكم بعضه فوق بعض ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ وحرزًا يتحصن به الإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ⑨ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ⑪ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ⑫ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ⑬ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ⑭ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ⑮ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ⑯ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ⑰ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ⑱ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ⑲ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ⑳ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ㉑ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ㉒ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ㉓ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ㉔ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ㉕ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ㉖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ㉗ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ .

التفسِير: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إن ربي أوحى إلي أن جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن، فآمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٤٤) .

عَجَبًا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، مؤثرًا في حسن نظمه، وبلاغة أسلوبه، وما حواه من بديع الحِكَم والعظات و ﴿عَجَبًا﴾ مصدر وصف به للمبالغة قال المفسرون: استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم، وإنما أخبر به الرسول بواسطة الوحي[1] بدليل قوله ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ والغرض من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطئوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم يعلمون أنه كلام معجز، وأن محمدًا أمي لا يقرأ ولا يكتب، وشتان ما بين موقف الإنس والجن!! ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدقنا به ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، ولن نجعل لله شريكًا بعد اليوم من خلقه قال الخازن: وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين[2] ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمة ربنا وجلاله ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي ليس له زوجة ولا ولد، لأن الزوجة تتخذ للحاجة، والولد للاستئناس، والله تعالى منزه عن النقائص ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي وأن الأحمق الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقدسيته ويقول قولاً شططًا بعيدًا عن الحق وحدِّ الاعتدال قال مجاهد: السفيه هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله[3] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظن أن أحدًا لن يكذب على الله تعالى لا من الإنس ولا من الجن في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك[4] قال الطبري: وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمت أن أحدًا يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا في ذلك فسموه سفيهًا[5] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي كان خلائق من الإنس يستجيرون برجال من الجن ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثمًا وطغيانًا، وعتوًّا وضلالاً قال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه

---

(١) هذا قول ابن عباس ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم..» الحديث وروي عن ابن مسعود خلافه .

(٢) تفسير الخازن (٤/١٥٨) . (٣) تفسير القرطبي (١٩/٩) .

(٤) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف .

(٥) تفسير الطبري (٢٩/٦٨) .

قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد الجن وكبيرهم - فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الإنس والجن، فزاد الرجال الجن تكبرًا وعتوًّا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [١] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعث أحدًا بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم [٢] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي كنا قبل بعثة محمد نطرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقيها إلى الكهان ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهابًا ينتظره بالمرصاد يحرقه ويهلكه ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا نعلم نحن يا معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن ينزله بأهل الأرض؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي أم لخير يريده الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشدًا يرشدهم إلى الحق؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قال ابن كثير: وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فرأوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فدنوا منه حرصًا على سماع القرآن ثم أسلموا [٣] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منا قوم صالحون أبرار، عاملون بما يرضي الله، ومنا قوم ليسوا صلحاء قال في التسهيل: وأرادوا بقولهم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي الذين ليس صلاحهم كاملاً، أو الذين ليس لهم صلاح [٤] ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا فرقًا شتى، ومذاهب مختلفة، فمنا الصالح ومنا الطالح، وفينا التقي والشقي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي علمنا وأيقنا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه أينما كنا، لن نعجزه بهرب، ولن نتفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءًا قال القرطبي: أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره [٥] . . ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٠٠) .

(٢) هذا هو الظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى: وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتدوا، فهلا اهتديتم؟

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٥٧) . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٣) .

(٥) تفسير القرطبي (١٩/ ١٥) .

أنزله، وصدقنا محمدًا ﷺ في رسالته ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصانًا من حسناته ولا ظلمًا بزيادة سيئاته قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته، لأن البخس النقصان، والرهق العدوان[1] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق وكفر قال المفسرون: يقال قسط الرجل إذا جار، وأقسط إذا عدل، واسم الفاعل من الأول قاسط، ومن الثاني مقسط ومنه﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وأما القاسط فهو الظالم الجائر ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول عليه السلام، فأولئك الذين قصدوا الرشد، واهتدوا إلى طريق السعادة والنجاة ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فسيكونون وقودًا لجهنم، توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.. وإلى هنا انتهى كلام الجن[2]، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم، ثم قال تعالى مخبرًا عن أهل مكة ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي لو آمن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي لبسطنا لهم في الرزق، ووسعنا عليهم في الدنيا، زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم الدائم، وبذلك يحوزون عز الدنيا والآخرة قال في التسهيل: الماء الغدق: الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله والمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم به أيشكرون أم يكفرون؟ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، يدخله ربه عذابًا شديدًا شاقًا لا راحة فيه قال قتادة: ﴿صَعَدًا﴾ عذابًا لا راحة فيه[4] وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم[5] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا من جملة الموحى به للرسول ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ والمعنى وأوحي إلي أن المساجد وبيوت العبادة هي مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غيره وأخلصوا له العبادة فيها قال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فيها، فأمر الله عز وجل نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها[6] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كاد الجن يركب بعضهم بعضًا من شدة الازدحام، حرصًا على سماع القرآن قال ابن عباس: كادوا ينقضون عليه لاستماع القرآن[7]، وإنما وصفه تعالى بالعبودية، ولم

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٦).
(٢) هذا هو قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٤).
(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٧٣).
(٥) البحر المحيط (٨/ ٣٥٢).
(٦) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١).
(٧) البحر المحيط (٨/ ٣٥٣).

يذكره باسمه زيادة في تشريفه وتكريمه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن ترجع عن دينك: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك مع الله غيره بشرًا ولا صنمًا قال الصاوي: سبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك وننصرك فنزلت[1] ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي قل يا محمد في محاجَّة هؤلاء: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًّا، ولا أجلب لكم نفعًا، وإنما الذي يملك هذا هو الله رب العالمين ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي قل لهم أيضًا: إنه لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته، ولن أجد لي نصيرًا ولا ملجأً منه، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم؟ قال قتادة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً ونصيرًا[2] ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي لا أجد ملجأً إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله فحينئذ يجيرني ربي من العذاب كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قال ابن كثير: أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي[3] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ومن كذب الله ورسوله، ولم يؤمن بلقاء الله، وأعرض عن سماع الآيات وتدبر الرسالات، فإن جزاءه جهنم لا يخرج منها أبدًا وإنما جمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حملاً على معنى ﴿مَن﴾ لأن لفظها مفرد ومعناها جمع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا رأى المشركون ما يوعدون من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي فسيعلمون حينئذ من هم أضعف ناصرًا ومعينًا، وأقل نفرًا وجندًا؟ هل هم؟ أم المؤمنون الموحدون؟ ولا شك أن الله ناصر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصرًا والأكثر عددًا، لأن الله معهم وملائكته الأبرار ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ؟ أي قل لهم يا محمد: ما أدري هل هذا العذاب الذي وعدتم به قريب زمنه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل غير محدود؟ قال المفسرون: كان ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة، أظهروا الاستخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟ ومتى تقوم الساعة؟ فأمره تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب أم بعيد؟ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي هو جل وعلا عالم بما غاب عن الأبصار، وخفي عن الأنظار، فلا يطلع على غيبه أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته ونبوته، فيظهره الله على ما يشاء من الغيب قال المفسرون: لا يطلع الله على غيبه أحدًا إلا بعض الرسل، فإنه يطلعهم على بعض الغيب، ليكون معجزة لهم، فإن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات، كما قال عن عيسى ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي فإنه تعالى يرسل من أمام

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/٢٥٧) . (٢) تفسير الطبري (٢٩/٧٦) .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٠) .

الرسول ومن خلفه، ملائكة وحرسًا يحفظونه من الجن، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إليه من علم الغيب قال الطبري: أي فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرسًا وحفظةً يحفظونه من الجن[1] ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليعلم الله - علم ظهور[2] فإنه تعالى عالم بما كان وما يكون - أن رسله الكرام قد بلغوا عنه وحيه كما أوحاه إليهم محفوظًا من الزيادة والنقصان قال ابن كثير: المعنى أن الله يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة[3] ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط علمه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي علم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء، المنبثَّة في الأرضين والسموات من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار، فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه أمر، فكيف لا يحيط علمًا بما عند رسله من رسالاته ووحيه، التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه؟ وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات، أو يزيدوا أو ينقصوا أو يحرفوا فيها أو يغيروا، وهو تعالى محيط بها، محص لجميع الأشياء جليلها وحقيرها؟ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ .

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الوصف بالمصدر للمبالغة ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي عجيبًا في حسن إيجازه، وروعة إعجازه.

٢- طباق السلب ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ لأن الإيمان نفي للشرك.

٣- جناس الاشتقاق ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظتين من الاشتقاق اللطيف.

٤- الأسلوب الرفيع بنسبة الخير إلى الله، دون الشر أدبًا مع الخالق ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ وبين لفظ﴿أَشَرٌّ﴾ و ﴿رَشَدًا﴾ طباقٌ في المعنى.

٥- الطباق بين ﴿الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ وبين ﴿ضَرًّا﴾ . . و﴿رَشَدًا﴾ وبين﴿الْمُسْلِمُونَ﴾ و﴿الْقَاسِطُونَ﴾

٦- الاستعارة اللطيفة ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ استعارة الطرائق للمذاهب المختلفة، وهو من لطيف الاستعارة.

٧- توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿أَحَدًا﴾ ﴿وَلَدًا﴾ ﴿رَصَدًا﴾ ﴿رَشَدًا﴾ ﴿صَعَدًا﴾ ﴿عَدَدًا﴾ إلخ وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٧٧).

(٢) قال المفسرون: ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله كقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فإنما هو علم ظهور لا علم بَدَاء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلاً وإنما يظهر علمه لعباده.

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٦١).

تفسير سورة المزمّل

بين يدي السورة

* سورة المزمل مكية، وهي تتناول جانبًا من حياة الرسول الأعظم ﷺ، في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله عز وجل، ومحورُ السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا سميت «سورة المزمّل».

* ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداءً شفيقًا لطيفًا، ينمُّ عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

* وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجرًا جميلاً إلى أن ينتقم الله منهم ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾.

* ثم توعد الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة، حيث يكون فيه من الهول والفزع ما يشيب له رءوس الولدان ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا . .﴾ . . الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ . .﴾ . . إلى قوله ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . . إلى . . وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ من آية (١) إلى آية (٢٠) نهاية السورة.

اللغة: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفف بثيابه يقال: تزمّل بثوبه أي التف به وتغطّى، وزمّل غيره إذا غطاه قال امرؤ القيس:

. . . . كبير أناسٍ في بجادٍ مزمّل(١)

(١) البحر المحيط (٨/٣٥٨).

﴿سَبۡحٗا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك، وأصل السَّبْح العومُ على وجه الماء، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أَنكَالٗا﴾ جمع نِكْل وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كَثِيبٗا﴾ الكثيب: الرمل المجتمع ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلاً متناثرًا منهارًا قال أهل اللغة: المهيل الذي إذا وطأته بالقدم زلَّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله انهال، وأصله مهيول كمكيل أصله مكيول ﴿وَبِيلٗا﴾ عظيمًا شديدًا وخيم العاقبة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها المتلفف بثيابه، وأصله المتزمل وهو الذي تلفف وتغطى، وخطابه ﷺ بهذا الوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفة له عليه السلام قال السهيلي: إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك معاتبته سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي - حين غاضب فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب «قم أبا تراب»، إشعارًا بأنه ملاطفٌ له، وغير عاتب عليه، والفائدة الثانية: التنبيهُ لكل متزمل راقد ليله، ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأنه الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطب، وكل من اتصف بتلك الصفة [1]، وسبب هذا التزمل ما روي في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء - في ابتداء الوحي - رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: «زملوني، زملوني» لقد خشيت على نفسي، وأخبرها بما جرى [2]، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها الذي تلفف بقطيفته، واضطجع في زاوية بيته، وقد أشبه من يُؤثر الراحة والسكون، ويحاول التخلص

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٣٣).

(٢) راجع صحيح البخاري «باب: أول نزول الوحي».

مما كُلف به من مهمات الأمور ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي دع التزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لتستعد للأمر الجليل، والمهمة الشاقة ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس، وتبصيرهم بالدين الجديد.. ثم وضَّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل، أو اقل من النصف قليلاً، أو أكثر من النصف، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخه سنة[1]، وهذه هي السورة التي نسخ آخرها أولها، حيث رحم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾.. الآية ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتؤدة وتمهل، ليكون عونًا لك على فهم القرآن وتدبره، قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فيستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة[2]، وقد كان رسول الله ﷺ يقطِّع القراءة حرفًا حرفًا - أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة - لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذابٍ إلا وقف وتعوَّذ[3].. ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن وتفهمه، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة، ذات التكليف الصعب الشاق فقال ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلامًا عظيمًا جليلاً، له هيبة وروعةٌ وجلال، لأنه كلام الملك العلاَّم قال الإمام الفخر: والمراد من كونه ثقيلاً هو عِظَم قدره، وجلالة خطره، وكل شيء نَفُسَ وعظم خطره فهو ثقيل، وهذا معنى قول ابن عباس ﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، وقيل المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل، لأنا سنلقي عليك قولاً

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٧١). وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل ليكون ذلك حافزًا لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية «الجسمية والروحية» على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب، وتجشم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه «التربية الروحية» أن ملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله.

(٢) تفسير الخازن (٤/ ١٦٥).

(٣) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن (٣/ ٥٦٢).

عظيمًا، ولا بد وأن تصيّر نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، وذلك بصلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيها[١] أقول: وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل، وتلاوة القرآن، فإن الله تعالى كلَّف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد، فيه تكاليف شاقة على النفس، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه، ولا شك أن مثل هذا التكليف، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات، فأنت يا محمد معرَّضٌ لمتاعب كثيرة، وأخطار جمة في سبيل هذه الدعوة، وحمل الناس على قبولها، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وأنت على ما أنت عليه من التزمل والتلفف، والخلود إلى الراحة والسكون، والبعد عن المشاقّ، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر؟ فانشط من مضجعك إذًا، واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعدادًا لتحمل مشاق الدعوة، والتبشير بهذا الدين الجديد، ويا لها من لفتةٍ كريمة، تيقَّظَ لها قلبُ النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فشمَّر عن ساعد الجد والعمل، وقام بين يدي ربه حتى تشققت قدماه. . ثم بيَّن تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التفرغ والصفاء، وما ينشئه المرء ويحدثه من طاعةٍ وعبادة، يقوم لها من مضجعه بعد هدأةٍ من الليل ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي هي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل جعل للنوم والراحة، فقيامه على النفس أشد وأثقل، ومن شأن هذه الممارسة الصعبة أن تقوّي النفوس، وتشد العزائم، وتصلب الأبدان، ولا ريب أن مصاولة الجاحدين أعداء الله تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أثبتُ وأبينُ قولاً، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، فتكون النفس أصفى، والذهن أجمع، فإن هدوّ الصوت في الليل، وسكون البشر فيه، أعون للنفس على التدبر والتفطن، والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا، واشتغالاً طويلاً في شئونك، فاجعل ناشئة الليل لتهجدك وعبادتك قال في التسهيل: السبحُ هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغال والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك[٢] . . وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هي بمثابة تمهيدٍ وبساطٍ للدعوة، انتقل إلى أمر الرسول ﷺ بتبليغ الدعوة، وتعليمه كيفية السير فيها عملاً، بعد أن مهدها له نظرًا فقال ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي استعن على دعوتك بذكر الله ليلاً ونهارًا، وانقطع إليه انقطاعًا تامًّا في عبادتك وتوكلك عليه، ولا تعتمد في شأن من شئونك على غيره تعالى قال ابن كثير: أي أكثر من ذكره وانقطع إليه جل وعلا، وتفرغ لعبادته إذا

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٤٦٧) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٧) .

فرغت من أشغالك مع إخلاص العبادة له[١] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو جل وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق، وهو المالك لمشارق الأرض ومغاربها، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، فاعتمد عليه وفوّض أمورك إليه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم: «ساحر، شاعر، مجنون» فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شتيمة، قال المفسرون: الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه[٢]، ولا يشوبه أذى ولا شتم، وقد كان هذا قبل أن يؤمر بالقتال كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ثم أُمر ﷺ بقتالهم وقتلهم، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأمروا بالصبر وبالمجاهدة الليلية، حتى يُعدُّوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثر عددهم فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان. . . ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا صناديد قريش ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب الغنى، والتنعم في الدنيا، والترف والبطر فأنا أكفيك شرهم قال الصاوي: المعنى اتركني أنتقم منهم، ولا تشفع لهم، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ، وإجلال قدره[٣] ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي وأمْهِلهمْ زمنًا يسيرًا حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فلما خرج منها سلَّط عليهم السنين المجدبة وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر وهو العذاب الخاص[٤]. . ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي إنَّ لهم عندنا في الآخرة قيودًا عظيمة ثقيلة يقيدون بها، ونارًا مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل: الأنكال جمع نِكْل وهو القيد من الحديد، وروي أنها قيود سودٌ من نار[٥] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي وطعامًا كريهًا غير سائغ، يغصُّ به الإنسان وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل[٦] ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وعذابًا وجيعًا مؤلمًا، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال. . ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازًا عنيفًا شديدًا هي وسائر الجبال، وذلك يوم القيامة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تلاًّ من الرمل سائلاً متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير: أي تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب[٧] كقوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٤).
(٢) كذا قال ابن كثير (٣/ ٥٦٤).
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٦٠).
(٤) حاشية الصاوي (٤/ ٢٦٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٨).
(٦) البحر المحيط (٨/ ٣٦٤).
(٧) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٦٥).

يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع . . ذكر تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين، ومكانه وهو الجحيم، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم، ووقته وهو عند اضطراب الأرض وتزلزلها بمن عليها، وأراد بذلك تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله، إن بقوا مستمرين في تكذيبهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلَّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمدًا ﷺ شاهدًا على أعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي كما بعثنا إلى ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولاً من أولئك الرسل العظام «أولي العزم» وهو موسى بن عمران. قال الخازن: وإنما خصَّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل، لأن محمدًا ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه وُلد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه ربَّاه[1] ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره كما عصيتم يا معشر قريش محمدًا ﷺ وكذبتم برسالته ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي فأهلكناه إهلاكًا شديدًا فظيعًا، خارجًا عن حدود التصور، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه قال أبو السعود: وفي الآية التنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة، و«الوبيلُ» الثقيل الغليظ من قولهم كلأ وبيل أي وخيم لا يستمرأ لثقله[2]. . وبعد أن ذكر الله أخذه لفرعون، وأن ملكه وجبروته لم يدفعا عنه العذاب، عاد فذكَّر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبيّن لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟ قال الطبري: وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه، وذلك حين يقول الله لآدم: أخرج من ذريتك بعث النار، من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فيشيب هنالك كل وليد[3]. . ثم زاد في وصفه وهوْله فقال ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي السماء متشققة ومتصدّعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعًا لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذه الآيات المخوّفة، التي فيها القوارع والزواجر، عظةٌ وعبرةٌ للناس ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي فمن شاء من الغافلين الناسين، أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فليسلك طريقًا موصلاً إلى الرحمن، بالإيمان والطاعة، فالأسبابُ ميسرة، والسبل معبَّدة، قال المفسرون: والغرض الحضُّ على الإيمان وطاعة الله عز

(١) تفسير الخازن (٤/ ١٦٩) . (٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٠٥) .
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٨٦) ومختصر ابن كثير (٣/ ٥٦٥) .

وجل، والترغيب في الأعمال الصالحة، لتبقى ذخرًا في الآخرة.. ثم عادت الآيات الكريمة للحديث عمَّا بدأته في أول السورة من قيام الليل فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك[1] للتهجد والعبادة أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارةً ثلثه كقوله تعالى ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي والله جل وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وأجزائهما وساعاتهما، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه الساعات في غلس الظلام ابتغاء رضوانه، وهو تعالى المدبّر لأمر الليل والنهار ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري: أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم[2] ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وإنما عبَّر عن الصلاة بالقراءة، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس: سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصارت تطوعًا، وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ[3].. ثم بين تعالى الحكمة في هذا التخفيف فقال ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزه المرضُ عن قيام الليل، فخفف عنكم رحمة بكم ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون يسافرون في البلاد للتجارة، يطلبون الرزق وكسب المال الحلال ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وكل من هذه الفرق الثلاثة يشقُّ عليهم قيام الليل، فلذلك خفف الله عنهم.. ذكر تعالى في هذه الآية الأعذار التي تكون للعباد تمنعهم من قيام الليل، فمنها المرض، ومنها السفر للتجارة، ومنها الجهاد في سبيل الله، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيدًا للتخفيف عنهم، قال الإمام الفخر: أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشغولون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، فلذلك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسوخًا في حقهم[4] ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي فصلوا ما تيسَّر لكم من صلاة الليل، واقرءوا في صلاتكم ما تيسر من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأدوا الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، والزكاة الواجبة عليكم إلى مستحقيها

---

(١) الآية نصٌّ صريح على أن قيام الليل كان واجبًا على الرسول وعلى أصحابه، وقد كلفوا أن يقوموا ساعاتٍ من الليل طويلة، لا تقل على ثلثه، ولا تزيد على ثلثيه، فإن قيام الليل وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة، من ذكرٍ، وصلاةٍ، وتلاوة قرآن - يقوي أبدانهم، ويزكي أرواحهم، ويعودهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات، كلفهم الله تعالى بذلك ليعدهم إعدادًا روحيًا وجسميًا للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمل المشاقّ في سبيل نشر هذا الدين، ويا لها من تربيةٍ كريمةٍ مجيدة، تنشئ الرجال والأبطال.

(٢) تفسير الطبري (٢٩/ ٨٨). (٣) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٨٧).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ١٨٧).

قال المفسرون: قلَّما يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة، فإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربه، والزكاة كذلك عماد الدين بينه وبين إخوانه، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس: يريد سائر الصدقات سوى الزكاة، من صلة الرحم، وقرى الضيف وغيرهما [1] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أيَّ شيء تفعلوه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيرًا لكم مما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي اطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسان قلَّما يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة، واسع الرحمة.. ختم تعالى السورة بإرشاد المنفقين المحسنين، إلى أن يطلبوا من الله الصفح والعفو، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق، أو لم يحسنوا العمل في الإقراض، فيضعوا النفقة في غير مواضعها، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان!!

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿انقُصْ مِنْهُ﴾ .. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وبين ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وبين ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

٢- جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾.

٣- تأكيد الفعل بالمصدر مثل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ زيادة في البيان والإيضاح.

٤- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ ولو جرى على الأصل لقال إنا أرسلنا إليهم، والغرض من الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

٥- المجاز المرسل ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أراد به الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة.

٦- ذكر العام بعد الخاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ عمَّم بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق ليعم جميع الصالحات.

٧- الاستعارة التبعية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبَّه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين، وهو من لطيف الاستعارة.

٨- السجع المرصَّع مثل ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المزمل»

---

(١) تفسير الخازن (٤/ ١٧١).

تفسير سورة المدثر

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية، شأنها كسابقتها - سورة المزمل - تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ، ولهذا سميت سورة المدَّثر.

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجدٍّ ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ .

* ثم توالت السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين، بيوم عصيب شديد لا راحة لهم فيه لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ .

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر «الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ . . إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ .

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم، والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . .﴾ الآيات.

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ .

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ . . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ .

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ . . إلى . . ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ من آية (١) إلى آية (٥٦) نهاية السورة .

اللغَة: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه، تدثر: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار: الثوب الذي يلي الجسد، ومنه حديث «الأنصار شعار، والناس دثار» ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور الذي ينفخ فيه، والنقر في كلام العرب: الصوت، سمي ناقورًا؛ لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب، يفزع الناس منه ويموتون ﴿عَبَسَ﴾ قطب بين عينيه «بسر» كلح وجهه وتغير لونه، قال الليث: عبس إذا قطب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم في الأمر وفكر فيه قيل: بسر، فإن غضب مع ذلك قيل: بسل[1] ﴿أَسْفَرَ﴾ أضاء وانكشف ﴿الْكُبَرُ﴾ الدواهي وعظائم المصائب والعقوبات، قال الراجز:

يابن المعلى نزلت إحدى الكبر ... داهية الدهر وصمَّاء الغير[2]

﴿قَسْوَرَةٍ﴾ أسد، من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هو جماعة الرماة الذين يتصيدون، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه، قال لبيد:

إذا ما هتفنا هتفة في ندِّينا ... أتانا الرجال الصَّائدون القساور[3]

سبب النزول: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة - يعني محمدًا ﷺ - يتوعدنا ويخوفنا بجهنم، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم؛ أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم!! فقال «أبو الأشد الجمحي»: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين!! فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ . . الآية[4] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢٠١) . (٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٨٣) .

(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٦٩) .

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٠٣) وتفسير الخازن (٤/ ١٧٧) .

ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ .

التَّفسِير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي يا أيها المتغطي بقطيفته يريد النوم والراحة، قم من مضجعك قيام عزم وتصميم، وحذِّر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، خوطب ﷺ بهذا اللفظ «المدثر» مؤانسة له ﷺ وتلطفًا، كما خوطب بلفظ «المزمل» في السورة السابقة، قال المفسرون: كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ...﴾ الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة: زملوني، زملوني! فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينا هو يمشي إذ سمع صوتًا من السماء، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فعراه ﷺ من رؤيته الرعب والفزع، فجاء إلى أهله فقال: دثروني، دثروني[١] فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قال القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بوصفه ولم يقل: «يا محمد» ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «قم يا نومان»[٢] ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظِّم ربك، وخصه بالتمجيد والتقديس، وأفرده بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله، قال الألوسي: أي اخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة، اعتقادًا وقولاً[٣]، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار، تنبيهًا للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق، ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي وثيابك فطهرها من النجاسات والمستقذرات، فإن المؤمن طيبٌ طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث، قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه[٤] وقال ابن عباس: كنَّى بالثياب عن القلب، والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

---

(١) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله، كذا في الطبري (٢٩/ ٩٠) .
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٦٠) . (٣) روح المعاني (٢٩/ ١١٦) .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨) .

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع[١]

يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب، يريدون وصفه بالنقاء من المعايب وذميم الصفات، ويقولون: فلان دنس الثياب، إذا كان موصوفًا بالأخلاق الذميمة، قال الرازي: والسبب في حسن هذه الكناية: أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجدُ في ثوبه، والعفة في إزاره[٢] ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها، قال ابن زيد: الرجز: الآلهة التي كانوا يعبدونها، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها[٣] وقال الإمام الفخر: الرجز: اسم للقبيح المستقذر كالرجس قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجر الجفاء، والسفه، وكل قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين، والمراد بالهجر: الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما يقول المسلم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ليس معناه أنه ليس على الهداية، بل المراد ثبِّتنا على هذه الهداية[٤] ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي ولا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيرًا[٥]، وأعط عطاء من لا يخاف الفقر، وقال ابن عباس: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها[٦] بمعنى: لا تعط شيئًا لتعطى أكثر منه، وسر النهي أن يكون العطاء خاليًا عن انتظار العوض تعففًا وكمالاً، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب وأجلّ الأخلاق ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى قومك، ابتغاء وجه ربك.. ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور نفخة البعث والنشور، وعبّر عن النفخ وعن الصور بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النقر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفزعًا فكأنه يقول: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك، ولهذا قال بعده: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد هائل، يشتد فيه الهول ويعسر الأمر عليهم، والإشارة بالبعيد ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة[٧] ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي هو عسير على الكافرين، غير هين ولا يسير عليهم، لأنهم يُناقَشون الحساب، وتسودّ وجوههم، ويحشرون زرقًا، ويُفتضَحون على رءوس الأشهاد، قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين؛ لأنه قيد عسره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين[٨].. ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر «الوليد بن المغيرة» وقوله الشنيع في القرآن

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٩١) واختار ابن جرير القول الأول وقال: هو أظهر.
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٢).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٩٣).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٣).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٦٠).
(٦) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨).
(٧) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٠٨).
(٨) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٦٥).

فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خلقته في بطن أُمه وحيدًا فريدًا، لا مال له ولا ولد، ولا حول له ولا مدد، ثم كفر بي وكذب بآياتي، قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» كان من أكابر قريش، ولذلك لقّب الوحيد وريحانة قريش، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدافق، وكان للوليد بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفًا ولا شتاء، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وفيه نزل ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون [1] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ .. إلى .. ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ وهو الذي آذى رسول الله ﷺ وكاد له، فإن صناديد قريش لما برموا برسول الله، وضاقت عليهم الحيل في إسكاته، وإطفاء نور دعوته، لجأوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة، فجعلوا ينادون: إن محمدًا ساحر! فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه؛ ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي جعلت له المال الواسع المبسوط: من الإبل، والخيل، والغنم، والبساتين النضرة، قال البيضاوي: ﴿مَّمْدُودًا﴾ أي مبسوطًا كثيرًا، وكان له الزرع والضرع والتجارة [2] قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف، وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا [3] ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي وأولادًا مقيمين معه في بلده، يحضرون معه المحافل والمجامع، يستأنس بهم ولا يتنغَّص عيشه لفراقهم، قال المفسرون: كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا، وكان مستأنسًا بهم وله بهم عز ومنعة، أسلم منهم ثلاثة «خالد، وهشام، والوليد» [4].. وبعد أن ذكر مظاهر النعم من المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطًا، ويسرت له تكاليف الحياة، ومظاهر الجاه والعز والسيادة، فكان في قريش عزيزًا منيعًا، وسيدًا مطاعًا ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي؟! قال الفخر الرازي: لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني [5]!! أي ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر وجحد، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان، ويقابله بالطاعة والإيمان، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كَلَّا﴾ ردع

---

(١) انظر ما كتبناه في سورة «ن» حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير .

(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٤٩٢) . (٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٨) .

(٤) ذكر بعض المفسرين تبعًا للزمخشري أن الذين أسلموا «خالد، وعمارة، وهشام» والصحيح أنه الوليد فأما عمارة فإنه مات كافرًا. وانظر حاشية الشهاب (٨/ ٢٧٤) .

(٥) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٩) .

وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ أي لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد؟! ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه وألجئه إلى عذاب صعب شاق لا يطاق، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل، قال القرطبي: ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يكلف صعودها، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها [١] وفي الحديث «الصعود: جبل من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفًا، ثم يهوي فيه كذلك أبدًا» [٢] ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن، وأجال رأيه وذهنه الثاقب، ثم رتب وهيأ كلامًا في نفسه، ماذا يقول في القرآن؟ وبماذا يطعن فيه؟ قال تعالى دعاء عليه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه، حيث قال عن القرآن، إنه سحر، وقال عن محمد: إنه ساحر، وفي الآية استهزاء به وتهكم، حيث قدر ما لا يصح تقديره، ولا يسوغ أن يقوله عاقل، قال في البحر: يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه: قاتله الله، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يحسد عليه ويدعى عليه من حُسَّاده، والاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾؟ في معنى: ما أعجب تقديره وما أغربه! كقولهم: أي رجل هذا؟ أي ما أعظمه [٣] ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيدًا لذمه وتقبيحًا لحاله، ولغاية التهكم به، كأنه قال: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبدع رأيه الحصيف [٤] حيث قال عن القرآن: إنه سحر يؤثر! قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه!! ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها!! فقال: أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يابن أخي؟! فقال: كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك مالاً ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك زيَّنت كلام محمد وصبأت لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله!! فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولدًا؟! وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟! ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب، فهل

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٧٢). (٢) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه.
(٣) البحر المحيط (٨/ ٣٧٤).
(٤) هذا كما قال الزمخشري: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أن ما أتى به في غاية الركاكة والسقوط.

جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا اللهم لا، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده، وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر!! فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات [١] تركنا الوليد يفكر ويقدر، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أجال النظر مرة أُخرى متفكرًا في شأن القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي ثم قطب وجهه وكلحه ضيقًا بما يقول ﴿وَبَسَرَ﴾ أي وزاد في القبض والكلوح، كالمهتم المتفكر في أمر يدبره، قال في التسهيل: البسور تقطيب الوجه وهو أشد من العبوس [٢] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي ثم أعرض عن الإِيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي فقال: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ليس هذا كلام الله، وما هو إلا كلام المخلوقين، يخدع به محمد القلوب، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور، قال الألوسي: هذا كالتأكيد للجملة الأولى؛ لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنًا أو من كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفي وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل، ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنه إنما قال ذلك عنادًا وحمية جاهلية، لا جهلاً بحقيقة الحال [٣]، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون!! ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله جهنم يتلظى حرها، ويذوق عذابها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟ استفهام للتهويل والتفظيع أي وما أعلمك أي شيء هي سقر؟ ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحدًا من الفجار إلا أحرقته، قال ابن عباس: لا تبقي من الدم والعظم واللحم شيئًا، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبدًا [٤] ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عيانًا [٥] فهي بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدِّ أعناق ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: «ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٩/ ٧٣) والخازن (٤/ ١٧٦) والتفسير الكبير (٣٠/ ٢٠١) وانظر السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٦١). (٣) روح المعاني (٢٩/ ١٢٤).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٠٢).

(٥) اختار بعض المفسرين أن معنى ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي محرقة للجلود مسودة لها، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن ﴿ٱلْبَشَرِ﴾ جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ فأي فائدة في وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك؟ وما اخترناه هو ما رجحه القرطبي ونسبه إلى ابن عباس وكذلك ما رجحه الإمام الفخر الرازي، والله أعلم.

الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم» قال الألوسي: روي عن ابن عباس أنه لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أُمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة - يعني محمدًا - يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم - أي العدد - الشجعان، أفيعجز كل عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد الجمحي: - وكان شديد البطش - أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين [١]، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ الشداد، ولم نجعلهم من البشر حتى يصارعوهم ويغالبوهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لم نجعل ذلك العدد إلاَّ سببًا لفتنة وضلال المشركين، حيث استقلوا بعددهم واستهزءوا حتى قال أبو جهل: أفيعجز كل مائةٍ منكم أن يبطشوا بواحدٍ منهم ثم تخرجون من النار [٢]؟ قال الطبري: وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنةً للكافرين، لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم لأصحابه - على سبيل الاستهزاء -: أنا أكفيكموهم [٣] ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزَّلة ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي ويزداد المؤمنون تصديقًا لله ورسوله، بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقًا للتوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيدًا لما قبله لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك، فكان قوله ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ مبالغة وتأكيدًا [٤]، وهو ما يسميه علماء البلاغة الإطناب ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والكافرون من أهل مكة: أيَّ شيء أراد الله بهذا القول العجيب، الذي هو مثل في الغرابة والبداعة؟ ولماذا يخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر؟ قال الرازي: إثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي حصول الارتياب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقيبه ألبتة شك ولا ريب، وقد كان ﷺ يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه، ولذلك بيَّن تعالى الغاية من ذكر هذا الخبر أوضح بيان [٥] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي مثل ما أضلَّ الله أبا جهل وأصحابه، يضلُّ الله عن الهداية والإيمان من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هدايته [٦]، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ

---

(١) تفسير الألوسي (٢٩/ ١٢٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٧٩).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٠١).
(٤) نقل هذا القول صاحب التسهيل عن الزمخشري.
(٥) التفسير الكبير بشيء من التصرف (٣٠/ ٢٠٦).
(٦) قال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق وهدايته لفريق أنه تعالى يجبر كلاًّ منهما على الضلالة والهدى، ولا أنه تعالى يُكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر، كلا فإن هذا الإكراه منافٍ للعدل الإلهي، بل مناف لحكمة التشريع السماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، الدالة على أن العبد له إرادة واختيار، هما مناط التكليف والمؤاخذة وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح سأل رجلٌ عليًّا رضي الله عنه فقال: أكان مسيرك إلى

﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا الله رب العالمين، وفي الآية ردٌّ على أبي جهل حين قال: أما لربِّ محمد أعوان إلاّ تسعة عشر؟! ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم تعالى بالقمر على أن سقر حق، والمعنى! ليرتدعْ أولئك المستهزئون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم، وأُقسم بالقمر ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي وأُقسم بالليل حين ولَّى بظلمته ذاهبًا ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي وبالصبح إذا تبلَّج وأضاء، ونشر ضياءه على الأرجاء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي إن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة، والبلايا الخطيرة، فكيف يستهزئون بها ويكذبون؟! قال أبو حيان: أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفًا لها، وتنبيهًا على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهي العظيمة التي لا نظير لها[1] وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله، وأنهما في حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما، ونشوء الليل والنهار عنهما مسخران لأمره تعالى، ساجدان بين يدي قدرته وقهره، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإِله الذي خلقهما؟! ثم قال تعالى عن جهنم: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ أي هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب إلى ربه بفعل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات، قال في البحر: والمراد بالتقدم والتأخر: السبق إلى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [2] قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته[3] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونةٌ عند الله بكسبها، ولا تفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي إلا فريق السعداء المؤمنين، فإنهم فكوا رقابهم وخلَّصوها من السجن والعذاب بالإيمان وطاعة الرحمن ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هم في جناتٍ وبساتين لا يدرك وصفها، يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين في النار، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم، يقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلاّ فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار[4] ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين،

الشام - يعني لقتال أهلها - بقضاء الله وقدره؟! فقال له: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازمًا، وقدرًا حاتمًا، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا وكلف يسيرًا ولم يكلف عسيرًا، ولم ينزل الكتب للعباد عبثًا، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ اهـ، وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية والإضلال.

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٧٨). (٢) البحر المحيط (٨/ ٣٧٩).

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٠٣). (٤) البحر (٨/ ٣٨٠).

قال ابن كثير : مرادهم في الآيتين : ما عبدنا ربنا ، ولا أحسنّا إلى خلقه من جنسنا[١] ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة ، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل ، قال في التسهيل : والخوض : هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه[٢] ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي وكنا نكذب بيوم القيامة ، وبالجزاء والمعاد ، وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيمًا له لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات ، قال تعالى معقبًا على اعترافهم بتلك الجرائم : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب الله ، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قبلت شفاعتهم فيهم ، قال ابن كثير : من كان متصفًا بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافرًا فإنه مخلد في النار أبدًا[٣] . . ولما ذكر تعالى قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ؟ فما لهؤلاء المشركين معرضون عن القرآن وآياته ، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإرشادات؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع ، قال في البحر : شبههم تعالى بالحمر النافرة مذمة لهم وتهجينًا[٤] وقال ابن عباس : الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت ، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد ، ثم قال : والقسورة : الأسد[٥] ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي بل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أُنزل على محمد ﷺ ، ويريد أن يتنزَّل عليه الوحي كما تنزَّل على الرسل والأنبياء ، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول : دع عنك ذكر إعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم ، واستمع لما هو أعجب وأغرب ، وذلك طمع كل فردٍ منهم أن يكون رسولاً يوحى إليه ، وهيهات أن يصل الأشقياء إلى مراتب الأنبياء ، ثم قال تعالى : ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع ، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب ، وهذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ كرَّر الردع والزجر لهم بقوله : ﴿كَلَّآ﴾ ثم قال : ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إنَّ هذا القرآن موعظة بليغة ، كافية لاتعاظهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه ، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا ، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٣) .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٦٢) .
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٧٣) .
(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٨٠) .
(٥) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢١٢) .

﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو جل وعلا أهلٌ لأن يتقى لشدة عقابه، وأهل لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته، قال الألوسي: أي حقيقٌ بأن يتقى عذابه ويطاع، وحقيقٌ بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه(١) وفي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ثم قال: «قال ربكم: أنا أهل أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهلٌ أن أغفر له»(٢).

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين﴿عَسِيرٌ﴾و﴿يَسِيرٍ﴾ كما أن بين اللفظتين جناس الاشتقاق.

٢ - المقابلة بين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وبين ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ .

٣- الإطناب بتكرار الجملة ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ زيادة في التوبيخ والتشنيع.

٤- جناس الاشتقاق ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ .

٥- تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ .

٦- الطباق بين ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ .

٧- أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ؟.

٨- التشبيه التمثيلي ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

٩- الإيجاز بحذف بعض الجمل ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ؟ أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر، فحذف اعتمادًا على فهم المخاطبين.

١٠ - الاستفهام للتهويل والتفخيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ ؟

١١ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ خصَّه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب.

١٢ - السجع المرصَّع مثل ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ ومثل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»
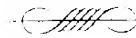
(١) روح المعاني للألوسي(٢٩/ ١٣٥) .
(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه .

تفسير سورة القيامة

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة القيامة مكية، وهي تعالج موضوع «البعث والجزاء» الذي هو أحد أركان الإِيمان، وتركّز بوجه خاص على القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وعن حالة الإِنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقَسَم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن البعث حقٌّ لاريب فيه ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

* ثم ذكرت طرفًا من علامات ذلك اليوم المهول، الذي يُخسف فيه القمر، ويتحير البصر، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾.

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه، فقد كان عليه السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار، ينظرون إلى الربّ جل وعلا، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار، حيث تكون الأهوال والشدائد، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ . . .﴾.

* وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ . . إلى . . أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ من آية (١) إلى آية (٤٠) نهاية السورة.

اللُّغَةُ: ﴿بَنَانَهُۥ﴾ البَنان: أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة، قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بَنَانَهُ ... عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَد[1]

﴿بَرِقَ﴾ فزع وبُهت وتحيَّر، . وأصله النظر إلى البرق فيدهش البصر، قال ذو الرمة:

وَلو أَنَّ لُقمان الحكيم تعرضتْ ... لِعينيه ميٌّ سافرًا كاد يبرق[2]

﴿وَزَرَ﴾ ملجأ وحصن يلتجئ إليه ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مشرقة متهلّلة، والنُضرة: النعمة وجمال البشرة والإشراقة الجميلة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ شديدة الكلوحة والعبوس يقال: بَسرَ وجهه إذا اشتد في عبوسه وكلاحته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ الفاقرة: الداهية والأمر العظيم يقال: فَقَرته المصيبة أي كسرت فَقَار ظهره ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر في مشيته اختيالاً وكبرًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ .

التَّفْسِير: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي وأقسم بالنفس المؤمنة التقية، التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات، وفعل الموبقات، قال المفسرون: ﴿لَآ﴾ لتأكيد القسم، وقد اشتهر في كلام العرب زيادة «لا» قبل القسم لتأكيد الكلام، كأنه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قسم، وجوابُ القسم محذوف تقديره «لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ» دل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [3]؟ . أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله، وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وتستغفر وتنيب مع طاعتها وإحسانها، قال الحسن البصري: هي نفس المؤمن، إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه: ماذا أردتُ بكلامي؟ وماذا أردتُ بعملي؟ وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[4] ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي أيظن هذا

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٩٢) . (٢) البحر المحيط (٨/ ٣٨٢) .
(٣) انظر التسهيل (٤/ ١٦٣) والألوسي (٢٩/ ١٣٥) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٧٠) .
(٤) تفسير الخازن (٤/ ١٨٢) .

الإنسان الكافر المكذب للبعث والنشور أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها؟ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في «عدي بن ربيعة» جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن يوم القيامة، متى يكون؟ وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن بك، كيف يجمع الله العظام؟! فنزلت هذه الآية[1]، قال تعالى ردًّا عليه: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه، التي هي أصغر أعضائه، وأدقها أجزاءً وألطفها التئامًا، فكيف بكبار العظام؟ وإنما ذكر تعالى البنان - وهي رءوس الأصابع - لما فيها من غرابة الوضع، ودقة الصنع؛ لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع إنسان، لا تماثلها خطوطٌ أُخرى في أصابع شخص آخر على وجه الأرض، ولذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر[2] ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، ويقدم على الشهوات والآثام، دون وازع من خُلُق أو دين، وينطلق كالحيوان ليس له همٌّ إلا نيل شهواته البهيمية، ولذلك ينكر القيامة ويكذب بها ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي يسأل هذا الكافر الفاجر - على سبيل الاستهزاء والتكذيب - متى يكون هذا اليوم يوم القيامة؟ قال الرازي: والسؤال هنا سؤال متعنت ومستبعد لقيام الساعة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ ولذلك ينكر المعاد ويكذب بالبعث والنشور، والغرض من الآية ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يُقر بالحشر والنشر، وبعث الأموات؛ لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية، فيكون أبدًا منكرًا لذلك، قائلاً على سبيل الهزء والسخرية: أيَّان يومُ القيامة[3]، قال تعالى ردًّا على هؤلاء المنكرين: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي فإذا زاغ البصر وتحيَّر، وانبهر من شدة الأهوال والمخاطر ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه وأظلم ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي جمع بينهما يوم القيامة، وأُلقيا في النار ليكونا عذابًا على الكفار، قال عطاء: يُجمعان يوم القيامة ثم يُقذفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[4] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي يقول الفاجر الكافر في ذلك اليوم: أين المهرب؟ وأين الفرار والمنجى من هذه الكارثة الداهية؟

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ثبت علميًّا أن بشرة الأصابع مغطَّاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقة، منها ما هو على شكل «أقواس، أو عراوٍ، أو دوامات» وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه إنسان فيها آخر، ولهذا اعتمدتها الدول رسميًّا وأصبحت تميز الإنسان ببصمة الإبهام، فتبارك الله أحسن الخالقين. انظر ما كتبناه في كتابنا «التبيان في علوم القرآن» حول هذه المعجزة العلمية صفحة (١٣٦).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢١٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ١١٣) وروي عن مجاهد أن المراد: كوّرا كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وقيل: المراد: جمعا فطلعا من المغرب، ولا يناسبه لأن الكلام عن القيامة.

يقول قول الآيس، لعلمه بأنه لا فرار حينئذٍ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ردعٌ له عن طلب الفرار، أي ليرتدع وينزجر عن ذلك القول، فلا ملجأ له، ولا مغيث من عذاب الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي إلى الله وحده مصير ومرجع الخلائق، قال الألوسي: إليه جل وعلا وحده استقرار العباد، لا ملجأ ولا منجي لهم غيره[١] . . . والمقصود من الآيات: بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحار من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظيمة، والإنسان يطيش عقله، ويذهب رشده، ويبحث عن النجاة والمخلص، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، ما قدَّمه منها في حياته، وما أخره بعد مماته، من سُنةٍ حسنة أو سيئة، ومن سمعة طيبةٍ أو قبيحةٍ[٢] وفي الحديث «من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ سنةً سيئة فعليه وزرها ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٣] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي بل هو شاهد على نفسه، وسوء عمله، وقبح صنيعه، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ والهاءُ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ للمبالغة كراوية وعلاّمة، قال ابن عباس: الإنسان شاهد على نفسه وحده، يشهد عليه سمعُه، وبصره، ورجلاه، وجوارحه[٤] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة ليبرِّر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك؛ لأنه شاهدٌ على نفسه، وحجةٌ بينة عليها، قال الفخر: المعنى: أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه، وجادل عنها، وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه[٥] بما جنت واقترفت من الموبقات. . وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلَّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي إن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فإذا قرأه عليك جبريل، فأنصت لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرك شفتيك أثناء قراءته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه، مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ. . .﴾ الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل[٦]، قال ابن

(١) روح المعاني (٢٩/ ١٤٠).
(٢) هذا معنى ما روي عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح وقيل: بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره.
(٣) الحديث في الصحاح.
(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ١١٥).
(٥) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٢٢).
(٦) أخرجه الشيخان وأحمد.

عباس: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: فاستمعْ وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ قال: أن نبينه بلسانك[١] وقال ابن كثير: كان ﷺ يبادر إلى أخذ القرآن، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل أن يستمع له، وتكفّل له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوتُه، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[٢] ثم عاد الحديث عن المكذبين بيوم الدين فقال تعالى مخاطبًا كفار مكة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي ارتدعوا يا معشر المشركين، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قومٌ تحبون الدنيا الفانية، وتتركون الآخرة الباقية، ولذلك لا تفكرون في العمل للآخرة مع أنها خيرٌ وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ لما ذكر تعالى أن الناس يُؤْثِرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية، وصف ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق إلى فريقين: أبرار، وفجار، والمعنى: وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة، من أثر النعيم، وبشاشة السرور عليها، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جل وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب، قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق[٣]، وبذلك وردت النصوص الصحيحة[٤] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي ووجوهٌ يوم القيامة عابسة كالحة، شديدة العبوس والكلوح، وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تتوقع أن تنزل بها داهية عظمى، تقصم فقار الظهر، قال ابن كثير: هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة كالحة عابسة، تستيقن أنها هالكة[٥]، وتتوقع أن تحل بها داهية تكسر فقار الظهر ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر عن إيثار العاجلة أي ارتدعوا يا معشر المشركين عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر، فإن الدنيا دار الفناء، ولا بد أن تتجرعوا كأس المنية، وإذا بلغت الروح ﴿التَّرَاقِيَ﴾ أعالي الصدر[٦]، وشارف الإنسان على الموت ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ أي وقال أهله وأقرباؤه: من يرقيه ويشفيه ممَّا هو فيه؟ قال في البحر: ذكَّرهم تعالى بصعوبة الموت، وهو أول مراحل الآخرة، حين تبلغ الروح التراقي - وهي عظام أعلى الصدر - فقال أهله: من يرقي

---

(١) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٦). (٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٢٠).

(٤) هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين «إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر..» الحديث وفي صحيح مسلم: «فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة، وأوّلوا الآية ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطلٌ لأن نظر بمعنى انتظر، يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في تفسير الخازن (٤/ ١٨٦).

(٥) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٧٨).

(٦) قال الفخر الرازي: واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول ابن الصمة:

وربَّ عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

ويطب ويشفي هذا المريض[١]؟ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي وأيقن المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والمال؛ لمعاينته ملائكة الموت ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي والتفت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى؛ من شدة كرب الموت وسكراته، قال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن[٢]، وروي عن ابن عباس أن المراد: اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة الموت وكربه، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم، حيث يلتقي عليه شدة كرب الدنيا، مع شدة كرب الآخرة، كما يقال: شمَّرت الحرب عن ساق، استعارة لشدتها[٣] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي إلى الله جل وعلا مساق العباد، يجتمع عنده الأبرار والفجار، ثم يُساقون إلى الجنة أو النار، قال الخازن: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم[٤].. ثم أخبر تعالى عن حال الجاحد المكذب فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدق بالقرآن، ولم يصلّ للرحمن، قال أبو حيان: والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله: ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم، وكان يُكثر منها[٥] ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ أي ذهب يتبختر في مشيته، وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي ويلٌ لك، يا أيها الشقي ثم ويلٌ لك قال المفسرون: هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذير والتهديد، وأصلها أنها أفعل تفضيل من وليه الشيء إذا قاربه ودنا منه أي وليك الشر وأوشك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمرك[٦]... روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: «﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾» فقال أبو جهل: أتتوعدني يا محمد وتهددني؟! والله لا تستطيع أنتَ وربُّك أن تفعلا بي شيئًا، والله إني لأعزُّ أهل الوادي!! ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شر قتلة ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ كرره مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر وانتبه لنفسك قبل نزول العقوبة بك.. ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: أيظن الإنسان أن يُترك هملاً، من غير بعثٍ ولا حساب ولا جزاء؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحُسبان ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير أي أما كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماءٍ مهين، يراق ويُصب في الأرحام؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى البول ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد يشبه العلقة، فخلقه الله بقدرته في أجمل صورة، وسوَّى

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ١٢٣).
(٢) انظر البحر المحيط (٨/ ٣٩٠).
(٣) تفسير الخازن (٤/ ١٨٧).
(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٨٩).
(٥) البحر المحيط (٨/ ٣٩١).
(٦) انظر التفسير الكبير (٣٠/ ٢٣٣) وتفسير القرطبي (١٩/ ١١٣).

صورته وأتقنها في أحسن تقويم ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي فجعل من هذا الإِنسان صنفين: ذكرًا وأنثى بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإِنسان وتركيبه، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أليس ذلك الإِله الخالق الحكيم، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة، وأوجد الإِنسان من ماءٍ مهين بقادرٍ على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير روي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم بلى».

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وكذلك بين ﴿صَدَّقَ﴾ و ﴿كَذَّبَ﴾.

٢ - الاستفهام الإِنكاري بغرض التوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ لأن الغاية التوبيخ والتقريع.

٣ - استبعاد تحقق الأمر ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإِنكار.

٤ - الجناس غير التام بين ﴿بَنَانَهُۥ﴾ و ﴿بَيَانَهُۥ﴾ لاختلاف بعض الحروف.

٥ - المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وبين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ .. إلخ.

٦ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾.

٧ - المجاز المرسل ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ عبر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٨ - الالتفات ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب تقبيحًا له وتشنيعًا.

٩ - توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع مثل ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وهذا من خصائص القرآن، معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»
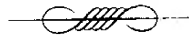
بين يدي السورة

*سورة الدهر من السور المدنية، وهي تعالج أمورًا تتعلق بالآخرة، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، ويكاد يكون جوُّ السورة هو جو السور المكية لإيحاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة.

*ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار، وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

*ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

*ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب، فوصفتهم بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله، والخوف من عذاب الله، وذكرت أنَّ الله تعالى قد آمنهم من ذلك اليوم العبوس الذي تكلح فيه الوجوه ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ الآيات.

*وأشادت - بعد ذكر أوصافهم - بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

*وتتابعت السورة في سرد نعيم أهل الجنة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

*وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلبٌ يعي، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ .. إلى .. وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ من آية (١) إلى آية (٣١) نهاية السورة.

اللغة: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط، جمع مشج ومشيج مثل شريف وأشراف، يقال للشيء إذا خلط

بغيره: مشيجٌ، كخليط لفظًا ومعنى ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا غاية الانتشار يقال: استطار الشيء أي انتشر ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ القمطرير: الشديد العصيب الذي يطول بلاؤه، قال الأخفش: القمطرير: أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء[1] ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سخرت وقربت ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ السلسبيل: الشراب اللذيذ الذي هو غاية في السلاسة، والذي يسهل في الحلق لعذوبته وصفائه ﴿سُندُسٍ﴾ السندس: الرقيق من ثياب الحرير ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ ثياب الحرير الغليظة ويسمى الديباج ﴿أَسْرَهُمْ﴾ الأسر في الأصل: الشد والربط، ثم أطلق على الخلق يقال: شدَّ أسره أي أحسن خلقه، وأحكم تكوينه، قال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره ... سلس القياد تخاله مختالا[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

التفسير: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي كان في العدم، لم يكن له ذكر ولا وجود، قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه[3] قال المفسرون: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ بمعنى: قد أتى، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمتَ أنه قد رآه، وتقول: هل

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٣). (٢) نفس المرجع السابق (١٩/ ١٤٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٠).

أكرمتك، هل وعظتك؟ ومقصودك أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته، والمرادُ بالإنسان: الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه[١]، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئًا منسيًّا لا يفطن له، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماءً مهينًا لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومرَّ عليه حينٌ من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وإنشاءه، بعد أن كان مغمورًا ومنسيًّا لا يعلم به أحد.. وبعد أن قرر أن الإنسان مرَّ عليه وقت لم يكن موجودًا، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متَّعه بنعمة العقل والحواس فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماءٍ مهين - وهو المنيُّ - الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة «البويضة الأنثوية» فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب، قال ابن عباس: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني: أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال[٢] ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية؛ لننظر أيشكر أم يكفر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزًا، ذا سمع وبصر؛ ليسمع الآيات التنزيلية، ويبصر الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم، قال الإمام الفخر: أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصَّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواسِّ وأشرفها[٣] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بيَّنا للإنسان وعرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل، وإنزال الكتب.. أخبر تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيَّن له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر، ولهذا قال بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إما أن يكون مؤمنًا شاكرًا لنعمة الله، فيسلك سبيل الخير والطاعة، وإما أن يكون شقيًّا فاجرًا، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور، قال المفسرون: المراد: هديناه السبيل ليكون إمَّا شاكرًا وإمّا كفورًا، فالله تعالى دلَّ الإنسان على سبيل الشكر والكفر، وعلى الإنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادةً واختيارًا هما مناط التكليف، كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ إلى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وكقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فلا إكراه لأحدٍ ولا إجبار، وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار[٤].. ثم بعد هذا البيان الواضح، بيَّن ما أعدَّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيودًا

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢٣٥). (٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٠).
(٣) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ٢٣٧). (٤) انظر التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢٣٨).

تشدُّ بها أرجلهم، وأغلالاً تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وسعيرًا أي نارًا موقدة مستعرة يحرقون بها، كقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبرارًا بطاعتهم الجبار، فإنهم يشربون كأسًا من الخمر، ممزوجة بأنفَس أنواع الطيب وهو الكافور، قال المفسرون: الكافور: طيبٌ معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب، والمراد: أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحان شذاها كالكافور[١]. قال ابن عباس: الكافور اسم عين ماءٍ في الجنة يقال له عين الكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألذَّ شراب، ولهذا قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عينٍ جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار، وصفهم بالعبودية تكريمًا لهم وتشريفًا بإضافتهم إليه تعالى ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاءوا من الدور والقصور، قال الصاوي: المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم، ورد أن الرجل منهم يمشي في بيوته، ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره[٢]. . ولما ذكر ثواب الأبرار، بيّن صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم من نذرٍ في طاعة الله، إذا نذروا طاعةً فعلوها، قال الطبري: النذرُ كلُّ ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل، فإذا نذروا بروا بوفائهم لله، بالنذور التي في طاعة الله[٣]، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، قال المفسرون: وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى[٤] ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي ويخافون هول يوم عظيم كانت أهواله وشدائده - من تفطر السموات، وتناثر الكواكب، وتطاير الجبال، وغير ذلك من الأهوال - ممتدة منتشرة فاشية، بالغة أقصى حدود الشدة والفزع، قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى بلغ السموات والأرض[٥] ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي ويطعمون الطعام مع شهوتهم له، وحاجتهم إليه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ويتيمًا مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيرًا وهو من أُسر في الحرب من المشركين، قال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسنْ إليه، فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه[٦]. . نبّه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، في سدِّ جوعتهم وجوعة عيالهم، يطيبون نفسًا عنه للبؤساء، ويؤثرونهم به على أنفسهم

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٣).
(٢) حاشية الصاوي (٤/ ٢٧٤).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٢٩).
(٤) انظر التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤١).
(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ١٢٩).
(٦) روح المعاني (٢٩/ ١٥٥).

كقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأةً، ولا نقصد الحمد والثناء منكم، قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به؛ ليرغب في ذلك راغب[1] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يومٍ شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله، وهو يومٌ قمطرير أي شديد عصيب[2] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي حماهم الله ودفع عنهم شرَّ ذلك اليوم وشدته ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي وأعطاهم نضرةً في الوجه، وسرورًا في القلب، والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم والتفخيم ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال، جنةً واسعة وألبسهم فيها الحرير، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ . . وفي الآية إيجازٌ، آخذٌ بأطراف الإعجاز، فقد أشار تعالى بقوله ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار، والمطاعم والمشارب الهنية، فإن الجنة لا تسمَّى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وأشار بقوله: ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس، التي من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس، وهو قُصارى ما تتطلع له نفوس الناس . . ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومساكنهم فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسرَّة المزيَّنة بفاخر الثياب والستور، قال المفسرون: الأرائك: جمع أريكة وهي السرير ترخى عليه الحجلة، والحجلة هي ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور، وإنما خصَّهم بهذه الحالة لأنها أتم حالات المتنعم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجدون فيها حرًّا ولا بردًا؛ لأن هواءها معتدل فلا حرَّ ولا قرَّ، وإنما هي نسمات تهبُّ من العرش تحيي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أي ظلال الأشجار في الجنة قريبةٌ من الأبرار ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي أدنيت ثمارها منهم، وسهل عليهم تناولها، قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلَّت إليه حتى يتناول منها ما يريد[3] . . ولما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم، وصف بعد ذلك شرابهم فقال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشراب - على عادة أهل الترف والنعيم في الدنيا - فيتناول كل واحدٍ منهم حاجته، وهذه الأواني هي الصّحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ قال الرازي: ولا منافاة بين الآيتين، فتارةً يسقون بهذا، وتارة بذاك[4] ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي وأكواب - وهي

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٨٢) .
(٢) قال الطبري: «قمطرير» شديد يقال: يوم قمطرير أي شديد عصيب. اهـ (٢٩/ ١٣١) .
(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٧) . (٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤٩) .

كالأقداح - رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه، قال في البحر: ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ أن الله تعالى أوجدها بقدرته، فيكون تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها، وشفيف القوارير وصفائها[١] ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ أي هي جامعة بين صفاء الزجاج، وحسن الفضة، قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء - يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى - ولو أخذت فضةً من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم ير الماء من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنة ببياض الفضة، مع صفاء القوارير[٢] ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّرها السُّقاة على مقدار حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألذُّ وأشهى، قال ابن عباس: أتوا بها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئًا، ولا يشتهون بعدها شيئًا[٣] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته، قال القرطبي: فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب[٤] قال قتادة: الزنجبيل اسمٌ لعينٍ في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة[٥] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، لسهولة مساغها وانحدارها في الحلق، قال المفسرون: السلسبيل: الماء العذب، السهل الجريان في الحلق لعذوبته وصفائه، وإنما وصف بأنه سلسبيل؛ لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لذعته، فيشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحرافته، فيبقى الشراب سلسبيلاً، سهل المساغ في الحلق.. ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار غلمانٌ ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء، قال القرطبي: أي باقون على ما هم عليه من الشباب، والنضارة، والغضاضة، والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مرِّ الأزمنة[٦] ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم، كأنهم اللؤلؤ المنثور، قال الرازي: هذا من التشبيه العجيب؛ لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر؛ لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أروع وأبدع[٧] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت هناك ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يوصف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما في الحديث القدسي «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطَر على قلب بشر»، قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أن «أقل أهل الجنة منزلةً

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٩٧).
(٢) تفسير الألوسي (٢٩/ ١٥٩).
(٣) تفسير الألوسي (٢٩/ ١٦٠).
(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ١٤٠).
(٥) تفسير البحر المحيط (٨/ ٣٩٨).
(٦) تفسير القرطبي (١٩/ ١٤١).
(٧) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥١).

من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها» فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلةً وأحظى عنده تعالى[1]؟ ثم زاد تعالى في بيان وصف نعيمهم فقال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي تعلوهم الثياب الفاخرة الخضراء، المزينة بأنواع الزينة، من الحرير الرقيق - وهو السندس - والحرير الثخين وهو - الاستبرق - فلباسهم في الجنة الحرير كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ قال المفسرون: السندس: ما رقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غلظ من الحرير، وهذا لباس الأبرار في الجنة، وإنما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ لينبه على أن لهم عدة من الثياب، ولكنَّ الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلها ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي وأُلبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية، وعبَّر بالماضي إشارةً لتحقق وقوعه، قال الصاوي: فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي سورة الكهف ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وفي سورة فاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ فالجواب أنهم تارةً يلبسون الذهب فقط، وتارةً يلبسون الفضة، وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ[2] ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي سقاهم الله - فوق ذلك النعيم - شرابًا طاهرًا لم تدنسه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيا، قال الطبري: سُقي هؤلاء الأبرار شرابًا طهورًا، ومن طُهْره أنه لا يصير بولاً نجسًا، بل رشحًا من أبدانهم كرشح المسك، روي أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقي شرابًا طهورًا، فيصير رشحًا يخرج من جلده أطيبُ ريحًا من المسك الإذخر[3] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها: هذا مقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي وكان عملكم مقبولاً مرضيًّا، جوزيتم عليه أحسن الجزاء، مع الشكر والثناء.. مرَّ في الآيات السابقة أن الله تعالى أعدَّ للكافرين السلاسل والأغلال، كما هيأ للأبرار أرائك يتكئون عليها، وعليهم ثياب السندس والإستبرق، وفي معاصمهم أساور الفضة، وبين أيديهم ولدانٌ مخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور، يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية النقية، وقد ملئت شرابًا ممزوجًا بالزنجبيل والكافور، وكلُّ ذلك للترغيب والترهيب، على طريقة القرآن في المقارنة بين أحوال الأبرار والفجار.. وبعد هذا الوضوح والبيان، كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصدِّ والإعراض، والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وكان الرسول يتألم ويحزن لموقف المعاندين، لذلك جاءت الآيات تشدُّ من عزيمته، وتسلِّيه وتخفف عن قلبه الشريف آثار الهمِّ والضجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مفرقًا؛ لتذكرهم بما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلا تبتئس ولا تحزن ولا تضجر، فالقرآن حقٌّ ووعده صدقٌ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٨٤).
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٧٨).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٣٧).

اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه، فلا بدَّ أن ينتقم منهم، ويقر عينك بإهلاكهم، إنْ عاجلاً أو آجلاً ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿ءَاثِمًا﴾ منغمسًا في الشهوات، غارقًا في الموبقات ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي ولا تطع من كان مبالغًا في الكفر والضلال، لا ينزجر ولا يرعوي، وصيغة «كفور» من صيغ المبالغة ومعناها: المبالغ في الكفر والجحود، قال المفسرون: نزلت في «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن المغيرة» قالا للنبي ﷺ: إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك، فقال عتبة: أنا أُزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى! فنزلت[1]، والأحسنُ أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صلِّ لربك وأكثِرْ من عبادته وطاعته ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره، في الصباح والمساء ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ أي ومن الليل فصلِّ له، متهجدًا مستغرقًا في مناجاته ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأكثر من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام والناس نيام، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ والمقصود أن يكون عابدًا لله ذاكرًا له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبه ولسانه؛ ليتقوى على مجابهة أعدائه.. وبعد تسلية النبي الكريم، عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجرمين فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة، وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ويتركون أمامهم يومًا عسيرًا شديدًا، عظيم الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي نحن بقدرتنا أوجدناهم من العدم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى كانوا أقوياء أشداء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو أردنا أهلكناهم، ثم بدلنا خيرًا منهم يكونون أعبد لله وأطوع، وفي الآية تهديدٌ ووعيد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعناها الدقيق، ولفظها الرشيق موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي فمن أراد الانتفاع والاعتبار، وسلوك طريق السعادة، فليعتبر بآيات القرآن، وليستنر بنوره وضيائه، وليتخذ طريقًا موصلاً إلى ربه، بطاعته وطلب مرضاته، فأسباب السعادة ميسورة، وسبل النجاة ممهدة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما تشاءون أمرًا من الأمور إلا بتقدير الله ومشيئته، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته، قال ابن كثير: أي لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعًا إلا بمشيئة الله تعالى[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عالم بأحوال خلقه، حكيم في تدبيره وصنعه، يعلم من يستحق الهداية فييسِّرها له، ومن يستحق الضلالة فيسهل له أسبابها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي يدخل من يشاء من

---

(١) انظر التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥٨) وتفسير القرطبي (١٩/ ١٤٧) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٧٨).

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٨٤).

عباده جنَّته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ أي وأما المشركون الظالمون فقد هيأ لهم عذابًا شديدًا مؤلمًا في دار الجحيم ختم السورة الكريمة ببيان مآل المتقين، ومآل الكفرة المجرمين.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿شَمۡسًا﴾ و﴿زَمۡهَرِيرًا﴾.

٢ - اللف والنشر المشوش ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ فإنه قدَّم أولاً ذكر الشاكر ثم الكافر ﴿شَاكِرًا﴾ أو﴿كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول ففيه لف ونشر غير مرتب.

٣ - المجاز العقلي ﴿يَوۡمًا عَبُوسًا﴾ إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه كنهاره صائم.

٤ - الجناس غير التام ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ . . . ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ فبين وقاهم ولقاهم جناس.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٦ - الطباق﴿يُحِبُّونَ﴾ . . . ﴿وَيَذَرُونَ﴾.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم: إن هذا . . إلخ.

٨ - التشبيه البديع الرائع ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي كاللؤلؤ المنتثر.

٩ - المقابلة اللطيفة ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ قابل بين المحبة والترك وبين العاجلة والباقية.

١٠ - السجع المرصَّع مثل ﴿لُؤۡلُؤًا مَّنثُورًا﴾ . . ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ . . ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ . . ﴿ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدهر»
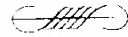
تفسير سورة المرسلات

بين يدي السورة

* سورة المرسلات مكية، وهي كسائر السور المكية تعالج أمور العقيدة، وتبحث عن شئون الآخرة، ودلائل القدرة والوحدانية، وسائر الأمور الغيبية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسَم بأنواع الملائكة المكلفين بتدبير شئون الكون، على أن القيامة حقٌّ، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

* ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وُعد به المجرمون ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ⑯ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ⑰ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ⑱ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑲ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من نكال وعقاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㉘ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ㉙ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ㉚ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ㉛ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ㉜ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ . . .﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن المجرمين تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين، وذكرت ما أعده الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ㊶ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ㊷ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ㊸ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار، عن عبادة الله الواحد القهار، وهو الطغيان والإجرام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㊺ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ㊻ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㊼ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ㊽ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㊾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا . . إلى . . فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ من آية (١) إلى آية (٥٠) نهاية السورة.

اللغة: ﴿فُرِجَتْ﴾ فتحت وشقت يقال: فرجت الشيء فانفرج أي فتحته فانفتح ﴿كِفَاتًا﴾ الكفت في اللغة: الضمُّ والجمع قال الشاعر:

فأنت اليوم فوق الأرض حيٌّ وأنت غدًا تضمُّك في كفات[1]

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٥٩).

﴿ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ عاليات مرتفعات، يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كِبرًا ﴿ فُرَاتًا ﴾ عذبًا شديد الحلاوة ﴿ بِشَرَرٍ ﴾ الشرر: ما تطاير من النار وتفرق، جمع شررة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

التَّفْسِير: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ أي أُقسم بالرياح حين تهبُّ متتابعة، يقفو بعضها إثر بعض[١]، قال المفسرون: هي رياح العذاب التي يهلك الله بها الظالمين ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ أي وأقسم بالرياح الشديدة الهبوب، إذا أُرسلت عاصفة شديدة، قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيَّرت الآثار ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ أي وأقسم بالملائكة الموكلين بالسحب يسوقونها حيث شاء الله، لتنشر رحمة الله - المطر - فتحيي به البلاد والعباد ﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام[٢] ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ أي وأقسم بالملائكة تنزل بالوحي، وتلقي كتب الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ أي تلقي الوحي إعذارًا من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، أو إنذارًا من الله للخلق بالنقمة والعذاب ﴿ إِنَّمَا

(١) اختلف المفسرون اختلافًا كبيرًا في تفسير هذه الآيات الخمس: فبعضهم حملها جميعًا على الرياح وبعضهم حملها جميعًا على الملائكة، وبعضهم فصَّل، وتوقف الإمام ابن جرير، وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال: والأظهر في «والمرسلات، والعاصفات» أنها الرياح، لأن وصف الريح بالعصف حقيقة، والأظهر في «الناشرات، والفارقات» أنها الملائكة لأن قوله: ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ المذكورة بعدها هي الملائكة، ولم يقل أحد: إنها الرياح، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال: «والمرسلات فالعاصفات» ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال: ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ ﴾ ثم عطف بالفاء. وهذا قول جيد.

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٠٤).

تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو جواب القسم أي إنَّ ما توعدون به من أمر القيامة، وأمر الحساب والجزاء- كائن لا محالة، قال المفسرون: أقسم تعالى بخمسة أشياء، تنبيهًا على جلالة قدر المقسم به، وتعظيمًا لشأن المقسم عليه: فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخير أو الشر، وبالملائكة الأبرار، الذين يتنزلون بالوحي للإعذار أوالإنذار، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما أوعد الله تعالى به المكذبين من مجيء الساعة والثواب والعقاب- كائن لا محالة، فلا ينبغي الشك والامتراء(١).. ثم بيَّن تعالى وفصَّل وقت وقوع ذلك فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محيت النجوم وذهب نورها وضياؤها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي شقت السماء وتصدَّعت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي تطايرت الجبال وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جعل للرسل وقتٌ وأجل للفصل بينهم وبين الأمم، وهو يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ وأصل ﴿أُقِّتَتْ﴾ وُقِّتت من الوقت أي جعل لها وقت محدد، قال الطبري: أي: أُجّلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة(٢) وقال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم(٣) ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ استفهامٌ لتعظيم ذلك اليوم، والتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة أي لأي يوم عظيم أُخرت الرسل؟ ثم قال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي ليوم القضاء والفصل بين الخلائق، يوم يفصل الله بين الأنبياء وأممهم المكذبين بحكمه العادل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ؟ استفهام للتعظيم والتهويل أي وما أعلمك أيها الإِنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل أووجدان، ووضع الظاهر ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مكان الضمير «ما هو» لزيادة تفظيع وتهويل أمره، قال الإِمام الفخر: عجّب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أُجّلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذّبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإِيمان به، من الأهوال والعرض والحساب، ثم إنه تعالى بيّن ذلك فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي وما أعلمك ما هو يوم الفصل وشدته ومهابته(٤)؟ وجواب الشرط ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ إلخ محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: وقع ما توعدون به، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإِيجاز البياني الذي امتاز به القرآن ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود، قال المفسرون: كرَّر هذه الجملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب، وفي كل جملة وردت إخبارٌ عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة

---

(١) انظر التفسير الكبير (٣٠/ ٢٦٥) . (٢)
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٦٩) . (٤)

الفجار، ولما كان - في سورة الإِنسان السابقة - ذكر بعضًا من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإِطناب في وصف الكفار، والإِيجاز في وصف المؤمنين. . ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة، وأنه حق كائن لا محالة، وبعد أن خوَّف المكذبين من شدة هول ذلك اليوم، وفظاعة ما يقع فيه، عاد فخوَّفهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل، كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود؟ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى «فرعون وأتباعه» ومن على شاكلتهم ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الإِهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين «كفار مكة» لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة، وهي أن من خلقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادرًا على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماءٍ ضعيف حقير هو منيُّ الرجل؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه» الحديث[1] ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز وهو رحم المرأة ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إِلى مقدار من الزمن محدَّد معيَّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي فقدرنا على خلقه من النطفة، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الأشكال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بقدرتنا قال الصاوي: هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إِنعامه عليهم، وبقدرته على ابتداء خلقهم، والقادرُ على الابتداء قادر على الإِعادة، ففيها ردٌّ على المنكرين للبعث[2] . . ثم ذكَّرهم بنعمة إِيجادهم على الأرض حال الحياة، ومواراتهم في باطنها بعد الموت فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾؟ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم، تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في باطنها؟ قال المفسرون: الكفت: الجمع والضم، فالأرض تجمع وتضم إِليها جميع البشر، فهي كالأم لهم، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور، والأموات يسكنون في بطنها في القبور ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم[3] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي وجعلنا

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإِمام أحمد في المسند، ورواه ابن ماجه في سننه، وتمامه أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «يقول الله عز وجل: ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إِذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»؟.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٨٠).

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٨٨).

في الأرض جبالاً راسخات عاليات مرتفعات لئلا تضطرب بكم[١] ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي وأسقيناكم ماءً عذبًا حلوًا بالغ العذوبة، أنزلناه لكم من السحاب، وأخرجناه لكم من العيون والأنهار؛ لتشربوا منه أنتم ودوابكم، وتسقوا منه زرعكم وأشجاركم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في دار الدنيا، وهذا الكلام تقوله لهم خزنة النار تقريعًا وتوبيخًا.. ثم وضَّح ذلك العذاب وفصَّله فقال: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ أي اذهبوا فاستظلوا بدخانٍ كثيف من دخان جهنم، يتفرع منه ثلاث شعب ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي لا يظل مَن يكون تحته، ولا يقيه حر الشمس كما هو حال الظل الممدود، ولا هو يدفع عنه أيضًا ألسنة النار المندلعة من كل جانب، قال الطبري: لا هو يظلهم من حرها، ولا يكنهم من لهبها، وذلك أنه يرتفع من وقود جهنم الدخان، فإذا تصاعد تفرَّق شعبًا ثلاثة[٢] قال المفسرون: سمَّى العذاب ظلاً تهكمًا واستهزاءً بالمعذبين، فالمؤمنون في ظلال وعيون، والمجرمون في سمومٍ وحميم، وظلٍّ من يحموم، واليحموم دخانٌ أسود قاتم، فكيف يصح أن يسمى ما هم فيه ظلاً إلا على طريق التهكم والاستهزاء؟ ثم زاد تعالى في وصف جهنم وأهوالها فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار، كلُّ شرارةٍ منه كأنها القصر العظيم، قال ابن كثير: يتطاير الشرر من لهبها كالحصون[٣] ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أي كأن شرر جهنم المتطاير منها الإبل الصفر في لونها وسرعة حركتها، قال الرازي: شبَّه تعالى الشرر في العظم بالقصر، وفي اللون والكثرة وسرعة الحركة بالجمالات الصفر[٤]، وهذا التشبيه؛ من روائع صور التشبيه، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة؟ أجارنا الله من نار جهنم بفضله ورحمته ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الله ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينطق فيه أولئك المكذبون ولا يتكلمون كلامًا ينفعهم، فهم في ذلك اليوم خُرس بُكم ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي ولا يقبل لهم عذرٌ ولا حجة فيما أتوا به من القبائح والجرائم، بل لا يؤذن لهم في أن يعتذروا؛ لأنه لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا

(١) لقد كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال قبل أن يكتشفها العلم الحديث، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبتها وتقيها الاضطراب والميدان كما تقي أوتاد الخيمة الخيمة، وقد كشف الوحي عن هذا المعنى فقال في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض - بما في جوفها من الغازات والأبخرة والمواد المتراكمة المشتعلة - دائمة الاضطراب والخفقان، ولكانت كالريشة في مهب الهواء، فسبحان الحكيم العليم على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والعيون، ثم تكثر الأشجار والزروع، فالجبال مخازن للثلوج والأمطار، ومستودعات عامة لبركات السماء، ولهذا قرن تعالى بها نعمة الماء فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ فلله ما أبدع أسرار القرآن!!

(٢) تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٦).   (٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٨٨).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٧٧).

يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء، جمعناكم فيه مع مَن تقدمكم من الأمم لنحكم بينكم جميعًا ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ أي فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالوا، وأنقذوا أنفسكم من بطش الله وانتقامه إن قدرتم، وهذا تعجيزٌ لهم وتوبيخ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك يومئذٍ للمكذبين بيوم الدين.. وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء المجرمين، أعقبه بذكر أحوال السعداء المتقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ أي الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم القيامة في ظلال الأشجار الوارفة، وعيون الماء الجارية، يتنعمون في دار الخلد، والكرامة، على عكس أولئك المجرمين المكذبين، الذين هم في ظلٍّ من يحموم - وهو دخان جهنم الأسود - الذي لا يقي حرًا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأنس والتكريم: كلوا أكلًا لذيذًا واشربوا شربًا هنيئًا، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي إنا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله، وأخلص نيته، واتقى ربه ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم التي همُّها ملء بطونها ونيل شهواتها زمانًا قليلًا إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين صلُّوا لله، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله، لا يخشعون ولا يصلّون، بل يظلون على استكبارهم ويصرون، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ: حطَّ عنا الصلاة فإنا لا ننحني، إنها مسبة علينا، فأبى وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»[1] ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾؟ أي فبأي كتابٍ وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدّقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، ونصوع الحجة، وروعة البيان، فبأي شيءٍ بعد ذلك يؤمنون؟ قال القرطبي: كرر قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد، وقيل: إنه ليس بتكرار؛ لأنه أراد بكل قولٍ منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئًا فقال: ويلٌ لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئًا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة[2].

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٠٨). (٢) تفسير القرطبي (١٩/ ١٦٧).

تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ وهو من المحسنات اللفظية .

٢ - الطباق بين ﴿عُذْرًا . . و . . نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ . . و . . ٱلْءَاخِرِينَ﴾ . وكلها من المحسنات البديعية .

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ؟ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله .

٤ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ؟ ومثله ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ؟

٥ - الجناس غير التام بين لفظتي ﴿مَّهِينٍ﴾ و ﴿مَّكِينٍ﴾ .

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ .

٧ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قابل ذلك بقوله : ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ .

٨ - أسلوب التهكم ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ﴾ سمّى العذاب ظلاً تهكمًا وسخرية بهم .

٩ - المجاز المرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، أي : وإذا قيل لهم صلوا لا يصلّون .

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ . . ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلخ ويسمى بالسجع المرصّع وهو من المحسنات البديعية .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»

بين يدي السورة

* سورة عمَّ مكية وتسمى «سورة النبأ» لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدّق ومكذب ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ . . الآيات.

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ الآيات.

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث، وحدَّدت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا . .﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن الكافرين، تحدثت عن المتقين، وما أعدَّ الله تعالى لهم من ضروب النعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابًا فلا يُحشر ولا يُحاسب ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ .

اللغة: ﴿سُبَاتًا﴾ السبتُ في اللغة، القطعُ، سمي الليل سُباتًا؛ لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وَهَّاجًا﴾ الوهَّاج: المتوقد المتلألئ، من قولهم: وَهجت النار إذا أضاءت ﴿ثَجَّاجًا﴾ شديد الانصباب يقال: ثجَّ إذا سال بكثرة، وفي الحديث «أفضل الحج: العجُّ والثَّجُّ» العجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجُّ: إراقة الدماء وذبحُ الهدايا ﴿كَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي التي برز نهدها واستدار مع ارتفاع يسير ﴿دِهَاقًا﴾ مملوءة يقال: أدهقتُ الكأسَ أي ملأتها، قال الشاعر:

أتانا عامرٌ يبغي قِرانا فأترعنا له كأسًا دِهاقا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝٣٩ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .

التَّفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ؟ أي عن أيّ شيءٍ يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضًا؟ وأصل ﴿عَمَّ﴾ عنْ ما، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف «ما» الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل، وتعجيب السامعين من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث[1] ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍّ في وقوعه، ومكذب منكر لحصوله ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ وزجر أي ليرتدعْ أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمرًا واقعًا، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال.. ثم أشار تعالى إلى الأدلة الدالة على قدرته تعالى؛ ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإِله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظام- قادرٌ على إِحياء الناس بعد موتهم فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٠٩)، والقرطبي (١٩/ ١٨١)، هذا هو الراجح أن المراد بالنبأ العظيم: أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلخ وذكر منها تسعة أمور، وقيل المراد بالنبأ: القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد، قال في التسهيل: شبَّهها بالأوتاد لأنها تمسكُ الأرض أن تميد[١] ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافًا ذكورًا وإناثًا؛ لينتظم أمر النكاح والتناسل، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضي ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم، قاطعًا لأشغالكم، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستركم اللباس، وتغطيكم ظلمته كما يغطي الثوبُ لابسه، قال في التسهيل: شبهه بالثياب التي تُلبس لأنه سترٌ عن العيون[٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهار سببًا لتحصيل المعاش، تتصرفون فيه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير: جعلناه مشرقًا مضيئًا ليتمكن الناس من التصرف فيه، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك[٣] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وبنينا فوقكم أيها الناس سبع سمواتٍ محكمة الخلق بديعة الصنع، متينةً في إحكامها وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض، كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وأنشأنا لكم شمسًا منيرة ساطعة، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة والتوقد، قال المفسرون: الوهَّاج: المتوقد الشديد الإضاءة، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه، وقال ابن عباس: المنير المتلألئ[٤] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السحب التي حان وقتُ إمطارها ماءً دافقًا منهمرًا بشدةٍ وقوة، قال في التسهيل: المعصرات هي السحب، مأخوذةٌ من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء[٥]، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزروع، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفةً بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها.. ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهانٍ واضح على إمكان البعث والنشور، فإن مَن قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق - له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتًا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٧٣).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٧٣).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٠).
(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ١٧٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٧٣).

وميعادًا للأولين والآخرين ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور، فتحضرون جماعات جماعات، وزمرًا زمرًا للحساب والجزاء، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي تشققت السماء من كل جانب، حتى كان فيها صدوعٌ وفتوحٌ كالأبواب في الجدران، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وعبَّر بالماضي ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقق الوقوع ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها، حتى أصبح يخيَّل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء، قال الطبري: صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثًّا لعين الناظر، كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي إن جهنم تنتظر وتترقب نزلاءها الكفار، كما يترصد الإنسان ويترقب عدوه ليأخذه على حين غرة، قال المفسرون: المرصاد: المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، وجهنم تترصَّد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمرُّ عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المجرمين ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين في النار دهورًا متتابعةً لانهاية لها قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب - أي الدهور - وهي لا تنقطع، كلما مضى حقب جاء حقب؛ لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها قال الربيع وقتادة: هذه الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودةً تخفف عنهم حرَّ النار، ولا شرابًا يسكِّنُ عطشهم فيها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ أي إلاّ ماءً حارًّا بالغ الغاية في الحرارة، وغساقًا أي صديدًا يسيل من جلود أهل النار ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي عاقبهم الله بذلك جزاءً موافقًا لأعمالهم السيئة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجزاء، ولا يؤمنون بلقاء الله، فجازاهم الله بذلك الجزاء العادل ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيبًا شديدًا ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أي وكل ما فعلوه من جرائم وآثام ضبطناه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقوا يا معشر الكفار فلن نزيدكم على استغاثتكم إلاَّ عذابًا فوق عذابكم، قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار آية أشد من هذه الآية، كلما استغاثوا من نوعٍ من

تفسير القرطبي (١٩/ ١٧٣) . تفسير الطبري (٣٠/ ٧) .

ليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب؛ لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق، وهو كناية عن التأبيد، فخاطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون، وقيل: إنها في عصاة المؤمنين، وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ .

تفسير القرطبي (١٩/ ١٧٥) .

انظر القرطبي (١٩/ ١٨٠) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٨٥) .

العذاب أغيثوا بأشد منه[١] . . ولما ذكر تعالى أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهم في الدنيا- موضع ظفر وفوز بجنات النعيم، وخلاص من عذاب الجحيم، ثم فسَّر هذا الفوز فقال: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ أي بساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساءً عذارى نواهد قد برزت أَثْداؤهنَّ، وهنَّ في سنٍ واحدة، قال في التسهيل: الكواعب: جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها[٢] ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأسًا من الخمر ممتلئةً صافية، قال القرطبي: المرادُ بالكأس: الخمرُ كأنه قال: وخمرًا ذات دِهاق أي مملوءة قد عُصرت وصُفِّيت[٣] ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلامًا فارغًا لا فائدة فيه، ولا كذبًا من القول لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم، تفضلاً منه وإحسانًا كافيًا على حسب أعمالهم ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه في دفع بلاء، أو رفع عذاب في ذلك اليوم؛ هيبةً وجلالاً ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفّين خاشعين ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلاّ من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب، قال الصاوي: وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدرون أن يشفعوا إلا بإذنه، فكيف يملك غيرهم[٤]؟ ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعًا كريمًا بالإِيمان والعمل الصالح فلْيفعلْ، وهو حثٌّ وترغيب ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذرناكم وخوفناكم عذابًا قريبًا وقوعه وهو عذاب الآخرة، سمَّاه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يُكلَّف ويقول: يا ليتني كنت ترابًا حتى لا أحاسب ولا أعاقب، قال المفسرون: وذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة فيقتصُّ للجمّاء من القرناء، وبعد ذلك يصيّرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب.

---

[١] انظر القرطبي (١٩/ ١٨٠) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٨٥) .
[٢] التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٧٤) . [٣] تفسير القرطبي (١٩/ ١٨١) .
[٤] حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٨٦) .

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإِطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ .

٢- الإِيجاز بحذف الفعل لدلالة المتقدم عليه ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم.

٣- التشبيه البليغ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا، ومثله ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي كاللباس في الستر والخفاء.

٤- المقابلة اللطيفة بين ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

٥- التشبيه البليغ ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٦- الأمر الذي يراد به الإِهانة والتحقير ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وفيه أيضًا التفات من الغيبة إِلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإِهانة.

٧- الطباق بين ﴿بَرْدًا﴾ و ﴿حَمِيمًا﴾ .

٨- ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الروح وهو «جبريل» داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين مرة استقلالاً، ومرة ضمن الملائكة؛ تنبيهًا على جلالة قدره.

٩- السجع المرصَّع مثل ﴿أَلْفَافًا﴾ ﴿أَفْوَاجًا﴾ ﴿أَبْوَابًا﴾ ﴿مَآبًا﴾ ﴿أَحْقَابًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

□ □ □

تفسير سورة النازعات
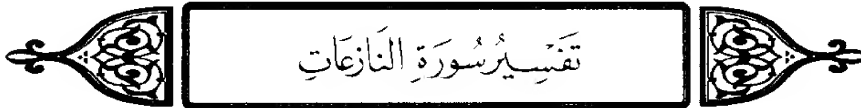
بين يدي السورة

* سورة النازعات مكية، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحورُ السورة يدور حول القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار، التي تنزع أرواح المؤمنين بلطفٍ ولين، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الآيات.

*ثم تحدثت عن المشركين، المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الـفـظـيـع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ ؟ الآيات.

*ثم تناولت السورة «فرعون» الطاغية، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ . . .﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ، وذكَّرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بـحـدوثـه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ .

اللغَة: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة فزعة يقال: وجف القلبُ وجيفًا إذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿الْحَافِرَةِ﴾ الرجوع إلى الحالة التي كان عليها يقال: رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء، قال الشاعر:

أحافرةً على صَلَعٍ وشيبٍ ... معاذَ اللهِ من سَفَهٍ وعارِ[1]

﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ وجه الأرض، والعربُ تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة؛ لأنه يُسهر عليها ﴿سَمْكَهَا﴾ السَّمك: العلوُّ والارتفاع، وبناءٌ مسموك أي عال مرتفع ﴿أَغْطَشَ﴾ أظلم يقال: غطش الليلُ وأغطشه اللهُ أي صار مظلمًا وأظلمه الله ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها وسوَّاها، قال زيد بن عمرو:

دَحاها فلما استوت شدَّها ... بأيدٍ وأرسى عليها الجبالا[2]

﴿الطَّامَّةُ﴾ الداهية العظمى التي لا تستطاع، قال الشاعر:

إنَّ بعض الحُبِّ يعمي ويُصمُّ ... وكذاكَ البُغضُ أدهى وأطمُّ[3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ

---

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت؟!
(٢) البحر المحيط (٨/ ٤١٨) . (٣) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٤) .

رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ .

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ أي أُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بالغًا أقصى الغاية في الشدة والعسر ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ أي وأُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولةٍ ويسر، وتسلُّها سلاًّ رفيقًا، قال ابن مسعود: إن ملكَ الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّفود - سيخ الحديد - الكثير الشُّعب من الصوف المبتلّ، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها كما ينشط العِقال من يد البعير قال ابن كثير: أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلَّته من نشاط ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة تدبّر شئون الكون بأمره تعالى، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من شئون الدنيا، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثنَّ ولتحاسبن، وقد دل عليه قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي يوم ينفخ في الصُّور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور، قال ابن عباس: الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى . . ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يلقونه من الشدائد والأهوال فقال: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجلة مضطربة ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعادًا للبعث: أنردُّ بعد الموت فنصير أحياء بعد فنائنا ونرجع كما كنا أول مرة؟ قال القرطبي: إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟

تفسير الخازن (٤/ ٢٠٤) .
مختصر ابن كثير (٣/ ٥٩٥) ثم قال: وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون .
تفسير القرطبي (١٩/ ١٩٣) .

والعرب تقول: رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي هل إذا صرنا عظامًا بالية متفتتة سنردّ ونبعث من جديد؟ ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي إن كان البعث حقًا، وبعثنا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين؛ لأننا من أهل النار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإنما هي صيحة واحدة، يُنفخ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا الخلائق جميعًا على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها.. ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسليةً لرسول الله وتحذيرًا لقومه أن يحل بهم ما حلَّ بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة أي هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم؟ ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهَّر المبارك المسمَّى ﴿طُوًى﴾ في أسفل جبل طور سيناء، قائلاً له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار، الذي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟ أي هل لك رغبةٌ وميلٌ إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام؟ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاعته فتتقيه وتخشاه؟ قال الزمخشري: ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف، ويستنزله بالمداراة من عتوه كما في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف أي فذهب موسى إليه ودعاه وكلَّمه، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى، وهي قلب العصا حيةً تسعى، قال القرطبي: أراه العلامة العظمى وهي المعجزة، قال ابن عباس: هي العصا ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي فكذب فرعون نبيَّ الله موسى، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي ولّى مدبرًا هاربًا من الحية، يُسرع في مشيه من هول ما رأى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي فجمع السحرة والجنود والأتباع، ووقف خطيبًا في الناس ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي فقال لهم بصوت عال: أنا ربكم المعبود العظيم الذي لا ربَّ فوقي ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي فأهلكه الله عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه، وما حلَّ به من العذاب والنكال، لعظة واعتبارًا لمن يخاف الله عز وجل ويخشى عقابه.. ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون، رجع إلى منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته، ومظاهر عظمته وجلاله فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ

تفسير القرطبي (١٩/ ١٩٤). تفسير الكشاف (٤/ ٦٩٥).

تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٢).

هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة، قال ابن عباس: كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة، فأمهله الله ثم أخذه.

والمعنى: هل أنتم يا معشر المشركين أشقُّ وأصعب خلقًا أم خلق السماء العظيمة البديعة؟ فإن من رفع السماء على عظمها، هيِّن عليه خلقكم وإحياؤكم بعد مماتكم، فكيف تنكرون البعث؟ قال الرازي: نبههم على أمرٍ يُعلم بالمشاهدة، وذلك لأن خلق الإِنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها - يسير، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك؟[1] كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي رفعها عاليةً فوقكم محكمة البناء، بلا عمد ولا أوتاد، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستويةً لاتفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور، قال ابن كثير: أي جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء[2] ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمًا حالكًا، ونهارها مشرقًا مضيئًا، قال ابن عباس: أظلم ليلها وأنار نهارها[3] ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهَّدها لسكنى أهلها[4] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي فعل ذلك كله، فأنبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزروع والأشجار، كل ذلك منفعةً للعباد وتحقيقًا لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم، قال الرازي: أراد بمرعاها ما يأكله الناسُ والأنعام، بدليل قوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ وانظر كيف دلَّ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام والأنعام من العشب، والشجر، والحب، والثمر، والعصف، والحطب، واللباس والدواء، حتى الملح والنار، فالملح متولد من الماء، والنارُ من الأشجار[5] . . . ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين؛ ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلاً، أخبر بعد ذلك عن وقوعه فعلاً فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي فإذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى، التي تعمُّ بأهوالها كل شيء، وتعلو على سائر الدواهي، قال ابن عباس: هي القيامة سميت بذلك؛ لأنها تطم على كل أمرٍ هائل مفظع[6] ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإِنسان ما عمله من خير أو شر، ويراه مدوَّنًا في صحيفة أعماله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٣١/ ٤٣) . (٢) مختصر تفسير ابن كثير .

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٤) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه: «كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدَّها وبسطها، وليس معنى ﴿دَحَىٰهَآ﴾ مجرد البسط، بل المراد أنه بسطها بسطًا مهيأً لنبات الأقوات، يدل عليه قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي . . » اهـ التفسير الكبير (٣١/ ٤٨) .

(٥) التفسير الكبير (٣١/ ٤٩) . (٦) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٨) .

أي أظهرت جهنم للناظرين فرآها الناسُ عيانًا، باديةً لكل ذي بصر . . وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها، ذكر انقسام الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحدَّ في الكفر والعصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة الباقية، وانهمك في شهوات الحياة المحرَّمة، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فإِنَّ جهنم المتأججة هي منزله ومأواه، لا منزل له سواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي وأمَّا من خاف عظمة ربه وجلاله، وخاف مقامه بين يدي ربه يوم الحساب؛ لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم، وكفَّها عن الشهوات التي تودي بها إلى المعاطب ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيم، ليس له منزل غيرها[1] . . ثم ذكر تعالى موقف المكذبين بالقيامة، المستهزئين بأخبار الساعة فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي يسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن القيامة متى وقوعها وقيامُها؟ قال المفسرون: كان المشركون يسمعون أنباء القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل «طامة، وصاخة، وقارعة» فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى يوجدها الله ويقيمها، ومتى تحدث وتقع؟ فنزلت الآية ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ليس علمها إليك حتى تذكرها لهم؛ لأنها من الغيوب التي استأثر الله بعلمها، فلماذا يسألونك عنها ويُلحّون في السؤال؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي مردُّها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، لا يعلمه أحد سواه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ما واجبك يا محمد إلا إنذار من يخاف القيامة، لا الإعلام بوقتها، وخصَّ الإنذار بمن يخشى؛ لأنه هو الذي ينتفع بذلك الإنذار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، بمقدار عشيةٍ أو ضحاها. قال ابن كثير: يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم، أو ضحى يوم . . ختم تعالى السورة الكريمة بما أقسم عليه في أولها من إثبات «الحشر، والبعث» فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة، وليتناسق البدء مع الختام.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين الآخرة والأولى في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ لأن المراد كلمتيه الشنيعتين الأولى والأخيرة، والطباق كذلك بين﴿عَشِيَّةً﴾ و﴿ضُحَىٰهَا﴾ .

٢- جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ .

(١) هذه الآيات الكريمة هي «الميزان الدقيق» لمعرفة الإنسان نفسه، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار، وهل هو من السعداء أم من الأشقياء، فمن طغى وبغى، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم، ومن أطاع الله واتقاه، وسارع إلى مرضاة مولاه، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان .

- المقابلة بين قوله ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ وبين ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ . . .﴾ الآيات.
- أسلوب التشويق ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؟ فإن المراد منه التشويق إلى معرفة القصة.
- الطباق بين «الجنة . . والجحيم» وبين «السماء . . والأرض» الوارد في الآيات.
- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾.
- الاستعارة التصريحية ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ شبَّه أكل الناس برعي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النباتات، ففيه استعارة لطيفة.
- توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ضُحَىٰهَا﴾ ﴿دَحَىٰهَآ﴾ ﴿وَمَرۡعَىٰهَا﴾ ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع.

تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات
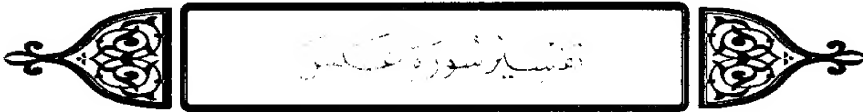
بين يدي السورة

سورة عبس من السور المكية، وهي تتناول شئونًا تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة، والوحدانية في خلق الإنسان، والنبات، والطعام، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها، وشدة ذلك اليوم العصيب.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى «عبد الله بن أُم مكتوم» الذي جاء إلى رسول الله يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، ورسولُ الله مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام، فعبس وجهه وأعرض عنه، فنزل القرآن بالعتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الآيات.

ثم تحدثت عن جحود الإنسان، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ . . .﴾ الآيات.

ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون، حيث يسَّر الله للإنسان سُبُل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ۝٢٨ وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا﴾ الآيات.

وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ

﴿ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ .

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ . . إلى . . ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ من آية (١) إلى (٤٢) نهاية السورة.

اللغة: ﴿عَبَسَ﴾ كلح وجهه وقطَّب ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سَفَرَةٍ﴾ السفرة: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كَتَبة ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعل له قبرًا وأمر أن يُقْبر ﴿وَقَضْبًا﴾ القضبُ: كل ما يقطع من البقول فينبت أصلهُ مثل البرسيم «الفصة» والباقلاء، والكُرَّاث وغيرها ﴿غُلْبًا﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، جمع غلباء ﴿وَأَبًّا﴾ الأبُّ: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ الصيحة التي تصمُّ الآذان لشدتها ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة.

سببُ النزول: روي أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، فبينما رسول الله ﷺ مشتغل بمن عنده من وجوه قريش، جاء إليه «عبد الله بن أُم مكتوم» وهو أعمى، فقال: يا رسول الله علمني مما علَّمك الله، وكرَّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الآيات[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ .

---

(١) حاشية الصاوي (٤/ ٢٩٢) وتفسير القرطبي (١٩/ ٢١٠).

التَّفسِير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي كلح وجهه وقطَّبه وأعرض عنه كارهًا؛ لأنْ جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي: إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تلطفًا به ﷺ وإجلالاً له؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة واسم الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي»، ويبسط له رداءه[1] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعلَّ هذا الأعمى الذي عبستَ في وجهه، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة!! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي أو يتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك!! ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي أما من استغنى عن اللهِ وعن الإِيمان، بما له من الثروة والمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي فأنت تتعرَّض له وتصغي لكلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان، ولست بمطالبٍ بهدايته، إنما عليك البلاغ؛ قال الألوسي: وفيه مزيد تنفيرٍ له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر مخلٌ بالمروءة كما قال القائل:

واللهِ لو كرهتْ كفي مُصاحبتي ... يومًا لقلتُ لها عن صُحْبتي بِيْني[2]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي وأمَّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم للهِ ويحرص على طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه، وتتلهى بالانصراف عنه إلى رؤساء الكفر والضلال!! ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي لا تفعل بعد اليوم مثل ذلك، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه ويقول: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي». ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر القرآن فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنسٍ ونقص ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين معظمين عند الله، أتقياء صلحاء ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ثم ذكر تعالى قبح جريمة الكافر، وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي لعن الكافر وطرد من رحمة الله، ما أشدَّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده؟! قال الألوسي: والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان[3] ﴿مِنْ أَىِّ

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٩١).

(٢) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٤٠).

(٣) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٤٣).

شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ ثم وضَّح ذلك فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أي من ماءٍ مهين حقير بدأ خلقه، فقدَّره في بطن أمه أطوارًا من نطفة ثم من علقة إلى أن تمَّ خلقه، قال ابن كثير: قدَّر رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد[1] ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم سهَّل له طريق الخروج من بطن أمه، قال الحسن البصري: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين[2]؟ يعني الذكَر والفرج ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أماته وجعل له قبرًا يُواري فيه إكرامًا له، ولم يجعله ملقى للسباع والوحوش والطيور، قال الخازن: وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه، يحييه بعد موته للبعث والحساب والجزاء[3]، وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.. ولما ذكر خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه؛ ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار إلى أمر حياته، كيف خلقه بقدرته، ويسره برحمته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته؟! ثم فصَّل ذلك فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالاً عجيبًا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقًّا بديعًا ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع الحبوب والنباتات حبًّا يقتات الناس به ويدخرونه، وعنبًا شهيًا لذيذًا، وسائر البقول مما يؤكل رطبًا ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت والرطب والتمر ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار، كما أخرجنا ما ترعاه البهائم، قال القرطبي: الأبُّ ما تأكله البهائم من العشب[4] ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشًا لكم أيها الناس ولأنعامكم، قال ابن كثير: وفي هذه الآيات امتنانٌ على العباد وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا باليةً وأوصالاً متفرقة[5].. ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه، من أخيه، وأمه، وأبيه، وزوجته، وأولاده لاشتغاله بنفسه، قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم على مراتبهم في الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشدُّ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٠٠).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٦).
(٣) تفسير الخازن (٤/ ٢١٠).
(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٢٠).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٠١).

شفقةً على بنيه من كل من تقدم ذكره ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي لكل إنسان منهم في ذلك اليوم العصيب شأنٌ يشغله عن شأن غيره، فإنه لا يفكر في سوى نفسه، حتى إن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهم يومئذٍ: «نفسي نفسي» . . ولما بيَّن تعالى حال القيامة وأهوالها، بيَّن بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء، فقال في وصف السعداء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي فرحة مسرورة بما رأته من كرامة الله ورضوانه، مستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسواد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه هم الجامعون بين الكفر والفجور، قال الصاوي: جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغَبرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور .

تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ . . ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؟ فالتفت تنبيهًا للرسول إلى العناية بشأن الأعمى.

جناس الاشتقاق بين «يذكر . . والذكرى».

الكناية الرائقة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ كنّى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.

أسلوب التعجب ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ تعجبٌ من إفراط كفره، مع كثرة إحسان الله إليه.

الطباق بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ وبين ﴿تَلَهَّىٰ﴾ لأن المراد بهما تعرض وتنشغل.

التفصيل بعد الإجمال ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ثم فصَّل ذلك وبيَّنه بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ .

المقابلة اللطيفة بين السعداءِ والأشقياء ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قابلها بقوله ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ .

توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ ومثل ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ . . .﴾ إلخ.

اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ هذين البيتين:

يتمنى المرء في الصيف الشّتا   فإذا جاء الشّتا أنكره

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٠) .

(٢) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٩٤) .

يتمنى المرء في الصيف الشّتا فـإذا جـاء الـشّـتـا أنـكـره
فهو لا يرضى بحالٍ واحدٍ قُتِل الإنـســانُ مــا أكــفــره؟

«تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس»

بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما: «حقيقة القيامة» وحقيقة «الوحي والرسالة» وكلاهما من لوازم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان القيامة وما يصاحبها من انقلابٍ كوني هائل، يشمل الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما يشمل البشر، ويهز الكون هزًّا عنيفًا طويلاً، ينتثر فيه كل ما في الوجود، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدَّل وتغيَّر من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ الآيات.

* ثم تناولت حقيقة الوحي، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور العلم والإيمان ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم، وذكرت أنه موعظةٌ من الله تعالى لعباده ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

اللغة: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ تناثرت ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عشراء وهي الناقة التي مرَّ على حملها عشرة أشهر ﴿كُشِطَتْ﴾ نُزعت وقلعت يقال: كشطت جلد الشاة أي نزعته وسلخته عنها ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ الخنس: الكواكب المضيئة التي تخنس نهارًا وتختفي عن البصر، جمع خانس ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ النجوم التي تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوى إليه الظباء ﴿عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه، قال الخليل: عسعس الليلُ: إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد، قال الشاعر:

حتَّى إذا الصُّبْحُ لها تنفَّسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا[1]

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٣٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

التفسير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذه الآيات بيانٌ لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب والمعنى: إذا الشمس لُفّت ومُحي ضوءُها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي وإذا الجبال حركت من أماكنها، وسُيّرت في الهواء حتى صارت كالهباء كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي وإذا النوق الحوامل تركت هملاً بلا راعٍ ولا طالب، وخصَّ النوق بالذكر؛ لأنها كرائم أموال العرب ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوش جُمعت من أوكارها وأجحارها ذاهلةً من شدة الفزع ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار تأججت نارًا، وصارت نيرانًا تضطرم وتلتهب ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا النفوس قُرنت بأشباهها، فقرن الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح، قال الطبري: يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السُّوء في النار[1] ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سئلت توبيخًا لقاتلها: ما هو ذنبها حتى قتلت؟ قال في التسهيل: الموءودة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حيّةً من كراهته لها أو غيرته عليها، فتسأل يوم القيامة ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ ؟ على وجه التوبيخ لقاتلها[2] ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي وإذا صحف الأعمال نشرت وبسطت عند الحساب ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي وإذا السماء أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي وإذا نار جهنم أوقدت وأُضرمت لأعداء الله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي وإذا الجنة أدنيت وقربت من المتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي علمت كل نفسٍ ما أحضرتْ من خيرٍ أو شر، وهذه الجملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هي جواب ما تقدم من أول السورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى هنا، والمعنى إذا حدثت تلك الأمور العجيبة الغريبة، علمت حينئذٍ كل نفسٍ ما قدمته من صالح أو طالح.. ثم

(١) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب، وقيل: المراد: قرن الأجساد بالأرواح، والأول أرجح والله أعلم.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨١).

أقسم تعالى على صدق القرآن، وصحة رسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل [١] ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها، كما تستتر الظباء في كناسها - مغاراتها - قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتكنس وقت غروبها أي تستتر، كما تكنس الظباء في المغار وهو الكناس [٢] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطّى الكون [٣] ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلّج، واتّسع ضياؤه حتى صار نهارًا واضحًا ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن هذا القرآن الكريم لكلامُ الله المنزَّل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ قال المفسرون: أراد بالرسول «جبريل» وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى، ومما يدل على أن المراد به جبريل: قوله بعده: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أي شديد القوة، صاحب مكانة رفيعة، ومنزلة سامية عند الله جل وعلا ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أي مطاعٍ هناك في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة الأبرار، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش، وعرفتم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم، قال الخازن: أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين، وأن محمدًا ﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة، فنفى تعالى عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه [٤] ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي وأقسمُ لقد رأى محمد ﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البيّن من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس، قال في البحر: وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء، حين رأى جبريل على كرسي بين السماء والأرض، في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب [٥] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل يقصِّر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانةٍ وصدق ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ أي فأيَّ طريقٍ تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر، مع وضوح آياته وسطوع براهينه؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم: هذا الطريق الواضح فأين تذهب؟ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق، ويستقيم على شريعة الله،

---

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن، كذا في الطبري (٣٠/ ٤٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٣٥).

(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضيائه، وهو اختيار ابن كثير.

(٤) تفسير الخازن (٤/ ٢١٥).

(٥) البحر المحيط (٨/ ٤٣٤).

ويسلك طريق الأبرار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولطفه، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾.

٢ - الاستعارة التصريحية ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ شبَّه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويرًا حيث عبر عنه بتنفس الصبح.

٣ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

٤ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ .. ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾.

٥ - الجناس غير التام بين ﴿أَمِينٍ﴾ .. ﴿مَكِينٍ﴾.

٦ - توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كُوِّرَتْ﴾، ﴿سُيِّرَتْ﴾، ﴿سُجِّرَتْ﴾، ﴿سُعِّرَتْ﴾ ومثل ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾، ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾، ﴿عَسْعَسَ﴾، ﴿تَنَفَّسَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»

تفسير سورة الانفطار

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام، ثم بيان حال الأبرار، وحال الفجار يوم البعث والنشور.

ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، من انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ؟!

* ثم ذكرت علَّة هذا الجحود والإنكار، ووضحت أن الله تعالى وكَّل بكل إنسان ملائكة

يسجلون عليه أعماله، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ .

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين: أبرار، وفجار، وبيَّنت مآل كل من الفريقين ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ . . .﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ .

اللغَة: ﴿انفَطَرَتْ﴾ انشقت، والفطرُ: الشقُّ ومنه فطر نابُ البعير ﴿انتَثَرَتْ﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بُعْثِرَتْ﴾ قُلبت يقال: بعثرت المتاع أي قلبته ظهرًا لبطن ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿فَسَوَّاكَ﴾ جعل أعضاءك سليمة سويّة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويذوقون لهبها وحرَّها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ .

التفسِير: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار فتح بعضها إلى بعض، فاختلط عذبها بمالحها، وأصبحت بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي وإذا القبور قلبت، ونبش ما فيها من الموتى، وصار ما في باطنها ظاهرًا على وجهها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذٍ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر، وما قدمت من صالح أو طالح، قال الطبري: ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من شيء سنَّة فعمل به بعدها[1] ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي أيُّ شيءٍ خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟[2] وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال: كيف قابلتَ إحسان ربك بالعصيان، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿هَلْ

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٥٤) .

(٢) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجيب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا: يلقنه أن يقول: غرني كرمك، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر: غره حمقه وجهله .

جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ ؟ ثم عدَّد نعمه عليه فقال : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم، فجعلك سويًّا سالم الأعضاء، تسمع وتعقل وتبصر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصبًا في أحسن الهيئات والأشكال ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركبك في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ولم يجعلك في الشكل كالبهيمة، كقوله تعالى : ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ . . ثم وبَّخ المشركين على تكذيبهم بيوم الدين فقال : ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة، ولا تغتروا بحلم الله، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي والحالُ أن عليكم ملائكة حفظة يضبطون أعمالكم ويراقبون تصرفاتكم، قال القرطبي : أي عليكم رقباء من الملائكة [1] ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ أي كرامًا على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر، ويسجلونه في صحائف أعمالكم؛ لتجازوا به يوم القيامة . . ثم بيَّن تعالى انقسام الخلق يوم القيامة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كلٍّ من الفريقين فقال : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا لفي بهجة وسرور لا يوصف، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون في الجنة ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ أي وإن الكفرة الفجار، الذين عصوا ربهم في الدنيا لفي نار محرقةٍ، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي وليسوا بغائبين عن جهنم، بعيدين عنها لا يرونها، بل هي أمامهم يَصْلَونَ ويذوقون سعيرها ولا يخرجون منها أبدًا . ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيمٌ له وتهويل أي ما أعلمك ما هو يوم الدين؟ وأيُّ شيء هو في شدته وهوله؟ ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ ؟ كرر ذكره تعظيمًا لشأنه، وتهويلاً لأمره كقوله : ﴿ٱلۡحَآقَّةُ * مَا ٱلۡحَآقَّةُ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ؟ كأنه يقول : إن يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدري أحدٌ مقدار هوله وعظمته، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي هو ذلك اليوم الرهيب الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا بشيء من الأشياء، ولا أن يدفع عنه ضرًا ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد.

البَلاَغَةَ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَتۡ﴾ ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم وفيه أيضًا من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع .

٣ - الاستعارة المكنية ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ شبَّه الكواكب بجواهر قطع سلكها فتناثرت

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٤٥) .

متفرقة، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية.

٤ ـ الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟

٥ ـ التنكير في كلٍ من لفظة ﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ للتعظيم والتهويل.

٦ ـ الإطناب بإعادة الجملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال.

٧ ـ السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ ومثل ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ ومثل ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

لطيفة: روي أن الخليفة «سليمان بن عبد الملك» قال لأبي حازم المزني: ليت شعري أين مصيرنا يوم القيامة؟ وما لنا عند الله؟ فقال له: اعرضْ عملك على كتاب الله تجد ما لك عند الله! فقال: وأين أجد ذلك في كتاب الله؟! قال: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ قال سليمان: فأين إذًا هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»

تفسير سورة المطففين
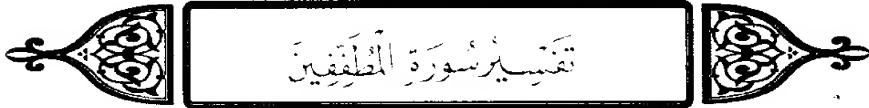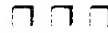
بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، تعالج أمور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء.

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المنطففين في الكيل والوزن، الذين لايخافون الآخرة ولا يحسبون حسابًا للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار، وصوَّرت جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات.

*ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار، وما لهم من النعيم الخالد الدائم في دار العز والكرامة، وذلك في مقابلة ما أعدَّه الله للأشقياء الأشرار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ .

*وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال من عباد الله الأخيار، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون منهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

اللغَة: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مُطفِّف وهو الذي ينقص في الكيل والوزن، والتطفيف: النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير؛ لأن المطفّف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿رَانَ﴾ غطَّى وغشَّى كالصدأ يغشى السيف، وأصله الغلبة يقال: رانت الخمر على عقل شاربها أي غلبته قال الشاعر:

وكمْ رانَ من ذنبٍ على قلب فاجر [(١)]

﴿رَّحِيقٍ﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح: الرحيق: صفوة الخمر وقال الأخفش: هو الشراب الذي لا غش فيه قال حسان:

بَرَدى يُصفَّق بالرحيقِ السَّلْسَلِ [(٢)]

﴿فَكِهِينَ﴾ معجبين متلذذين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ﴿ثُوِّبَ﴾ جوزي ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عينٌ عالية شرابها أشرف شراب، وأصل التسنيم: الارتفاع ومنه سنام البعير.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك» [(٣)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٣٨) . (٢) القرطبي (١٩/ ٢٦٣) .
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦١٣) .

يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ .

التَّفسير: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بيَّن أوصافهم القبيحة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملاً لأنفسهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن، قال المفسرون: نزلت في رجلٍ يُعرف بـ «أبي جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر، وهو وعيدٌ لكل من طفَّف الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وفي الحديث «ولا طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأُخذوا بالسنين»[1] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي ألا يعلم ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عصيب، شديد الهول، كثير الفزع؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاةً عراةً، خاشعين خاضعين لرب العالمين، قال في البحر: وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفه برب العالمين- دليلٌ على عظم هذا الذنب وهو التطفيف[2]، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[3]. . ثم ذكر تعالى مآل الفجار، ومآل الأبرار فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي ليرتدع هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار لفي مكان ضيّق في أسفل سافلين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما هو سجين؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي هو كتاب مكتوبٌ كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحى، أُثبتت فيه أعمالهم الشريرة، قال ابن كثير: ﴿سِجِّينٍ﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين، وهي تجمع الضيق والسفول، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم أي مكتوبٌ مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد[4] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء إلا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال، مبالغ في العصيان والطغيان، كثير الآثام، ثم وضَّح من إجرامه فقال ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا تليت عليه آيات القرآن، الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال عنها: هذه حكايات وخرافات الأوائل، سطروها وزخرفوها في كتبهم ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعًا، وانظر الألوسي (٣٠/ ٧١) .

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٤٠) .

(٣) أخرجه الشيخان ومالك .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦١٤) .

أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل، فليس القرآن أساطير الأولين، بل غطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي، قال المفسرون: الرَّان: هو الذنب على الذنب حتى يسودَّ القلب[1] ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي ليرتدع هؤلاء المكذبون عن غيهم وضلالهم، فهم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يرونه، قال الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل، وقال مالك: لما حجب أعداءه فلم يروه، تجلَّى لأوليائه حتى رأوه[2] ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ثم تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقريع والتوبيخ: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟.. وبعد الحديث عن حال الفجار، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجر أي ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابهم في سجين، وكتاب الأبرار في عليين، وهو مكان عالٍ مشرَّف في أعلى الجنة، قال في التسهيل: ولفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلوِّ؛ لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه في مكان عليٍّ رفيع فقد روي أنه تحت العرش[3] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما هو عليون؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي كتابُ الأبرار كتابٌ مسطَّر، مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى السماء، وفتحت لها أبواب السماء، وتلقتها الملائكةُ بالبشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيكتب فيه ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون[4] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي هم على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي يُسقون من خمرٍ في الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تكدرها الأيدي، قد ختم على تلك الأواني فلا يفك ختمها إلا الأبرار ﴿خِتَٰمُهُ مِسْكٌ﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون، قال الطبري:

(١) وفي الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه» وهو الرانُ الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رواه الترمذي.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٩). (٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٥).

(٤) ذكره القرطبي عن كعب (١٩/ ٢٦٠).

التنافسُ مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم والمعنى: فليستبقوا في طلب هذا النعيم، ولتحرص عليه نفوسهم[١] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسنيم» ولهذا قال بعده ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة، قال في التسهيل: تسنيم، اسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار[٢]..

ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار، أعقبه بذكر مآل الفجار؛ تسليةً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي أن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجرام وارتكاب الآثام، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم، قال في التسهيل: نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنين، فضحكوا منهم واستخفوا بهم[٣] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنون بالكفار، غمز بعضهم بعضًا بأعينهم سخرية واستهزاءً بهم قال المفسرون: كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقارًا لهم وازدراءً يقولون: جاءكم ملوك الدنيا! يسخرون منهم لإيمانهم واستمساكهم بالدين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم، رجعوا متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين، والاستخفاف بهم، قال في البحر: أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافًا بأهل الإيمان[٤] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد، وتركهم شهوات الحياة قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وما أُرسل الكفار حافظين على المؤمنين، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول: أنا ما أرسلتهم رقباء، ولا وكلتهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم، فلمَ يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم؟ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - يضحك المؤمنون من الكفار، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا؛ جزاءً وفاقًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي والمؤمنون على أسرَّة الدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار ويضحكون منهم، قال القرطبي: يقال لأهل النار وهم في النار اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم، فيضحك منهم المؤمنون[٥] ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه

---

[١] تفسير الطبري (٣٠/ ٦٨).
[٢] التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٥).
[٣] التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٦).
[٤] البحر المحيط (٨/ ٤٤٣).
[٥] تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦٨).

بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء؟ نعم.

البَلَاغَةَ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التنكير للتهويل والتفخيم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

٢- الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و﴿يُخْسِرُونَ﴾.

٣- المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾.. إلخ و﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.. إلخ.

٤- التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؟

٥- جناس الاشتقاق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٦- الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٧- التشبيه البليغ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي كالمسك في الطيب والبهجة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٨- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يَضْحَكُونَ﴾ ﴿يَنظُرُونَ﴾ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ﴿يَفْعَلُونَ﴾.. إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»
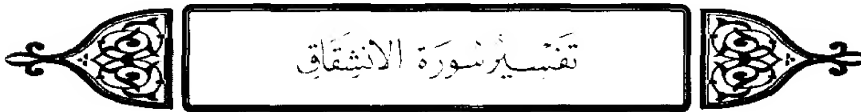
بين يدي السورة

* سورة الانشقاق مكية، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة، وصوَّرت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكدّ ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه، ليقدِّم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح، ومن خيرٍ أو شر، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال

والشدائد، ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله، مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ .. إلى .. لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ من آية (١) إلى (٢٥) نهاية السورة.

اللغة: ﴿كَادِحٌ﴾ الكدح: الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل، قال الشاعر:

ومضتْ بشاشةُ كل عيشٍ صالحٍ وبقيتُ أكدحُ للحياةِ وأنصب[1]

﴿يَحُورَ﴾ يرجع، يقال: حار يحور إذا رجع ومنه حديث «أعوذ بك من الحور بعد الكور» أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس ﴿وَسَقَ﴾ جمع وضم ولف ﴿ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿مَمۡنُونِۭ﴾ مقطوع.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾.

التفسير: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ هذه الآيات بيان لأهوال القيامة، وتصويرٌ لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأهوال يفزع لها الخيال، والمعنى: إذا تشققت السماء وتصدَّعت مؤذنة بخراب الكون، قال الألوسي: تنشق لهول يوم القيامة[2] ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع وأن تنشق من أهوال القيامة ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ أي رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم، قال

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٤٤).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ٧٨).

القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقي الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يؤذن بعظم الهول[1] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.. وجواب «إذا» محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال ما لا يحيط به الخيال.. ثم أخبر تعالى عن كدِّ الإنسان وتعبه في هذه الحياة، وأنه يلقى جزاءه عند الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الخطاب عام لكل إنسان أي أنت يابن آدم جاهدٌ ومجدٌّ بأعمالك التي عاقبتها الموت، والزمانُ يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطًا من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرعٌ إلى الموت، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك، إن كان خيرًا فخيرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ، قال في البحر: كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر طول حياتك إلى لقاء ربك، فملاقٍ جزاء كدحك من ثوابٍ وعقاب[2].. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهذه علامة السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلاً هينًا، يُجازى على حسناته، ويُتجاوز عن سيئاته، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح[3] ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجًا مسرورًا بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي وأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنى الهلاك والموت ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي ويدخل نارًا مستعرة، يقاسي عذابها وحرَّها ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسرورًا مع أهله، غافلاً لاهيًا، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة، قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل[4] ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء، فلذلك كفر وفجر ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته،، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها، فإنه تعالى مطلع على العباد، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ «لا» لتأكيد القسم أي فأُقسم قسمًا مؤكدًا

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٢٦٨). (٢) البحر المحيط (٨/٤٤٦).

(٣) المراد بالحساب اليسير في الآية هو «العرض» لما روي أن النبي قال: «من حوسب عُذب» فقالت عائشة: أوليس الله عز وجل يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ !! فقال: «إنما ذلك العرضُ ولكن من نوقش الحساب عُذب» رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث أن رسول الله قال: «إن الله يدني العبد يوم القيامة، حتى يضع كنفه عليه، فيقول له: فعلت كذا وكذا، - ويعدد عليه ذنوبه - ثم يقول له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» فهذا هو المراد من الحساب اليسير.

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٧١).

بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وبالليل وما جمع وضمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والهوام، قال المفسرون: الليل يسكن فيه كل الخلق، ويجمع ما كان منتشرًا في النهار من الخلق والدواب والأنعام، فكلٌّ يأوي إلى مكانه وسربه، ولهذا امتن تعالى على العباد بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ فإذا جاء النهار انتشروا، وإذا جاء الليل أوى كل شيء إلى مأواه ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي وأقسمُ بالقمر إذا تكامل ضوءه ونوره، وصار بدرًا ساطعًا مضيئًا ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقُنَّ يا معشر الناس أهوالاً وشدائد في الآخرة عصيبة، قال الألوسي: يعني لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها[١] وقال الطبري: المراد: أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً[٢] ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ استفهام يقصد به التوبيخ أي فما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يصدّقون بالبعث بعد الموت، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن؟ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب قال ابن عباس: ﴿يُوعُونَ﴾ أي يضمرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين[٣] ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم، قال في التسهيل: ووضع البشارة في موضع الإنذار تهكم بالكفار[٤] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي لكنْ الذين صدَّقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي لهم ثوابٌ في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع، بل هو دائم مستمر. ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار، بعد أن ذكر مآل الفجار، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقاة كل عامل لجزائه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ .

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ .

٢ - المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ .

٣ - الكناية ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ كنَّى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان.

٤ - الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿ٱتَّسَقَ﴾ .

٥ - الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٨٢) .
(٢) تفسير القرطبي (٣٠/ ٨٠) .
(٣) البحر المحيط (٨/ ٤٤٨) .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٨) .

٦- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ومثل ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»

تفسير سورة البروج

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية، والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هو حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عن دينهم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ الآيات.

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار «فرعون» وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وهو ختم رائع يناسب موضوع السورة الكريمة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ .. إلى .. بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من آية (١) إلى آية (٢٢) نهاية السورة الكريمة.

اللغة: ﴿الْأُخْدُودِ﴾ الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد ﴿قُتِلَ﴾ لُعن

أشدَّ اللعن ﴿نَقَمُوا﴾ عابوا وكرهوا ﴿بَطْشَ﴾ البطش: الأخذ بشدة ﴿يُبْدِئُ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته «المَجِيدُ» العظيم الجليل المتعالي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ⑭ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ⑯ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑰ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑱ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑲ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

التفسير: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي وأُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها، قال المفسرون: سميت هذه المنازل بروجًا لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها؛ لأنها منازل للكواكب السيارة ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي وأُقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، الذي وعد الله به الخلائق بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي وأُقسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشر للحساب كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ وقيل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم، ودليله ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [١] ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، والجملة دعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، الذين شقوا الأرض طولاً وجعلوها أخاديد، وأضرموا فيها النار ليحرقوا بها المؤمنين، قال القرطبي: الأخدودُ: الشقُّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي لعن، قال ابن عباس: كل شيءٍ في القرآن «قُتل» فهو لعن [٢].. ثم فصَّل تعالى المراد من الأخدود فقال: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ أي النار العظيمة المتأججة، ذات الحطب واللهب، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لإحراق المؤمنين، قال أبو السعود: وهذا وصف لها بغاية العظم، وارتفاع اللهب، وكثرة ما فيها من الحطب [٣]، والقصدُ وصف النار بالشدة والهول..

(١) اختلف المفسرون في تفسير «الشاهد» و«المشهود» اختلافًا كبيرًا حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً: فقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة، وقيل: الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم.. إلخ قال الصاوي: والأحسن أن يراد ما هو أعم ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨٤). (٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٥٢).

ثم بالغ تعالى في وصف المجرمين فقال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار، يتشفون بإحراق المؤمنين فيها، ويشهدون ذلك الفعل الشنيع والغرضُ تخويف كفار قريش، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم؛ ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة «أصحاب الأخدود» وعيدًا للكفار، وتسليةً للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضام من لاذَ بجنابه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، والغرضُ أن سبب البطش بهم، وتحريقهم بالنار، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات، المستحق للمجد والثناء، قال في البحر: وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به، وهي كونه تعالى ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالبًا قادرًا يُخشى عقابه ﴿حَمِيدًا﴾ أي منعمًا يجب له الحمد على نعمه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له، وإنما ذكر ذلك تقريرًا؛ لأن ما نقموه منهم هو الحقُّ الذي لا ينقمه إلا مبطلٌ منهمك في الغيّ [٢] ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى مطَّلع على أعمال عباده، لاتخفى عليه خافية من شئونهم، وفيه وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للمجرمين.. ثم شدَّد تعالى النكير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين.. ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل [٣] ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الذي لا سعادة ولا فوز بعده.. ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبابرة والظلمة- بالغ الغاية في الشدة، قال أبو السعود: البطش: الأخذ بعنف، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة

خلاصة القصة «أن ملكًا ظالمًا كافرًا أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشق في أفواه السكك، وأضرم فيها النيران، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمنٍ ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه فليلقوه فيها ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق» انظر تفصيل القصة في «صحيح مسلم».

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٥١). (٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٨٨).

وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام[١] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي هو جل وعلا الخالق القادر، الذي يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين، اللطيف المحسن إلى أوليائه، المحبُّ لهم، قال ابن عباس: يودُّ أولياءه كما يودُّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة[٢] ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، وإنما أضاف العرش إلى الله وخصَّه بالذكر؛ لأن العرش أعظم المخلوقات، وأوسعُ من السمواتِ السبع، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ أي هو تعالى المجيدُ، العالي على جميع الخلائق، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، قال القرطبي: أي لا يمتنع عليه شيء يريده[٣]. روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه -قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيبُ؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إني فعال لما أريد»[٤] ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ ؟ استفهامٌ للتشويق، أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة، الذين تجنَّدوا لحرب الرسل والأنبياء؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟ قال القرطبي: يؤنسه بذلك ويسليه، ثم بيَّن تعالى من هم فقال: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ أي هم فرعون وثمود، أولي البأس والشدة، فقد كانوا أشد بأسًا، وأقوى مراسًا من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حلَّ بأولئك الكفرة المكذبين، بل هم مستمرون في التكذيب فهم أشد منهم كفرًا وطغيانًا ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم، لا يفوتونه ولا يعجزونه؛ لأنهم في قبضته في كل حين وزمان ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به كتابٌ عظيم شريف، متناهٍ في الشرف والمكانة، قد سما على سائر الكتب السماوية في إعجازه ونظمه وصحة معانيه ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ .

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ كأنه يقول: ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر.

٤ - المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية قابله قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ . . .﴾ إلخ.

٥ - أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ ؟

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٥٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/٢٩٤).
(٣) القرطبي (١٩/٢٩٥).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٦٢٥).

صيغة المبالغة مثل ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وأمثال ذلك.

توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ .. إلخ وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»

□ □ □

تفسير سورة الطارق
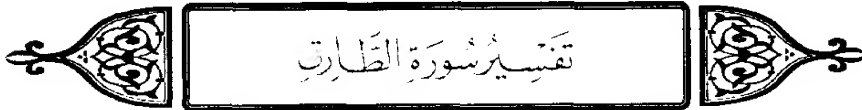
بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سُبلهم؛ ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كلَّ إنسان قد وُكل به من يحرسه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ .

* ثم ساقت الأدلة والبراهين على قدرة ربِّ العالمين على إعادة الإنسان بعد فنائه ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ .

* ثم أخبرت عن كشف الأسرار، وهتك الأستار في الآخرة، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين، وبيَّنت صدق هذا القرآن، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ .

اللغة: ﴿وَالطَّارِقِ﴾ مأخوذ من الطرق بمعنى الضرب بشدة ومنه المطرقة، وكل ما جاء بليل يسمى طارقًا ﴿دَافِقٍ﴾ مصبوب بقوة وشدة يقال: دفق الماء دفقًا إذا انصبَّ بدفع وشدة ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ عظام الصدر جمع تريبة مثل فصيلة وفصائل قال امرؤ القيس:

تَرائبُها مصقولةٌ كالسجنجل [1]

---

[1] روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٩٧).

﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ المطر سمي به لرجوعه إلى الأرض مرارًا ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ النبات الذي تنشق عنه الأرض ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ قليلاً أو قريبًا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ .

التفسير: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ أي أُقسم بالسماءِ وبالكواكب النيرة، التي تظهر ليلاً وتختفي نهارًا، قال المفسرون: سُمي النجم طارقًا لأنه إنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وكلُّ ما يجيء ليلاً فهو طارق ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد ما حقيقة هذا النجم؟ ثم فسره بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي النجم المضيء الذي يثقب الظلام بضيائه، قال الصاوي: قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكرُ الشمس والقمر والنجوم؛ لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها -عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات؛ لأن الصّنعة تدل على الصانع [١] ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ هذا جواب القسم أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خيرٍ وشر كقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ قال ابن كثير: أي كلُّ نفسٍ عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات .. ثم أمر تعالى بالنظر والتفكر في خلق الإنسان، تنبيهًا على إمكان البعث والحشر فقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي فلينظر الإنسان، في أول نشأته نظرة تفكرٍ واعتبار، من أي شيء خلقه الله؟ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي خلق من المنيّ المتدفق، الذي ينصب بقوةٍ وشدة، يتدفق من الرجل والمرأة فيتكون منه الولد بإذن الله ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي يخرج هذا الماء من بين الصلب وعظم الصدر، من الرجل والمرأة [٣] ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ أي إن الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً- قادر على إعادته بعد موته قال ابن كثير: نبه تعالى الإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وأرشده إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي يوم تمتحن القلوب وتختبر، ويُعرف ما بها من العقائد والنيات، ويميز بين ما طاب منها وما خبث ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ أي فليس للإنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب، ولا ناصر ينصره ويجيره، قال في التسهيل: لما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان، أو بنصرة غيره له، أخبره الله تعالى أنه يعدمهما يوم القيامة ، فلا قوة له في

حاشية الصاوي (٤/ ٣٠٩) .

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٢٩) .

(٣) الصلب: فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر، والترائب: عظام الصدر، وكني بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٢) .

نفسه، ولا أحد ينصره من الله.. ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي أُقسم بالسماء ذات المطر، الذي يرجع على العباد حينًا بعد حين، قال ابن عباس: الرَّجع: المطرُ ولولاه لهلك الناس وهلكت مواشيهم[1] ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ أي وأُقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار، قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات والثمار[2].. أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء، وبالأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات، والسماء للخلق كالأب، والأرض لهم كالأم، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة، والخيرات العميمة، التي بها بقاء الإِنسان والحيوان ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي إِن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الحق والباطل، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإِعجازه ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي ليس فيه شيءٌ من اللهو والباطل والعبث، بل هو جدٌّ كله؛ لأنه كلام أحكم الحاكمين، فجديرٌ بقارئه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته وإِرشاداته ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي إِن هؤلاء المشركين - كفار مكة - يعملون المكايد لإِطفاء نور الله، وإِبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإِمهال ثم النكال، حيث آخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر كقوله تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال أبو السعود: أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون[3] ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم، وأمهلهم قليلاً فسوف ترى ما أصنع بهم!! وهذا منتهى الوعيد والتهديد.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وبين ﴿فَصۡلٞ﴾ ﴿بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾.

٤ - الإِطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

٥ - الكناية اللطيفة ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ كنَّى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ ومثل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/٦٢٨).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/٩٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٨/٤٣٨).

تفسير سورة الأعلى

بين يدي السورة

* سورة الأعلى من السور المكية، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية:

١ - الذاتِ العلية وبعض صفات الله جل وعلا، والدلائل على القدرة والوحدانية.

٢ - الوحي والقرآن المنزَّل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ.

٣ - الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيَّة، ويستفيد منها أهل السعادة والإِيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جل وعلا، الذي خلق فأبدع، وصوَّر فأحسن، وأخرج العشب، والنبات رحمة بالعباد ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ . . .﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن الوحي والقرآن، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد، وتيسير حفظه عليه، بحيث لا ينساه أبدًا ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن، الذي يستفيدُ من نوره المؤمنون، ويتعظ بهديه المتقون، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الآيات.

* وختمت السورة ببيان فوز من طهَّر نفسه من الذنوب والآثام، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ . . .﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

اللغَة: ﴿غُثَاءً﴾ الغُثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود مأخوذ من الحُوة وهي السواد أو السمرة ﴿يَصْلَى﴾ يدخل ويقاسي حرّها يقال: أصليتُه نارًا وجعلته يذوق حرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

التفسير: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزِّه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النقص، وعما يقوله الظالمون مما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص والقبائح، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»[1] .. ثم ذكر من أوصافه الجليلة، ومظاهر قدرته

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس.

الباهرة، ودلائل وحدانيته وكماله فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلق المخلوقات جميعها، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها، في أجمل الأشكال، وأحسن الهيئات، قال في البحر: أي خلق كل شيء فسواه، بحيث لم يأت متفاوتًا، بل متناسبًا على إحكام وإتقان؛ للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم[1] ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدَّر في كل شيء خواصه ومزاياه بما تجلُّ عنه العقول والأفهام، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها، وهدى الأنعام إلى مراعيها، ولو تأملت ما في النباتات من الخواص، وما في المعادن من المزايا والمنافع، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، واستخدام المعادن في صنع المدافع والطائرات، لعلمتَ حكمةَ العلي القدير، الذي لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام، قال المفسرون: إنما حذف المفعول لإفادة العموم أي قدَّر لكل مخلوق وحيوان ما يصلحه، فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به[2] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي فصيّره بعد الخضرة أسود باليًا، بعد أن كان ناضرًا زاهيًا، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشيمًا يابسًا، فإنه يكون طعامًا جيدًا لكثير من الحيوانات، فسبحان من أحكم كل شيء و﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ !! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحدانيته، ذكر فضله وإنعامه على رسوله فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه.. وفي هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبدًا، من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ قال ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى ووعدٌ لرسوله ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها[3] ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السماوية، وهي شريعة الإسلام ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث تنفع الموعظة والتذكرة، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن كثير: ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي -رضي الله عنه- «ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة لبعضهم» وقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»؟[4] ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أي ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٥٨).
(٢) انظر روح المعاني (٣٠/ ١٠٤) والتسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٣).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٣٠). (٤) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

المبالغ في الشقاوة ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة، قال الحسن: النار الكبرى نارُ الآخرة، والصغرى نارُ الدنيا[1] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة، بل هو دائم في العذاب والشقاء[2] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي قد فاز من طهَّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله، فصلى خشوعًا وامتثالاً لأمره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي والحال أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى؛ لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ من الفاني، فكيف يؤثر عاقلٌ ما يفنى على ما يبقى؟ وكيف يهتم بدار الغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود؟ قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه: أتدرون لمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها، وشرابها، ونسائها، ولذاتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيبتْ وزُويت عنا، فأحببنا العاجل، وتركنا الآجل[3] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة- مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت فيه الشرائع، وسطرته الكتب السماوية، كما سطره هذا الكتاب المجيد.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿لَا يَمُوتُ﴾ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وكذلك ﴿ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ و﴿فَذَكِّرْ . . . ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٣ - المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

٤ - حذف المفعول ليفيد العموم في قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ وفي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

٥ - السجع غير المتكلف وهو كثير في القرآن مثل ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تَنْبِيه: صحف موسى غير التوراة، وقد ورد أنه أعطي عشر صحف وكانت كلها عبرًا، قال أبو ذر: سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت؟ قال: «كانت عبرًا كلها (عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها! عجبت لمن أيقن بالقَدَر ثم ينصب! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل!!)».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٥٩).

(٢) قال الطبري: العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا: لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما يعرفون، الطبري (٣/ ٥٩). (٣) تفسير الخازن (٤/ ٢٣٦).

* سورة الغاشية مكية، وقد تناولت موضوعين أساسيين هما:

١ القيامة وأحوالها وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء.

٢ الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وقدرته الباهرة في خلق الإبل العجيبة والسماء البديعة، والجبال المرتفعة، والأرض الممتدة الواسعة، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه، وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعًا إلى الله سبحانه للحساب والجزاء.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ . . إلى . . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ من آية (١) إلى آية (٢٦) نهاية السورة.

﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ من النصب وهو التعب ﴿ضَرِيعٍ﴾ شيء في النار كالشوك مرٌّ منتنٌ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ذات حسن وبهجة ونضارة ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ومرافق يُتكأ عليها جمع نمرقة، قال زهير:

كهولاً وشبانًا حسانًا وجوهُهم على سُرُر مصفوفةٍ ونمارق(١)

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بسط فاخرة جمع زربية، قال الفراء: هي الطنافس التي لها خملٌ رقيق ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرَّقة في المجالس ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ الاستفهام للتشويق إلى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم

(١) روح المعاني (٣٠/ ١١٥).

لشأنها، أي هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمُّهم بشدائدها وأهوالها، وهي القيامة؟ قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها، وتعمُّهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعةٌ مهينة ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي دائبة العمل فيما يُتعبها ويشقيها في النار، قال المفسرون: هذه الآية في الكفار، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، وانهماكهم في اللذات والشهوات ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل نارًا مسعّرة شديدة الحر، قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله[1] ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي تسقى من عين متناهية الحرارة، وصل حرها وغليانها درجة النهاية ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبتٌ ذو شوك تسميه قريش «الشبرق» وهو أخبث طعام وأبشعه وهو سم قاتل، قال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه وأخبثه[2].. ذكر تعالى هنا أن طعامهم الضريع ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وقال في الحاقّة: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ ولا تنافي بينهما؛ لأن العقاب ألوان، والمعذبون أنواع، فمنهم من يكون طعامه الزقوم، ومنهم من يكون طعامه الضريع ومنهم من يكون طعامه الغسلين، وهكذا يتنوع العذاب ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أي لا يفيد القوة والسمن في البدن، ولا يدفع الجوع عن آكله، قال أبو السعود: أي ليس من شأنه الإسمانُ والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وقد روي أنه يُسلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يُسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم[3] ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.. ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار، أتبعه بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجةٍ وحسن، وإشراق ونضارة كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة؛ لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكانًا وقدرًا، وهم في الغرفات آمنون ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ أي لا تسمع في الجنة شتمًا، أو سبًّا، أو فحشًا، قال ابن عباس: لا تسمع أذى ولا باطلًا[4] ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي فيها عيونٌ تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبدًا، قال الزمخشري: التنكير في ﴿عَيْنٌ﴾ للتكثير أي عيونٌ كثيرة تجري مياهها[5] ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي في الجنة أسرّة مرتفعة، مكللة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له[6] ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملؤها ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي ووسائد - مخدّات - قد

---

(1) تفسير الخازن (٤/ ٢٣٧).

(2) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣٢).

(3) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٥٩).

(4) تفسير الطبري (٣٠/ ١٠٤).

(5) روح المعاني (٣٠/ ١١٥).

(6) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٣٣).

صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة . . ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار إلى الإبل - الجمال - كيف خلقها الله خلقًا عجيبًا بديعًا يدل على قدرة خالقها؟! قال في التسهيل: في الآية حضٌّ على النظر في خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها من الركوب والحمل عليها، وأكل لحومها، وشرب ألبانها وغير ذلك[1] ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي وإلى السماء البديعة المحكمة كيف رفع الله بناءها، وأعلى سَمكها بلا عمد ولا دعائم؟ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نصبت على الأرض نصبًا ثابتًا راسخًا لا يتزلزل؟! ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بسطت ومُهدت حتى صار شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا القولَ بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عظمها[2] والحكمةُ في تخصيص هذه الأشياء بالذكر: أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيرًا في الأودية والبراري منفردين عن الناس، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكر، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى منظرًا عجيبًا وإن نظر فوق لم ير غير السماء، وإن نظر يمينًا وشمالاً لم ير غير الجبال، وإن نظرت تحت لم ير غير الأرض، فلذلك ذكر هذه الأشياء، قال ابن كثير: نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لايستحق العبادة سواه[3] . . ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبر بذلك الكفار، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوفهم، ولا يهمنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون، فإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لست بمتسلط عليهم ولا قاهر لهم حتى تجبرهم على الإيمان ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير وكفر بالله العلي القدير ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنم الدائم عذابها قال القرطبي: وإنما قال: ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ لأنهم عُذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل

---

[1] التسهيل (٤/ ١٩٦) إنما خص تعالى الإبل بالذكر؛ لأنها أفضل دواب العرب، وأكثرها نفعًا ولهذا تسمى «سفينة الصحراء» فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف، وهي تجلس لتضع عليها حمولتها عن قرب، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعيها بكل نبات في البراري، وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين، فسبحان الحكيم العليم!

[2] أثبت علماؤنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها أو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية .

[3] مختصر ابن كثير (٣/ ٦٣٤) .

والأسر[1] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؟

٢- المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ المراد أصحابها.

٣- الطباق في الحرف بين ﴿إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾.. ﴿عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

٤- جناس الاشتقاق «فذكر.. مذكر» وبين «يعذبه.. والعذاب».

٥- المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

٦- السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾.. إلخ.

تنبيه: روي أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما قدم الشام، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني؟ فقال: ذكرتُ قول الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيتُ رحمةً عليه[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

□ □ □
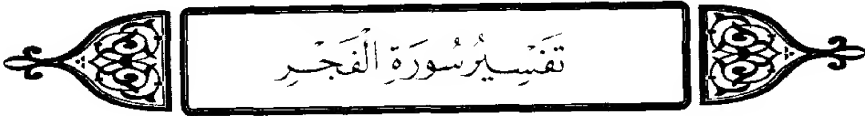
بَين يَدَي السُّورَة

* سورة الفجر مكية، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي:

١- ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله كقوم عاد، وثمود، وقوم فرعون، وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب طغيانهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ الآيات.

٢- بيان سُنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ...﴾ الآيات.

٣- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، وبيان مآل النفس الشريرة، والنفس الكريمة الخيِّرة ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٣٧).

(٢) انظر مختصر ابن كثير (٣/ ٦٣٢).

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ . . إلى . . ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ من آية (١) إلى آية (٣٠) نهاية السورة الكريمة.

اللغَة: ﴿حِجْرٍ﴾ عقل ولب، قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر، إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، وأصل الحجر: المنع، وسمي العقل حجرًا لأنه يمنع عن السفه، قال الشاعر:

وكيف يُرجَّى أن يتوب وإنما ... يُرجَّى من الفتيان من كان ذا حِجْرِ[1]

﴿جَابُوا۟﴾ قطعوا ومنه قولهم: فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث «لمًّا» شديدًا وأصله: الجمع ومنه قولهم: لَمَّ اللهُ شعثه ﴿جَمًّا﴾ كثيرًا عظيمًا كبيرًا، قال الشاعر:

إن تغفر اللَّهمَّ تغفر جمَّا ... وأيُّ عبدٍ لك ما ألمَّا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

التفسير: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هذا قسمٌ أي أُقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة؛ لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج[2] قال المفسرون: أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة؛ لأنها أفضل أيام السنة، كما ثبت في صحيح البخاري «ما من أيام العمل الصالح أحبُّ إلى الله فيهن من هذه الأيام - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهادُ في سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ أي وأُقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء؛ لأن الأشياء إما زوجٌ وإما فردٌ، أو هو قسمٌ بالخلق والخالق، فإن الله تعالى واحد «وتر»

---

[1] القرطبي (١٩/ ٤٣).

[2] هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: هي العشر الأخير من رمضان لأن فيها ليلة القدر، وهي رواية أيضًا عن ابن عباس، والأول أرجح.

والمخلوقات ذكرٌ وأنثى «شفع»[١] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي وأُقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة، والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ أي هل فيما ذكر من الأشياء قسمٌ مقنع لذي لب وعقل؟! والاستفهام تقريريٌّ لفخامة شأن الأمور المقسم بها، كأنه يقول: إن هذا لقسمٌ عظيمٌ عند ذوي العقول والألباب، فمن كان ذا لُب وعقل علم أن ما أقسم الله عز وجل به من هذه الأشياء فيها عجائب، ودلائل تدل على توحيده وربوبيته، فهو حقيق بأن يُقسم به لدلالته على الإِله الخالق العظيم، قال القرطبي: قد يُقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه، ويُقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما قال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾[٢] وجواب القسم محذوف تقديره: ورب هذه الأشياء ليعذبنَّ الكفار[٣]، ويدل عليه قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ أي عادًا الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم! والمقصود من ذلك: تخويف أهل مكة بما صنع تعالى بعاد، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعمارًا، وأشدَّ قوة من كفار مكة! قال ابن كثير: وهؤلاء «عاد الأولى» وهم الذين بعث الله فيهم رسوله «هودًا» عليه السلام فكذبوه وخالفوه، وكانوا عتاة متمردين جبارين، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمَّرهم، وجعلهم أحاديث وعبرًا[٤] ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ أي وكذلك ثمود الذين قطعوا صخر الجبال، ونحتوا بيوتًا بوادي القُرى ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك، قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة ثمود وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال فيجعلونها بيوتًا لأنفسهم، وقد بنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى[٥] ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه، قال أبو السعود: وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد[٦] ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي أولئك المتجبرين «عادًا، وثمود، وفرعون» الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله، وجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجور والقتل، وسائر المعاصي والآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي فأنزل

---

(١) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا أن الشفع: يوم النحر لكونه العاشر، والوتر: يوم عرفة لكونه التاسع، وذكرت أقوال أخرى كثيرة غير هذه.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٤١).

(٣) انظر روح المعاني للألوسي (٣٠/ ١٢٢).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣٦).

(٥) انظر القرطبي (١٩/ ٤٨) والبحر المحيط (٨/ ٤٧٠).

(٦) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٦٢).

عليهم ربك ألوانًا شديدة من العذاب بسبب إِجرامهم وطغيانهم، قال المفسرون: استعمل لفظ (الصبّ) لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب، كما قال القائل: «صببنا عليها ظالمين سياطنا» والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعًا من العذاب: فأُهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [١]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أي إِن ربك يا محمد ليرقب عمل الناس، ويحصيه عليهم، ويجازيهم به، قال في التسهيل: المرصاد: المكان الذي يترقب فيه الرصد، والمراد أنه تعالى رقيب على كل إِنسان، وأنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار، وفي ذلك تهديدٌ لكفار قريش [٢].. ولما ذكر تعالى ما حلَّ بالطغاة المتجبرين، ذكر هنا طبيعة الإِنسان الكافر، الذي يبطر عند الرخاء، ويقنط عند الضراء، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي إِذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي فأكرمه بالغنى واليسار، وجعله منعمًا في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي فيقول: ربي أحسن إِليَّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي وأما إِذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي فيقول غافلاً عن الحكمة: إِن ربي أهانني بتضييقه الرزق عليَّ! قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإِنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظّ في الدنيا وقلّته، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إِلى حظ الآخرة، وإِن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره [٣]، وإِنما أنكر تعالى على الإِنسان قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وقوله: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لأنه إِنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر، لا على وجه الشكر، وقال: أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير، ويصبر على الشر، ولهذا ردعه وزجره بقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي ليس الإِكرام بالغنى، والإِهانة بالفقر كما تظنون، بل الإِكرام والإِهانة بطاعة الله ومعصيته ولكنكم لا تعلمون، ثم قال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي بل أنتم تفعلون ما هو شرٌّ من ذلك، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إِكرام الله لكم بكثرة المال!! ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضًا ولا يحثه على إِطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي وتأكلون الميراث أكلاً شديدًا، لا تسألون أمن حلالٍ هو أم من حرام؟ قال في التسهيل: هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره؛ لأن العرب كانوا لا يُعطون من الميراث أنثى ولا صغيرًا، بل ينفرد به الرجال [٤] ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي وتحبون المال حبًّا كثيرًا مع الحرص والشره، وهذا

---

(١) سورة العنكبوت آية (٤٠) وانظر حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٣١٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٧). (٣) تفسير القرطبي (١٩/ ٥١).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٨).

ذمٌّ لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، ﴿كَلَّآ﴾ للردع أي ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب، وذلك حين تزلزل الأرض وتحرك تحريكًا متتابعًا، قال الجلال: أي زلزلت حتى ينهدم كل بناءٍ عليها وينعدم [١] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاءت الملائكة صفوفًا متتابعة صفًّا بعد صف، قال في التسهيل: قال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييفٍ ولاتمثيل [٢]، وقال ابن كثير: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ، فيجيء الربُّ تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا [٣] ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون، كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ وفي الحديث «يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها» [٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب يتذكر الإنسان عمله، ويندم على تفريطه وعصيانه، ويريد أن يقلع ويتوب ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها؟! ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي يقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني قدمت عملاً صالحًا ينفعني في آخرتي، لحياتي الباقية قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله مَن عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ولا يقيد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر الفاجر، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله، التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا فزع ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضيةً بما أعطاك الله من النعم، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل، قال المفسرون: هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١-الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ؟

٢-الطباق بين «الشفع.. والوتر».

٣-جناس الاشتقاق ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ.. ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٤-المقابلة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ وبين ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ

---

(١) تفسير الجلالين (٤/ ٣١٨).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٨).

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٣٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

رِزْقَهُۥ . . ﴾ الآية فقد قابل بين «أكرمن وأهانن» وبين توسعة الرزق .

٥ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعذَّب واستعمل الصبَّ للإنزال .

٦ - الالتفات ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب، والأصل «بل لا يكرمون اليتيم» .

٧ - الإضافة للتشريف ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ .

٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ومثل ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ الآيات .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»

تفسير سورة البلد

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السورة المكية، من تثبيت العقيدة والإيمان، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء، والتمييز بين الأبرار والفجار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام، تعظيمًا لشأنه، وتكريمًا لمقامه الرفيع عند ربه، ولفتًا لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى .

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة، الذين اغتروا بقوّتهم، فعاندوا الحقَّ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة، ظنًّا منهم أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها ويجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح .

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب، وبينت مآل السعداء، ومآل الأشقياء في دار الجزاء .

قال الله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ . . إلى . . ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ من آية (١) إلى آية (٢٠) نهاية السورة .

اللُغَةُ: ﴿كَبَدٍ﴾ الكبدُ: الشدة والمشقة، وأصله من كبد الرجل كبدًا إذا وجعته كبده ثم استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿اقْتَحَمَ﴾ الاقتحامُ: الدخول بسرعة وشدة، يقال: اقتحم الأمر، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون روية ﴿الْعَقَبَةَ﴾ الطريق الوعر في الجبل ﴿فَكُّ﴾ الفكُّ: تخليص الشيء من الشيء يقال: فككت الحبل، وفككت الأسير أي خلصته من الأسر ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة يقال: سغبَ الرجل إذا جاع، وقال الراغب: هو الجوع من التعب [(١)] ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ افتقار يقال: تربَ الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى [(٢)] ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة، من أوصد الباب إذا أغلقه وأطبقه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾.

التَّفْسِير: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ هذا قسمٌ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام «مكة» التي شرَّفها الله تعالى بالبيت العتيق - قبلة أهل الشرق والغرب - وجعلها مهبط الرحمات، وإليها تجبى ثمرات كل شيء، وجعلها حرمًا آمنًا، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض [(٣)]، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل: أراد بالبلد: «مكة» باتفاق، وأقسم بها تشريفًا لها [(٤)] ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين، قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيَّده بحلوله عليه السلام فيه - أي إقامته فيه - إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله [(٥)] ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي وأقسم بآدم وذريته الصالحين، قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ جميع ذريته قال ابن كثير: وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن وهو «آدم» أبو البشر وولده [(٦)] وقال الخازن: أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته؛ لأن الكافر - وإن كان من ذريته - لا حرمة له حتى يقسم به [(٧)] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لقد خلقنا الإِنسان في تعب ومشقة،

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ١٣٨). (٢) البحر المحيط (٨/ ٤٧٣).

(٣) في الحديث الذي رواه الشيخان «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحدٍ قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار». الحديث.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٩). (٥) تفسير البيضاوي (٣/ ٦٦٠).

(٦) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٠). (٧) تفسير الخازن (٤/ ٢٤٨).

فإنه لايزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه، قال ابن عباس: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي في مشقة وشدة، من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، ومعاشه، وحياته، وموته[١]، وأصل الكبد: الشدة، وقيل: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق[٢] قال أبو السعود: والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة[٣].. ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان الجاحد بقدرة الله، والمكذب للبعث والنشور فقال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر، المغتر بقوته أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي الأشد بن كلدة» كان شديدًا مغترًّا بقوته، وكان يبسط له الأديم - الجلد - فيوضع تحت قدميه، ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعًا ولا تزلّ قدماه، ومعنى الآية: أيظن هذا القوي المارد، المستضعِف للمؤمنين أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي يقول هذا الكافر: أنفقت مالاً كثيرًا في عداوة محمد ﷺ! قال الألوسي: أي يقول فخرًا ومباهاة على المؤمنين: أنفقت مالاً كثيرًا، وأراد بذلك ما أنفقه «رياءً وسمعةً» وعبر عن الإنفاق بالإهلاك، إظهارًا لعدم الاكتراث، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع، فكأنه جعل المال الكثير ضائعًا، وقيل: يقول ذلك إظهارًا لشدة عداوته لرسول الله ﷺ[٤] ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾؟ أي أيظن أنَّ الله تعالى لم يره حين كان ينفق، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد؟ ليس الأمر كما يظن، بل إن الله رقيب مطلعٌ عليه، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه.. ثم ذكَّره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ أي ألم نجعل له عينين يبصر بهما؟ ﴿وَلِسَانًا﴾ أي ولسانًا ينطق به فيعبر عما في ضميره؟ ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ أي وشفتين يطبقهما على فمه، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك؟ قال الخازن: يريد أن نعم الله على عبده متظاهرة، يقرره بها كي يشكره[٥] ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي وبينا له طريقي الخير والشر، والهدى والضلال؛ ليسلك طريق السعادة، ويتجنب طريق الشقاوة، قال ابن مسعود: ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ الخير والشر كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٦] ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي فهلا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ؟! قال في البحر: والعقبةُ استعارةٌ للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهًا لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها، ومعنى اقتحمها: دخلها بسرعة وشدة[٧]، وهو مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رضى الرحمن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي وما أعلمك ما

---

(١) تفسير الخازن (٤/ ٢٤٨).
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٦٥).
(٤) تفسير الألوسي (٣٠/ ١٣٦).
(٥) تفسير الخازن (٤/ ٢٤٩).
(٦) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤).
(٧) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٧٦).

اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل . . ثم فسرها تعالى بقوله : ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأسر والرقِّ، فمن أعتق رقبة كانت له فداء من النار ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة، قال الصاوي : وقيَّد الإطعام بيوم المجاعة؛ لأن إخراج المال فيه أشد على النفس [١] ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد لصق بالتراب من فقره وضره، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس، قال ابن عباس : هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمنًا صادق الإيمان، قال المفسرون : وفي الآية إشارة إلى أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب؛ لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشرار أي والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال - أهل النار - لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قدسه، وكرامة أُنسه ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي عليهم نارٌ مطبقة مغلقة، لايدخل فيها رَوحٌ ولا ريحان، ولا يخرجون منها أبد الزمان [٢] . . اللهم لاتقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من ذلك يارب .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - زيادة ﴿لَآ﴾ لتأكيد الكلام، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي أُقسم بهذا البلد، وفائدتها تأكيد القسم كقولك : لا والله ما ذاك كما تقول أي والله، قال امرؤ القيس : «لا وأبيك ابنة العامري» .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة .

٣ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ؟ .

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ؟

٥ - الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ ؟ لأن الغرض تعظيم شأنها .

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقي الخير والشر، وأصل النجد : الطريق المرتفع، استعير كل منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة .

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٣٢٢) .

(٢) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي والبحر المحيط وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير .

٧- الاستعارة كذلك في قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ لأن أصل العقبة: الطريق الوعر في الجبل، واستعيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

٨- الجناس الناقص بين ﴿مَقۡرَبَةٍ﴾ و ﴿مَتۡرَبَةٍ﴾ لتغير بعض الحروف.

٩- المقابلة اللطيفة بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ وبين ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾.

١٠- مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ ومثل ﴿عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

□ □ □
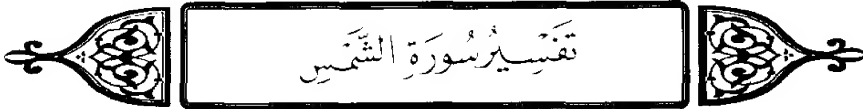
بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما:

١- موضوع النفس الإنسانية، وما جبلها الله عليه من الخير والشر، والهدى والضلال.

٢- وموضوع الطغيان ممثلاً في «ثمود» الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا: فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطّى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* ثم ذكر تعالى قصة «ثمود» قوم صالح حين كذبوا رسولهم، وطغوا وبغوا في الأرض، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم معجزةً لرسوله صالح عليه السلام، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقي عبرةً لمن يعتبر، وهو نموذج لكل كافرٍ فاجرٍ مكذب لرسل الله.

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم؛ لأنه ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾.

اللغَة: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ ضوءها، والضحى: وقت ارتفاع الشمس أول النهار، قال المبرد: الضحى مشتقٌ من الضحّ وهو نور الشمس[1] ﴿طَحَىٰهَا﴾ بسطها ومدَّها، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ١٤٠).

أي بسطتُه[1] ﴿دَسَّنهَا﴾ أخفاها وأصل الكلمة دسسها أبدلت السين الثانية ألفًا تخفيفًا ﴿فَدَمْدَمَ﴾ الدمدمة: إطباقُ الشيء على الشيء، يقال: دمدم عليه القبر أي أطبقه، والمراد به هنا إطباقُ العذاب عليهم بمعنى إهلاكهم بطريق الاستئصال ﴿عُقْبَنهَا﴾ عاقبتها وتبعتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

التَّفسير: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي أُقسم بالشمس وضوئها الساطع إذا أنار الكون وبدَّد الظلام ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي وأُقسم بالقمر إذا سطع مضيئًا، وتبع الشمس طالعًا بعد غروبها، قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور، وحكمةُ القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات، فإذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقتُ الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها، والشمسُ والقمر مخلوقان لمصالح البشر، والقسم بهما للتنبيه على ما فيهما من المنافع العظيمة[2] ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي وأُقسم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه، وكشفها بنوره، قال ابن كثير: إذا جلا البسيطة وأضاء الكون بنوره[3] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي وأُقسم بالليل إذا غطَّى الكون بظلامه، ولفَّه بشبحه، فالنهار يجلي المعمورة ويظهرها، والليل يغطيها ويسترها، قال الصاوي: وأتى بالفعل مضارعًا ﴿يَغْشَاهَا﴾ ولم يقل: «غشيها» مراعاةً للفواصل[4] ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء، وأحكم بناءها بلا عمد، قال المفسرون: ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى «منْ» أي والسماء ومن بناها والمراد به الله رب العالمين، بدليل قوله بعده: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها، فدلَّ بناؤها وإحكامها على وجوده، وكمال قدرته ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي وأُقسمُ بالأرض ومن بسطها من كل جانب، وجعلها ممتدة ممهَّدة، صالحة لسكنى الإنسان والحيوان، وهذا لا ينافي كرويتها كما قال المفسرون، لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة، ميسَّرة للزراعة والفلاحة وسكنى الإنسان[5] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي وأُقسم بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها، وجعلها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها، وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٤).
(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٣٢٣).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٤).
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٣٢١).
(٥) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان.

أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور، ولهذا قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي وعرَّفها الفجور والتقوى، وما تميز به بين رشدها وضلالها، قال ابن عباس: بيَّن لها الخير والشر، والطاعة والمعصية، وعرَّفها ما تأتي وما تتقي، قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء: «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها، وقال الإمام الفخر: لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة، ووصفها - جلَّ وعلا - بصفاتٍ ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته، كما يليق به جلَّ جلاله، فكان ذلك طريقًا إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بيداء أوج كبريائه جلَّ شأنه [١] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم أي لقد فاز وأفلح من زكَّى نفسه بطاعة الله، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي وقد خسر وخاب من حقَّر نفسه بالكفر والمعاصي، وأوردها موارد الهلكة، فإنَّ من طاوع هواه، وعصى أمر مولاه، فقد نقص من عداد العقلاء، والتحق بالجهلة الأغبياء.. ثم ضرب تعالى مثلاً لمن طغى وبغى، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان، فذكر «ثمود» قوم صالح عليه السلام فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعةٍ ونشاط يعقر الناقة، قال ابن كثير: وهو «قدار بن سالف» الذي قال الله فيه: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ وكان عزيزًا شريفًا في قومه، ورئيسًا مطاعًا فيهم، وهو أشقى القبيلة [٢] ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، واحذروا أيضًا أن تمنعوها من سُقياها أي شربها ونصيبها من الماء، كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا نبيهم صالحًا وقتلوا الناقة، ولم يلتفتوا إلى تحذيره ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أي فأهلكهم اللهُ ودمَّرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم، قال الخازن: والدمدمة: هلاكٌ باستئصال، والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقًا فلم ينفلت منهم أحد [٣] ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي فسوَّى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون؛ لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ ـ الطباق بين «الشمس والقمر» و «الليل والنهار» وبين «فجورها وتقواها».

---

(١) التفسير الكبير للرازي.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٥).
(٣) الخازن (٤/ ٢٢٥).

٢ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وبين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وكلٌّ من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية.

٣ـ الإضافة للتكريم والتشريف ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نسبت إلى الله تشريفًا لأنها خرجت من حجرٍ أصم معجزةً لصالح عليه السلام.

٤ـ التهويل والتفظيع ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

٥ـ السجع المرصَّع مراعاة للفواصل ورءوس الآيات وهو ظاهر جليٌّ في السورة الكريمة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»

□ □ □

تفسير سورة الليل

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة الليل مكية، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسَم بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

* ثم وضحت سبيل السعادة، وسبيل الشقاء، ورسمت الخطَّ البياني لطالب النجاة، وبينت أوصاف الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها، وثرواتهم التي كدسوها، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئًا، وذكَّرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾.

* ثم حذَّرت أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ممن كذَّب بآياته ورسوله، وأنذرهم من نار حامية تتوهج من شدة حرها، لا يدخلها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي، المعرض عن هداية الله ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في وجوه الخير؛ ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله، وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى

بلالاً وأعتقه في سبيل الله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ .

اللغَة: ﴿تَجَلَّىٰ﴾ انكشف وظهر، «شَّى» متفرق ومختلف، «الحسنى» الكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد «اليسرى» الخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة وهي الجنة «العسرى» الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ هلك وسقط في الهاوية ﴿تَلَظَّىٰ﴾ أصلها تتلظى أي تتلهب وتتوقد ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾ يدخلها ويقاسي حرها.

المناسبة: روي أن بلالاً رضي الله عنه كان عبدًا مملوكًا لـ «أمية بن خلف» وكان سيده يعذبه لإسلامه، ويخرجه إذا حميت الشمسُ فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد!! فيقول وهو في تلك الحالة: أحدٌ، أحدٌ، فمرَّ به أبو بكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين!! فقال له: أنت أفسدته عليَّ فأنقذه مما ترى! فاشتراه أبو بكرٍ منه وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده! فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ .

التفسير: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي أُقسمُ بالليل إذا غطَّى بظلمته الكون، وستر بشبحه الوجود ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي وأُقسمُ بالنهار إذا تجلَّى وانكشف، وأنار العالم وأضاء الكون، قال المفسرون: أقسم تعالى بالليل لأنه سكنٌ لكافة الخلق، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب والحركة، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب الرزق، والحكمة في هذا القسم ما في تعاقب الليل والنهار من مصالح لا تُحصى فإنه لو كان العمر كله ليلاً لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارًا لما سكن الإنسان إلى الراحة، ولاختلّت مصالح البشر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من نطفةٍ إذا تمنى.. أقسم تعالى بذاته على خلق النوعين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ للتنبيه على أنه الخالق المبدع الحكيم؛ إذْ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعة

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٣٢٦) وتفسير الخازن (٤/ ٢٥٦) .

بلهاء لا شعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المنيّ متساوية، فتكوينُ الولد من عناصر واحدة تارةً ذكرًا، وتارة أنثى- دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، محكم لما يصنع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو جواب القسم أي إن عملكم لمختلف، فمنكم تقي ومنكم شقي، ومنكم صالحٌ ومنكم طالح، ثم فسَّره بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي فأما من أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله، واتقى ربه فكف عن محارم الله، قال ابن كثير: أعطى ما أُمر بإخراجه، واتقى الله في أموره[1] ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وصدَّق بالجنة التي أعدَّها الله للأبرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي فسنهيئه لعمل الخير، ونسهّل عليه الخصلة المؤدية لليسر، وهي فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق المال، واستغنى عن عبادة ذي الجلال، قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه عزَّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي فسنهيئه للخصلة المؤدية للعسر، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشر، قال المفسرون: سمَّى طريقة الخير يسرى لأن عاقبتها اليسر وهي دخول الجنة دار النعيم، وسمَّى طريقة الشرِّ عسرى لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ استفهام إنكاري أيْ أيُّ شيء ينفعه ماله إذا هلك وهوى في نار جهنم؟ هل ينفعه المال، ويدفع عنه الوبال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينا أن نبيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضّح سبيل الرشد من سبيل الغي، كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي فحذرتكم يا أهل مكة نارًا تتوقّد وتتوهج من شدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي. ثم فسَّره تعالى بقوله: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي وسيبعد عن النار التقيُّ النقيُّ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي. ثم فسَّره تعالى بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها، وإنما ينفق لوجه الله، قال المفسرون. نزلت الآيات في حقِّ «أبي بكر الصديق» حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده! فنزلت ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي ولسوف يعطيه الله في الآخرة ما يرضيه، وهو وعدٌ كريم من رب رحيم.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظة ﴿الْأَشْقَى﴾ و ﴿الْأَتْقَى﴾ وبين «اليسرى» و «العسرى».

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الآيات.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٦).

٣- جناس الاشتقاق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة .
٤ - حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيات .
٥ - السجع الرصين غير المتكلف كقوله : ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلخ .
كان عمر رضي الله عنه يقول : أعتق سيدُنا سيدَنا! يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً ، فما أروع هذه النفوس! اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعًا .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»

تفسير سورة الضحى

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية ، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة؛ ليشكر الله على تلك النعم الجليلة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون ، بل هو عند الله رفيع القدر ، عظيم الشأن والمكانة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ .

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة ، وما أعدَّه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات ، ومنها الشفاعة العظمى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ .

* ثم ذكَّرته بما كان عليه في الصغر ، من اليتم ، والفقر ، والفاقة ، والضياع ، فآواه ربه وأغناه ، وأحاطه بكلئه وعنايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ .

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث ؛ ليعطف على اليتيم ، ويرحم المحتاج ، ويمسح دمعة البائس المسكين ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهو ختمٌ يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان .

اللُّغَة : ﴿سَجَىٰ﴾ سجى الليل : اشتد ظلامه ﴿قَلَىٰ﴾ أبغض ، قال الراغب : القلى : شدة البغض يقال : قلاه ويقليه أي أبغضه[١] «آوى» ضمَّه إلى من يرعاه ﴿عَآئِلًا﴾ فقيرًا معدمًا ، وهو من اشتد به الفقر ، قال جرير :

اللـهُ نـزَّل فـي الـكـتـاب فـريـضـةً ... لابـن الـسـبـيـل ولـلـفـقـيـر الـعـائـل[٢]

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني . (٢) البحر المحيط (٨/ ٤٨٦) .

﴿نَقْهَرْ﴾ تذله وتحقره ﴿تَنْهَرْ﴾ تزجره وتغلظ عليه في الكلام.

سَبَبُ النّزول: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأةٌ - وهي أم جميل امرأة أبي لهب - فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك!! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثًا! فأنزل الله عز وجل ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [١].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

التَّفسِير: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمسُ، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطّى كل شيء في الوجود، قال ابن عباس: ﴿سَجَىٰ﴾ أقبل بظلامه[٢] قال ابن كثير: هذا قسمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وادلهمَّ، وذلك دليلٌ ظاهر على قدرته تعالى[٣] ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌّ على المشركين حين قالوا: هجره ربه، وهو جواب القسم ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي وللدارُ الآخرة خيرٌ لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا؛ لأن الآخرة باقية، والدنيا فانية، ولهذا كان عليه السلام يقول: اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب، والكرامة، والشفاعة، وغير ذلك إلى أن ترضى، قال ابن عباس: هي الشفاعة في أُمته حتى يرضى؛ لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقال: «اللهم أُمتي أُمتي» وبكى، فقال الله: يا جبريل إذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك؟ - وهو أعلم - فأتى جبريل رسول الله ﷺ وسأله فأخبره رسول الله بما قال، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[٤]، وفي الحديث «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[٥] الحديث، قال الخازن: والأَوْلى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معًا، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة[٦].. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل ذكَّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي ألم تكنْ يا محمد يتيمًا في صغرك، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمَّك إليه؟ قال ابن كثير: وذلك أن أباه

---

(١) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة. (٢) تفسير الخازن (٤/٢٥٨).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٦٤٩). (٤) أخرجه مسلم.
(٥) أخرجه الشيخان. (٦) تفسير الخازن (٤/ ٢٦٠).

توفي وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده «عبد المطلب» إلى أن تُوفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه «أبو طالب» ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ، وكلٌّ هذا من حفظ الله له، وكلاءته وعنايته به[١] ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي ووجدك تائهًا عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها، كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ قال الإمام الجلال: أي وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها[٢]، وقيل: ضلَّ في بعض شعاب مكة وهو صغير فردَّه الله إلى جده، قال أبو حيان: لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس: هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، وقيل: ضلَّ وهو مع عمه في طريق الشام ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي ووجدك فقيرًا محتاجًا فأغناك عن الخلق بما يسَّر لك من أسباب التجارة.. ولمَّا عدَّد عليه هذه النعم الثلاث، وصَّاه بثلاث وصايا مقابلها فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله، قال مجاهد: أي لا تحتقره، وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله، والمراد: كن لليتيم كالأب الرحيم، فقد كنت يتيمًا فآواك الله ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي وأمَّا السائل المستجدي الذي يسأل عن حاجة وفقر، فلا تزجره إذا سالك ولا تُغلظ له القول بل أعطه أو ردَّه ردًا جميلاً، قال قتادة: ردَّ المسكين برفقٍ ولين ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي حدِّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك، فإن التحدث بالنعمة شكر لها، قال الألوسي: كنتَ يتيمًا وضالاً وعائلاً، فآواك الله وهداك وأغناك، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، فتعطَّف على اليتيم، وترحَّم على السائل، فقد ذقت اليتم والفقر، وأرشد العباد إلى طريق الرشاد، كما هداك ربك[٣].

البَلَاغَةَ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «الآخرة» و «الأولى» لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ... وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قابلها بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وهي من لطائف علم البديع.

٣ - الجناس الناقص بين ﴿تَقْهَرْ﴾ و ﴿تَنْهَرْ﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين.

٤ - السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم في عقد كريم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الضحى»

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٠).
(٢) تفسير الجلالين (٤/ ٣٣٠).
(٣) تفسير الألوسي (٣٠/ ١٦٤).

بين يدي السورة

* سورة الانشراح مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك بشرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ .

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ .

* وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فآنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

* وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله بعد انتهائه من تبليغ الرسالة؛ شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجليلة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ .

التفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير أي قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان، ونور القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال ابن كثير: أي نورناه وجعلناه فسيحًا، رحيبًا، واسعًا، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا، سمحًا، سهلاً، لا حرج فيه ولا إصرٌ ولا ضيق[1] وقال أبو حيان: شرحُ الصدر: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وهو قول الجمهور، وقيل: هو شق جبريل لصدره في صغره وهو مرويٌّ عن ابن عباس[2] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل ﴿الَّذِي

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٢)

(٢) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٨٧) والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل - وهو يلعب مع الغلمان - فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه واستخرج منه علقة وقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طستٍ من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره المرضعة - فقالوا: إن محمدًا قد قُتل! فاستقبلوه وهو منتقع اللون. أخرجه مسلم قال أنس: وكنت أرى أثر المخيط في صدره .

أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك. قال المفسرون: المراد بالوزر: الأمور التي فعلها ﷺ، وَوَضْعُها عنه هو غفرانها له كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وليس المراد بالذنوب: المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وعبسه في وجه الأعمى.. ونحو ذلك، قال في التسهيل: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل، وهي صغائر مغفورة لهم؛ لهمِّهم بها وتحسرهم عليها، فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر «إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه»[1] والنقيضُ هو الصوتُ الذي يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي رفعنا شأنك، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة، وجعلنا اسمك مقرونًا باسمي، قال مجاهد: لا أُذكر إلا ذكرتَ معي، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وفي الحديث «أتاني جبريل فقال لي: يا محمد إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»[2] قال في البحر: قرن الله ذكر الرسول بذكره جل وعلا في كلمة الشهادة، والأذان والإقامة، والتشهد، والخطب، وفي غير موضع من القرآن، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به[3] كما قال حسان بن ثابت:

وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من إسمه ليُجله ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمد[4]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج، وبعد الشدة يكون المخرج قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده الله باليسر، كما عدَّد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيسًا له؛ لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، وكأن الله تعالى يقول: إنَّ الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليلة سينصرك عليهم، ويُظهر أمرك، ويبدل لك هذا العسر بيسرٍ قريب، ولذلك كرره مبالغة فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر، وفي الحديث «لن يغلب عسرٌ يسرين»[5] ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي فإذا فرغت يا محمد من دعوة الخلق، فاجتهد في عبادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعبْ نفسك في طلب الآخرة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي اجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية، قال ابن كثير: المعنى: إذا فرغت

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢٠٦).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٢).
(٣) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٨٨).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٢).
(٥) أخرجه الحاكم والبيهقي.

من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلصْ لربك النية والرغبة(١).

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . . .﴾ إلخ.

٢- الاستعارة التمثيلية ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ شبَّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣- التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسرًا كبيرًا.

٤- الجناس الناقص بين لفظ «اليسر» و «العسر».

٥- تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ويسمى هذا بالإطناب.

٦- السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ومثلها ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشراح»

تفسير سورة التين

بين يدي السورة

* سورة التين مكية، وهي تعالج موضعين بارزين هما:

الأول: تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

الثاني: موضوع الإيمان بالحساب والجزاء.

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله وهي «بيت المقدس» و «جبل الطور» و«مكة المكرمة» على أن الله تعالى كرَّم الإنسان، فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٣).

﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ ؟ وفيها تقرير للجزاء، وإثبات للمعاد.

اللغة: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾ المبارك ﴿تَقْوِيمٍ﴾ تعديل يقال: قوَّم العود أي عدَّله وجعله مستقيمًا، وقوَّمه الدهر جعله متزنًا حصيف الرأي والعقل ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع «الدِّين» الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى ومنه الحديث الشريف «كما تدين تُدان» أي كما تفعل تُجازى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ .

التفسير: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ هذا قسمٌ أي أُقسمُ بالتين والزيتون لبركتهما وعظيم منفعتهما، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت(١) وقال عكرمة: أقسم تعالى بمنابت التين والزيتون، فإن التين ينبتُ كثيرًا بدمشق، والزيتون ببيت المقدس(٢).. وهو الأظهر، ويدل عليه أن الله تعالى عطف عليه الأماكن «جبل الطور» و «البلد الأمين» فيكون قسمًا بالبقاع المقدسة التي شرَّفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي وأُقسم بالجبل المبارك الذي كلَّم الله عليه موسى وهو «طور سيناء» ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك، قال الخازن: سمي «سينين» و «سيناء» لحسنه ولكونه مباركًا، وكلُّ جبلٍ فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين وسيناء(٣) ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي وأُقسم بالبلد الأمين «مكة المكرمة» التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ !! قال الألوسي: هذه أقسام ببقاع مباركة شريفة، على ما ذهب إليه الكثيرون، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة - حماها الله - بلا خلاف، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويقال له: طور سيناء، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان: أحدهما بدمشق، والثاني ببيت المقدس، وعنى بالتين والزيتون منبتيهما، وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد، والغرض من القسم بتلك الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين(٤) وقال ابن كثير: ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محالٌ ثلاث، بعث الله في كلٍّ منها نبيًّا مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول: محلة التين والزيتون وهي «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام، والثاني: طور سينين وهو «طور سيناء» الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا، وهو الذي أرسل الله فيه محمدًا ﷺ، وقد ذكر

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١١٠).
(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٨٩).
(٣) تفسير الخازن (٤/ ٢٦٦).
(٤) روح المعاني (٣٠/ ١٧٣) بشيء من الإيجاز.

في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة «جاء اللهُ من طور سيناء - الجبل الذي كلم الله عليه موسى - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا ﷺ» فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما[(١)]، وجواب القسم هو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفًا بأجمل وأكمل الصفات، من حسن الصورة، وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مزينًا بالعلم والفهم، والعقل والتمييز، والنطق والأدب، قال مجاهد: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أحسن صورة، وأبدع خلق[(٢)] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين؛ لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه، حيث لم يشكر نعمة خلقنا له في أحسن صورة، ولم يستعمل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا، فلذلك سنرده إلى أسفل سافلين وهي جهنم، قال مجاهد والحسن: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أسفل دركات النار، وقال الضحاك: أي رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة[(٣)] قال الألوسي: والمتبادرُ من السياقِ الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها[(٤)] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي فلهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم، وهو الجنة دار المتقين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الإنسان، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين؟ فإن خلق الإنسان من نطفة، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة- من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين؟ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع، بأعدل العادلين حكمًا وقضاءً وفصلاً بين العباد؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي بإطلاق الحال وإرادة المحل ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ أراد موضعهما الشام وبيت المقدس على القول الراجح.

٢ - الطباق بين ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وبين ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

٤ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ ؟!

٥ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ؟

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٤).
(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٦).
(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١١٥).
(٤) تفسير الألوسي (٣٠/ ١٧٦).

٦ـ السجع المرصَّع «البلد الأمين . . أسفل سافلين . . أحكم الحاكمين» والله أعلم .

لطيفَة: ذكر الإمام القرطبي أن «عيسى الهاشمي» كان يحب زوجته حبًّا شديدًا، فقال لها يومًا، أنت طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسن من القمر!! فاحتجبت عنه وقالت: طلقتني، فحزن حزنًا شديدًا وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقت، إلا رجلاً واحدًا من أصحاب أبي حنيفة فقد بقي ساكتًا فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت!! وردها إلى زوجها .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»

❑ ❑ ❑

تفسير سورة العلق

بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى «سورة اقرأ» مكية وهي تعالج القضايا الآتية :

أولاً: موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

ثانيا: موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله .

ثالثًا: قصة الشقي «أبي جهل» ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة .

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم بإنزاله هذا القرآن «المعجزة الخالدة» وتذكيره بأول النعماء وهو يتعبد ربه بغار حراء، حيث تنزَّل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله، لا أن يجحد النعماء، وذكَّرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ .

* ثم تناولت قصة «أبي جهل» فرعون هذه الأمة، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدده، وينهاه عن الصلاة؛ انتصارًا للأوثان والأصنام ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الآيات .

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وطغيانه، كما أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ إلى ختام السورة ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ .

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم، وختمت بالصلاة والعبادة؛ ليقترن العلم بالعمل، ويتناسق البدء مع الختام .

اللُّغَة: ﴿عَلَقٍ﴾ جمع علقة وهي الدم الجامد، سميت علقة لأنها تعلق بالرحم ﴿لَنَسْفَعًا﴾ السَّفع: الجذب بشدة وقوة، قال أهل اللغة: سفعت بالشيء إِذا قبضتُ عليه وجذبته جذبًا شديدًا، وسفع بناصية فرسه جذبها، قال الشاعر:

قومٌ إذا كثر الصياح رأيتهم ... ما بين ملجم مهره أو سافع[1]

«الناصية» شعر مقدَّم الرأس ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ مأخوذ من الزَّبن وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه، قال الشاعر:

مطاعيم في القُصْوى، مطاعين في الوغى ... زبانيةٌ غلبٌ عظام حلومها[2]

روي أن أبا جهل اللعين قال لأصحابه يومًا: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ - يريد هل يصلي ويسجد أمامكم - قالوا: نعم، فقال: واللاَّت والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأنَّ على رقبته، ولأُعفرنَّ وجهه في التراب، فجاء يومًا فوجد رسول الله ﷺ يصلي، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقًا من نار، وهولاً وأجنحة!! فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عضوًا عضوًا» فأنزل الله ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ..﴾ إِلى آخر السورة[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

التَّفْسِير: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هذا أول خطاب إِلهي وجه إِلى النبي ﷺ وفيه دعوةٌ إِلى القراءة والكتابة والعلم؛ لأنه شعار دين الإِسلام أي اقرأ يا محمد القرآن مبتدئًا ومستعينًا باسم ربك الجليل، الذي خلق جميع المخلوقات، وأوجد جميع العوالم، ثم فسَّر الخلق تفخيمًا لشأن الإِنسان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي خلق هذا الإِنسان البديع الشكل، الذي هو أشرف المخلوقات من العلقة - وهي الدودة الصغيرة - وقد أثبت الطبُّ الحديث أن المنيَّ الذي خلق منه الإِنسان محتوٍ على حيواناتٍ وديدان صغيرة لا تُرى بالعين، وإِنما ترى بالمجهر الدقيق - الميكرسكوب - وأن لها رأسًا وذنبًا، فتبارك الله أحسن الخالقين[4] قال القرطبي: خصَّ الإِنسان بالذكر تشريفًا له، والعلقةُ قطعة من دمٍ رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمرُّ عليه[5]

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٩١). (٢) روح المعاني (٣٠/ ١٨٨).

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وانظر مختصر ابن كثير (٣/ ٦٥٨) والخازن (٤/ ٢٧٠).

(٤) اقرأ كتاب «الطب محرابٌ الإيمان» ج٢ ص ٥٣.

(٥) تفسير القرطبي (١٩/ ١١٩).

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم، وقد دلَّ على كمال كرمه أنه علَّم العباد ما لم يعلموا ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي الذي علَّم الخطَّ والكتابة بالقلم، وعلَّم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فكما علَّم سبحانه بواسطة الكتابة بالقلم، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب، قال القرطبي: نبَّه تعالى على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان، وما دُونت العلوم ولا قُيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتبُ الله المنزَّلة إلا بالكتابة، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين[١].. وهذه الآيات الخمس هي أول ما تنزَّل من القرآن، كما ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهو يتعبَّد بغار حراء، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ[٢].. إلخ، قال ابن كثير: أول شيء نزل من القرآن: هذه الآيات المباركات، وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به «آدم» على الملائكة[٣].. ثم أخبر تعالى عن سبب بطر الإنسان وطغيانه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ أي حقًّا إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان، واتباع هوى النفس، ويستكبر على ربه عز وجل ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أي من أجل أن رأى نفسه غنيًّا، وأصبح ذا ثروة ومال أشر وبطر، ثم توعَّده وتهدده بقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أي إنَّ إلى ربك - أيها الإنسانُ - المرجعُ والمصير فيجازيك على أعمالك، وفي الآية تهديدٌ وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طاغٍ متكبر، قال المفسرون: نزلت هذه الآيات إلى آخر السورة في «أبي جهل» بعد نزول صدر السورة بمدة طويلة، وذلك أن أبا جهل كان يطغى بكثرة ماله، ويبالغ في عداوة الرسول ﷺ والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٤] ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ تعجيبٌ من حال ذلك الشقي الفاجر أي أخبرني يا محمد عن حال ذلك المجرم الأثيم، الذي ينهى عبدًا من عباد الله عن الصلاة، ما أسخف عقله، وما أشنع فعله!! قال أبو السعود: هذه الآية تقبيحٌ وتشنيعٌ لحال الطاغي وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضي منها العجب[٥]، وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد ﷺ، وأن الذي نهاه هو

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٠).

(٢) أخرج الشيخان عن عائشة قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث - أي يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد...» الحديث.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٦).

(٤) انظر حاشية الصاوي (٤/ ٣٣٦) وتفسير القرطبي (١٩/ ١٢٣).

(٥) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٧٤).

اللعين «أبو جهل» حيث قال: لئن رأيتُ محمدًا يصلي لأطأن على عنقه [١] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰٓ﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلي - وهو النبي ﷺ - الذي تنهاه عن الصلاة صالحًا مهتديًا، على الطريقة المستقيمة في قوله وفعله!! ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ﴾ أي أو كان آمرًا بالإخلاص والتوحيد، داعيًا إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه [٢]!! فما أبلهك أيها الغبي الذي تنهى مَن هذه أوصافه: عبدٌ لله مطيعٌ مهتدٍ منيب، داعٍ إلى الهدى والرشاد؟! وما أعجب هذا! ثم عاد لخطاب الرسول ﷺ فقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أخبرني يا محمد إن كذَّب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي ألم يعلم ذلك الشقي أن الله مطَّلع على أحواله، مراقب لأفعاله، وسيجازيه عليها!! ويله ما أجهله وأغباه! ثم ردعه وزجره فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر «أبو جهل» عن غيه وضلاله، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول، ويكف عمَّا هو عليه من الكفر والضلال ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنأخذنه بناصيته - مقدم شعر الرأس - فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيها ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ، فاجرٌ، كثير الذنوب والإجرام، قال في التسهيل: ووصفها بالكذب والخطيئة مجازٌ، والكاذب الخاطئ في الحقيقة صاحبها، والخاطئ: الذي يفعل الذنب متعمدًا، والمخطئ: الذي يفعله بدون قصد [٣] ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي فليدع أهل ناديه وليستنصر بهم ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي سندعو خزنة جهنم: الملائكة الغلاظ الشداد، روي أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ له رسول الله ﷺ القول، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؟ والله إني لأكثر أهل الوادي ناديًا!! فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته [٤] ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ أي وواظب على سجودك وصلاتك، وتقرَّب بذلك، إلى ربك وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» [٥].

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

٢ - الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿عَلَقٍ﴾ .

---

(١) انظر سبب النزول المتقدم .

(٢) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي، وهو ضعيف .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢٠٩) .

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٧) .

(٥) رواه مسلم في صحيحه .

٣- طباق السلب ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

٤- الكناية ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا﴾ كنَّى بالعبد عن رسول الله ﷺ ولم يقل: ينهاك تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره.

٥- الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ؟ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ؟

٦- المجاز العقلي ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي كاذب صاحبها خاطئ فأسند الكذب إليها مجازًا.

٧- السجع المرصَّع مثل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق»

تفسير سورة القدر

بَين يَدي السُّورَة

* سورة القدر مكية، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور؛ لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية، والنفحات الربانية، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين؛ تكريمًا لنزول القرآن المبين، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلةٍ عظيمة القدر، هي خير عند الله من ألف شهر!!

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ .

التفسير: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف، قال المفسرون: سميت ليلة القدر لعظمها وقدرها وشرفها، والمرادُ بإنزال القرآن: إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله[1] ﷺ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف؟ قال الخازن: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال: أي

(١) انظر مختصر ابن كثير (٣/ ٦٥٩) والقرطبي (١٩/ ١٣٠).

شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها؟![1] ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه، فقال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خيرٌ من ألف شهر؛ لما اختصت به من شرف إنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون: العمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقد روي أن رجلاً لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ والمسلمون من ذلك، وتمنى رسول الله ﷺ لأمته فقال: يا رب جعلت أُمتي أقصر الأمم أعمارًا، وأقلها أعمالاً!! فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ليلةُ القدر خيرٌ لك ولأمتك من ألف شهر جاهد فيها ذلك الرجل[2] قال مجاهد: عملها وصيامها وقيامها خيرٌ من ألف شهر[3]، هذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تنزل الملائكةُ وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمرٍ قدَّره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها، والوجه الثالث قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر، تسلّم فيها الملائكة على المؤمنين، ولا يُقدّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات، زيادة في الاعتناء بشأنها، وتفخيمًا لأمرها.

٢- الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ذكر الخاص بعد العام ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة لينبه على جلالة قدره.

٣- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل «القدر، شهر، أمر، الفجر» وهو من المحسنات البديعية اللفظية، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القدر»

□ □ □
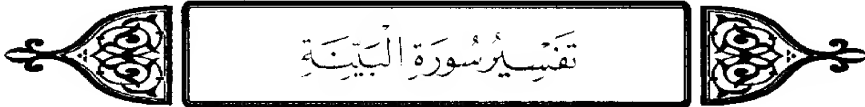
بَين يَدَي السُّورة

* سورة البيّنة وتسمى «سورة لم يكن» مدنية، وهي تعالج القضايا الآتية:

١- موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ.

٢- موضوع إخلاص العبادة لله جلّ وعلا.

٣- مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة.

---

(١) تفسير الخازن (٤/ ٢٧٥).
(٢) روي هذا عن ابن عباس ومجاهد.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٩).

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن «اليهود والنصارى» وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحقُّ وسطعت أنواره، وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته، وكفروا وعاندوا.

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان وهو «إخلاص العبادة» لله العلي الكبير، الذي أمر به جميع أهل الأديان، وإفراده جل وعلا بالذكر والقصد، والتوجه فى جميع الأقوال والأفعال والأعمال، خالصة وجه الكريم.

* كما تحدثت عن مصير أهل الإِجرام - شرِّ البرية - من كفرة أهل الكتاب والمشركين، وخلودهم في نار الجحيم، وعن مصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية - خير البرية - وخلودهم في جنات النعيم مع النبيّين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين؛ جزاء طاعتهم وإِخلاصهم لرب العالمين.

اللغَة: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منتهين زائلين، وأصلُ الفك: الفتحُ ومنه فكُّ الكتاب، وفكُّ الخلخال ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، والدلالة القاطعة ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ منزهة عن الباطل والشبهات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة عادلة ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق، وأصل الحنف: الميلُ ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الخلق، من قولهم: برأ اللهُ الخلق، ومنه البارئ أي الخالق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ④ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ⑤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ⑥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ⑦ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾

التفسير: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود، الذين كفروا بالله وبرسوله، ثم بيَّنهم بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب، ومن المشركين عبدة الأوثان والأصنام ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي منفصلين ومنتهين عما هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة [١]، وهي بعثة محمد ﷺ ولهذا فسَّرها بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي هذه البيّنة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا، لكنه معلومٌ إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها، فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين، فبيّن لهم ضلالتهم وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية، ودعاهم إلى الإِيمان فآمن منهم من آمن، واهتدى منهم من اهتدى، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة، ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه ﷺ إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين: المشركين وأهل الكتاب.

﴿مُطَهَّرَةً﴾ أي يقرأ عليهم صحفًا منزَّهة عن الباطل عن ظهر قلب؛ لأن النبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب؛ لأنه عليه السلام كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ[١] قال ابن عباس: ﴿مُطَهَّرَةً﴾ من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة، وقال قتادة: مطهَّرة عن الباطل[٢] ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي فيها أحكام قيمة لا عوج فيها، تبيّن الحق من الباطل، قال الصاوي: المراد بالصحف: القراطيس التي يكتب فيها القرآن، والمراد بالكتب: الأحكام المكتوبة فيها، وإنما قال: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة[٣] . . ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على صدق رسالته، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم، قال أبو السعود: والآية مسوقةٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة، وتغليظ جناياتهم، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتبيّن الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾[٤] وقال في التسهيل: أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق، وإنما خصَّ أهل الكتاب هنا بالذكر؛ لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته، بما يجدون في كتبهم من ذكره[٥] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي والحال أنهم ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده، مخلصين العبادة لله جلّ وعلا، ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم، دين الحنيفية السمحة، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس، قال الصاوي: وخصَّ الصلاة والزكاة لشرفهما[٦] ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة- هو دين الملة المستقيمة - دين الإسلام - فلماذا لا يدخلون فيه؟ ثم ذكر تعالى مآل كل من الأبرار والأشرار في دار الجزاء والقرار فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي إنَّ الذين كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد عليه السلام، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم، ماكثين فيها أبدًا لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق، قال

(١) تفسير القرطبي (٢٩/ ١٤٢) .
(٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .
(٣) حاشية الصاوي (٤/ ٣٤٢) .
(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٧٧) .
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢١٢) .
(٦) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٣٤٣) .

الإمام الفخر: فإن قيل: لمَ ذكر ﴿كَفَرُواْ﴾ بلفظ الفعل، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب: تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان، وإنكار الحشر والقيامة، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر أي شرٌّ من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشرٌّ من قطاع الطريق، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق[1].. ولما ذكر مقر الأشقياء، ذكر بعده مقر السعداء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله وبرأها ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم في الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي جنات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون منها، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي رضي الله عنهم بما قدموا في الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه، وانتهى عن معصية مولاه.

البَلاَغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإجمال ثم التفصيل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ثم فصلها بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

٢- الطباق بين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

٣- الاستعارة التصريحية ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ لفظة (مطهرة) فيها استعارة حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.

٤- المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ..﴾ الآية وبين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ..﴾ الآية.

٥- توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل «البيّنة، القيّمة، خير البرية، شر البرية» ونحو ذلك.

تنبيه: الإخلاص هو لبُّ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه».

وقد قسم العلماء الأعمال إلى ثلاثة أقسام: «مأمورات، ومنهيات ومباحات».

فأما المأمورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله، وإن كانت النية لغير وجه الله، فالعمل رياء محض مردود.

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٣١/ ٤٩).

وأما المنهيات فإن تركها بدون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها ابتغاء وجه الله كان مأجورًا على تركها.

وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإن فعلها بغير نية لم يكن له بها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة، ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البيّنة»

□ □ □

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة الزلزلة مدنية، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية؛ لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان، كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهبٍ وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد.

اللغَة: ﴿زُلْزِلَتِ﴾ حركت تحريكًا عنيفًا ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الموتى الذين في جوفها، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ قال الأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها[1] ﴿يَصْدُرُ﴾ ينصرف ويخرج، والصدور ضد الورود: فالوارد الآتي، والصادر المنصرف ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين، جمع شت يقال: ذهبوا أشتاتًا أي متفرقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

التفسِير: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حُركت الأرض تحريكًا عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، واهتزت بمن عليها اهتزازًا يقطع القلوب ويُفزع الألباب كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا

(١) التفسير الكبير (٣١/ ٥٨).

رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال المفسرون: إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تهويلاً كأنه يقول: الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها، وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحركًا متتابعًا، وتضطرب بمن عليها، ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل وشجر وبناءٍ وقلاع [١] ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها من الكنوز والموتى، قال ابن عباس: أخرجت موتاها، وقال منذر بن سعيد: أخرجت كنوزها وموتاها [٢] وفي الحديث «تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارقُ فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا» [٣] ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾؟ أي وقال الإنسان: ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفظت ما في بطنها؟! يقول ذلك دهشة وتعجبًا من تلك الحالة الفظيعة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب - يوم القيامة - تتحدث الأرض وتخبر بما عُمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها» [٤] وفي الحديث «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيرًا أو شرًّا إلا وهي مخبرة به» [٥] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن الله جلّت عظمته أمرها بذلك، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها، فهي تشكو العاصي وتشهد عليه، وتشكر المطيع وتثني عليه، والله على كل شيء قدير ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب، وينصرفون متفرقين فرقًا فرقًا، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أي فمن يفعل من الخير زنة ذرةٍ من التراب، يجده في صحيفته يوم القيامة ويلق جزاءه عليه، قال الكلبي: الذرةُ: أصغرُ النمل، وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكلُّ واحد مما لصق به من التراب ذرة [٦] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أي ومن يفعل من الشر زنة ذرةٍ من التراب، يجده كذلك ويلق جزاءه عليه، قال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يُغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [٧].

---

(١) انظر التسهيل (٤/ ٢١٣) والخازن (٤/ ٢٨٠). (٢) تفسير الألوسي (٣٠/ ٢٠٩).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. (٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(٥) أخرجه الطبراني في معجمه. (٦) التفسير الكبير (٣١/ ٦١).
(٧) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٥٠).

البَلاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:
١ - الإضافة للتهويل والتفظيع ﴿زِلْزَالَهَا﴾ .
٢ - الإظهار في مقام الإضمار ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لزيادة التقرير والتوكيد.
٣ - الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ ؟
٤ - جناس الاشتقاق «زلزلت.. زلزالها».
٥ - المقابلة بين ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ..﴾ وبين ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ .
٦ - السجع المرصَّع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل «زلزالها، أثقالها، أوحى لها، أخبارها، ما لها» وهو من المحسنات البديعية.

فَائِدَة: سمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..﴾ .. الجامعة الفاذَّة حين سئل عن زكاة الحُمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾» أخرجه البخاري.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»

□ □ □
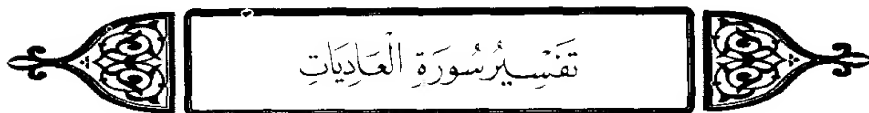
بَين يَدَي السُّورَة

* سورة العاديات مكية، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله، حين تُغِير على الأعداء، فيسمع لها عند عَدوها بسرعة صوتٌ شديد، وتقدح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار، وتثير التراب والغبار، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغُزاة - إظهارًا لشرفها وفضلها عند الله - على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه، جحودٌ لآلائه وفيوض نعمائه، وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه، وإنما ينفع العمل الصالح.

اللُّغَة: ﴿ضَبْحًا﴾ الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت، قال عنترة: والخيلُ تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحًا[1] «أثرن» هيَّجن ﴿نَقْعًا﴾ النقعُ: الغبار «كنود» كفور جحود لنعمة الله، من كند النعمة إذا كفرها ولم يشكرها، قال الشاعر:

---

(١) الألوسي (٣٠/ ٢١٥).

كنودٌ لنعماء الرجال ومن يكن كنودًا لنعماء الرجالِ يبعَّد[١]

﴿بُعْثِرَ﴾ أثير وقلب، من بعثرت المتاع إذا جعلت أسفله أعلاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾.

التفسير: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي أُقسمُ بخيل المجاهدين المسرعات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبحُ، قال ابن عباس: الخيل إذا عدت قالت: أُحْ، أُحْ فذلك ضبحها، قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبح ضبحًا وهو صوت أنفاسها عند عدوها[٢] ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس، قال الألوسي: هذا هو المعتادُ في الغارات، كانوا يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحًا ليروا ما يأتون وما يذرون[٣] ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العَدْوِ، في الموضع الذي أغرن به ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.. أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة؛ تعظيمًا للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تسرع على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها، وتُغير على الأعداء وقت الصباح، فتثير الغبار، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي إن الإنسان لجاحد لنعم ربه، شديد الكفران، قال ابن عباس: جاحدٌ لنعم الله، وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على كنوده، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي وإنه لشديد الحب للمال حريصٌ على جمعه، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيفٌ متقاعس.. ثم بعد أن عدَّد عليه قبائح أفعاله خوَّفه فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إذا أُثير ما في القبور وأُخرج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي وجمع وأبرز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يسرونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي إنَّ ربهم لعالم بجميع ما كانوا يصنعون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم - يوم القيامة - لأنه يوم الجزاء، بقصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

---

(١) القرطبي (٢٠/ ١٦٠).
(٢) أبو السعود (٥/ ٢٨٠).
(٣) روح المعاني (٣٠/ ٢١٥).
(٤) القرطبي (٢٠/ ١٦٠).

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ ـ التأكيد بإِنَّ واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

٢ ـ الجناس غير التام بين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿ضَبْحًا﴾ و ﴿صُبْحًا﴾.

٣ ـ الاستفهام الإِنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ؟

٤ ـ التضمين ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ ضمَّن لفظ «خبير» معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم.

٥ ـ توافق الفواصل مثل «شهيد، شديد» و «الصدور، القبور» إلخ. ويسمى «السجع المرصَّع» وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»
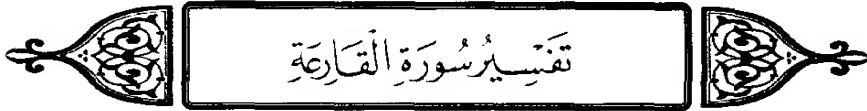
تفسير سورة القارعة

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة القارعة مكية، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم.

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث المتطاير في الهواء، بعد أن كانت صلبةً راسخة فوق الأرض، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهًا على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس، وانقسام الخلق إِلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها.

اللُّغَةُ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وأصلُ القرع الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقَرتهم الفاقرة، إِذا وقع بهم أمر فظيع ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر المتفرق «العهن» الصوف ذو الألوان أو المصبوغ «الهاوية» اسم لجهنم سميت بذلك لأنَّ الناس يهْوون بها أي يسقطون.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ .

التفسير: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي القيامة وأيُّ شيء هي القيامة؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال، ولا يبلغها وهمُ إنسان فهي أعظم من أن توصف أو تصوَّر، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي أيُّ شيء أعلمك ما شأن القارعة في هولها على النفوس؟ إنها لا تُفزع القلوب فحسب، بل تؤثِّر في الأجرام العظيمة، فتؤثر في السموات بالانشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدكّ والنسف، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار.. إلى غير ما هنالك، قال أبو السعود: سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع، ووضع الظاهر موضع الضمير ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تأكيدًا للتهويل، والمعنى: أيُّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ؟ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد[1] .. وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيء من أحوالها، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناسُ من قبورهم فزعين، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع والحيرة، قال الرازي: شبه تعالى الخلق وقت البعث هاهنا بالفراش المبثوث، وفي آية أُخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدلَّ على أنهم إذا بُعثوا فزعوا، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضًا، فكذلك الناس إذا بُعثوا يموج بعضُهم في بعض كالجراد والفراش كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾[2] ، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول أي وتصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير، تتفرق أجزاؤها وتتطاير في الجو، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف، قال الصاوي: وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهًا على أن تلك القارعة أثَّرت في الجبال العظيمة الصلبة، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب[3] !! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد فقال:

---

(١) أبو السعود (٥/ ٢٨١) . (٢) التفسير الكبير (٣١/ ٧٢) .
(٣) حاشية الصاوي (٤/ ٣٤٧) .

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي رجحت موازين حسناته، وزادت حسناتُه على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيش هنيءٍ رغيد سعيد، في جنان الخلد والنعيم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته، أو لم يكن له حسناتٌ يُعتدُّ بها ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوي في قعرها، سمَّاها أُمًّا لأن الأم مأوى الولد ومفزعه، فنار جهنم تؤوي هؤلاء المجرمين، كما يأوي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها، كما تضم الأم الأولاد إليها، قال أبو السعود: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء النار، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفًا[1] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾؟ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسَّرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة، قد خرجت عن الحد المعهود، فإن حرارة أي نارٍ إذا سُعرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم، أجارنا الله منها بفضله وكرمه.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾؟

٢- وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

٣- التشبيه المرسل المجمل ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، ومثله ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي في تطايرها وخفة سيرها فيسمى مرسلاً مجملاً.

٤ - المقابلة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ثم قابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥ - المجاز العقلي ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي راضٍ بها صاحبها، ففيه إسناد مجازي.

٦ - الاحتباك وهو أن يحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر فقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ حذف من الأول «فأمه الجنة» وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية «فهو في عيشة ساخطة» وذكر ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ فحذف من كلٍ نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية كذلك.

٧- توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو واضح في السورة الكريمة.

تَنْبِيهٌ: الجمهور على أن الميزان الحقيقي له كفتان ولسان، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة،

---

[1] تفسير أبي السعود (٥/ ٢٨٢)، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسًا، والأول أظهر.

وبالأعمال السيئة على صور قبيحة، فتوضع في الميزان، فمن رجحت حسناته سعد، ومن رجحت سيئاته شقي، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»

□ □ □

تفسير سورة التكاثر

بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور.

الموتُ يأتي بغتةً　　　والقبرُ صندوقُ العمل

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفًا للناس، وتنبيهًا لهم على خطئهم باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدَّم صالح الأعمال.

اللغة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ الإلهاء: الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى، وأصل اللهو الغفلةُ ثم شاع في كل شاغلٍ، قال الراغب: اللهو: ما يشغلك عما يعنى ويهمُّ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ القبور جمع مقبرة، والقبور جمع القبر، قال الشاعر:

أرى أهل القُصور إذا أُميتوا　　　بَنَوْا فوق المقابر بالصخور

أبوا إلاّ مباهاةً وفخرًا　　　على الفقراء حتى في القبور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

التفسير: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودفنتم في المقابر، والجملةُ خبرٌ يراد به الوعظ والتوبيخ، قال القرطبي: المعنى: شغلكم المباهاة بكثرة

المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودفنتم في المقابر[١] ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد أي سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعاينتم أهواله وشدائده، قال ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب[٢] ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي ارتدعوا وانزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[٣] الحديث، قال في التسهيل: وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ تقديره: لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة، وإنما حذف لقصد التهويل، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله[٤] كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانًا ويقينًا، قال الألوسي: هذا جواب قسم مضمر، أكد به الوعيد، وشدَّد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيمًا[٥] أي والله لترون الجحيم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية، قال في البحر: زاد التوكيد بقوله: ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ نفيًا لتوهم المجاز في الرؤية الأولى[٦] ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الوعظ والتوبيخ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ.

٢- التكرار للتهديد والإنذار ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول العظيم لعبده: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل، ولكونه أبلغ نُزّل منزلة المغايرة فعطف بـ(ثم).

٣- حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرءوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال.

---

(١) القرطبي (٢٠/ ١٦٨) وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموتُ، وزرتم المقابر وصرتم من أهلها.

(٢) القرطبي (٢٠/ ١٧٢).

(٣) جزء من حديث رواه البخاري.

(٤) التسهيل (٤/ ٢١٦).

(٥) الألوسي (٣٠/ ٢٢٥).

(٦) البحر المحيط (٨/ ٥٠٨).

٤- الإطناب بتكرار الفعل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ لبيان شدة الهول.
٥- الكناية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كنَّى عن الموت بزيارة القبور، والمراد: حتى مُتُّم.
٦- المطابقة بين «النعيم.. والجحيم».
٧- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

تَنْبِيهٌ: روى الترمذي عن عبد الله بن الشخِّير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيت»؟

لطيفَة: روى مسلم عن أبي هريرة قال: (خرج رسولُ الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال ﷺ: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة» قالا: الجوعُ يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما! فقوموا» فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني!! فانطلق فجاءهم بعذق - عنقود - فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا، وأخذ المدية - السكين - فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب!» فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذْق وشربوا، فلما شبعوا ورَوُوْا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»

❑ ❑ ❑
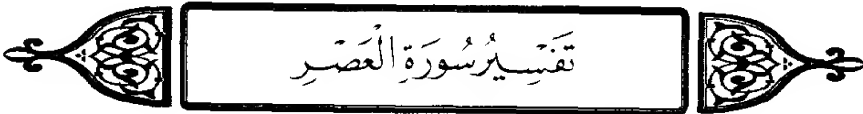
بين يدي السُّورَة

* سورة العصر مكية، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان؛ لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره.

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان، وما فيه من أصناف العجائب، والعِبَر الدالة على قدرة الله وحكمته، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي «الإيمان» و «العمل الصالح» و«التواصي بالحق» و «الاعتصام بالصبر» وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

التفسير: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أي أُقسُم بالدهر والزمان لما فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات، على أن الإِنسان في خسران؛ لأنه يفضِّل العاجلة على الآجلة، وتغلب عليه الأهواء والشهوات، قال ابن عباس: العصر: هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب، وقال قتادة: العصرُ: هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة، والعظة البالغة[1].. وإِنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإِنسان، فكل لحظةٍ تمضي فإِنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل:

إنا لنفرحُ بالأيام نقطعها ... وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

قال القرطبي: أقسم الله عز وجل بالعصر - وهو الدهر - لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع، وقيل: هو قسمٌ بصلاة العصر لأنها أفضل الصلوات[2] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإِيمان وصالح الأعمال، فهؤلاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضًا عن الشهوات العاجلات ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو الخير كله: من الإِيمان، والتصديق، وعبادة الرحمن ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات، وترك المحرمات.. حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإِيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فإِن نجاة الإِنسان لا تكون إلا إِذا كمَّل الإِنسان نفسه بالإِيمان والعمل الصالح، وكمَّل غيره بالنصح والإِرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- إطلاق البعض وإِرادة الكل ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء.

٢- التنكير للتعظيم ﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾ أي في خسرٍ عظيم ودمار شديد.

٣- الإِطناب بتكرار الفعل ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ لإِبراز كمال العناية به.

٤- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ بعد قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فإِن الصبر داخل في عموم الحق إلا أنه، افرده بالذكر إِشادة بفضيلة الصبر.

---

(١) البحر (٨/٥٠٩). (٢) القرطبي (٢٠/١٧٩).

٥ - السجع غير المتكلف مثل «العصر ، الصبر ، خسر» وهو من المحسنات البديعية .

تَنْبِيهٌ: أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» - وكانت له صحبة - قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

□ □ □

تفسير سورة الهُمَزَة

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة الهُمَزة مكية ، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس ، ويأكلون أعراضهم ، بالطعن والانتقاص والازدراء ، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء .

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال ، وتكديس الثروات ، كأنهم مخلدون في هذه الحياة ، يظنون - لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم - أن المال سيخلدهم في الدنيا .

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء ، حيث يدخلون نارًا لا تخمد أبدًا ، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر ؛ لأنها الحطمة نار سقر ! !

اللُّغَة: ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهمّاز : الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم ، وبناء «فُعلة» يدل على الاعتياد فلا يقال : لُعنة وضُحكة إلا للمكثر المعتاد ﴿لُّمَزَةٍ﴾ اللماز : الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطمه وتهشمه ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة مغلقة ، من أوصد الباب إذا أغلقه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ .

التَّفْسِير: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم ، أو يلمزهم سرًّا بعينه أو حاجبه ، قال المفسرون : نزلت السورة في «الأخنس بن شريق» لأنه كان كثير الوقيعة في الناس ، يلمزهم ويعيبهم مقبلين ومدبرين ، والحكم عامٌّ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي الذي

---

(١) انظر القرطبي (٢٠/ ١٨٣)، والرازي (٣١/ ٩١) .

جمع مالاً كثيرًا وأحصاه، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات، قال الطبري: أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حقَّ الله فيه ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه[١] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلدًا في الدنيا لايموت ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي ليرتدع عن هذا الظنّ فوالله ليطرحنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تفخيمٌ وتهويلٌ لشأنها أي وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب، ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي هي نار الله المسعَّرة بأمره تعالى وإرادته، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبدًا، وفي الحديث «أُوقد على النار ألفُ سنة حتى احمرت، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أُوقد عليها ألفُ سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء مظلمة»[٢] ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها، قال القرطبي: وخصَّ الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فهم إذًا أحياء في معنى الأموات[٣] ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي إن جهنم مطبقة مغلقةٌ عليهم، لا يدخل إليهم رَوْح ولا ريحان ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ أي وهم موثوقون في سلاسل وأغلال، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمد إيذانًا بالخلود إلى غير نهاية..

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ـ صيغة المبالغة «همزة، ولمزة» لأن بناء «فُعلة» يدل على أنها عادة مستمرة.

٢ـ التنكير للتفخيم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ أي مالاً كثيرًا لا يكاد يحصى.

٣ـ التفخيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ ؟ تهويلاً لشأن جهنم.

٤ـ الجناس غير التام بين ﴿هُمَزَةٍ﴾ و ﴿لُّمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص.

٥ـ توافق الفواصل مثل «عدده، أخلده، الموقدة، ممدَّدة» ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»
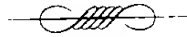
(١) تفسير الطبري (٣٠/ ١٨٩).

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، قال: والأصح أنه موقوف.

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٨٥).

تفسير سورة الفيل

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة «أصحاب الفيل» حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فردَّ الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل على جيش «أبرهة الأشرم» وجنوده أضعف مخلوقاته، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشدُّ فتكًا وتدميرًا من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية، وكان من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

اللغَة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعات جماعات بعضها في إثر بعض، قال الجوهري: وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال: جاءت إبلك أبابيل أي فرقًا وجماعات، قال الشاعر:

كادتْ تهدُّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[1]

﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر «عصف» ورق الزرع بعد الحصاد كالتبن وقشر الحنطة، سمي عصفًا لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

التفسِير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي ألم يبلغك يا محمد وتعلم علمًا يقينيًا كأنه مشاهد بالعين ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روي أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسةً بصنعاء وأراد أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلاً ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقارًا لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريبًا من مكة فرَّ أهلها إلى الجبال؛ خوفًا من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيورًا سودًا، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر في منقاره وحجران في رجليه، فرمتهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين[2] قال أبو السعود: وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٥١١).

(٢) انظر التفسير الكبير (٣١/ ٩٦) والقرطبي (٢٠/ ١٨٧).

يقال: «ألم تر ما فعل ربك» إلخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئةٍ عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام[1] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟! ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيرًا أتتهم جماعات، متتابعة بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلته ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثته، فأهلكهم عن بكْرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه، قال في البحر: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام؛ إرهاصًا بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول؛ من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[2].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ..﴾ الآية.

٢- الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تشريف للنبي العظيم، وإشادةٌ بقدرة الله تعالى.

٣- التشبيه المرسل المجمل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤- توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل «الفيل، تضليل، سجيل، أبابيل» إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»

---
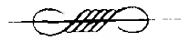
(١) أبو السعود (٥/ ٢٨٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥١٢).

تفسير سورة قريش

بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشًا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمةُ الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

التفسير: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ ومعنى «الإيلاف» الإلفُ والاعتياد يقال: ألف الرجل الأمر إلفًا وإلافًا؛ وآلفه غيره إيلافًا والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء؛ لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيرانُ بيت الله وسُكان حرمه، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، وردَّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليوحدوه ويشكروه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل، ربَّ هذا البيت العتيق، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة الجليلة التي خصَّهم بها، قال المفسرون: وإنما دخلت الفاء ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه من أجل إيلافهم الرحلتين، التي هي من أظهر نعمه عليهم؛ لأنهم في بلادٍ لا زرع فيها ولا ضرع، ولهذا قال بعده: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي هذا الإله الذي أطعمهم بعد شدة جوع، وآمنهم بعد شدة خوف، فقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد، ولا يُغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وذلك ببركة دعوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أفلا يجب على قريش أن يفردوا بالعبادة هذا الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟!

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «الشتاء.. والصيف» وبين الجوع والإطعام ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

٢ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾.

٣ - تقديم ما حقه التأخير ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ والأصل «ليعبدوا رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف» فقدَّم الإيلاف تذكيرًا بالنعمة.

٤ - التنكير في لفظة ﴿جُوعٍ﴾ ولفظة ﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شدتهما أي جوع شديد، وخوفٍ عظيم.

تَنْبِيهٌ: قال الإمام الفخر: اعلم أنَّ الإنعام على قسمين:

أحدهما: دفع ضر وهو ما ذكره في سورة الفيل.

والثاني: جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السورة.

ولما دفع الله عنهم الضر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ..﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»

□ □ □
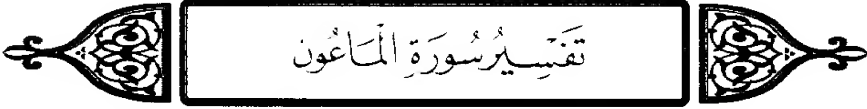
بين يدي السورة

* هذه السورة مكية، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما:

أ- الكافر الجاحد لنعم الله، المكذب بيوم الحساب والجزاء.

ب- المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله، بل يرائي في أعماله وصلاته.

* أما الفريق الأول: فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه غلظةً لا تأديبًا، ولا يفعلون الخير، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير، فلا هم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه.

* وأما الفريق الثاني: فهم المنافقون، الغافلون عن صلاتهم، الذين لا يؤدونها في أوقاتها، والذين يقومون بها «صورة» لا «معنى» المراءون بأعمالهم، وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك، وشنعت عليهم أعظم تشنيع، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع.

اللُّغَةُ: ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنفٍ وشدة يقال: دعَّه دعًّا أي دفعه دفعًا، ومنه ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، ﴿يَحُضُّ﴾ الحضُّ: الحثُّ والترغيب ﴿سَاهُونَ﴾ جمع ساهي يقال: سها عن كذا يسهو سهوًا إذا تركه عن غفلة ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ الشيء القليل، من المعن وهو القلة، تقول العرب:

«ما له معنة ولا سعنة» أي ما له قليل ولا كثير من المال، قال المبّرد والزجاج: الماعون: كل ما فيه منفعة كالفأس والقدر والدلو وغير ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ .

التفسير: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ؟ استفهام للتعجيب والتشويق أي هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة؟ هل عرفت من هو، وما هي أوصافه؟ إن أردت تعرفه ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحث على إطعام المسكين، قال أبو حيان: وفي قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يُطعم إذا قدر، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحضَّ غيره بخلاً، فلأن يترك هو ذلك فعلاً أولى وأحرى [١] وقال الرازي: فإن قيل: لـمَ قال ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولم يقل: ولا يُطعم المسكين؟ فالجواب: أنه إذا مَنع اليتيم حقه، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه؟ بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسة، ويدل على نهاية بخله، وقساوة قلبه، وخساسة طبعه [٢]، والحاصل: أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه؛ لأنه يكذّب بالقيامة، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للمصلين المنافقين، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم، يؤخرونها عن أوقاتها تهاونًا بها قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثوابًا، وإن تركها لم يخش عليها عقابًا [٣] وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها [٤]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها» [٥] قال المفسرون: لمَّا قال تعالى: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ بلفظة ﴿عَن﴾ عُلم أنها في المنافقين، ولهذا قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: «في صلاتهم» لأنه لو قال: «في صلاتهم» لكانت في المؤمنين، والمؤمنُ قد يسهو في صلاته، والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق سهو تركٍ وقلة التفات إليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولاً عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو، فظهر الفارق بين السهوين، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي يصلون أمام الناس رياءً ليقال: إنهم صلحاء، ويتخشعون ليقال: إنهم أتقياء، ويتصدقون ليقال: إنهم كرماء، وهكذا سائر أعمالهم

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٥١٧) .
(٢) التفسير الكبير (٣١/ ١٦٢) .
(٣) القرطبي (٢٠/ ٢١١) .
(٤) نفس المرجع السابق .
(٥) أخرجه ابن جرير .

للشهرة والرياء ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة، من كل ما يستعان به كالإبرة، والفأس، والقدر، والملح، والماء وغيرها، قال مجاهد: الماعون: العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية ،وقال الطبري: أي يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته[1].. وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها نهاية البخل وهو مُخِلٌّ بالمروءة.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ؟

٢ - الإيجاز بالحذف ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ حذف منه الشرط أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم، وهذا من أساليب البلاغة.

٣ - الذم والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير «فويل لهم» زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

٤ - الجناس الناقص ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ .

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل «ساهون، يراءون، الماعون» إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الماعون»

□ □ □

تفسير سورة الكوثر
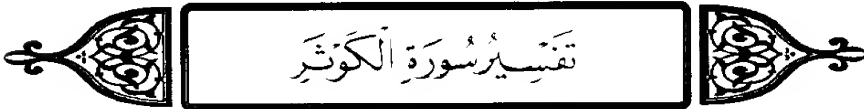
بَين يَدَي السُّورَة

* سورة الكوثر مكية، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها «نهر الكوثر» وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدي شكرًا لله.

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذِكْرُ الرسول مرفوعٌ على المناور والمنابر، واسمه الشريف على كل لسان، خالدٌ إلى آخر الدهر والزمان.

اللُّغَةُ: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد، والقدْر والخطر كَوثرًا: قال الشاعر:

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٠٣).

وأنت كثيرٌ يابن مروان طيّبٌ   وكان أبوك ابنُ العقائل كوثرا[١]

«انحر» النحر خاصٌ بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شَانِئَكَ﴾ الشانئ: المبغض، من الشنآن بمعنى العداوة والبغض، ومنه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي بغضهم ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير، من البتر وهو القطعُ، يقال: بترتُ الشيء بترًا قطعته، والسيف الباترُ: القاطعُ، ويقال للذي لا نسل له: أبتر؛ لأنه انقطع نسبه، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي الكريم ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

التفسير: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريمًا لمقامه الرفيع وتشريفًا أي نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير «نهر الكوثر» وهو كما ثبت في الصحيح «نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدُّر والياقوت، تربتُه أطيبُ من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا»[٢] عن أنس قال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذْ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه مبتسمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أُنزلت عليَّ آنفًا» سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ..﴾ السورة ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل، فيه خيرٌ كثير، هو حوضٌ ترد عليه أُمتي يوم القيامة، آنيتُه عدد النجوم، فيختلج العبد - أي ينتزع ويقتطع منهم فأقول: إنه من أمتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[٣] قال أبو حيان: وذكر في الكوثر ستةٌ وعشرون قولاً، والصحيحُ هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال: «هو نهرٌ في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربتُه أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل» وعن ابن عباس: الكوثرُ: الخير الكثير[٤] ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي فصلِّ لربك الذي أفاض ما أفاض عليك من الخير خالصًا لوجهه الكريم، وانحر الإبل التي هي خيار أموال العرب شكرًا له على ما أولاك ربك من الخيرات والكرامات، قال في التسهيل: كان المشركون يصلون مكاءً وتصدية، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه ﷺ: صلِّ لربك وحده، وانحر لوجهه لا لغيره، فيكون ذلك أمرًا

(١) القرطبي (٢٠/ ٢١٦).
(٢) رواه الترمذي.
(٣) أخرجه مسلم والترمذي.
(٤) البحر (٨/ ٥١٩) وما ذهب إليه ابن عباس من أنه الخير الكثير جامع لأقوال المفسرين، فقد أُعطي الرسول ﷺ الفضائل الكثيرة العميمة، أعطي النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوحات.. إلى غير ما هنالك من الخيرات صلوات الله وسلامه عليه.

بالتوحيد والإخلاص ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد هو المنقطع عن كل خير، قال المفسرون: لما مات «القاسم» ابن النبي ﷺ قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجلٌ أبتر لا عقب له - أي لا نسل له - فإذا هلك انقطع ذكره!! فأنزل الله تعالى هذه السورة، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله - أي مقطوع عنها - ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مقرون بذكر الله تعالى، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك.

٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إِنَّآ﴾ لأن أصلها إنَّ ونحن.

٣ - صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك؛ لأن الوعد لما كان محققًا عبَّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع.

٤ - المبالغة في لفظة الكوثر.

٥ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

٦ - إفادة الحصر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

٧ - المطابقة بين أول السورة وآخرها بين «الكوثر والأبتر» فالكوثر: الخير الكثير، والأبتر: المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان منزل القرآن!!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»

تفسير سورة الكافرون

بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فنزلت السورة تقطع أطماع الكافرين، وتفصل النزاع بين الفريقين: أهل الإيمان، وعبدة الأوثان، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

التـفسير: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها، فأنا بريءٌ من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئًا، قال المفسرون: إن قريشًا طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئًا! فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه[1] وآذوه وآذوا أصحابه، وفي قوله: ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ونسبتهم إلى الكفر - وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك - دليلٌ على أنه محروسٌ من عند الله، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحقَّ وهو الله ربُّ العالمين، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن، وعبادة الهوى والأوثان!! ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبدًا ما عشتُ، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبده ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم، ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار، قال المفسرون: معنى الجملتين الأولتين: الاختلاف التام في المعبود، فإله المشركين الأوثان، وإله محمد الرحمن، ومعنى الجملتين الآخرتين: الاختلاف التام في العبادة، كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة.

البَلاَغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الخطاب بالوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة.

٢- طباق السلب ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فالأول نفيٌ والثاني إثبات.

٣- المقابلة بين كلٍّ من الجملتين الأوليين ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نفيٌ لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال وهو من المحسنات البديعية.

٤- توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٢٥٠). وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٥).

تفسير سورة النصر

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة النصر مدنية، وهي تتحدث عن «فتح مكة» الذي عزَّ به المسلمون، وانتشر الإِسلام في الجزيرة العربية، وتقلمت أظافر الشرك والضلال، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله، وارتفعت راية الإِسلام، واضمحلت ملة الأصنام، وكان الإِخبار بفتح مكة قبل وقوعه من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

التَّفسِير ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين، والمعنى: إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك، وفتح عليك مكة أم القرى، قال المفسرون: الإِخبارُ بفتح مكة قبل وقوعه إِخبارٌ بالغيب، فهو من أعلام النبوَّة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإِسلام جماعاتٍ جماعات من غير حرب ولا قتال، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائعة، قال ابن كثير: إنَّ أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرٌ للإِسلام[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فسبّح ربك وعظمه ملتبسًا بحمده على هذه النعم، واشكره على ما أولاك من النصر على الأعداء، وفتح البلاد، وإسلام العباد ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأُمتك ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١- ذكر الخاص بعد العام ﴿نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه «فتح مكة» تعظيمًا لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره.

٢- إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب.

٣- دين الله هو الإِسلام ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وأضافه إليه تشريفًا وتعظيمًا، كبيت الله وناقة الله.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨٧). وقال القرطبي: و «إذا» بمعنى قد أي قد جاء نصر الله؛ لأن نزولها بعد الفتح.

٤ ـ صيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لأن صيغة «فعال» للمبالغة.

تَنْبيهٌ: هذه السورة الكريمة فيها نعيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة «التوديع» وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي» وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ الآية فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يومًا[1].

وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟! فقال: إنه من علمتم!! فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم - قال: فما رأيت أنه دعاني إلا ليريهم - فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا بأن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذا تقول يابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ فقال عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تقول»[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»

□ □ □

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة المسد مكية، وتسمى سورة اللهب، وسورة تبَّتْ، وقد تحدثت عن هلاك «أبي لهب» عدوّ الله ورسوله، الذي كان شديد العداء لرسول الله ﷺ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته، ويصدَّ الناس عن الإيمان به، وقد توعدته السورة في الآخرة بنارٍ موقدة يصلاها ويشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك، واختصتها بلون من العذاب شديد، هو ما يكون حول عنقها من حبلٍ من ليفٍ تجذب به في النار؛ زيادة في التنكيل والدمار.

اللُّغَة: ﴿تَبَّتۡ﴾ هلكت، والتبابُ: الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ وقال الشاعر: «فتبًّا للذي صنعوا» ﴿ذَاتَ لَهَبٖ﴾ ذات اشتعال وتلهب ﴿جِيدِهَا﴾ عنقها، قال امرؤ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش[3]

---

(١) القرطبي (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) جمع الفوائد وأعذب الموارد (٢/ ٢٨٥).

(٣) القرطبي (٢٠/ ٢٤١).

﴿مَّسَدٍۭ﴾ ليف، قال الواحدي: المسد في كلام العرب: الفتل، يقال: مسد الحبل يمسده مسدًا إذا أجاد فتله، وكلُّ شيء فتل من الليف والخَوْص فهو مسد[١].

سَبَبُ النّزول:

أ - عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو الخبر، فاجتمعت قريش وجاء عمه «أبو لهب» فقالوا: ما وراءك؟ فقال ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدِّقي؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا قط، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد» فقال له أبو لهب: تبًّا لك يا محمد سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٢]... السورة.

ب - وعن طارق المحاربي قال: «بينا أنا بسوق ذي المجاز إذْ أنا بشاب حديث السن يقول: أيها الناس «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه - مؤخر القدم - ويقول: يا أيها الناس إنه كذابٌ فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمه «أبو لهب» بزعم أنه كذاب»[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

التَّفسِير: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أي هلكت يدا ذلك الشقي «أَبِى لَهَبٍ» وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاءٌ، والثاني إخبارٌ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك، قال المفسرون: التباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد: صاحبُها، على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العُزى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كلٌّ منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه وفي يدها فهْر - قطعة من الحجارة - فلما دنت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم تر إلاّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك يهجوني، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه!! ثم أنشدت تقول:

مُذَمَّمًا عصينا
وأمره أبينَا
ودينه قلينا

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٧٣). (٢) روح المعاني (٣٠/ ٢٦٠). (٣) القرطبي (٢٠/ ٢٣٦).

ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال: «ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني» وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون: مذممًا بدل «محمد» وكان يقول صلوات الله عليه: «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذممًا وأنا محمد»[1]؟! قال الخازن: فإن قلت: لم كناه وفي التكنية تشريف وتكرمة؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه كان مشتهرًا بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف، الثاني: أنه كان اسمه «عبد العزى» فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك - لأن العزَّى صنم فلم تضف العبودية إلى صنم - الثالث: أنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنارُ ذاتُ لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديرًا بأن يذكر بها[2] ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي لم يفده ماله الذي جمعه، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه، قال ابن عباس: «وَمَا كَسَبَ» من الأولاد، فإن ولد الرجل من كسبه.. روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي!! فنزلت[3] قال الألوسي: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء «عُتبة» و «معتب» و «عُتيبة» وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حنينًا والطائف، وأما «عُتيبة» فلم يسلم، وكانت «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رُقية» عند أخيه عُتبة، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد!! فطلقاهما ولما أراد «عُتيبة»- بالتصغير- الخروج إلى الشام مع أبيه قال: لآتينَّ محمدًا وأوذينَّه! فأتاه فقال: يا محمد إني كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى!! ثم تفل أمام النبي ﷺ وطلَّق ابنته «أم كلثوم» فغضب ﷺ ودعا عليه فقال: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» فافترسه الأسد، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن[4] ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل نارًا حامية، ذات اشتعال وتوقُّد عظيم، وهي نار جهنم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي وستدخل معه نار جهنم امرأته العوراء «أم جميل» التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقد بينهم نار العداوة والبغضاء، قال أبو السعود: كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ[5] لإيذائه، وقال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم[6] ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد فتل فتلاً شديدًا، تعذب به يوم القيامة، قال مجاهد: هو طوقٌ من حديد، وقال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعُزَّى

---

(١) انظر القرطبي (٢٠/ ٢٣٤) والألوسي (٣٠/ ٢٦٤).
(٢) تفسير الخازن (٤/ ٣١٧).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٩٠).
(٤) روح المعاني (٣٠/ ٢٦٢).
(٥) أبو السعود (٥/ ٢٩١).
(٦) الألوسي (٣٠/ ٢٦٣).

لأنفقنها في عداوة محمد!! فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار [١].

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب.

٢ - الجناس بين ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار.

٣- الكنية للتصغير والتحقير ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره، كأبي جهل.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر:

ولم يمش بين الحي بالحطب الرطب

٥ - النصب على الشتم والذم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي أخص بالذم حمالة الحطب.

٦ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

□ □ □

تفسير سورة الإخلاص

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة الإخلاص مكية، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردّت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

اللُّغَةَ: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات، قال الشاعر:

ألا بكَّر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد [٢]

﴿كُفُوًا﴾ الكُفُوءُ: النظير والشبيه، قال أبو عبيدة: يقال: كفُو، وكفء، وكفاء كلها بمعنى واحد وهو المِثْل والنظير.

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربَّك، أمن ذهبٍ هو، أم من فضة، أم من زبرجد، أم من ياقوت؟! فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ .. السورة.

(١) القرطبي (٢٠/ ٢٤٢).
(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

التَّفْسِير : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين : إن ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير : لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث «الأب، والابن، وروح القدس» ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة ؛ قال في التسهيل : واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له، ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة في حقه تعالى : الأول : أنه واحد لا ثاني معه فهو نفيٌ للعدد، والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له، كما تقول : فلان واحد في عصره أي لا نظير له، والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض، والمراد بالسورة نفي الشريك ردًّا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثيرًا جدًّا، وأوضحها أربعة براهين : الأول : قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ -وهذا دليل الخلق والإيجاد - فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحد منها شريكًا له، والثاني : قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ - وهو دليل الإحكام والإبداع - الثالث : قوله تعالى : ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ - وهو دليل القهر والغلبة -، الرابع : قوله تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ - وهو دليل التنازع والاستعلاء[1] ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناءه عن الخلق فقال : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام، يحتاج إليه الخلق وهو مستغنٍ عن العالمين، قال الألوسي : الصَّمد : السيدُ الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمدُ إليه - أي يلجأ إليه - الناسُ في حوائجهم وأمورهم[2] ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، منزَّه عن النقائص، قال المفسرون : في الآية ردٌّ على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود في قولهم : ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ والنصارى[3] في قولهم : ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وكمشركي العرب في زعمهم أن «الملائكة بنات الله» فردَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى أزلي قديم، ليس كمثله شيء، فلا يمكن أن يكون له ولد، ولأن الولد لا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢٢٣)، وقد ذكر في التسهيل هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة، وما ذكر بين المعترضين مثل : دليل الخلق والإيجاد، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامنا .

(٢) روح المعاني (٣٠/ ٢٧٣) .

(٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم «الأب، والابن، وروح القدس» وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

يكون إلا لمن له زوجة، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾؟!، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي ولم يولد من أبٍ ولا أمٍّ؛ لأن كل مولود حادث، والله تعالى قديم أزلي، فلا يصح أن يكون مولودًا ولا أن يكون له والد، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لا ابتداء لوجوده، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي وليس له جل وعلا مثيلٌ، ولا نظير، ولا شبيه أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قال ابن كثير: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريب يدانيه؟! تعالى وتقدَّس وتنزَّه، وفي الحديث القدسي «يقول الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد».

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١- ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿قُلْ هُوَ﴾ للتعظيم والتفخيم.

٢- تعريف الطرفين ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ لإفادة التخصيص.

٣- الجناس الناقص ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

٤- التجريد فإن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفي الكفء والولد، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الإيضاح والبيان.

٥- السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

لطيفَة: هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

فَائدَة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن»[1] قال العلماء: وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف، فإن علوم القرآن ثلاثة: «توحيد، وأحكام، وقصص» وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد، فهي ثلث القرآن بهذا

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعًا.

الاعتبار، وقيل: إِن ذلك في الثواب أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

تفسير سورة الفلق

بين يدي السورة

* سورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجئوا إِلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إِذا أظلم؛ لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إِحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوِّذ نفسه بهما.

اللغَة: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الفَلَق: الصبح، تقول العرب: هو أبين من فلق الصبح، والفِلْق (بالكسر) الداهية والأمر العجب، وأصله من فلقتُ الشيء أي شققته، فكل ما انفلق من شيء من حيوان، وحب، ونوى فهو فلق، ومنه «فالق الإِصباح» قال ذو الرمة: «حتى إِذا ما انجلى عن وجهه فلق» أي انجلى الصبح عن وجهه ﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق: الليل إِذا اشتد ظلامه، والغسق: أول ظلمة الليل، يقال: غسق الليل أي أظلم قال الشاعر:

إِنَّ هذا الليل قد غسقا ... واشتكيتُ الهمَّ والأرقا[1]

﴿وَقَبَ﴾ دخل بظلامه، والوقوب: الدخول ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ النفث: شبه النفخ دون تفلٍ بالريق، فإِذا كان معه ريق فهو التفل، قال عنترة:

فإِنْ يبرأ فلم أنفث عليه ... وإِن يُفْقد فحُقَّ له الفُقود[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ .

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي قل يا محمد: ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام، قال ابن عباس: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الصبحُ كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[3] وفي أمثال العرب: هو أبينُ من فلق الصبح، قال المفسرون: سبب تخصيص

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٤). (٢) القرطبي (٢٠/ ٢٥٧).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٩٤).

الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مؤذٍ خلقه الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل «الليلُ أخفى للويل» قال الرازي: وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل؛ لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارقُ والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث [1] ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن - أي ينفخن - فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال في البحر: وسبب نزول المعوذتين: قصة «لبيد بن الأعصم» الذي سحر رسول الله ﷺ في مشطٍ ومشاطة وجف - قشر الطلع - طلعةِ ذكر، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروزٍ بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال [2] ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له.

البَلَاغَةَ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين «فلق» و «خلق».

٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿شَرِّ﴾ مراتٍ في السورة ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ إلخ تنبيهًا على شناعة هذه الأوصاف.

٣ - ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالمذكور ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد.

٤ - جناس الاشتقاق بين ﴿حَاسِدٍ﴾ و ﴿حَسَدَ﴾.

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»

---
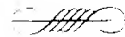
(١) التفسير الكبير للرازي (٣١/ ١٩٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٣٠).

تفسير سورة الناس

بين يدي السورة

* سورة الناس مكية، وهي ثاني المعوذتين، وفيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء: إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء.

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدئ بالفاتحة؛ ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال﴾ لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه من بداية الأمر إلى نهايته.

اللغة: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الشيطان الموسوس، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس، قال الأعشى:

تسمعُ لِلحَلْي وسْواسًا إذا انصرفت[1]

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي ويتأخر يقال: خنس الظبي إذا اختفى، وسمي الشيطان خناسًا لأنه يتوارى ويختفي إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له، والخنوس: التأخر، ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ (بكسر الجيم) الجنُّ جمع جني، (وبضم الجيم) الوقاية، وفي الحديث «الصوم جُنة»[2] أي وقاية من عذاب الله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي قل يا محمد: أعتصم وألتجئ وأستجير ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي بخالق الناس ومربيهم ومدبر شئونهم، الذي أحياهم وأوجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم، قال المفسرون: إنما خصَّ الناس بالذكر - وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق - تشريفًا وتكريمًا لهم، من حيث إنه تعالى سخَّر لهم ما في الكون، وأمدهم بالعقل والعلم، وأسجد لهم ملائكة قدسه، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين، ملكًا تامًّا شاملاً كاملاً، يحكمهم، ويضبط أعمالهم، ويدبّر شئونهم، فيعز ويذل، ويغني ويُفقر ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي معبودهم الذي لا ربَّ لهم سواه، قال القرطبي: وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكًا فذكر أنه ملكهم، وفي الناس

---

(١) القرطبي (٢٠/ ٢٦١).

(٢) جزء من حديث رواه الشيخان.

من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ويُلجأ إليه، دون الملوك والعظماء[١]، وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له ربًا؛ لما يشاهده من أنواع التربية «رب الناس» ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرفٌ في خلقه، غني عن خلقه فهو الملك لهم ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد؛ لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما كرر لفظ الناس ثلاثًا ولم يكتف بالضمير؛ لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، كما حسن التكرار في قول الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيء نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل «الربوبية» و «الملك» و«الإلهية» فهو ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له، فأُمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات[٢] ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس أي يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له، وفي الحديث «إن الشيطان واضع خطمه - أنفه - على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس»[٣] ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوساوس والأوهام قال القرطبي: ووسوستُه هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت[٤] ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ من بيانية أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعًا، ولا شك أن شياطين الإنس، أشدُّ فتكًا وخطرًا من شياطين الجن، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس يزين له الفواحش ويغريه بالمنكرات، ولا يثنيه عن عزمه شيء، والمعصوم من عصمه الله.

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وفي الآيتين بعدها.

٢ - الإطناب بتكرار الاسم «رب الناس، ملك الناس، إله الناس» زيادة في التعظيم لهم، والاعتناء بشأنهم، ولو قال «ملكهم، إلههم» لما كان لهم هذا الشأن العظيم.

٣ - الطباق بين ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ و ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق «يوسوس... والوسواس» ثم ما في السورة من الجرس الموسيقي، الذي يفضل الألحان بعذوبة البيان، وذلك من خصائص القرآن.

---

(١) القرطبي (٢٠/ ٦٦٠).
(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٩٦).
(٣) رواه الحافظ الموصلي.
(٤) القرطبي (٢٠/ ٢٦٣).

تَنبيهٌ: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثًا»[1].

يقول راجي عفو ربه الجليل: الشيخ محمد على الصابوني بن الشيخ جميل: إنه قد تمّ - بعون الله وتوفيقه - تفسير القرآن العظيم، في مهبط الوحي - مكة المكرمة - البلد الأمين. وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨هـ سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين، ونسأل الله حسن القبول، وأن يمنحنا التوفيق والسداد والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة
والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة
الملك عبد العزيز

(١) رواه أهل السنن.

الفهرس